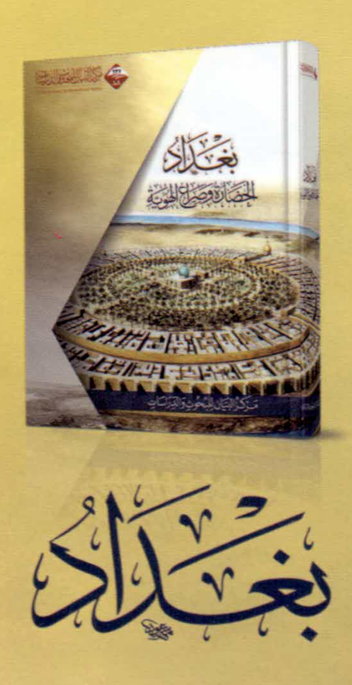


٢٣٧
مركز البيان للبحوث والدراسات
Al-Bayan Center for Research and Studies
بغداد
الحضارة وصراع الهوية
مركز البيان للبحوث والدراسات



بغداد

مدينة ولدت لتكون ملكة المدن، مبتغى الخلفاء، ومطمع القادة والأمراء، قبلة الفقهاء، ومهوى أفئدة العلماء، وأنيسة الأدباء والشعراء.

كُتبت عنها وفيها أسفار وأسفار، ولكن لا يزال هناك متسع للحديث عنها، من زاوية تجنب أكثر الكتاب الخوض فيها، ومن تكلم فعلى استحياء، ولطالما قطعت دونها الأعناق، ومنعت لأجلها أسباب الأرزاق، كما ولج فيها كثير من الأدعياء، الذين يجيدون فن الأباطيل وتضليل الأجيال، بقلب الحقائق وتزييف الوقائع وتزوير الوثائق، كل ذلك من أجل مسخ هويتها.

ولكنّ الحديث عن هوية بغداد، التي تعد بحق من أهم ما تكالب عليه الأعداء، وانقسم بشأنه الفرقاء، لا ينفصم عن الحديث عن تاريخ حضارتها، فهما يرتبطان معاً في علاقة جدلية، إذ اجتمع في بغداد المنصور «حضارة الهوية، وهوية الحضارة»، التي من أجلها جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض، وهنا مكمن قوتها، وسر بقائها وتألقها.

إنّ هوية بغداد تدخل في كل مفصل من مفاصل الحياة البغدادية، السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية، وفي كل معلم من معالمها الحضارية، العلمية والثقافية والأدبية والعمرانية، بل وحتى في هامش الحياة التي مرت بها، وهذا ما عالجته فصول هذه الدراسة منذ ولادة بغداد وحتى يومنا الحاضر، إذ تعيش فيه احتلالاً مزدوجاً (غربياً صفوياً)، يقابله للأسف تخلٍ مزدوج (عربي إسلامي).

وقد زينت هذه الدراسة بصور حديثة، وإحصائيات وخرائط حصرية.



الرياض ١١٤٩٦ ص.ب ٢٦٩٧٠
www.albayan.co.uk
sales@albayan.co.uk
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٥٤٦٨٦٨






بغداد
الحضارة وصراع الهوية





مركز البيان للبحوث والدراسات

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

ⓗ مجلة البيان، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان

بغداد الحضارة وصراع الهوية./ مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان، - الرياض، ١٤٣٨هـ

ص ٤٢٨؛ ٢١ × ٢٩ سم

ردمك: ٤ - ٠٦ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - بغداد - تاريخ

أ. العنوان

ديوي ٩٥٦،٧٢١   ١٤٣٨/١٣٠

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١٣٠

ردمك: ٤ - ٠٦ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

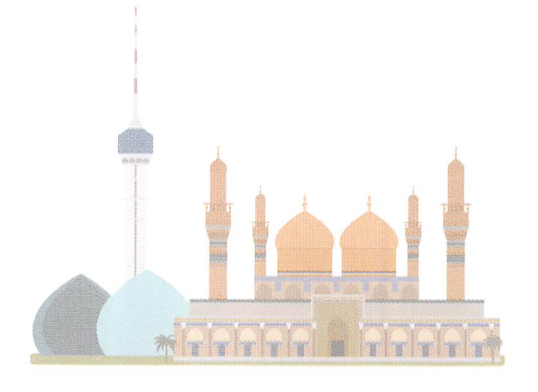
الإخراج الفني

صلاح الدين الحجري

طبعت في




بسم الله الرحمن الرحيم





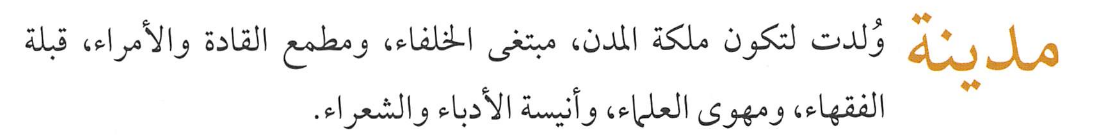
المقدمة



إن الحديث عن مدينة بغداد ذو شجون، فليس هو حديث عن مدينة كغيرها من المدن.

إنه حديث عن حضارة إنسانية موغلة في القدم، عميقة الجذور أصيلتها، وعن هوية أمة اجتمعت عندها الأمم فكانت في هذه الدنيا الرائدة الخالدة، ويوم التغابن عليها الشاهدة.





مدينة وُلدت لتكون ملكة المدن، مبتغى الخلفاء، ومطمع القادة والأمراء، قبلة الفقهاء، ومهوى العلماء، وأنيسة الأدباء والشعراء.

كُتبت عنها وفيها أسفار وأسفار، ولكن لا يزال هنالك متسع على ضيقه للحديث عنها، من زاويةٍ تجنَّب كثيرٌ من الكُتَّاب الخوض فيها، ومن تكلم فعلى استحياء، ولطالما قُطعت دونها الأعناق ومنعت لأجلها أسباب الأرزاق، كما ولج فيه من الأدعياء الذين يجيدون فن الأباطيل وتضليل الأجيال، بقلب الحقائق، وتزييف الوقائع، وتزوير الوثائق؛ كل ذلك من أجل مسخ هويتها.

نعم إنه الحديث عن هوية بغداد، الذي يُعدُّ بحق من أهم ما تكالب عليها الأعداء، وانقسم بشأنها الفرقاء، ولا يزال إلى اليوم يقدم أبناؤها الأصلاء قرابين الفداء، حتى لا يدنِّس طهرها عدو حاقد، يغيظه أن يتجدد تألق بغداد ومجدها، شامخة بتاج هويتها.

ولكن الحديث عن هوية بغداد لا ينفصم عن الحديث عن تاريخ حضارتها، فهما يرتبطان معًا في علاقة جدلية؛ إذ اجتمع في بغداد حضارة الهوية، وهوية الحضارة، التي من أجلها جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض، وهنا مكمن قوتها، وسر بقائها وتألقها.

وحينما كَلفنا كلاً من الدكتور عبد الرحمن الرواشدي والدكتور عثمان الأمين بالكتابة عن بغداد على غرار كتابنا «العرب السنة في العراق»، أدركنا صعوبة المهمة، لما استحضرناه من كثرة الأسفار المتنوعة والمتشعبة والمتناقضة التي كُتبت عن بغداد، كما أن الحديث عن الهوية، لا يعتمد النقل والجمع، بقدر التحليل والتركيب والتقويم والتنقية، وهي مراتب في التأليف لطالما غفلت عنها بعض كتب التاريخ التي تعتمد التوثيق والجمع فحسب، أو اعتمدتها، ولكن بقصد التشويه والتحريف، وهذه بدورها تتطلب جهدًا أكبر.

إن هوية بغداد تدخل في كل مفصل من مفاصل الحياة البغدادية الأصيلة، وفي كل معلم من معالمها الحضارية، بل حتى في هامش الحياة التي مرت بها، ولذا جاءت مادته منقسمة إلى تمهيد يتحدث عن ولادة بغداد عاصمة الدولة الإسلامية العباسية، وأربعة فصول، هي:



جامع الخلفاء



الفصل الأول: عرض فيه التاريخ السياسي والعسكري لمدينة بغداد.

والفصل الثاني: تم الحديث فيه عن المجتمع البغدادي والتحديات الاجتماعية، والجانب الاقتصادي والعمراني لمدينة بغداد.

وجاء **الفصل الثالث:** ليعالج الجانب الفكري والعلمي لبغداد.

وأما **الفصل الرابع:** فقد خُصِّص للحديث عن بغداد بعد عام ٢٠٠٣م.

وألحقنا الفصول بملاحق تتضمن بعض الجداول لإحصائيات تتعلق بمدينة بغداد في الماضي والحاضر، وخرائط حصرية ووثائق رسمية تبين عملية التغيير الديموغرافي في هويتها.

وزُينت صفحات هذا الكتاب بأكثر من ١٥٠ صورة التُقطت خصيصًا له، وأخرى لتوضيح بعض المعالم الأثرية والتاريخية.

نسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى.

مركز البيان للبحوث والدراسات





منارة جامع الحيدرخانة





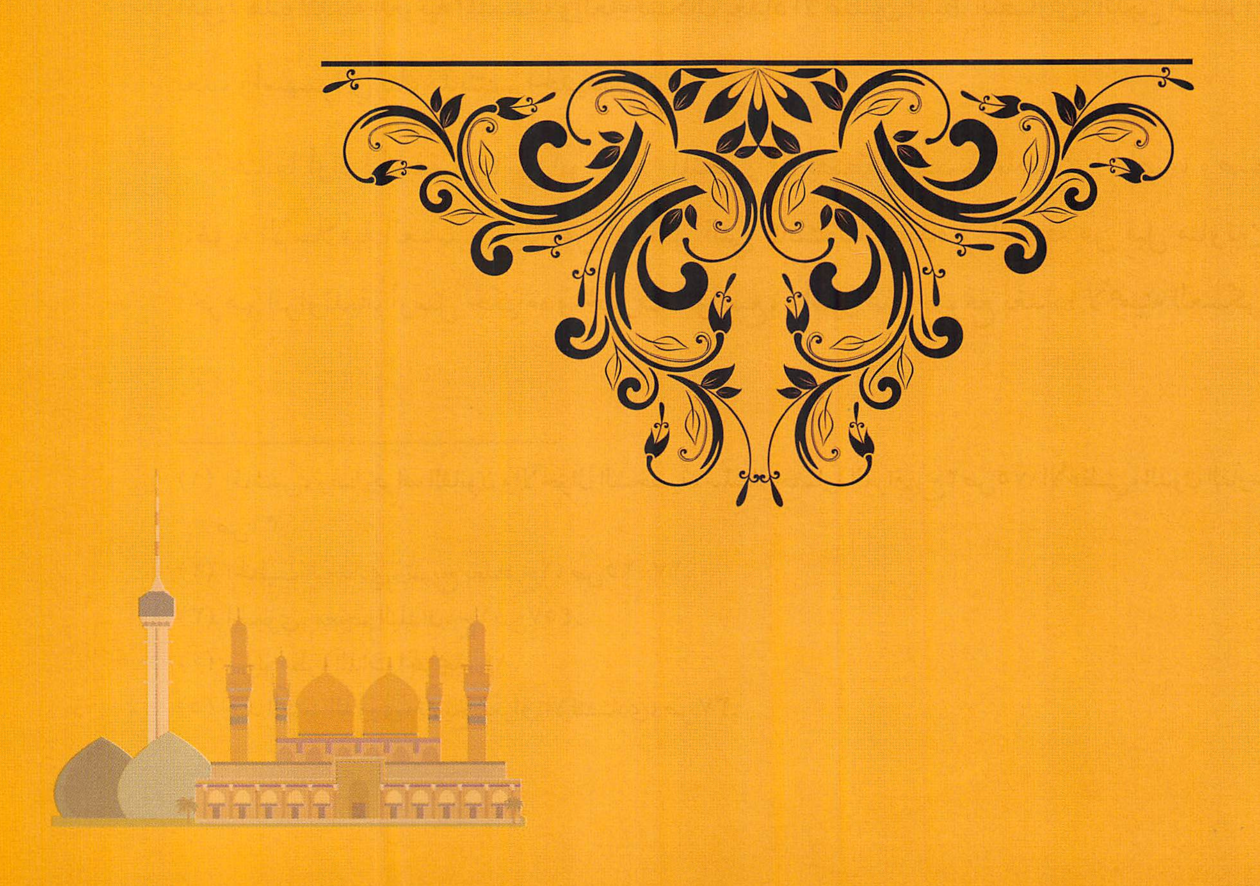
منارة جامع السهروردي

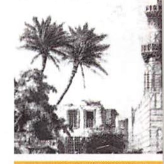


تمهيد: ولادة بغداد



يذكر الخطيب البغدادي: «أن مدينة المنصور موضع لمدينة قديمة اسمها بغداد، وتوسعت بسبب وفرة الغلال وديمومة جريان نهر دجلة».





عرفت مدينة بغداد بأهميتها الجغرافية والاقتصادية والسياسية منذ أقدم العصور، فلا يكاد يخلو موضع شبر في أرضها من أثرٍ لعمران يحكي قصة حقبة مضت، فيها اكتشفت أقدم قوانين الأرض قانون مملكة إشنونا في تل حرمل، الذي استعمله حمورابي كمادة أساسية في كتابة مسلته الشهيرة، واختارها السلوقيون مركزًا لملكهم، وبنوا في جزئها الجنوبي على نهر دجلة عاصمتهم سلوقيا، وعلى الضفة الأخرى بنى الأكاسرة عاصمتهم الصيفية طيزفون (المدائن)[١].

يذكر الخطيب البغدادي[٢]: «أن مدينة المنصور موضع لمدينة قديمة اسمها بغداد، وتوسعت بسبب وفرة الغلال وديمومة جريان نهر دجلة»؛ لأن المدن العراقية بصورة عامة كانت تُعرف بالمدن النهرية، فبغداد قلب دجلة، الأمر الذي أضاف إليها أهمية اقتصادية حتى عُرفت قبيل الفتح الإسلامي أنها سوق أسبوعي وشهري دولي للنبط وقبائل بكر بن وائل، وكلهم كانوا من العرب النصارى[٣]، لا كما يروِّج بعض الكُتَّاب بأنها سوق فارسي مهم.

ويعود سبب هذا اللبس إلى عدم استيعاب الكُتاب المعاصرين للفظة أعاجم، التي مُلئت به كتب التراث الإسلامي العربي، ففسَّروا هذه اللفظة (بالفرس)[٤]، فكانت أولى محاولات طمس الهوية لهذه المدينة العربية المسلمة، وإلغاء لسكان بغداد الأصليين النبط النصارى، الذين أسلموا فيما بعد، وأسهموا في بناء مدينتهم الجديدة بغداد[٥].

عندما أراد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أن يصطفي لنفسه عاصمته الخاصة، وصبغها بالهوية الإسلامية العباسية بعيدًا عن المشاكل التي كانت تُثار ضده في الكوفة مِن قِبل مناوئين له آخرهم الراوندية، أرسل حكماءه واختبرت المواضع، وأُشير عليه بموقع بغداد؛ لأهميته العسكرية،

(١) الهاشمي، رضا جواد، القانون والأحوال الشخصية، سلسلة حضارة العراق، ج٢ص٧٥؛ الأعظمي، الدول الفارسية، ص٣١.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج١، ص٢٥-٢٧.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ج١ص٤٥٧.

(٤) سليم مطر، الذات الجريحة، ٨٩.

(٥) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٣٧.



جامع أم القرى



المحصور بين نهري دجلة ونهر الصراة على الطرف الغربي لنهر دجلة[١] -منطقة العطيفية الحالية-، وهي كانت موضعًا لأربع قرى تعود لنصارى النبط.

ولما استشار المنصور أهلها، أشار عليه كبيرهم:- «وأنت يا أمير المؤمنين عندما نزلت في بغداد فإنك تصير بين نخيل وقرب ماء، فإن أجدبت جهة وتأخرت عمارتها كانت الثانية عامرة، وأنت يا أمير المؤمنين على نهر الصراة تجيئك الميرة من الغرب وطرائق الشام ومصر وتلك البلدان، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينيا وأذربيجان وما اتصل بهما حتى إلى الزاب، ومن الروم وآمد والجزيرة وديار بكر، وربيعة والموصل في دجلة، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك، وأنت بين دجلة والفرات، لا يجيئك أحد من الشرق أو الغرب إلا احتاج إلى العبور، وأنت متوسط البصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل»[٢].

وهذا وصف وافٍ لما تتميز به هذه المدينة، من أهمية عسكرية وجغرافية واقتصادية، فضلاً عنها سكانية، فهي بعيدة عن مركز القلاقل والفتن -الكوفة-.

فلما سمع المنصور ذلك الكلام من أهلها عهد إلى بعض رجاله بأن يبتدئوا في هذه القرى ومنها قرية (بغداد، والمخرم، وبستان القس، والعتيقة) لدراسة أحوالها، فلما انتهوا من مهمتهم، أجمعوا على أفضلية هذه عما سواها، فازداد المنصور تفاؤلاً بنجاح المشروع الذي أقدم عليه[٣]، فبدأ بوضع تخطيط للمدينة المدورة منذ عام ١٤١هـ، وبعد الانتهاء من المشاورات بشأن تصميم المدينة، خطت الأسس بالرماد، وكان المنصور ممن أسهم بالتخطيط بيده، ثم أوعز أن تنثر على خطوط الرماد بذور القطن وأمر بإشعالها، ووقف المنصور يتأمل من مكان مرتفع شكل المدينة، ثم أصدر أمره بالشروع، ووضع اللبنة الأولى بيده، وقال: «بسم الله، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، ابنوا على بركة الله»[٤]، فحُفرت أسس المدينة.

---

(١) القزويني، آثار البلاد، ص٣١٤؛ مصطفى جواد، دليل خارطة بغداد، ص٢٤٣.
(٢) الحموي، معجم البلدان، ج١ص٤٥٨؛ المقدسي أحسن التقاسيم، ص١١٩؛ مجلة المورد، مج٨ص٩-١٠.
(٣) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١ص١٧-١٨.
(٤) ابن الفقيه، البلدان والجغرافيا، ص٢٨٢؛ الحموي، معجم البلدان، ج١ص٤٥٨.

وكانت خطتها هي إدارة خندق واسع له مسناة محكمة وعدة أسوار حول المدينة، وقد جعل المنصور لتلك الأسوار أربعة أبواب متقابلة وضعت أسماؤها تبعًا لجهات الأقاليم فسمي الباب الشمالي الغربي (باب الشام)، والباب الجنوبي الغربي (باب الكوفة)، والباب الجنوبي الشرقي (باب البصرة) والشمالي الشرقي (باب خراسان أو باب الدولة)، وشيد على رأس كل باب قبة خُصِّصت لجلوس الخليفة، يرى من خلالها أحوال الناس والقادم من بعيد، قدر ارتفاعها بخمسة وعشرين مترًا وفيها أبواب تغلق لمنع الدخول إليها إلا الخاصة، أما عن ارتفاع أبواب المدينة فقد كان باستطاعة الراكب على فرسه وهو حامل لرمحه أن يدخلها من دون مضايقة، وجعل بين كل باب وباب (٢٨) برجًا أسطوانيًّا للدفاع عن المدينة إلا بين باب الكوفة والبصرة فقط كانت (٢٩) برجًا[١].

أما الخندق فقد بُنيت حوافه بالآجُر والجصّ، ويأتيه الماء من نهر كرخيا؛ ليكون أول عائق يمنع العدو من الوصول إلى مداخل السور الأول، وكان على القادم إلى بغداد أن يجتاز الخندق من خلال جسور مربوطة بسلاسل قبالة أبواب المدينة تنزل كل صباح، وترفع عند المساء، وكانت لا تنزل أبدًا في أوقات الطوارئ.

ويرى بعض المؤرخين أنّ بغداد سميت بالزوراء؛ لازورار أبوابها الأربعة؛ لأن الداخل إلى المدينة كان عليه أن يسير في دهليز معقود على يسار الباب الرئيس، قيل: إنّ في ذلك حكمة عسكرية، لم يكن يعرفها أحدٌ في العالم آنذاك، وهي ميزة فريدة لبغداد عن غيرها، وتكمن في أنّ هذا الازورار في البوابات يكسر حدة الهجوم إذا ما حاول جيش اختراق المدينة، وتجاوز بوابات السور الأول، وكذلك يجعل من جناح الجيش المقتحم الأيمن عرضة لسهام حماة السور الثاني الداخلي، خصوصًا إذا علمنا أن دهاليز السور الأول تفضي إلى باحة تفصل السور الأول عن الثاني، مقطعة إلى خانات تربط بينها أبواب تغلق عند الحاجة من أعلى السور[٢]، علمًا بأنّ أبواب السور الثاني لا تقابل أبواب السور الأول، وبذلك يكون على الجيش المقتحم أن يتيه في الباحة، ويتم تقطيع أوصاله بعد غلق بوابات الخانات فيكون من السهل القضاء عليه وهو رهين حبس خانات الباحة لا يستطيع أن يتلقى الأوامر من قائده ولا يستطيع الهجوم[٣].

(١) كي لسترنج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص٢٠-٢١.
(٢) أحمد سوسة، مصطفى جواد وآخرون، بغداد، ص١٩.
(٣) الطبري، التاريخ، ج٧ ص٦١٩.



أما عن حصانة أبواب المدينة فقد جُلبت لها الأبواب الضخمة من المناطق المجاورة لبغداد، وقد كانت الرتاج الواحدة منها لا يُغلق أو يُفتح إلا بجماعة من الرجال؛ لضخامته، وكان الفارس يدخل منه بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير أن يميل[(١)].

أما صفة الأبواب غير الرئيسة فقد كانت عبارة عن أسياخ حديدية عظيمة مدببة تنزلق إلى أعلى السور في مجرى البرجين الجانبيين أوقات السلم، مربوطة بسلاسل، وإذا ما داهم المدينة خطرٌ ما تُترك من أعلاها لتنزل فتغور في التراب لثقلها، ويعتبر السور الثاني هو الأكبر لحماية مدينة بغداد؛ فقد كان رجال حامية السور الثاني بإمكانهم مشاهدة العدو خلف السور الأول والخندق المائي، وقد اختلف المؤرخون في علوه بين (١٧) مترًا و (٣٥) مترًا، وهو الأرجح، وبُنِي باللبن والحجارة التي جُلبت من مدينتي بابل والمدائن[(٢)].

وقد زُوِّد السور الداخلي بمزاغل لضرب العدو وممرات مغيبة تسمح للجنود بالتجوال حول المدينة دون أن يراهم أحد، وقُدِّر عرضه من الأسفل بـ(١٠) أمتار، ثم يضيق في الأعلى فيصل إلى (٩,٥) متر، لتدعيم قوته العامودية، ويُعدُّ السور الثالث أضعف الأسوار الثلاثة وهو الفاصل الذي يفصل الأحياء السكنية عن الباحة مركز المدينة التي بها قصر الخلافة (قصر باب الذهب) والمسجد الجامع ودواوين الدولة[(٣)].

وقد قطعت الأحياء السكنية للمدينة بأربعة شوارع، تنتهي كلها بباحة المركز، وتتيح للساكنين من جميع أطراف المدينة الوصول إلى المركز وبنفس الوقت والمسافة من خلال الأبواب الأربعة الموجودة في السور الثالث[(٤)].

ويعلو قصر الخلافة قبة خضراء يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعًا (٤٠م)، وكانت تُرى من أطراف مدينة بغداد، وعلى رأسها تمثال فارس متحرك في يده رمح، يُرجَّح أنه لمعرفة الرياح، ويستطيع الخليفة من قصره أن يراقب حركة الشوارع الأربعة الرئيسة للمدينة، ويجاور قصر الخلافة في الرحبة الوسطى

(١) أحمد، العمارة الإسلامية، ص٢٠٠٢.
(٢) جودي، العمارة العربية، ص٥٩.
(٣) نويصر، الآثار الإسلامية، ص١٣٢.
(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٩ ص٢٣.

قصور أبناء الخليفة والمقربين[١].

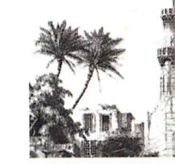
وبالعودة إلى وصف محلات المدينة السكنية الأربعة، فضلاً عن طرق المدينة الرئيسة التي تفصل تلك الأحياء لم يسمح المنصور لرجاله أن يبنوا دورهم ملاصقة للسور الكبير أو سور الرحبة المركزي، لهذا كان يلي السور الكبير حلقة عرضها ٢,٥ ياردة خالية من الأبنية لتكون طريقًا، وكذلك كان الأمر حول السور الثالث الصغير، وجُعل لكل شارع من شوارع الأحياء الأربعة الرئيسة أبوابٌ متينة قوية تُغلق عند الحاجة، وكان على جانبي الطرق الأربعة الرئيسة صفَّان من الطاقات تمثل سوقًا للمدينة، قبل أن ينقله المنصور خارج أسوار المدينة، ويجعله محلاً لسكن الجند والشرطة؛ لدواعي أمنية في عام ١٥٧هـ[٢].

وقد راعى المنصور في بناء الأسواق ترتيبًا تبعًا لأصناف حرفها، وعزل الأسواق التي تتعاطى بالحاجات ذات الروائح الكريهة أو التي تلوث البيئة أو التي تترك فضلات، وكانت المدينة تُكنَس كل يوم.

ومن المشاريع الخدمية أيضًا كان يتخلل المدينة قنوات معقودة، لتزويدها بمياه الشرب والغسيل، تُسحَب من فروع نهر دجلة خارج المدينة، وكانت تلك القنوات مبطَّنة بالصاروج المكون من النورة والرماد وغيره من المواد، وهو مقاوم لتأثيرات الماء، أما سقف القنوات فمعقودٌ بالآجر، وعلى غرار قنوات المياه ولإتمام تحصينات المدينة العسكرية، شقَّ المنصور[٣] في مدينته نفقًا بطول (١٢) كم، أو كما ورد في رواية أخرى بطول (١٨) كم يؤدي إلى خارج المدينة.

بدأ العمل ببناء مدينة بغداد عام ١٤٥هـ، وانتهى العمل منها عام ١٤٩هـ، واختلف المؤرخون في احتساب كلفة بنائها، بين أربعة ملايين وثمانية عشر مليون درهم بحسب اختلاف الرواة، وقد جمع المنصور من العمال والحرفيين لبناء مدينته قرابة مائة ألف نفس، ولم يلجأ إلى السخرة في بنائها[٤]، فقد كان يتقاضى الحرفي في عمله خمس حبات من الفضة وهو مبلغ يقل أو يقارب الدرهم الفضي، وللعامل ثلاث حبات فضة[٥]، الأمر الذي أطلق فيه المغرضون ألسنتهم؛ مما دفعنا إلى تفنيد بعض الادعاءات في بناء مدينة بغداد، منها:

(١) العش، تاريخ عصر الخلافة، ص٤١.
(٢) لسترنج، ص٣٣.
(٣) الحميري، الروض المعطار، ص٢٣٤.
(٤) الطبري، ج٧ص٤١٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١ ص٦٧.
(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨ ص٧٥.



أولاً: اتهام المنصور بالبخل وأن بغداد بُنيت بجهود أناس كان أقرب لمفهوم السخرة، وهذا يتضح من قله أجور العمل؛ الأمر الذي يفنِّده واقع تلك الحقبة الزمنية، وبعد التحقق من القيمة الشرائية للعملة العباسية آنذاك يتضح الآتي: (أن سعر الكبش كان يُباع بدرهم واحد، والحَمَل بأربعة دوانق، وكان سعر العسل كل عشرة أرطال بالدرهم الواحد، وكان كل ستين رطلاً من التمر بدرهم واحد، وكل عشرين رطلاً من الخبز بدرهم واحد، وكل تسعين رطلاً من لحم البقر بدرهم واحد)[١]، والحكم للقارئ.

ثانيًا: ادعى بعض المفكرين المعاصرين أن أسلوب المدخل المنحني لأبواب بغداد إنما هو أسلوب قديم استخدمه البيزنطيون أولاً، ويفنِّد هذا الادعاء أن المثال البيزنطي يرجع تاريخ بنائه بعد بناء مدينة بغداد المدورة بما يقرب من مائة عام، وقد أكَّد ذلك المستشرق كروزويل بعد دراسة كل النماذج العالمية التي قُورنت بأسبقيتها لبغداد، وتوصل إلى أنّ هذا الأسلوب المعماري العسكري لم يظهر لأول مرة إلا في بغداد، ثم اقتبسها الأوربيون بعد استخدام مصر والشام لها، ويؤكد ذلك بريجز بقوله: « ويدل أقصى مما نعرف الآن على أن أول ما استُعملت هذه المداخل الملتوية كان في مدينة بغداد المستديرة».

ثالثًا: يحاول بعض المستشرقين ومن تبعهم من المعاصرين المسلمين[٢]، إيجاد تفسيرات حول معنى كلمة بغداد، وأصل موضعها، وباختصار خلصوا إلى أن موضع بغداد هو قرية أو بستان قديم بناه بعض الساسانيين المتأخرين، وكان يُعقد بها سوق شهري يأتيه تجار الفرس والصين، وأن كلمة بغداد فارسية تتركب من (باغ) ومعناها بستان، و(داد) اسم لرجل أو صنم أو لرجل أصل اسمه داذويه[٣].

بينما يرى الدكتور يوسف فوزي خلاف ذلك؛ فقد ذكر الطبري (أن بغداد كانت سوقًا لقضاعة وبكر بن وائل)، ويذكر ابن الجوزي في مناقب بغداد (أنها كانت مزرعة للبغداديين، فعوَّضهم المنصور عنها)، وكان غير الناطقين بالعربية يُسَمَّوْن بالعجم، وقد شمل هذا المصطلح حتى أنباط العراق، وهم

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٤٥٩.

(٢) مثل كارل بروكلمان، وتبعه محمد عبده؛ فوزي، اسم بغداد ينظر، مقال د. يوسف فوزي، ملحق أسبوعي بجريدة المدى، العدد ٣٢١٧، ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٤٥٦.

عرب عراقيون، وتبعًا لرواية الطبري فهم من قضاعة وبكر بن وائل، أي: عرب أقحاح[(١)].

أما عن تسمية بغداد فيؤكد أهل الآثار، منهم (جاك ريسلر، ولسترانج) أن بغداد مدينة عريقة في القِدَم كانت تُعرف زمن البابليين ببغداد، ويظهر من الألواح المكتشفة حديثًا أن اسم بغداد ذُكر في لوح يعود لحقبة الملك حمورابي، أي إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وُجد في تل أبي حبة وردت باسم (بجدادا)، وورد اسم بغداد بلفظ (بغدادي) في لوح آخر يعود للأعوام ١٣٤١-١٣١٦ق-م، وفي لوح آخر يعود لسنة ٧٢٨ق- م تحت اسم (بغدادو)[(٢)].

ثم إن الاحتلال الفارسي الذي أسقط الدولة البابلية تبنَّى الآرامية السامية لغة للدولة، ويرى الباحث (أوجين منا) في معجمه الشهير (دليل الراغبين في لغة الآراميين) أن لفظة (باغ) آرامية أصيلة، وتعني (جنينة)، و(داد) معناها بالآرامي (الحبيب)، وتعني كلمة بغداد باللغة الآرامية، وهي لغة أنباط العراق (بستان الحبيب)، وقد فطن المنصور لهذا الأمر، وأسماها (بدار السلام)[(٣)]، أي (الجنة) خصوصًا إذا علمنا أن سكان قرى بغداد القديمة هم من العرب النصارى، وبذلك تكون لفظة بغداد لفظة عراقية سامية أصيلة لا دخل للفرس في تسميتها ولا تمصيرها.

ومن أسمائها أيضًا بعد تمصيرها الإسلامي (دار السلام، والزوراء، ومدينة المنصور المدورة، وبغداد).

توسع مدينة بغداد:

على إثر إنشاء العاصمة الجديدة، أقبل الناس على السكن في جوارها، واتسعت قرية الكرخ التي في جنوب المدينة المدورة، على الطرف الغربي لنهر دجلة، وصارت تُعرف باسم (محلة الكرخ)، وقد نقل المنصور في سنة ١٥٧هـ الأسواق من المدينة المدورة إلى باب الكرخ وباب الشعير والمحول، وهي محلات كرخية، وحدد فيها الأسواق كل صنف في موضعه، فكان لكل تجارة شوارع معلومة وحوانيت محددة، ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف في غير محله[(٤)]، وكل أهل

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٩ص٣٤؛ يوسف فوزي، ملحق جريدة المدى، العدد ٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.
(٢) يوسف فوزي، ملحق جريدة المدى، العدد ٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.
(٣) جواد، دليل خارطة بغداد المفصل، س٤٣؛ مجلة المورد، مج٨ ص٩.
(٤) القدسي، البدء والتاريخ ج٦ص٨٧؛ سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٩، المورد ص١٣.



صنف منفردون بتجارتهم، وبسبب هذا النشاط الاقتصادي اتسع النشاط العمراني، وظهرت محلات جديدة كبيرة في جانب الكرخ من بغداد، أمثال: محلة باب البصرة، ومحلة باب الكوفة، ومحلة الحربية، وباب التبن والزبيدية... إلخ[١].

أما في جانب الرصافة الطرف الشرقي لنهر دجلة: فقد عزم المنصور أن ينشئ محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد المدورة، وقد بدأ العمل فيها سنة ١٥٣هـ، وانتهى سنة ١٥٧هـ، وكانت مقرًّا لولي عهده (محمد المهدي) وجيشه، مفصولاً عن مقر الخلافة؛ ليكون مستعدًّا إذا ما حدث تمرد من هذه الجهة أو تلك، وقد سُميت هذه المحلة في بادئ الأمر (بعسكر المهدي)، ثم اشتهرت بالرصافة، وهي تسمية كانت تُطلق على الطرق المرتفعة هناك[٢].

وأول ما شيّد بها جامع الرصافة الكبير، ثم قصر المهدي بجوار الجامع، وأُقيمت الدور والقطائع حوله التي سكنها الجند والتجار والملاكين[٣]، ثم أخذ جانبا الكرخ والرصافة بالاتساع، وفقًا لمتطلبات العصر، منها مثلاً تعمير المقاطعات التي أقطعها المنصور لأعيان دولته لتخفيف الضغط عن مدينته المدورة، وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدهرت بالسكان، وأصبحت أحياء ومحلات تُعرف باسم مالكيها الأصليين، منها: قطيعة العباس بن محمد العباسي على نهر المصراة، وقطيعة الصحابة، وهي من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ومضر، وقطيعة الربيع بن يونس مولى المنصور، وكان بها التجار البزازون، وقطيعة صالح بن المنصور، وغيرها من القطائع[٤].

وعلى الرغم من اتساع هذه القطائع سكنيًّا بسبب زيادة إقبال الناس عليها، ظلت تحمل اسم أصحابها مثل العباسية والصالحية والحربية، ولما كثر الناس ضاقت عليهم الأسواق، فبنوا أسواقًا من أموالهم حتى اتسع الكرخ، وصار حي الكرخ القديم في وسط بغداد الغربية، بعد أن كان طرفها الجنوبي[٥].

---

(١) الدينوري، المعرف، ص٤٥٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣١ص٢٤٣.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٩.
(٣) اليعقوبي، البلدان، ص٤٨؛ جواد، بغداد، ص٢٤.
(٤) الطبري، التاريخ، ج٧ص٦٢٠؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٩ص٣٤٩؛ اليعقوبي، البلدان، ص٤٢.
(٥) اليعقوبي، البلدان، ص٢٣٦، الحموي معجم البلدان، ج٢ص٢٢٣.

أما ما يخص جانب الرصافة فبعد ما بنى المنصور جامعها وقصرها، وأجرى لها المياه وبنى لها سورها وخندقها، أقطع إخوته وقادته في الجانب الجديد من بغداد (الرصافة)، وهرع الناس في النزول بالرصافة لمحبتهم للمهدي؛ لاتساعه عليهم بالأعطيات والأموال، ولأن الرصافة أوسع الجانبين أرضًا؛ ولأن الناس سبقوا إلى الجانب الغربي (الكرخ)، ولم تلبث أن عمرت الرصافة بالأسواق ومنازل التجار والجند وسائر الناس، وبنيت القصور في ضواحي الرصافة؛ لأن الفكر السائد آنذاك أن المدن تُبنى لسكن الفئة المتوسطة والفقيرة والضواحي هي لسكن الذوات، وهذا أسهم في توسع الرصافة بشكل مضطرد؛ لأن الذوات كانوا يسكنون معهم خدمهم وجندهم وماشيتهم، وقد يبلغون الآلاف، فمثلاً سكن حول قصر المأمون حاشيته وخواصه حتى كان كالحي الكبير عُرف بعد توسعه بالمأمونية، وكذلك محلة دار دينار الكبرى ومحلة دار دينار الصغرى نسبة إلى سكن دينار بن عبدالله، من موالي الرشيد وجل قادة المأمون[1].

ومثلت محلة الأعظمية أولى محلات بغداد الرصافة تعميرًا؛ بسبب سكن الإمام أبي حنيفة النعمان فيها، فضلاً عن مقبرته التي دُفن فيها لفيف من الخلفاء والذوات[2].

ومن محلات بغداد الرصافة في طورها الأول: محلة دار الروم نسبة إلى أسرى الروم الذين أنزلهم المهدي فيها فشيدوا لهم فيها الدور، ومحلة الشماسية ومحلة باب الطاق، والطاق قسم من أقسام قصر لإحدى بنات المنصور[3].

وأخذت ناحية الرصافة بالتوسع حتى كانت في عهدها الأول من الحكم العباسي تضم أربعة آلاف درب وسكة، وفي أواخر القرن الثالث الهجري اتسعت ليبلغ بنيانها خارج سور المستعين بكيلو متر جنوبًا، ووُصفت بأنها بنفسها بلد، خصوصًا وأن سورها قد جد في إنجازه على هيئة نصف دائرة بعد عودة الخلفاء من سامراء إلى بغداد عام ٢٧٩هـ، ووضع له تسع أبواب، ومنها باب الغربة، وباب الخاصة، وباب النوبي، وباب العامة، وباب المراتب.

وبسبب استمرار توسع الجانب الشرقي لمدينة بغداد على الجانب الغربي، ونقل الخلفاء لمقر

(١) الصولي، أخبار الراضي والمقتفي، ١٣٩.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٧١.
(٣) سليمان، الفوز بالمراد، ص١٨.



حكمهم إلى الرصافة، أصبحت بغداد الرصافة في عهدها العباسي الأخير وكأنها أصل لمدينة بغداد.

وقام الخليفة المستظهر في سنة ٤٨٨هـ، بتوسيع سور المدينة ليبلغ من باب المعظم شمالاً إلى الباب الشرقي جنوبًا، ولم ينجز بناء السور إلا في عهد المسترشد ٥١٧هـ، وحفر حوله الخندق الذي يرتبط بنهر دجلة شمالاً وجنوبًا، وظل السور قائمًا حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري، أي: ما يقارب ثمانمائة سنة(١)، وقد جعل لهذا السور الجديد أربعة أبواب رئيسة(٢):

أولها: من الجهة الشمالية الباب المعظم:

ويُعدّ من الأبواب المهمة في تاريخ بغداد، يقع بين قاعة الشعب وجامع الأوزبكية الملاصق لوزارة الدفاع الحالية، وقد أزيل عام ١٩٢٣م؛ لتوسيع المدخل الرئيس للشارع لأهميته؛ كونه يمثل الجهة الشمالية لشارع الرشيد الحيوي(٣).

وقد حاز هذا الباب على أسماء عدة عبر الأزمنة السالفة مثل: الباب الشمالي لأنه يمثل الباب الشمالي لبغداد الرصافة، وباب المعظم وباب الأعظمية؛ لأنه بداية الطريق لمن يريد التوجه من بغداد صوب محلة الأعظمية، أو مرقد أبي حنيفة النعمان، وأطلق البغداديون على أبي حنيفة لقب الإمام الأعظم أو المعظم، وباب السلطان(٤)، وباب سوق السلطان؛ لأن السلطان السلجوقي محمد طغرل بك ضرب خيمته هناك عند دخوله بغداد عام ٤٤٧هـ، وطرد البويهيين، وسوق السلطان هي ساحة الميدان أو سوق الميدان اليوم، ومن هذا الباب دخل هولاكو إلى بغداد عام ٦٥٦هـ، ومنه دخل الشاه أو محمد قره يوسف بن القره قوينلو سنة ٨١٤هـ، ومنه دخل الجنرال ستانلي مود قائد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧م، ونرى أن السبب قد يعود إلى أن أكثر الدوائر الرسمية للدولة كانت تقع قرب هذا الباب، ومنها مقر القيادة العليا الذي عادةً ما يكون المستهدف الأول في الغارات الاقتحامية على المدن بصفة عامة(٥).

---

(١) المورد، ص١٥.
(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج٥ص١٥، وج٨ص٢٩٩، والعمري، تاريخ مقدرات، ص١٢٥.
(٣) سالم الآلوسي، مقال في جريدة المدى، عدد٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.
(٤) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٥ص١٢٨.
(٥) سالم الآلوسي، مقال في جريدة المدى، عدد٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.

الباب الثاني: من أبواب بغداد هو الباب الوسطاني:

وهو الوحيد الذي ظل قائماً إلى يومنا الحاضر، ويقع بالقرب من مقبرة الشيخ عمر السهروردي شرق منطقة باب الشيخ عمر، ومن أسمائه باب الظفرية [١] نسبة لبستان (ظفرا) من مماليك الخلفاء العباسيين، ثم ما لبث أن تحول إلى محلة سكنية بسبب التوسع السكاني، وعُرفت بمحلة الظفرية، وباب طريق خراسان كونه يقابل الطريق المار إلى شرق البلاد (خراسان) وما قبلها وما بعدها، والباب الوسطاني؛ لأنه يقع في منتصف السور بين شماله وجنوبه النصف بيضاوي، ويعتقد أنه من أبنية الخليفة المسترشد بالله ٥١٢هـ[٢].

وقد رُمِّم في عهد مدير الآثار الأستاذ ساطع الحصري عام ١٩٣٦م، وجعل منه متحفاً؛ دعماً للقطاع السياحي في العراق، ومما عرف فيه طوب أبو خزامة الشهير في التراث البغدادي (والمعروف بطوب- مدفع- السلطان مراد)[٣]، والباب اليوم مهمل وتحيط به الأوساخ دون سور يحميه.

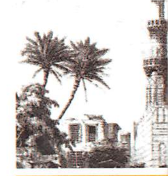
والباب الثالث: من أبواب سور بغداد الشرقية (الرصافة) باب الطلسم:

وهو من أحصن أبواب بغداد، اعتنى به الخليفة الناصر لدين الله ٥٧٥هـ، ورمَّمه وسبق تسميته بباب الطلسم عدة مسميات، منها: باب الحَلَبة؛ لأنه كان يقع قرب حلبة أو ميدان سباق الخيل وملعب الصولجان قبل بنائه [٤]، ثم عُرف بباب الفتح؛ لأن السلطان مراد دخل منه إلى بغداد فاتحاً ومحرراً بعد طرد الاحتلال الصفوي من المدينة، وقد أمر السلطان مراد بغلق الباب؛ لكي لا يدخل من بعده شخص إلى بغداد من خلاله[٥]، وبالفعل بقي هذا الباب مغلقًا بعد السلطان مراد لحين زوال الباب عام ١٩١٧م.

ومن أسمائه أيضًا الباب الأبيض كما ذكره المستشرق لسترنج، وأخيرًا عرف بباب الطلسم؛ لأنه رُسِمَ عليه صورة رجل وهو يمسك ثعبانين أو تنينين، فعدَّه أهل بغداد طلسماً كتب على الباب، وقد اتخذه العثمانيون مخزنًا للأسلحة، قبل أن يتم نسفه خشية وقوع هذه الأسلحة بيد الجيش البريطاني

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧ ص٣٠٩.
(٢) سالم الآلوسي، مقال في جريدة المدى، عدد٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.
(٣) العزاوي، بين احتلالين، ج٥ ص١٥.
(٤) ابن الوردي، التاريخ، ج٢ ص٦٤.
(٥) لونكريك، أربعة قرون، ص٩٨.



المحتل للبلاد فجر (١١/ ٣ / ١٩١٧م) اليوم الذي دخلت فيه القوات البريطانية المحتلة إلى بغداد، وقد حزن أهل بغداد على فقد هذا المعلم العباسي القديم[١].

وأما الباب الرابع: من الجهة الجنوبية، وهو الباب الشرقي:

ويقع في الجزء الجنوبي لسور مدينة بغداد الرصافة، وأطلق عليه الباب الشرقي مؤخرًا قبل مدة يقدرها المؤرخ والآثاري سالم الآلوسي ببداية القرن العشرين بقوله: «أما اسم الباب الشرقي فلم يظهر إلا على خارطة الضابط العراقي رشيد الخوجة باسم (شرجي قبو)، وذلك سنة ١٩٠٨م»[٢].

أما عن أسماء هذا الباب عبر التاريخ فقد سُمي أولاً بباب كلواذا[٣]، نسبة لمحلة كلواذا، والتي كانت أصلاً تسمى كذلك ومنذ أيام العهد البابلي، واللفظة سامية آرامية، ثم سُمي بباب البصلية نسبة لمحلة البصلية[٤] ومزارع البصل التي يؤدي الخارج من الباب إليها، وقد استُخدم هذا الباب لأغراض عدة، منها: حصن وباب من أبواب بغداد، وحامية للمدينة، ثم في زمن مدحت باشا ١٨٦٩م قام بإصلاح وترميم باب كلواذا، وجعله (الدباغ خانة) وهو مكان لدباغة الجلود المستخدمة في صناعة اللوازم العسكرية والحربية، وقد ورد ذكرها عند الأستاذ عباس العزاوي في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين « فتحت جادة خليل باشا بعرض ١٦ مترًا وفي مدة وجيزة، وتبدأ من الدبغخانه العسكرية إلى باب الأعظمية -المعظم-، وجرى افتتاحها يوم ٢٣/ ٧/ ١٩١٦م ».

وعندما احتل البريطانيون بغداد عام ١٩١٧م رمموا الباب الشرقي واتخذوه كنيسة لهم باسم كنيسة (سنت جورج)، وسميت أيضًا بالكنيسة الإنجليكانية، وكنيسة الحامية البريطانية، وفيها أقيم قداس للمس بيل عند وفاتها عام ١٩٢٦م، وتم تدمير هذا الباب في ١٣/ ٥/ ١٩٣٧م بأمر من أمانة بغداد تحت دعوى توسعة المدينة! وألغي هذا المَعْلَم الأثري العباسي من مدينة بغداد[٥].

---

(١) العمري، تاريخ مقدرات العراق، ج١ص١٢٥.
(٢) سالم الآلوسي، مقال في جريدة المدى، عدد٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.
(٣) الحموي، معجم البلدان، ج١ص٣٠٧.
(٤) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٤.
(٥) سالم الآلوسي، مقال في جريدة المدى، عدد٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.



منارات جامع الإمام الأعظم





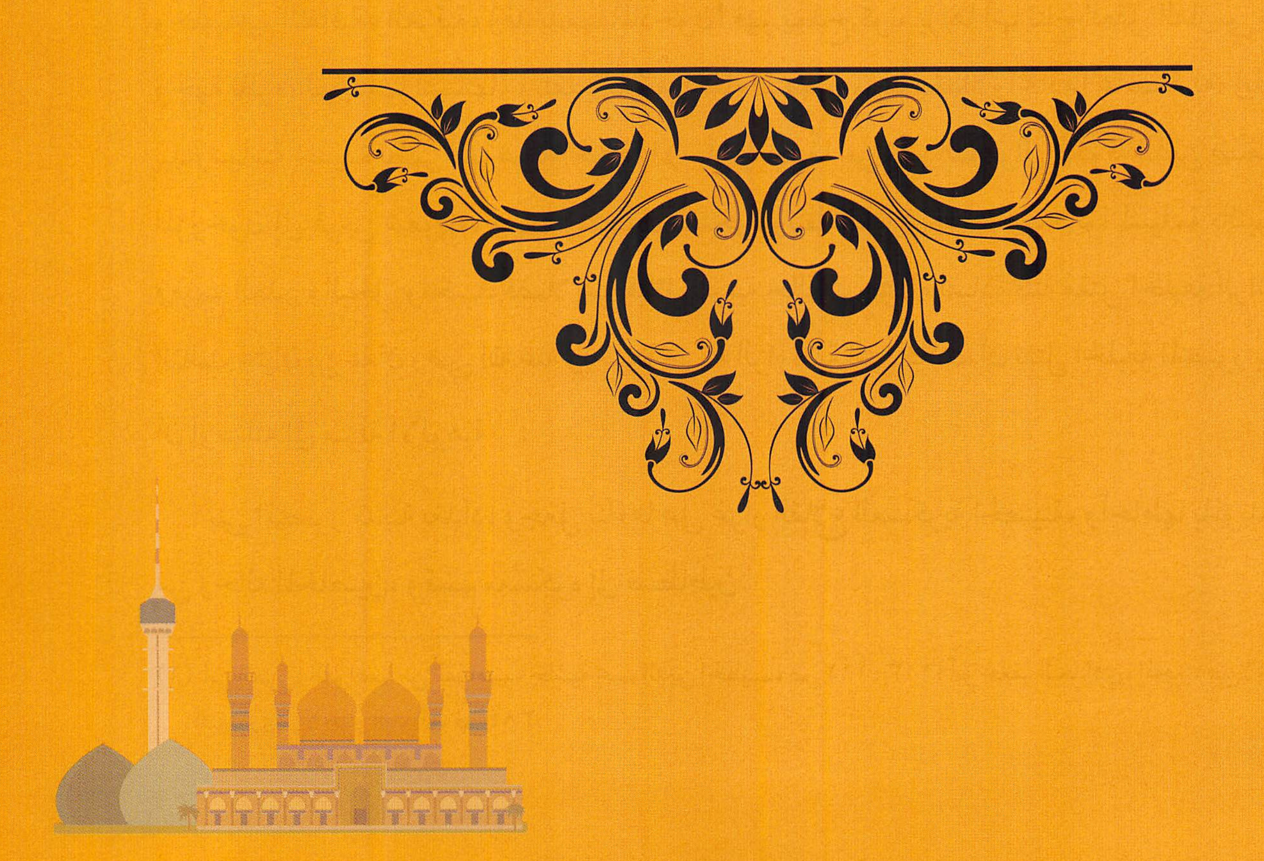
منارة جامع أم الطبول



الفصل الأول
التاريخ السياسي والعسكري لمدينة بغداد



يذكر الخطيب البغدادي: «أن مدينة المنصور موضع لمدينة قديمة اسمها بغداد، وتوسعت بسبب وفرة الغلال وديمومة جريان نهر دجلة».





إنّ من الأهمية البدء بالحديث عن الجانب السياسي والعسكري لمدينة بغداد، قبل الشروع في الحديث عن الجانب الحضاري والاجتماعي، والاقتصادي والعمراني؛ لتأثر هذه الجوانب كافة بالحالة السياسية للبلاد بين بسط وانكماش، وحرب وسلم، وقوة وضعف، واستقلال واحتلال.

تزامن تاريخ مدينة بغداد السياسي مع ولادتها كعاصمة للخلافة العباسية على يد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور منذ عام ١٤٥هـ، وتبوأها منصب العاصمة كان إيذانًا بتربعها على عرش الأحداث السياسية للخلافة العباسية وما بعدها، ولاسيما أنّ اختيار المنصور لها كعاصمة للدولة كان بسبب خلوها من معارضيه، فضلاً عن مميزاتها الاقتصادية والسكانية والجغرافية.

ولم يكن قيام الدولة العباسية بصورة سلمية تُسلم فيه السلطة من خليفة إلى آخر، أو انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين في إطار الجماعة الإسلامية، بل يُعد هذا الحدث تطورًا محوريًّا في خط سير الأمة الإسلامية؛ نتيجة للأحداث التي شهدها العالم الإسلامي خلال القرن الأول الهجري، ويعتبر تغيرًا جذريًّا في المجتمعات الإسلامية، وما نتج عنها من أحداث تلت.

وكغيرها من الدول وصفت الخلافة العباسية بأوصاف المدح والذم؛ تبعًا لمشارب واصفيها وخلفياتهم الثقافية والعرقية، وقد يذمها المادحون! فهو يمدح كونه يراها أنها نتاج العقل الفارسي من وجهة نظره، ثم يذمها لتسنُّنها، وبتقديرنا يُعدُّ إنشاء المنصور لمدينة بغداد واتخاذها عاصمة له، إيذانًا ببدء سياسة جديدة تظهر فيها هوية الخلافة الإسلامية بعيدًا عن تأثيرات موالي الكوفة الذين صنَّفهم المؤرخون إلى فرس شعوبية، ويهود يمتهنون السحر، ونبط نصارى، وأعراب دانوا لمسيلمة بالنبوة، وفيهم الغدر والبخل والخب، فضلاً عن قبائل عربية حالفت هؤلاء لقيادة فتنة مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وآخرها حركة الراوندية التي كادت أن تقتل الخليفة المنصور بعد أن أوصلته إلى منزلة الألوهية[1].

بنى المنصور مدينة بغداد، وجعل بناءها على غرار القلاع العسكرية الحصينة، وأحاطها بالمؤيدين من رجاله المخلصين، وقسَّم معسكره إلى فسطاطين:

---

(١) ابن العربي، العواصم من القواصم، حاشية محب الدين الخطيب، ص١١٢-١١٣؛ أبو جعفر البغدادي، المحبر، ص١٦١؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٨٤.



جامع أم الطبول



الأول: خص أهل خراسان وأوائل من حمل لواء بني العباس، علمًا أن مصطلح أهل خراسان لم يكن يعني في أغلب أحيانه العنصر الفارسي كما يصوَّر لنا، وكما سنبين ذلك في معرض حديثنا عن الجانب الاجتماعي، وأقطعهم الأراضي في الجانب الغربي لمدينة بغداد (الكرخ).

والثاني: فسطاط عسكر العرب، وهم مؤيدو الثورة العباسية، وقادتها من العنصر العربي من بلاد العراق والجزيرة وغيرها، وأقطعهم في الجانب الشرقي من مدينة بغداد (الرصافة)، وعرفوا بعسكر المهدي، وكان قادة المعسكرين يخطبون ودّ المنصور؛ خشيةَ أن يُوشَى بهم من المعسكر الثاني، ومثل ذلك بداية التوازن العسكري في العصر العباسي الأول، الذي كاد يخلو من التمردات الداخلية لأجهزة الخلافة العسكرية، وأمنت الجبهة الداخلية حتى عرف عهد المنصور بعهد التأسيس.

منذ السنة الأولى لوضع حجر الأساس لبناء مدينة بغداد نقل المنصور إليها دواوين الخلافة، وباشر عمله من هناك، بعيدًا عن تدخلات المعارضين، وبحجم تلك التدخلات يمكن تقسيم التاريخ العباسي إلى عصور عدة[(١)]، وهو تقسيم تقليدي يعتمده المؤرخون بين مكثر ومقل وهي عندنا كالآتي:

أولاً: عصر الحكم المركزي:

شهدت هذه الحقبة نشوء وتأسيس الحكم العباسي، وتميز في عمومه بالقوة وبالسلطة المركزية، وسيطرة الخلفاء على القرارات المهمة والمفصلية، وتبدأ منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور من عام ١٤٥هـ؛ كوننا نتحدث عن مدينة بغداد، وحتى نهاية حكم الخليفة المأمون عام ٢١٨هـ.

ثانيًا: عصر التسلط التركي:

وفيه تسلط عسكر الخلافة من الأتراك، وفقدت فيه بغداد أهميتها السياسية، وتحولت العاصمة إلى مدينة سامراء، ويمتد من حكم الخليفة المعتصم بالله عام ٢١٨هـ ولغاية عام ٣٣٤هـ زمن الخليفة المستكفي.

ثالثًا: عصر التسلط البويهي:

وفيه تسلط البويهيون من الفرس على الخلافة العباسية والقرار السياسي، ولم يبقَ للخليفة من منصبه إلا ألقاب الفخامة، مع تقليص في صلاحياته المالية، ويمتد هذا العهد طيلة فترة التسلط البويهي ٣٣٤ - ٤٤٧هـ.

---

(١) هدى، قصة وتاريخ الحضارة، ج٩-١٠ ص٥٣-٥٤، والمورد، ص١٥.

رابعًا: عصر التسلط السلجوقي:

وفيه تسلط السلاجقة ذوو الجنس التركي على القرار السياسي للخلافة العباسية، بين عامي ٤٤٧-٥٧٥هـ.

خامسًا: عصر الاحتضار وسقوط الخلافة العباسية:

وفيه حاول الخلفاء وبخطوات بطيئة إعادة الهيبة للخلافة العباسية، ولكنَّ تسارع الأحداث الإقليمية، وتجزؤ أوصال الخلافة إلى دويلات متصارعة فيما بينها، وظهور المد المغولي، الذي جرف كل تلك الصراعات الإقليمية، وتوحيدها ضمن الدولة الإيلخانية المغولية بعد إسقاط الخلافة العباسية، واحتلال بغداد عام ٦٥٦هـ.

المميزات العسكرية والسياسية للخلافة العباسية في بغداد:

١- صراع الولاءات:

قامت الخلافة العباسية نتيجة التخطيط السري الذي دام لسنوات عدة، متنقلاً بين الجزيرة العربية والكوفة والشام، حتى اختيرت البداية أن تكون من خراسان كونها كانت تعيش حالة نفور من الحكم الأموي، فالقبائل اليمانية أزعجتها سياسة الدولة الأموية في تقريب القيسية على اليمانية، والدهاقين الفرس أزعجهم مركزية السلطة الحاكمة، والقبائل التركية الذين لم يعتنقوا الإسلام أزعجهم حالة التبعية التي عاشتها طيلة الحكم الساساني والإسلامي وهي تنشد الاستقلال.

وإذا كانت بداية الثورة من خراسان، فمن الطبيعي أن يحصل كل من شارك فيها على مراكز كبيرة ومناصب عالية في الدولة، وقد تأثرت بغداد بتلك الصراعات الحاصلة بين تلك الولاءات على النفوذ السياسي والعسكري، وتقوية نفوذ بعضهم على بعض، وهذا ما يميز عصور التاريخ العباسي، وبحسب إمكانية الخلفاء في القدرة على خلق التوازن، فكلما ضعف مركز الخلافة كلما طغى طرف على آخر.

وعلى العموم شهد العصر الأول من العصور العباسية حكمًا مركزيًّا سيطر فيه الخلفاء على مركزية القرارات السياسية والعسكرية، فلم يتوانَ أبو جعفر المنصور في التنكيل بالجيل الأول من رجالات الثورة العباسية؛ لما حاولوا الاستئثار بالقرارات دون الرجوع إليه، فكما قضى على عمه عبدالله بن علي



لما حاول الانقلاب على الخلافة والاستئثار بها لنفسه، وهو العربي من آل العباس، قضى على أبي مسلم الخراساني لذات السبب وهو الفارسي كما يعتقد الكثيرون.

وبقي القرار السياسي مركزيًّا حتى عهد الخليفة هارون الرشيد الذي حاول فيه البرامكة وأصلهم من بلاد الأفغان الاستئثار بمقاليد الحكم، وتأييد الثورة الانقلابية التي قام بها يحيى بن عبدالله بن الحسن العلوي[١]، بعد أن نكث عهده مع الرشيد الذي ألزمه وبحضور رجالات البيت العلوي والفقهاء مقابل إطلاق سراحه، لكنه نكثه بإغواء البرامكة له، الذين سهَّلوا له عملية خروجه من بغداد إلى الجزيرة العربية، فكانت نكبة البرامكة.

أما عن الصراع الذي دار بين الأخوين الأمين والمأمون، فقد أسفر الصراع فيه عن قتل الخليفة الأمين، ومحاولة المأمون نقل العاصمة إلى مرو، وخلع لبس السواد شعار العباسيين واستبدله بالأخضر شعار البيت العلوي، وتولية علي الرضا العلوي ولاية العهد، مما ساء أهل بغداد، العاصمة العباسية الهوى، فثار أهلها وخلعوا المأمون، ونصبوا مكانه إبراهيم بن المهدي عم المأمون، ولم تهدأ ثورتهم حتى عودة المأمون إلى بغداد، بعد طرده لآل سهل الفرس من حكم بغداد[٢]، وعودة شعار السواد العباسي، وتولية المعتصم ولاية العهد من بعده.

إنّ إدارة بغداد لهكذا صراعات لم يأتِ عفويًّا، بل فطن الخلفاء الأوائل لما يمكن لبغداد أن تلعبه من أدوار إيجابية في حماية الأسرة العباسية في صراع العرقيات، فعمدوا إلى إسكانها بالعنصر العربي، وجَعْل حدودها مفتوحة للقبائل العربية للسكن فيها، ومنها استجلاب الخليفة المهدي لخمسمائة أسرة من الأنصار من المدينة المنورة، وأسكنهم بغداد، ويتضح مما تقدم أن دور بغداد المحوري في تصحيح مسار الخلافة العباسية كان مصدر قوة لحكمهم، لكن شهد عهد المعتصم تحولاً خطيرًا في مكانة بغداد ودور أهلها السياسي، حتى صار سببًا في ضعف الخلافة العباسية في العصور اللاحقة إلى نهاية العصر السلجوقي، حينها قام الخلفاء بمحاولة يائسة لإعطاء بغداد دورها القيادي، لكن سبق السيف العقل.

وبالعودة إلى حكم الخليفة المعتصم؛ فقد تميز عمن سبقه من الخلفاء بالقوة؛ لأنه كان عسكريًّا من الطراز الأول، قرَّب إليه شجعان الجند، وكان جلهم من الترك بعد أن جعل المؤسسة العسكرية

---

(١) مطر، الذات الجريحة، ص١٠٠.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص٤٧٠.

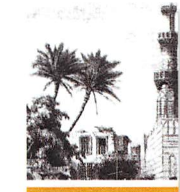


مستقلة، لا كما كانت في أيام من سبقه؛ حيث كان يستدعى الجند من الأهالي حال الحاجة إليهم، والناس كانوا يتمتعون بالفروسية، وعلى استعداد دائم للدفاع عن خليفتهم ومدينتهم بغداد.

وأكثر المعتصم من استجلاب المقاتلين من بادية الترك، وتوطينهم في بغداد، وكانوا يحملون من قساوة الطباع وانعدام الحضارة، فكانوا يتجولون بأحصنتهم ودوابهم في الأسواق، وبالغوا في الأذى الذي كانوا يسببونه للناس من شيوخ وأطفال ونساء، وتمادوا في احتقارهم العامة، فثار أهل بغداد، مما دفع بالمعتصم إلى تشييد مدينة سامراء، ونقل مركز حكمه وعاصمته إليها عام ٢٢١هـ، وفقدت بذلك بغداد مركزها السياسي بشكل تام، وهي ما لها من فضل في تثبيت الحكم العباسي وحمايته في أيامه الأول، فثار أهلها، وخلعوا المعتصم، ونصبوا بدله العباس بن المأمون [١]، لكن بما يملكه المعتصم من حنكة عسكرية قضى على الثورة البغدادية، وقتل العباس بن المأمون، وأهمل مدينة بغداد، الأمر الذي أفقد الخليفة المعتصم أبرز مؤيديه، واستأثر القادة الترك في سامراء بالقرار السياسي والعسكري، ليظهر عصر تسلط العنصر التركي الذين قتلوا المتوكل عام ٢٤٧هـ [٢]، واتُّهِمُوا بقتل من بعده من الخلفاء؛ إما بالقتل المباشر أو بدس السمّ، ولم يكن ليتولى خليفة المنصب دون موافقة العسكر الترك [٣]، وبالرغم من ذلك كان الخلاف الذي يحصل بين قادة الترك في اختيار اسم الخليفة في سامراء، يحسمه بيعة أهل بغداد كما حصل مع المستعين بالله عام ٢٥٢هـ [٤].

وعلى الرغم من أنَّ عودة الخلفاء العباسيين إلى بغداد عام ٢٧٩هـ، مثّل إبعادًا لتسلط القادة الترك في سامراء ومحاولة لإرجاع هيبة الخلافة، إلا أن أهل بغداد قد اعتزلوا المشهد السياسي؛ بسبب ابتعادهم عنه قرابة خمسين عامًا ليظهر جيل لا يرى من السياسة سوى عسكر الترك المتسلط، وقد أفضى هذا الأمر إلى ما هو أفظع؛ فقد استغل البويهيون كثرة الصراعات السياسية والعسكرية التي كانت تحدث في بغداد، وضعف موقف الخلافة حيال ذلك، ليدخلوا بغداد ويعلنوا التسلط البويهي زمن الخليفة المستكفي عام ٣٣٤هـ، ليستمر إلى عام ٤٤٧هـ، فقدت فيه الخلافة كل مراسيم الحكم،

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج٩ص٧١.
(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج٩ص٢٦٢.
(٣) الدينوري، المعارف، ص٢.
(٤) الطبري، تاريخ الطبري ج٩ص٢٨٢.



واكتفى فيها الخلفاء بالجلوس في قصورهم[١]، وتلقي الأوامر من الأمير البويهي بالعزل أو السجن، أو القتل، وصعود العنصر الفارسي والعقيدة الشيعية على حساب سكان بغداد الأصليين وعقيدتهم.

وعلى الرغم من العنف والقسوة وكثرة القتل الذي لازم طابع الحكم البويهي في بغداد، فضلاً عن الدعوة الشيعية الباطنية، إلا أن المطَّلع على أحوال هذا العصر يجد أن سكان بغداد كانوا يقودون ثورات مسلحة وحركات معارضة لأسلوب التسلط البويهي شبه سنوية، ساعدهم في ذلك تأييد القادة الترك وحرس الخلافة لهم، وكان دومًا ما يحتمي الجند الترك من ظلم الديلم في المحلات البغدادية التي كانت ترفع السلاح دفاعًا عن اللون العقائدي لمدينة بغداد، الأمر الذي كان يقلق السلطة البويهية؛ لأنها كانت ترى أن إعلان الخلافة العلوية في بغداد يعني انفجار الوضع القائم في الممالك الإسلامية؛ لما يحظى به الخليفة العباسي من تأييد في العالم الإسلامي على الرغم من حالة الضعف التي تعيشها الخلافة، مما قد يؤدي إلى زوال دول وإمارات، ومنها ملك البويهيين أنفسهم.

ثم إن إعلان الخلافة الزيدية في بغداد، وهو المذهب الذي ادعى البويهيون اعتناقه، سيلقى معارضة من المذهب الإمامي في الأهواز، ومن الإسماعيلية الفاطمية والقرامطة والسامانيين.. إلخ، ومن جهة أخرى فإن إبقاء الخلافة العباسية سيضمن للبويهيين القوة في صراعهم ضد خطر الخلافة الفاطمية، التي وصل دعاتها إلى أطراف الموصل، وأصبح واليها يدعو لهم على المنابر، وكانت كل تلك التفسيرات عبارة عن مشورات قُدمت من علماء بغداد للأمير البويهي لإرغامه على إبقاء الوضع على ما هو عليه.

لم يشهد التسلط البويهي طيلة فترة حكمه الممتدة بين عامي ٣٣٤-٤٤٧هـ سوى تولي أربعة خلفاء عباسيين فقط، لكن وبالرغم من الضعف المفرط الذي أصاب مقام الخلافة، إلا أن موقف أهل بغداد من تشيع التسلط البويهي الحاكم كان حازمًا، وبسبب الانفجار الثوري الذي قاده أهل بغداد زمن الخليفة القادر بالله ٣٨١-٤٢٢هـ، وتأكيدهم الغلبة لفصائل الجيش التركي الموجودة في بغداد دفع بالخليفة إلى الخروج من عزلته، واتخاذ مواقف جريئة، منها:

١- إعلان وقف النواح والبكاء في بغداد في يوم عاشوراء الذي أوجبته العقيدة الشيعية التي

---

(١) الأعظمي، الدول الفارسية، ص٥٨.

فرضها البويهيون[١]؛ لأن المدينة سنية المعتقد والشعائر.

٢- منع أيّ رجل شيعي من تولي منصب قاضي القضاة.

٣- القضاء على فتنة الشيعة الباطنية لما طالبوا بإقامة الدعوة الفاطمية، والمناداة بالخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) على منابر بغداد.

علمًا بأن الموقف البغدادي هذا خرج والعالم الإسلامي يحكمه من الشرق الدولة السامانية والبويهية، وفي الجزيرة العربية والشام كان القرامطة، ومصر والمغرب بيد الفاطمية، وكلهم شيعة، فخاف البويهيون من جدية الأمر، وبدءوا بتهديد الخليفة القائم بأمر الله ٤٢٢-٤٦٧هـ بإعلان التنازل عن الخلافة في بغداد إلى الفاطميين، فما كان من الخليفة القائم إلا أن استثمر الموقف البغدادي المعارض، واستنجد بالإمارة السلجوقية التي تمكنت بقيادة الأمير طغرلبك عام ٤٤٧هـ من القضاء على التسلط البويهي في بغداد وتلقب طغرلبك (بركن الدولة يمين أمير المؤمنين).

وقد تمكنت السلطة السلجوقية من تحقيق المكاسب الكبيرة لنفسها بسبب تأييد بغداد لها، فقد قضت وبشكل كامل على البويهيين في بغداد والأهواز وفارس والشام، وعلى القرامطة في الجزيرة، وضعف شأن السامانيين بشكل كبير حتى قضي عليهم، وانقشعت ظلامية المذاهب الشيعية الباطنية عن العالم الإسلامي سوى الفاطمية، التي ضعفت حتى زالت عن الوجود زمن الدولة الأيوبية؛ كل ذلك كان بسبب الثورات التي قادها أهل بغداد قرابة المائة عام كما تحكيها أعوام الحوادث في كتب التاريخ.

وبدخول السلاجقة إلى بغداد يبدأ العصر السلجوقي ٤٤٧-٥٥٥هـ، وكغيرها من الإمارات بدأت هذه الإمارة فتية قوية، تدعو لإحياء الدين، وإعلان الجهاد ضد البيزنطيين الذي توقف طيلة فترة الحكم الشيعي البويهي[٢]، وبمؤازرة الخلافة العباسية استعاد السلاجقة الشام من أيدي الفاطميين والبيزنطيين حتى كانت معركة ملاذ كرد عام ٤٦٤هـ، التي انتصر فيها السلاجقة على الإمبراطور البيزنطي (رومانوس) بالرغم من التفوق العددي الكبير للبيزنطيين على السلاجقة، ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيرًا بيد السلاجقة.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١ ص٢٥٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١ ص٢٥١.



واستمر حكم السلاجقة على الود مع الخلافة العباسية بالرغم من استئثارهم بالكثير من المميزات السياسية والعسكرية والمالية، لكن وفاة السلطان ملكشاه أدخل البيت السلجوقي في صراعات داخلية على إمرة الولايات وزعامة البيت السلجوقي، حتى اعترف الخلفاء العباسيون بأكثر من أمير سلجوقي في الوقت نفسه.

ومنذ تولي الخليفة المسترشد بالله بدأ الصراع يأخذ طابعًا ثوريًا وعسكريًا في بغداد ضد التسلط السلجوقي، وحمل الناس السلاح، وحفروا خنادق المدينة، وأصلحوا أسوارها، واستولى الخليفة على الأمور في بغداد وعلى ممتلكات السلاجقة، وطردهم من بغداد، وكان ذلك بثورة بغدادية تطوعية، لم يتسلم أهلها فيها الرواتب أو الإقطاعات التي كانت تُغدق على الجند الترك والفرس في بغداد؛ لقاء خدماتهم العسكرية للخلافة العباسية من عام ٥٥٥هـ، لينتهي بذلك عصر السلاجقة، ويبدأ العصر الأخير من عصور الخلافة العباسية التي حاول فيها الخلفاء استعادة هيبة الخلافة بالاعتماد على سكان بغداد.

لكن بالمقابل فإن تأثير مدينة بغداد السياسي كان يشمل العالم الإسلامي أجمع، وبلغ تعداد الجيش العباسي مائة ألف، فضلاً عن المتطوعين، وتمكن من صد الهجمات المغولية على المدينة بين عامي ٦١٨-٦٥٦هـ، والتي قدرت بثلاثة عشر هجومًا، لم يتمكن فيه المغول من اختراق أرض الخلافة في العراق، حتى تقلد الوزير ابن العلقمي الوزارة للخليفة المستعصم ٦٤٠-٦٥٦هـ، الذي عمد على إقناع الخليفة بتسريح الجيش بحجة تقليص النفقات ليصل إلى ثلاثة آلاف مقاتل فقط، الأمر الذي انتهى بسقوط الخلافة العباسية، واحتلال المغول لبغداد، وأعملوا فيها السيف لأنها لم تستسلم.

ولم ينجُ من هذه المذبحة إلا النصارى بسبب شفاعة زوجة هولاكو النصرانية لهم، والشيعة الذين كانوا عونًا وعيونًا للجيش المغولي في بغداد، وكوفئ ابن العلقمي بتولي نيابة حاكم العراق، لكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد مات كمدًا بسبب احتقار المغول له؛ لخيانته الخلافة العباسية، ولما طلب ابن العلقمي من هولاكو أن يجعله من خواصّه رد عليه هولاكو: «لقد خُنْت من أكرمك -الخليفة- أو يأمن لك من أذلك؟!»[١].

(١) العزاوي، بين احتلالين، ج١ص٢٠١؛ سليمان، الفوز بالمراد، ص٢١٤؛ ملخص من كتاب التاريخ السياسي للخلافة العباسية للدكتور فائزة إسماعيل، الموقع الإلكتروني fsejiny.kau.edu.edu.sa



٢- صراعات ولاية العهد:

خرجت الخلافة الإسلامية عن طابع الشورى منذ زمن الأمويين، فكانت بدعة ولاية العهد هي الحل الأمثل والموافق لتلك المرحلة من التاريخ؛ لما تحويه من اضطرابات ومشاكل قد تنجم عن الفراغ الحاصل بعد موت أي خليفة، وهذا يمثل الجانب الإيجابي في ولاية العهد، أما الذي حدث في العصر العباسي فهي تولية ولاية العهد لأكثر من شخص، كما حدث زمن الخليفة العباسي الأول أبو العباس في تولية ولاية العهد لأخيه المنصور ومن بعده لابن أخيه عيسى بن موسى، لكن المنصور أجبر ابن أخيه على التنازل لولده المهدي بن المنصور، ومن ثَم تعود لعيسى بن موسى، ثم اشترى المهدي ولاية العهد من عيسى بن موسى بعشرين ألف دينار لولديه موسى الهادي، ثم لهارون الرشيد.

وبسبب تعدد ولاية العهد زمن المهدي اتُّهِمَت أم الرشيد بسمّ الهادي الذي لم يدم حكمه سوى سنة واحد، ثم الصراع الذي حصل بين أبناء الرشيد الأمين والمأمون، وما حصل زمن المتوكل عندما ولّى أبناءه الثلاثة (المنتصر بالله، والمعتز، والمؤيد) ولاية العهد، الأمر الذي عمَّق فتنة الخلافة ومعها الناس، حتى ظهر لنا خليفتان؛ أحدهما في بغداد والآخر في سامراء، ومن أهمّ أسباب صراعات ولاية العهد: أن متولي الخلافة كان يعمد إلى خلع ولي عهده المنصب من قبل والده ليضع بدله ابنه، أو الغدر بولي العهد وقتله، أو هروب ولي العهد الأول وإدخال البلاد في حروب الإخوة.

٣- ظهور الحركات الانفصالية:

اتسمت العلاقة مع البيزنطيين في عهد الخليفة المنصور بالمهادنة، ولم تتعدَ المناوشات الحدودية، وإعادة ما تهدم من حصون، وشحن الثغور بالمقاتلة بعد إقطاعهم الأراضي الزراعية، وتحسين وضعهم الخدمي.

لكنَّ الأمر لم يدم كذلك، فقد عرف الرشيد بالغازي منذ عهد أبيه المهدي؛ بسبب كثرة غزواته المظفرة التي قادها ضد الدولة البيزنطية، وكان تأثيرها على بغداد واضحًا من كثرة الأموال والأسرى، حتى أقام لهم المهدي محلة عرفت بمحلة الروم[١]، والتي أسهمت فيما بعد بحركة الترجمة التي قادها الرشيد ومن خلفه.

(١) سليمان، الفوز بالمراد، ص٦٨.



وفي زمن المأمون كانت الجزية التي فرضها على الإمبراطور البيزنطي، أن ينقل كل ما في مستودعات البلاط الإمبراطوري من كتب اليونان القدامى، والتي خزنت منذ إعلان النصرانية الديانة الرسمية للدولة البيزنطية.

أما عن تأثير ضعف الجهاد على مدينة بغداد، فقد ضعف بسبب ضعف مركز الخلافة وركون الناس إلى الراحة والدعة؛ على إثر توقف جهاد الطلب، وانشغال الخلفاء بإخماد الثورات والاضطرابات الداخلية، وضعف دور العامة في مؤازرة موقف الخلافة في ردع ظلم القادة العسكريين، بعد أن كانوا جاهزين ورهن إشارة الخلفاء؛ بسبب تغير نظام الجندية من النفير العام إلى نظام العسكر المنتظم في معسكرات دائمة ورواتب معلومة.

وبسبب انشغال العباسيين بتوطين حكمهم، برزت لنا عصبيات جديدة ولدت عنها إمارات نادت بالحكم الذاتي، أمثال:

- إمارة الأندلس بقيادة عبدالرحمن الداخل الأموي.
- والأدارسة العلويين في المغرب.
- وإمارة بني رستم الخوارج الإباضية بالمغرب الأوسط.
- ودولة الأغالبة في المغرب الأدنى.

وهذه الإمارات لم تنكر خلافة بني العباس بعد مبايعة مكة والمدينة لهم، حتى الخوارج الإباضية، مما لم يقلق الخلافة في بغداد، ولم تكن في بادئ أمرها ذات طابع انفصالي، الأمر الذي عدَّه بعض الباحثين أحد أسباب نقل العباسيين لمركز الحكم الإسلامي من الشام والأنبار إلى بغداد، ليكونوا قريبين من تلك الحركات الشرقية التي كانت تحمل في طياتها الانفصال والاستقلال في إمارات ودويلات لا تدين للخلافة، بل ولا يدين كثير منها للإسلام، فأصبحت بغداد قاعدة للاهتمام بالأجزاء الشرقية من بلاد الخلافة، ومن تلك الحركات (حركة سنباذ الذي دعا إلى هدم الكعبة، وحركة المبيضة وحركة الراوندية الذين قالوا بألوهية الحاكم، وحركة أستاذ سيس في مرو، وحركة المقنع والزنادقة وثورة ذي النفس الزكية)، وبقيت الخلافة العباسية تنافح هذه الحركات حتى قضت على التمرد ومحاولات الانفصال من قبلها.

وبسبب تسلط البويهيين والسلاجقة ضعفت مركزية الخلافة العباسية، حتى أصبحت بعد عام ٥٥٥هـ لا تملك من السلطة المباشرة إلا على بغداد وما جاورها من الأراضي القريبة[١].

٤- دور العلماء:

يرى كثير من الباحثين أنَّ سبب ديمومة الخلافة العباسية لقرون طوال يرجع إلى هيبة العلم والعلماء، الذين حفظ لهم العباسيون دورهم في قيادة الأمة وقت الأزمات، وصانوا لهم كرامتهم وكرامة علمهم، فجهروا بكلمة الحق، ولم يخشوا في الله لومة لائم، على الرغم من تعرض بعضهم للأذى حتى خشيهم الوزراء والأمراء، واستلطفوهم بالأعطيات التي خُصِّصت لطلابهم وبنوا لهم المدارس والمساجد.

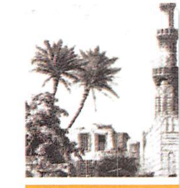
وغالبًا ما كانت تبرز مواقف العلماء في تحشيد الجماهير للدفاع عن مدينة بغداد، وصد أيّ هجوم قد تتعرض له عاصمة الخلافة، فضلاً عن قيادة المناظرات العقائدية والفكرية لتثبيت الحكم الإسلامي حتى خصَّهم الخليفة المهدي بديوان سُمِّي (ديوان الزنادقة)، مهمته الإشراف على صرفيات جهود العلماء وما يحتاجونه من قراطيس وما سواها لتثبيت العقيدة الصحيحة، وإفحام الزنادقة بالحجة والبرهان.

ومن أدوارهم البارزة أيضًا: قيادتهم للثورات شبه السنوية ضد الحكم البويهي الذي حاول تسليم بغداد للفاطميين، الأمر الذي أدى إلى تقويض سلطان بني بويه، وتفنيد نسب الفاطميين الأدعياء، وإصدار الفتاوى في ذلك، وما كان له من أثر في المشرق والمغرب بعد أن كاد العالم الإسلامي أن يتشيع بالكامل، فسجل علماء بغداد السبق في الحفاظ على هوية الأمة الإسلامية، ولا يفوتنا دور الإمام أحمد ابن حنبل -رحمه الله- في لجم فتنة المعتزلة، وما نتج عنها من عقائد باطنية كانت الوريث الشرعي للفلسفة اليونانية.

ومما لا يجب إغفاله أن الكتابات المعاصرة بدأت تدرس وباهتمام دور فتاوى الإمام الغزالي الجهادية في قيام وتوسع دولة المرابطين، حتى عدَّه بعضهم المنظِّر الروحي لهذه الدولة، ثم إنه آثر المقام في بغداد بالرغم من مضايقات السلطات له على أن يعيش في بلاد أمير المرابطين لما طلب من الإمام الغزالي القدوم عليه والعيش عنده.

---

(١) إسماعيل، التاريخ السياسي، ص٧٥- ١١٠ -١٢٤.



وأخيرًا ومما لا يقبل الشك لكل الباحثين في تاريخ العصر الأخير من عصور الدولة العباسية، أن دور العلماء كان واضحًا وجليًّا في قيادة المجتمع للصمود بوجه الهجمات المغولية طيلة أربعين عامًا (٦١٨-٦٥٦هـ)، ومدى تأثير فتاويهم على الناس، وحثهم لهم على التدريب وإقامة المعسكرات، وحمل العلماء أنفسهم للسيف وقيادة الحروب، ناهيك عن تكرار فتاوى إيقاف الحج وصرف أمواله على تجهيز الجيوش، وحفظ بيضة الإسلام[١].

٥- الصراع الفئوي وخيانات الشيعة:

من المشاكل السياسية أيضًا تردي أوضاع الخلافة، وصعود عناصر وضيعة إلى موقع القرار أوجد صراعًا خفيًّا بين فئة المترفين وبين عامة الشعب، وهذا الصراع وجد متنفسًا له في تلك الدعوات والحركات الانفصالية، خصوصًا التي كانت تدَّعِي المظلومية وحب آل البيت، والحقيقة التي يراها كل باحث أنه كلما تعافت بغداد سياسيًّا كلما انعدمت مثل هذه الأمور.

ومنه تعاون بعض الإمارات ذات العقائد الشيعية الباطنية مع أعداء الأمة التقليديين ضد الإمارات الإسلامية الأخرى، كالذي حدث في استنجاد الفاطميين بالحملات الصليبية ضد الأيوبيين والزنكيين؛ لقاء التنازل لهم عن الشواطئ الإسلامية، الأمر الذي حدا بالخليفة العباسي وبعلماء بغداد إلى إصدار الفتاوى الجهادية التي ألهبت روح الحماس لدى المسلمين، وسار المتطوعة بالآلاف لنصرة الأيوبيين، وقد تحقق النصر بالفعل في موقعة حطين، ومنها أيضًا استنجاد أمير أربيل ببغداد ضد الهجمات المغولية عام ٦١٨هـ، التي لاقت تأييدًا ونصرة من أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ، وبالفعل عند وصول نجدة بغداد هرب المغول إلى ما وراء الدربند وسهول شهرزور.

٦- تحول العاصمة السياسية:

من خلال نقل العاصمة من بغداد إلى مدن أخرى، وفقدانها بذلك لمركزها السياسي، كالذي حدث زمن المأمون ما بين عامي ١٩٨-٢٠٤هـ، وزمن المعتصم ما بين عامي ٢٢١-٢٧٩هـ، ففي الأولى عاد المأمون إلى بغداد بعد أن رأى ضعف تأثير قراراته السياسية على العامة عند خروجها من عاصمته الجديدة مرو، أما عن الحالة الثانية زمن الخليفة المعتصم فقد بقيت بغداد منزلاً للأمراء

---

(١) الجبوري، دور الفئات الاجتماعية، رسالة ماجستير، الفصل الثاني.

العباسيين ومحط بيعتهم، فلم يكن الخليفة الساكن في سامراء ليطمئن على بيعته أو يقوي من مركزه دون إرضاء أهل بغداد، وأخذ البيعة منهم، وكان كلما شعر أحد الخلفاء بالخطر الذي يهدِّده من قادة عسكره في سامراء لجأ إلى أمراء وعسكر بغداد (الشاكرية) ليثبِّت بهم سلطانه؛ كما حدث مع المعز بن المتوكل(١).

بنظرة شاملة للموضوع، فإن العالم الإسلامي دان بالقيادة الروحية للخلافة العباسية التي ارتبط ذكرها بمدينة بغداد، بسبب استيعاب الأمة لفكرة الروحية الجامعة المتمثلة بمقام الخليفة، وإن اختلفت الآراء، وهذا بدوره أبقى على هيبة الجامعة الإسلامية على المستوى العالمي، بالرغم من الحروب الداخلية، وهذا ظهر واضحًا في الانتصارات التي حققها السلاجقة على البيزنطيين بسبب التأييد العباسي لهم، وبانتصارات صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، وكان ذلك بسبب التحشيد الروحي الذي ضمنته لهم الخلافة العباسية لهاتين الدولتين.

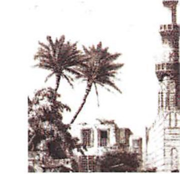
علمًا بأن هذه الانتصارات جاءت والخلافة كانت تعيش في مرحلة الاحتضار الحضاري والعسكري، وأن الوصف السابق لا يشمل أصحاب العقيدة الشيعية أو الديانات الفارسية القديمة؛ لأنها كانت تسعى إلى الاستقلال في كانتونات بعيدًا عن تأثيرات الخلافة العباسية العقائدي فضلاً عن الإداري والعسكري.

وباحتلال المغول لبغداد فقدت الخلافة العباسية قوة التأثير الذي لطالما أنقذ الأمة الإسلامية من الأخطار الخارجية.

ونرى أن العلاقة التي كانت بين الخلافة العباسية وبغداد كانت علاقة طردية وليست عكسية، فبزوال الحكم العباسي في بغداد، واحتلال المغول لها، وفقدان المدينة لدورها السياسي، فقدت الخلافة العباسية ذلك التأثير الذي كانت تلعبه على المستوى العالمي، وانقرض ذكرهم بالرغم من استمرارها، أي: الخلافة قرابة القرنين من الزمان في مصر، حتى سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين في معركة الريدانية عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م(٢).

---

(١) إسماعيل، التاريخ السياسي، ص١٩٤ و٢٢٣.
(٢) الوردي، لمحات، ج١ص٤٩.



بغداد في عهد الاحتلال المغولي:

مثلت مدينة بغداد وما احتضنته من الأسرة العباسية في عصرها الأخير معتبرةً بشخص الخليفة، آخر مظهر من مظاهر الوحدة الإسلامية الهشة على أرض الواقع، وقد أبرز احتلال المغول لبغداد كل مكامن الضعف التي كان يعيشها العالم الإسلامي بشكل عام، والخلافة العباسية بشكل خاص؛ من انهيار عسكري للمنظومة الدفاعية، وإهمال تحصينات المدينة وفوضى في الجهاز الإداري وابتعاد الخلافة عن قاعدتها الشعبية، وتولي الوزير الشيعي ابن العلقمي كل مراسيم الولاية، والذي عرف بنصرته للعقيدة الشيعية الرافضية في بغداد وتوعده الخلافة بالعمل على إزالتها، وناصح المغول في احتلال المدينة بعد إقناع الخليفة بتسريح الجيش الذي كان يبلغ قرابة مائة ألف بدعوى كثرة النفقات، حتى شوهد الجند وهم يتسولون على أبواب المساجد، وهاجر جلّهم إلى الإمارات الإسلامية الأخرى طلبًا للرزق بعد الانخراط في جيوشها، وإفراغ بغداد من كفاءاتها العسكرية.

ومن العجب العجاب هو البرود الذي كان يعيشه خلفاء العصر الأخير للدولة العباسية، وعدم اكتراثهم بما كان يحدث من حولهم إقليميًّا أو عالميًّا، واعتمادهم ومنذ عهد الناصر لدين الله، بشكل أساس على انفعالات ومواقف الشعب الإصلاحية (عسكرية أم سياسية) أكثر من اعتمادهم على أجهزة الخلافة المختصة، ومن مميزات العهد المغولي:

١ - فقدت بغداد مكانتها كعاصمة للخلافة العباسية، وصارت بمنزلة إحدى الولايات المغولية[(١)].

٢ - إن آثار التخريب المغولي، أوجدت في الدول الإسلامية حينئذ شعورًا بالألم والتفجع، فكانت الفرصة سانحة لإيقاظ ضمير الأمة الإسلامية، وحملها على إحياء الإسلام، وبعث قوته[(٢)]، فلعبت النخب الفكرية دورًا كبيرًا في نقل المجتمع من حالة الاسترخاء السلبي، إلى المواجهة الإيجابية، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء.

ومما لا شك فيه أن ظهور الجفوة بين العلماء والحكام تُعَدُّ من أسباب الفشل العسكري للعالم الإسلامي آنذاك، الأمر الذي فطن له هولاكو أثناء محاصرته لبغداد؛ من خلال إرسال الرسائل الكثيرة إلى العلماء والسادة والمشايخ، زاعمًا أن الجيش المغولي لا يتحرش بهم إن هم ألقوا سلاحهم، ووقفوا

(١) أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل، تقويم البلدان، مكتبة المثنى بغداد، (د/ ت)، ص٥٠٥.

(٢) حسين، حسن عبد الرحمن، أحكام الجهاد عند ابن تيمية، الدار الأثرية، ط١ الأردن، ٢٠٠٧م، ص٣٠.

على الحياد، وهذا ما حدث بالفعل، فلما دخل المغول بغداد، دعا العلماء إلى دار بها فرمان من هولاكو للحفاظ على حياتهم، فأبى أن يجيب إليه أكثرهم، ومنهم الشيخ العلامة الزاهد الحنبلي الضرير يحيى بن يوسف أبو زكريا الصرصري[(١)]، الذي أعد في داره أحجارًا، فحين دخل عليه المغول رماهم بتلك الأحجار فهشَّم رءوس جماعة منهم، ولما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم فقتلوه شهيدًا رحمه الله، وله ثمانون سنة، وحسبنا بذلك مثلاً عن موقف علماء بغداد بعد احتلال مدينتهم، فإذا كان الضرير منهم وهو شيخ كبير والمدينة قد احتلت، وبذل له الأمان وهذا حاله وموقفه، فما بالك بمواقف أهل المدينة التي أنجبت مثل هكذا جيل ؟![(٢)]

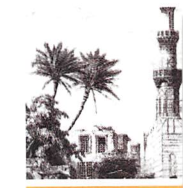
على الرغم من زوال حكم الأسرة العباسية إلا أن احترامهم مازال في قلوب المسلمين، وهم -أي: العباسيون- في بغداد وحدهم، وباسترضائهم يملكون مفاتيح إعادة الهدوء للأقاليم التي اشتعلت بالاضطرابات على إثر مقتل الخليفة، واحتلال المغول لبغداد، فعمدوا إلى تولية النقيب محيي الدين ابن شرف الدين بن هبة الله العباسي، وهو عالم جليل قضاء الجانب الغربي لبغداد وجُعل نقيبًا على من بقي في العراق من بني العباس[(٣)].

وورود ذكر مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم محمد العباسي الذي تولى نقابة العباسيين، وأنه كان مقدَّمًا لدى الحكام الإيلخانيين[(٤)]؛ دليل على أن الاحتلال المغولي لم يتمكن من تجاهل الدور القيادي المهم لهذه الفئة، ومكانتهم في نفوس المجتمع، وبالرغم من التنازلات التي قدمها الجانب المغولي لفئة العلماء وللمجتمع البغدادي بصورة عامة إلا أن ولاء البغداديين لم يكن ليُبذل ببساطة للحاكم المغولي المسلم كأحمد تكودار الذي طالبه أهل بغداد بإعادة الخلافة عباسية لإثبات حسن إسلامه، فكيف إن كان الحاكم كافرًا؟![(٥)]

ومن الأمثلة على دور العلماء في قيادة المجتمع البغدادي: تغذيتهم للأساليب التعبوية للمجتمع، وإثارة روح الهزيمة والرعب في الخطوط الخلفية للجيش المغولي، وتشجيع روح الثورة ضد المغول

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١١.
(٢) الجبوري، دور الطبقات الاجتماعية، ص٣٦.
(٣) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق، مصطفى جواد، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم المطبعة الهاشمية دمشق – ١٩٦٥م، ج٤-ق٢/ ص٤٢٢ – ٤٢٣.
(٤) خصباك، العراق في عهد المغول، ص٢٦٧.
(٥) الهمذاني، جامع التواريخ، مج٢، ج٢، ص٩٧.



ومؤازرة الجيش الشامي المسلم في الجانب الآخر، فقد دعا خطيب بغداد للجيش الشامي بالنصر وأسماه بالجيش المسلم في أثناء حصار المغول لقلعة البيرة عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م) .[١]

أما عن إسلام السلطان أحمد تكودار ابن هولاكو (٦٨٠-٦٨٣هـ/ ١٢٨١-١٢٨٤م)؛ فقد كان بطلها الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله، الذي لا تتحفنا مصادرنا الإسلامية عنه بشيء سوى إنه من مماليك الخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤١-٦٥٦هـ/ ١٢٤٣-١٢٥٨م)، وكان يسمى (قراجا)، فلما ملك المغول بغداد تزهَّد وتسمى بعبدالرحمن، واتصل بالإيلخان تكودار بن هولاكو، وكان حينئذ على النصرانية وتسمى (بنيقولا)[٢] .

ولكن على إثر اتصال تكودار بالشيخ عبدالرحمن وبالمسلمين أعلن إسلامه، وتسمى بأحمد؛ حبًّا بالرسول ﷺ، وعظم شأن الشيخ عنده، وبالغ في الميل إلى المسلمين، ونصحه أن يتفق مع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون المملوكي في مصر، ويجمع كلمتهم، والعمل سوية على إعادة الخليفة العباسي إلى بغداد، والتنازل عن إمارة المسلمين للمماليك الذين حفظوا بيضة الإسلام من مجازر هولاكو، فوافق السلطان أحمد بن هولاكو وندب الشيخ عبدالرحمن لذلك، وسيَّر في خدمته جماعة كبيرة من المغول والأعيان من أهل الموصل وماردين، الأمر الذي أثار حفيظة المغول، وكان جُلهم لم يدخل الإسلام بعدُ، فقاد أرغون ثورته ودارت رحى حرب داخل الأسرة الإيلخانية ساندت فيها بغداد سلطانها المسلم لكن كانت النهاية مقتل السلطان أحمد؛ مما حال دون إتمام تلك المهمة[٣] .

فبغداد وهي عاصمة العالم الإسلامي لقرون عدة لم تعهد الأدوار الثانوية في الحياة السياسية، ولم يكن مقتل السلطان أحمد تكودار الذي أحبه أهل بغداد ليمر دون منغصات للدولة الإيلخانية، خصوصًا أن أرغون أفشل مخطط استعادة بغداد لخلافتها العباسية؛ لذلك عقدت المجالس في بغداد للطعن في الإيلخان المغولي أرغون (٦٨٣-٦٩٠هـ/ ١٢٨٤-١٢٩١م) ووزيره اليهودي سعد الدولة[٤] الذي كان قد استوزره في دولته، ولاقى المسلمون منه ومن اليهود أذى كبيرًا، فألفوا الردود

---

(١) الخزندار، تاريخ مجموع النوادر، ص٢٤٨؛ الفاخري، تاريخ الفاخري، ص١٠٤.

(٢) الهمذاني، جامع التواريخ، مج٢، ج٢، ص٩٧.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٨٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٩٩؛ الصياد، مؤرخ المغول الكبير، ص٦٠.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٠٩، ٣١١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٧، ص٢٣٧؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٢٢٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٧٣.

عليهم، وقادوا الاضطرابات والمظاهرات في بغداد، وحاولوا خلخلة الجهاز الإداري للحكومة الإيلخانية، وإضعاف جبهتها الداخلية، وهوجم اليهود الذين حظوا بتأييد الدولة المغولية، وكُسرت شوكتهم وأعيدت الهيبة لفقهاء المسلمين التي كانوا قد فقدوها بسبب موقفهم مع أحمد تكودار[١].

ولم يكن حكم بايدو[٢] (٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م) أكثر إنصافًا للمسلمين، لكن قوة الفقهاء وانتشار الإسلام بين المغول وأمرائهم فرض عليه احترامهم، وإبقاء الوزارة بأيدي المسلمين بعد مقتل سعد الدولة اليهودي بالرغم من تعصب بايدو للنصرانية، ولما فكر في أن يمنع الدعاة المسلمين من تبليغ الدين بين القبائل المغولية لإضعاف دور الفقهاء اصطدم بترك الأمراء المغول المسلمين له، وانحيازهم إلى معسكر غازان بعد اعتناقه الإسلام، وقيامهم ضد بايدو فكان مقتله نهاية لوثنية الحكم الإيلخاني من عام (٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م)[٣].

٣- الأحداث السياسية والعسكرية في بغداد ودور العامة في ذلك: جرت محاولات عديدة لإعادة الخلافة الإسلامية إلى بغداد، إلى جنب محاولات كسب الحكام المغول إلى الإسلام، فكانت الثانية أنجح وأقرب إلى المنال، ففي عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وصلت الأخبار وكُتُب الخليفة إلى السلطان الظاهر بيبرس تبشِّره بسيطرة قوات الخلافة على عانة وحديثة[٤]، وولي عليهما الولاة من لدن الخليفة[٥]، وأن كُتب أهل بغداد وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم، وفي هذه الرواية تظهر المحاولة العسكرية الجادة التي سعى فيها أهل بغداد بالتعاون مع أهل الشام ومصر على تحرير مدينتهم من الغزو المغولي.

لكن الملاحَظ أن المقاومة البغدادية التي تلت هذا التاريخ تحولت من الصدام العسكري المسلح لتحرير المدينة إلى قيادة الثورات والانتفاضات والاحتجاجات، والغرض منها تسقيط رجالات الحكم الإيلخاني في المدينة، وإضعاف مراكز القيادة، وتثبيت العلماء والأمراء المسلمين في ذلك البلاط، وإقناع

---

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣١٢، ٣١٧؛ العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد بغداد،١٩٣٥م، ج١، ص٢٤٢، ٢٤٧؛ الصياد، مؤرخ المغول الكبير، ص٦٣.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٠٩، ٣١١، والفاخري، تاريخ الفاخري، ص١٥٤.

(٣) الفاخري، تاريخ الفاخري، ص١٥٤؛ الصياد، مؤرخ المغول الكبير، ص٧٠.

(٤) محمد، سالم يونس، العراق في السياسة المملوكية، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة الموصل ص٥٩-٦٩.

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٤٥٨.



البلاط الإيلخاني بأن هؤلاء العلماء والأمراء هم وحدهم القادرون على حكم البلاد، وفي الوقت نفسه كانت هناك فئة أخرى من أهل بغداد، دعت العناصر المغولية للدخول في الدين الإسلامي لتكوين جبهة إسلامية مغولية، تقف بوجه قرارات الإيلخان المنافية للشرع الإسلامي؛ الأمر الذي آتى ثماره في إبان حكم بايدو خان، واستبداله بمحمود قازان بعد إعلان إسلام الأخير[١].

وفي عام (٦٦٨هـ) ثارت العامة في بغداد ضد جاثليق النصارى الذي سيطر على قصر الدويدار الكبير وضواحي بغداد كجائزة لدوره الخياني الذي لعبه عند دخول المغول إلى بغداد، وهو ما كان له وقع على نفوس العامة، والقصة مفادها: « أن نسطوريا كان قد أسلم قبل بضعة أعوام، فقبض عليه جاثليق النصارى (مرمليخا) وحبسه في داره، فثار المسلمون وتجمهروا أمام دار الوالي عطا ملك الجويني، وطلبوا منه أخذ الرجل من الجاثليق، فلبى طلبهم وأرسل إلى الجاثليق يطلب إرسال الرجل، فامتنع الجاثليق، فهجم الثائرون على دار الجاثليق، وأحرقوا بابها، وتسلقوا الجدران فدخلوا الدار، ولكنهم لم يجدوا فيها أحدًا؛ لأن الجاثيلق ومن معه انهزموا منها بمساعدة رجال الدولة، ولأنه لم يجد آذانًا صاغية لشكواه التي تقدم بها الخان بسبب قوة موقف أهل بغداد، ولم يفضِّل الخان بعد سماعه بالخبر توسيع دائرة الانتفاضة الغاضبة على حساب الجاثليق، مما اضطره إلى الهروب عن بغداد، والعيش في أربيل»[٢].

ولم تنته الحادثة عند هذا القدر، بل عادت في السنة نفسها؛ وذلك لأن جماعة من الإسماعيلية، حاولوا قتل الوالي صاحب ديوان العراق عطا ملك الجويني، فقبض عليهم وقتلهم، فشاع الخبر أن هؤلاء من النساطرة، وقد أرسلهم الجاثليق من أربيل، الأمر الذي يدل على نضج الوعي السياسي لدى سكان بغداد في استغلال المواقف، وتحويلها إلى مظاهرات تضعف من قوة سلطة المركز المغولية، وتجبرهم على الإنصات لمطالب السكان[٣].

ومن الأدوار الإعلامية التي لعبتها المقاومة البغدادية: استغلال الفرص والمواقف للتذكير بالخلافة العباسية الإسلامية، ومكانة المدينة، ووجوب استعادتها، فروى الصفدي عن حادثة وفاة

(١) الجبوري، دور الفئات الاجتماعية، ص١٢٤.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٢٥٤؛ الدخيل، سليمان، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، دار الآفاق العربية، ط١ القاهرة،٢٠٠٣م، ص٢١٨؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص٢٨٤، ٣١٨.

(٣) العزاوي، بين احتلالين، ج١ ص٢٠٣، والجبوري، دور الفئات ص١٣١.

السيدة خديجة بنت الخليفة العباسي المستعصم سنة (٦٧٦هـ) أي: بعد عشرين سنة من احتلال المغول لبغداد، وكيف تذكر الناس أيام والدها، وبكوا وكثرت النوائح والنوادب، ورفعت الطرحات، الأمر الذي دفع بصاحب الديوان في محاولة منه لامتصاص نقمة الشارع البغدادي على الحكم المغولي إلى الجلوس على الأرض للعزاء[١].

ولا أروع مثالاً على قوة الشارع البغدادي في تطبيق الشرع الإسلامي، ومناصرة المظلوم، ووضع الحد للظالم المغولي من حادثة أحكام الميراث التي كانت عام (٦٨٧هـ) وفيها اتفق موت رجل ليس له غير ابن عم، فأراد أن يرث مورثه، فأنكر أمير الجيش المغولي في العراق والنواب المغول نسبه، ووضعوا يديهم على تركة المتوفى، فاستغاث الرجل بالعامة، فثاروا بدعوى أن النواب غيّروا التقسيم الشرعي، وظلموا الرجل، وقصدوا النواب، فاختفوا خوفًا من القتل، وتحصنوا في بيوتهم، وثارت العامة، ونهبوا دكاكين اليهود من المخلطين وغيرهم؛ لأنهم كانوا أتباعًا للوزير سعد الدولة اليهودي رأس الظلم، وهرب النواب من بغداد قاصدين بلادهم، فلقيهم الأكراد في الجبل، وقتلوهم، لما سمعوا بثورة سكان بغداد[٢].

وبلغت العامة من القوة أنها صارت تؤثر في تنصيب وعزل الولاة على بغداد وعزلهم، طلبًا للمصلحة كلما سنحت الفرصة، ففي عام (٦٩٠هـ) تنبَّه المسلمون لما يدبره الوزير سعد الدولة اليهودي من مكيدة وطعن في الدين الإسلامي، فتصدوا له تارة بالاضطرابات والمظاهرات، وتارة بمهاجمة أنصاره الذين كان يوفِّر الحماية لهم في بغداد، وتارة بالتأليف والرد على مطاعنهم بالإسلام، وعقد المحاضرات للطعن باليهود ووزيرهم سعد الدولة، الأمر الذي زاد من تجبره وظلمه، واستبد هو وأقرباؤه بالأعمال حتى كرهه العامة ونقموا عليه، فاتفق رجال من الحكومة في بغداد مع جماعة من الوجوه على الفتك به، فقتلوه وثارت العامة على أتباعه، وهجموا على محلاتهم.

ومن الأمور التي ظهرت أيضًا: فتنة عز الدولة ابن كمونة الفيلسوف اليهودي الذي كان قد ألف كتابا سماه (الأبحاث عن الملل الثلاث) تعرض فيه بذكر النبوات، فشاع خبره في بغداد، وثارت العوام في يوم الجمعة، وتجمهروا على داره، قاصدين قتله، فركب الأمير تمسكاي شحنة العراق المغولي

---

(١) الوافي بالوفيات، ج٤، ص ٣٥٩.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣١٣.



وجماعة من الحكام إلى المدرسة المستنصرية، وأحضروا قاضي القضاة والمدرسين للتحقيق في ما شاع، وأرسلوا في طلب الفيلسوف فاختفى، وتجمهر الثائرون على أبواب المدرسة المستنصرية، فركب قاضي القضاة منها قاصدًا الجامع لصلاة الجمعة، فمنعه الثائرون حتى اضطروه للرجوع، فاضطر حينها الشحنة إلى استعمال الحيلة، وأمر فنودي ببغداد باجتماع الناس في الغد عند ظاهر السور لمشاهدة إحراق ابن كمونة(١).

وكانت المقاومة البغدادية تستغل كل فرصة لترفع علم العصيان والتمرد ضد الحكم المغولي، وفي عام (٦٩٤هـ) كانت الخلافات داخل الأسرة الإيلخانية الحاكمة قد وصلت ذروتها، وكان للأمراء المغول المسلمين دورهم في ضرب قوات بايدو خان الذي وقف موقفًا سلبيًّا إزاء رعاياه من المسلمين، وعمد إلى قتل محمد السكورجي حاكم بغداد، فثار أهلها وانتفضوا على الحكومة المغولية، وسادت الفوضى في المدينة، واختل نظامها، فأرسل بايدو أحد أمرائه المدعو (تودواجو) الذي سيطر على بغداد، وصادر سكانها، واستنزف أموالهم، واعتصرهم اعتصارًا لم يُسمَع بمثله، لتحطيم إمكانياتهم الاقتصادية، والحيلولة دون القيام بتمرد ثانٍ(٢)، ولكن ذلك لم يمنع سكان بغداد من الوقوف ضد بايدو ومساندة قازان الذي أعلن إسلامه، وكانت المقاومة البغدادية القوة التي نخرت في عضد الجيش المغولي بقيادة بايدو خان(٣).

وفي عام (٧٠٧هـ) حاول السلطان محمد خربندا (٧٠٣-٧١٦هـ) تغيير عقيدة أهل بغداد وإعلاء شأن الشيعة، والتدخل في ذلك بالقوة، وأعلن إلغاء ذكر أسماء الخلفاء الراشدين الثلاثة من الخطبة، وجاهَر بسبِّهم، وسيَّر الجيوش إلى الحجاز لإزالة قبور الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم، فكسرته قبائل طي بقيادة آل مهنا في الصحراء، وتفرَّق جيشه في البلاد، فلما عاد إلى بغداد وجدهم قد تجمعوا بقرابة اثني عشر ألف شخص مسلم، يحولون بين المدينة وبين دخول دعاة الشيعة إليها مرة ثانية، وبالرغم من محاولته الإصرار على الأمر، إلا أنه انتهى بالعدول عن فكرته تلك بعد فترة من الزمن، ونُكبت الشيعة في بغداد(٤).

---

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٠٤.
(٢) الأعظمي، ثلاث كتب في تاريخ العراق مختصر تاريخ بغداد، ص١٣٩؛ الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، ص٢١٨.
(٣) الجبوري، دور الفئات الاجتماعية، ص١٢٨.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٦.

٤- بالرغم من فقدان مدينة بغداد لمكانتها كعاصمة للخلافة العباسة إلا أنها غالبًا ما مثلت البديل الأول للعاصمة الإيلخانية في تبريز ومحط أنظار المتنافسين على كرسي الحكم المغولي، فهي من أوصلت أحمد تكودار إلى سدة الحكم، وهي من أوصلت محمود غازان كذلك، وعدت الحصان الرابح في رهان الفوضى المغولية التي أعقبت وفاة الإيلخان أبي سعيد بهادر (٧٣٦هـ)، وانشقاق الأسرة الحاكمة حتى سيطرة الشيخ حسن الجلائري على بغداد، لتكون شاهدة على نهاية العهد الإيلخاني المغولي وبداية العهد الجلائري وعاصمته بغداد عام ٧٤٠هـ.

ولو رسمنا مخططًا بيانيًّا تظهر فيه حدة المواقف الرافضة للوجود المغولي قبل وبعد سقوط بغداد قياسًا ببقية مدن العالم الإسلامي، لفاقت مدينة بغداد أقرانها بأضعاف مضاعفة، وهي موزعة بين عمل مسلح وانتفاضة وثورة وإضراب، هذا وقد انعكس الأمر حتى على بقية مدن العراق؛ لأن بغداد لم تفقد تأثيرها القيادي حتى بعد احتلالها وسقوط الخلافة العباسية فيها، وكان ينظر المغول إليها على أنها قاعدة مغرب الحدود المغولية[١].

الاحتلال الجلائري لبغداد:

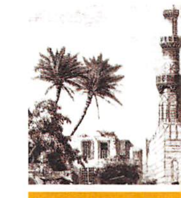
لا يُعدّ الاحتلال الجلائري لبغداد بطبيعة الحال أفضل من الاحتلال المغولي؛ لأن الجلائريين يمثلون الامتداد الأسري والثقافي ذاته الذي كان يحمله الغزاة المغول لكن بأدواره الأخيرة، أي ما بعد إعلان إسلامهم، ومن أهم مميزات هذا العصر أنه ينقسم إلى حقبتين الأولى تمتعت فيه مدينة بغداد بشبه استقرار على الأصعدة كافة، ويمتد طيلة فترة حكم حسن الجلائري ٧٥٧هـ وابنه أويس ٧٧٦هـ، ومن مميزاتها:

١- انتهاء الحكم المغولي الإيلخاني وبداية الحكم الجلائري عام ٧٤٠هـ، والتي عادت فيه بغداد بصفتها العاصمة السياسية للدولة الجلائرية، وبتأييد من المماليك حكام مصر، الذين لم يعملوا هذه المرة على عودة الخلفاء العباسيين إلى بغداد، مخافة أن تنتزع بغداد زعامة العالم الإسلامي من يد الدولة المملوكية، فتركت بغداد لأهواء حكامها الجدد[٢].

---

(١) الجبوري، دور الفئات الاجتماعية، ص١٢٨.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤، ص ٢٩٣. المقريزي، المصدر السابق، جـ٢، ق٣، ص ٨٣٠، ٩٠٧.



٢- تميزت فترة العهد الأول من الحكم الجلائري بالاستقرار النسبي على الصعيد السياسي؛ من خلال التبعية التي دانت بها الدولة الجلائرية للمماليك حكام مصر وبلاد الشام، حتى سُكَّت النقود بأسمائهم، وعلى الصعيد العسكري فلم تشهد بغداد تمردات أو هجمات تستهدفها من أي جهة خارجية، سوى الذي قاده مرجان بن عبدالله بن عبدالرحمن حاكم بغداد زمن السلطان أويس سنة ٧٦٩هـ والذي انتهى بقبول السلطان أويس شفاعة أهل بغداد له، وقد كافئهم مرجان ببناء جامع عُرف بجامع مرجان، وألحق به مدرسة عظيمة، وخان عُرِف بخان مرجان، تُصرف نفقاته على المسجد والمدرسة التي ألحقت بها الأوقاف الوفيرة، والتي ضاعت بسبب طمع وإهمال الحكومات لها، وما زال الاستقرار السياسي يعلي من شأن مدينة بغداد حتى وصفها الشاعر خندمير (بالروضة الغناء، والبلدة المعظمة)[١].

أما عن العهد الثاني من الحكم الجلائري والذي أعقب وفاة السلطان أويس ٧٧٦هـ، فقد دخلت البلاد، وخصوصًا بغداد، في صراعات الأسرة الحاكمة، للسيطرة على العاصمة بغداد، وحروب الإخوة الأعداء، وظهور دولة القره قوينلو التركمانية، التي قدر لها فيما بعد أن تصبح أحد أطراف النزاع في السيطرة على بغداد، ويكفي بنا أن نسرد الوقائع السياسية والعسكرية لتتضح الفوضى التي مرت بها تلك الحقبة من الزمن:

أ- تذبذبت عاصمة الجلائريين ذهابًا وإيابًا بين بغداد وتبريز.

ب- بعد تسلم السلطان حسين بن أويس السلطة الجلائرية خرج عليه بعض القادة، فسيَّر حملة عسكرية للقضاء عليهم، وخلف بدله الأمير إسماعيل حاكمًا على بغداد، فغدر به الشيخ علي بن أويس وسيطر على حكومة بغداد، مستغلاً خروج أخيه السلطان حسين مما اضطر السلطان حسين إلى الاعتراف بولايته على بغداد عام ٧٨٠هـ، لكن وبمساندة عادل أغا للسلطان سيَّر الاثنان جيشًا إلى بغداد عام ٧٨٢هـ هرب على إثرها الشيخ علي بن أويس إلى خارج بغداد، فدخل السلطان إلى بغداد إلا أنهم رأوا منه الظلم والاستبداد والضرب والمجون، ما دفعهم إلى التحايل عليه لطرده من المدينة بعد مكاتبة الشيخ علي، وبالفعل لما أحسَّ السلطان حسين الخوف على حياته من أهل بغداد هرب باتجاه تبريز فاعترضه أخوه أحمد في أعمال أذربيجان وقتله هناك عام ٧٨٤هـ، فثار الأمير بايزيد

(١) مينورسكي، مادة أويس، دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، م٥، ص١٦٣.

بن أويس والشيخ علي بن أويس على أخيهما أحمد بن أويس وساندهما في ذلك عادل أغا الذي أرسل ابن أخيه طرسون حاكمًا على بغداد، وانكسر جيش أحمد بن أويس الذي استنجد فيما بعد بقره محمد التركماني زعيم قبائل القره قوينلو ليعيد الكرة، وينتصر على أخويه ويقتل أخاه الشيخ علي، وأنفذ هدنة بين الطرفين خضعت فيها بغداد لسلطة عادل أغا عام ٧٨٤هـ، وبسبب الفوضى التي أصابت مدينة بغداد، نُهب بيت المال، واستغل السلطان أحمد بن أويس الأمر وباغت بغداد عام ٧٨٥هـ بجيشه واستعادها، وقتل وإليها طرسون، وبالرغم من محاولات عادل أغا استرجاع المدينة لكنها باءت بالفشل، واستمر السلطان أحمد في مناوأة خصومه حتى عام ٧٩٥هـ، وقدوم تيمورلنك الذي دخل بغداد للمرة الأولى دون مقاومة بعد فرار السلطان أحمد إلى مماليك مصر، وولى عليها مسعود السبزواري من قبل تيمورلنك، ودام ذلك قرابة السنتين حتى عام ٧٩٧هـ[١].

ويبدو أن بغداد لم تتكبد خسائر جسيمة على إثر دخول جنود تيمور؛ لأنها لم تقاوم، فعد تيمور فتحها صلحًا، ولم يستبحها بل فرض عليها ضريبة مال الأمان، وهناك من يشير إلى أن جند تيمور قد تعرضوا للسكان في أثناء جمع الضريبة فذهب ضحية ذلك ثلاثة آلاف شخص[٢].

وفي عام ٧٩٧هـ قاد السلطان أحمد جيشه لاستعادة بغداد، وبالفعل تمكن من ذلك بعد رجوع تيمور لنك إلى بلاد القفجاق، وابتعاده عن بغداد، لكن التيموريين لم يقفوا إلى هذا الحد فقد تعرضت مدينة بغداد أيضًا لحملتين تيموريتين فاشلتين في سنة ٨٠١هـ، ٨٠٢هـ، استهدفتا السيطرة عليها، والقبض على السلطان أحمد الجلائري.

وعلى الرغم من تمكن السلطان أحمد من رد هاتين الحملتين، إلا أنهما أضعفتا من مركزه كثيرًا، ولاسيما بعد مؤامرة شروان، التي ذهب ضحيتها ألفان من أمرائه، والمقربين إليه.

وكثرت المؤامرات التي حيكت بعد هذه الحادثة من قبل الأمراء الجلائريين بالتعاون مع أهل بغداد ضد السلطان أحمد الذي عُرف بظلمه للناس وسرقته لأموالهم وعدم الاهتمام بشئونهم، فأخذ يتوجس خيفة من المقربين إليه، وأصبح غير مطمئن إلى وضعه السياسي في بغداد، وبخاصة أن مخاطر الغزو التيموري لبغداد ما تزال قائمة، وفي محاولة منه لتقوية مركز نفوذه فيها، خرج سرًّا وتوجه إلى

(١) ميرخواند، تاريخ روضة الصفا، تهران ج٥ ص٥٧٩؛ سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٤٣-٢٤٥.
(٢) المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ق٢، ص ٧٩٠.



قرة يوسف في الموصل زعيم القره قوينلو طالبًا منه العون، فوافقه قره يوسف، وقدم الاثنان إلى بغداد وعسكرا في الجانب الغربي منها لتصفية خصومه، وذلك سنة ٨٠٢هـ، فسمح أهل بغداد للسلطان أحمد بالدخول، وقاوموا جيش قرة يوسف لفصل عرى الحلف بين الطرفين فترك السلطان أحمد قرهيوسف في الجانب الغربي، ودخل وحده بغداد دون أن يعترضه أحد(١).

ثم ندم على استقدامه قره يوسف، مخافة أن يسيطر على بغداد، ويزيحه عنها، لذلك حاول استرضاءه، بأن قدم له كميات ضخمة من الأموال والنفائس والخيول، وطالبه بالعودة إلى بلاده، فوافقه قره يوسف(٢).

وهذا يدل على الفوضى التي كانت تعيشها بغداد، خصوصًا أنها منذ دخول السلطان أحمد إليها استعادت مكانتها كعاصمة للدولة الجلائرية، وفي عام ٨٠٣هـ كان تيمور قد أرسل جزءًا من قواته بقيادة الأمير زاده رستم لمحاصرة بغداد، بعد أن علم بانسحاب السلطان أحمد الجلائري منها خوفًا على حياته، وقد لاقت قواته مقاومة عنيفة من قبل المقاتلين العرب والتركمان المتطوعة بقيادة الأمير فرج الذي تمكن من إفشال الهجوم مما حدا بتيمور - الذي كان قد أكمل أهدافه في شرق الأناضول والشام - على التوجه بقطعاته عن طريق الموصل - أربيل نحو بغداد ليحاصرها، وبعد حصار دام أربعين يومًا تمكن جنده من اقتحام أسوار المدينة، ومن ثَم احتلالها وذلك في ٢٦ ذي القعدة سنة ٨٠٣هـ، وبعد أن علموا أن السلطان أحمد وجنده قد هربوا، وأن المقاومة كانت من أهل بغداد، أعملوا في أهلها القتل، فذهب ضحية ذلك عشرات الآلاف من الأشخاص(٣).

وقال صاحب كتاب منتجع المراد في تاريخ بغداد: «وكانت واقعة بغداد هائلة اندكت لها الأرض، وعملوا فيها السيف فقتلوا فيها الأولاد والنساء والرجال، وخربوا حصونها، وهدموا بروجها، وأتلفوا كل ما فيها من الحسن، فجرى ما جرى إذ ذاك وسالت الدماء كالماء في شوارعها، وأقاموا فيها هرم عليه تسعون ألف رأس من القتلى»، وعين تيمور لنك عليها حفيده ميرزا أبي بكر بن ميران شاه، واستمر الحال كذلك حتى عام ٨٠٦هـ، فلما علم السلطان أحمد بوفاة تيمور لنك عاد إلى بغداد، وارتجت المدينة بسماع الخبر وهرب حاكمها (دولة خواجا عناق) إلى معسكر ميرزا عمر أحد أحفاد

(١) الغياثي، التاريخ الغياثي، ص١١٨- ١٢٢.
(٢) نظام الدين شامي، ظفر نامه، ص١٦٩.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٣٦٦.

تيمور لنك، ولم يمض سوى أسبوع حتى دخل السلطان أحمد بغداد من جديد عام ٨٠٧هـ[١].

وفي عام ٨١١هـ خرج أويس بن السلطان أحمد لاحتلال بغداد لكنه أُسكت فيما بعد بالذهب والاسترضاء، وفي عام ٨١٣هـ ظهرت في بغداد ثورة بقيادة القبائل العربية ضد السلطان أحمد الجلائري، وحال إخمادها توفي السلطان أحمد، وعلم قرة يوسف زعيم القره قوينلو بالأمر فسارع في إرسال ولده محمد على رأس جيش لاحتلال بغداد، ودام الحصار للمدينة قرابة العام حتى احتلها عام ٨١٤هـ، وأنهى بذلك عهد الحكم الجلائري، وإعلان بداية حكم القبائل التركمانية القره قوينلو[٢].

احتلال قبائل القره قوينلو:

قبل الحديث عن مميزات حكم القره قوينلو استوقفتنا روايتان تاريخيتان تصفان هذه المرحلة من التاريخ البغدادي:

الأولى للمقريزي الذي عدهم -أي: القره قوينلو- « شر عصابة، سلطت على الناس بذنوبهم»[٣].

والثانية لابن تغري بردي عن قرة يوسف وذريته حيث قال: « هو كما قالوا وزيادة عليه وعلى ذريته اللعنة...» فإنه لم يُعلم لا في «طوائف التركمان ولا في أوباش عساكر جغتاي ولا في جهال التتار أوحش سريرة، ولا أقبح طريقة ولا أسوأ سيرة ولا أضعف دينًا ولا أعدم مروءة، ولا أقل نخوة، ولا أبشع خبرًا من هؤلاء الزنادقة الكفرة الفسقة أولاد قرة يوسف...»[٤]، ولذلك فضل هذا المؤرخ «جور أولاد تيمور» على «عدل بني قره يوسف».

ومن مميزات عصر احتلال القره قوينلو:

١- أصبحت بغداد عاصمة إقليم العراق، وهي المسئولة عن خراج أرضه، وعليها يقع سداد العجز الحاصل في واردات الدولة من البصرة والأهواز وغيرها؛ بسبب حركات التمرد والانفصال الحاصلة هناك، فعانى أهل بغداد جور الضرائب وسوء سلوك ولاتها[٥].

---

(١) سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٥٦.
(٢) سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٥٣-٢٥٦.
(٣) السلوك، جـ٤، ق٢، ص٩٢٤.
(٤) النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص١٠٠، جـ١٥، ص٤٥-٤٦.
(٥) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٩٠.



٢- يعتبر هذا العصر من أشد العصور التي مرت في تاريخ مدينة بغداد ظلمًا وجورًا وفسادًا؛ لكثرة النزاعات والحروب والإبادة الحاصلة على العرش.

٣- افتتح الشاه محمد بن قره يوسف حكمه لمدينة بغداد باستباحتها ومصادرة أملاك أهلها، وفي عام ٨٢٠هـ[١] قاد السلطان قره يوسف جيشه إلى بغداد؛ لإرغام ولده محمد على زيادة واردات الدولة من إقليم العراق، والذي تتحمله مدينة بغداد، فصادر الشاه محمد أملاك أهل بغداد وحتى الأوقاف لاسترضاء والده، ونتج عن ذلك هجرة جماعية لسكان المدينة، وتكرر الأمر سنة٨٢٣هـ، وبعد حصار دام ثلاثة أيام لمدينة بغداد دخلها، واعتقل الشاه محمد، وصادر جميع أمواله، وعزله عن ولايته، وعين بدلاً منه ولده الثاني اسبان.

وفي السنة نفسها وافق موت السلطان قره يوسف، ليبدأ الصراع بين الأخوين محمد واسبان على بغداد حيز التنفيذ الفعلي[٢]، فعاد الشاه محمد وخضعت له المدينة، لكن بسبب انشغاله وأولاده بعد هذه الحادثة بالأكل والشرب واللهو، وإهمال ولاية العراق، أصبحوا لا يتجاسرون على أن يتجاوزوا سور بغداد حتى انتزعها منه أخيه اسبان في عام ٨٣٦هـ،[٣] ودخل بغداد بعد هروب الشاه محمد، وسلب أهلها ما يمتلكون، كما صادر أموال الشاه محمد وأموال رعاياه.

واستمر الأمر سجالاً حتى توفي الشاه محمد، وجمع حكم العراق لاسبان، لكن في عام ٨٥٠هـ دخلت بغداد بحوزة جهان شاه؛ بسبب موت أخيه ومنافسه اسبان وغياب ولي عهده الوند بن إسكندر عنها، وتمرد حامية بغداد عليه، فقبض على الأمراء الذين أبدوا بعض المقاومة، ونفذ فيهم القتل، ثم أمر جهان شاه جيشه بنهب المدينة، فنُهبت ثلاثة أيام، وقُتل خلق كثير[٤].

وقد رحل عن بغداد بعد أن عين ابنه محمدي ميرزا حاكمًا عليها يساعده عبدالله كبر، ثم ما لبث أن عزله، وعين بدله ابنه الآخر بير بوداق الذي اتضح أنه كان أكثر طموحًا في الحكم، ودارت الحروب الطوال بينه وبين والده للسيطرة على سلطنة القره قوينلو وبغداد حتى أنهكت البلاد ورحل سكان

---

(١) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ٢، ص٣٦٩.
(٢) الغياثي، تاريخ الغياثي، ص٢٥٦.
(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٥٠٢. الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ٣، ص٢٦٦.
(٤) الغياثي، تاريخ الغياثي، ص٢٨٨-٣٠٥.

بغداد عن مدينتهم مرات عدة، وأجبروا على ترك ممتلكاتهم مؤنة للجيش إلى أن تمكن أخيرًا جهانشاه من حصار بغداد لسنة ونصف خلت فيها من السكان تمامًا ودخولها بعد استسلام ولده بير بوداق وقتله، ونصب جهانشاه على بغداد بعد دخولها، بير محمد تواجي، فظل هذا حاكمًا عليها حتى الاجتياح الآق قوينلوي للعراق سنة ٨٧٢هـ[١].

٤- أما عن دور العلماء فقد عُذِّب قاضي قضاة بغداد تاج الدين أحمد بن محمد بن أحمد الحنفي البغدادي (٧٥١-٨٣٤هـ) وجُدع أنفه لتعرضه لفساد قره يوسف وأولاده[٢]، وللسبب نفسه قتل القاضي محمد بن طاهر شمس الدين بن يونس في سنة ٨٣٣هـ[٣].

٥- بسبب عنف التطاحن السياسي بين الأمراء المتنافسين على السلطة، أصبحت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب، كان أبرز مظاهرها: أعمال القتل والإبادة الجماعية، وتهجير السكان، والتخريب ونهب المدن، وانتشار الأمراض والأوبئة والمجاعات، فضلاً عن الانكفاء الحضاري الذي كان قد أصاب العراق منذ انهيار الخلافة العباسية.

٦- كانت بغداد بوصفها مركز ولاية العراق أكثر المدن العراقية تضررًا على يد هؤلاء الغزاة[٤].

احتلال الآق قوينلو لبغداد:

إن أوضاع العراق على عهد الآق قوينلو لم تختلف كثيرًا عما كانت عليه في عهد الغزاة، الذين سبقوهم، فحسن الطويل زعيم الآق قوينلو عند محاصرته بغداد سنة ٨٧٢ هـ - ١٤٦٧م بهدف احتلالها هجَّر سكان القرى المحيطة بها إلى ديار بكر، ولم يترك -على حد قول الغياثي- نفسًا واحدة فيها؛ بهدف إضعاف مقاومة بغداد له[٥].

وخلال مدة حكم أمراء الآق قوينلو عاش العراق حالة من الصراع السياسي بين المتنافسين على ولاية بغداد، ومع ما قيل عن إصلاحات حسن الطويل وابنه السلطان يعقوب الاجتماعية

---

(١) الغياثي، تاريخ الغياثي، ص٣٢٧، ٣٣١، ٣٧٩.
(٢) الغياثي، المصدر السابق، ص٣٢٧، ٣٣١، ٣٧٩.
(٣) السخاوي، الضوء اللامع، جـ ٧، ص ٢٧٤.
(٤) عن هذه الحقبة وصراعاتها السياسية ينظر قداوي، تاريخ العراق، الفصل الثالث، ص٦٨.
(٥) الغياثي، تاريخ، ص٣٠٧، ٣١٧.



والاقتصادية، فإن المعلومات لا زالت غير واضحة المعالم في ما يخص العراق منها، على الرغم من أن البدليسي قد ذكر أنها قد طبقت في العراق دون ذكر التفصيلات، وهذا ما يجعل الكثير من الكُتاب المعاصرين والباحثين يعمدون إلى تفضيل حكم الآق قوينلو على حكم القره قوينلو لبغداد(١)، ومن مميزات هذا العصر:

١- أشار المؤرخ أبو بكر الطهراني(٢) إلى أن حسن الطويل تلقى طلب استغاثة من قضاة وأعيان بغداد بإنقاذهم من جور الحاكم شاه منصور بن زينل الذي وصفه الغياثي(٣) بأنه كان ظالمًا غشومًا جاهلاً، قد ذهب ضحية نزواته أكابر العسكر والناس الأبرياء، وكان لا همَّ له سوى الفسق بالنساء، وأمام حاكم بهذه الشاكلة لا ينتظر منه أبدًا أية مقاومة ضد قوات قبائل الآق قوينلو، ودخل عسكر حسن الطويل بغداد ومعهم شاه منصور- الذين سلبوا منه كل شيء - حتى إنهم قد «أخذوا الفرس الذي تحته...، وأعطوه اكديشًا ما يتحرك من موضعه، وأركبوه»، ولم يتعرضوا لأهالي بغداد بأذًى أو نهب(٤).

وبعد مرور سبعة أو ثمانية أيام على احتلالهم بغداد جرت محاكمة شاه منصور بتهمة قتل عدد كبير من الرعية في أثناء فترة حكمه، فأدانه القضاة بحضور خليل أغا، وحكم عليه وعلى أخيه برام بيك بالموت، ونُفِّذ فيهما الحكم، وطرحوا جثتيهما في الميدان، وذلك في يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، كما قتلوا في اليوم نفسه اثنين من أعوانه هما درويش ذو النون وعبدالله الأسود، وبمقتل شاه منصور الذي حكم بغداد شهرين واثني عشر يومًا انقرض حكم القره قوينلو نهائيًا في العراق(٥).

٢- بقاء العراق ولاية تُدار من عاصمته بغداد كما كان على عهد القره قوينلو.

٣- إنّ أوضاع العراق بشكل عام، وبغداد بشكل خاص، كانت مستقرة نوعًا ما، وعلى حد قول الغياثي: إنّ حسن الطويل «لم يغادر من أمور العدل شيئًا يقدر عليه إلا فعله»(٦).

---

(١) قداوي، تاريخ العراق، ص٢٣١.

(٢) قداوي، تاريخ العراق، ص١٣٠.

(٣) التاريخ الغياثي، ص ٣٣٤.

(٤) التاريخ الغياثي، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) التاريخ الغياثي، ص ٣٩٢.

٤- لم يدم صفو بغداد طويلاً، فقد قاد أولاد حسن الطويل أوغرلو محمد ومقصود بيك حاكم بغداد تمردًا على والدهم، بمساندة الدولة العثمانية، إلا أن خليل بك أحد القادة العسكريين في بغداد قد فطن للأمر، وتصدى للمتمردين وأفشل الأمر فاضطر أوغرلو للهرب إلى إقليم بلاد الجبل؛ حيث قتل هناك بأمر من حسن الطويل سنة ٨٨٠هـ-١٤٧٥م، أما مقصود بيك فقد عزل عن الحكم وسُفِّر إلى بلاد فارس؛ ليكون تحت رقابة شقيقه الآخر السلطان خليل[١].

ومن غرائب الحكم أن القائد خليل الذي قضى على التمرد أصبح مطارَدًا مِن قِبل حسن الطويل؛ لخوف الأخير من شهرة القائد، وازدياد طموحاته السياسية، فإذا كان هذا حال من خدم دولة الآق قوينلو فما بالك بمصير من خاصمها ؟![٢]

٥- كثرة هجمات المشعشعين على بغداد شبه السنوية، التي كانت مصحوبة بالنهب والسلب والقتل وهدم المساجد والأضرحة؛ لأنهم كانوا يدينون بألوهية علي بن أبي طالب، ولا يجيزون أن تُقام له ولأبنائه المقامات والأضرحة، والتي على إثرها سادت بغداد فوضى سياسية، كثرت فيها التغييرات التي طالت حكام إقليم العراق في بغداد مع فشلهم في إيقاف هجمات المشعشعين[٣].

٦- ازدياد طمع مماليك مصر ببغداد، مستغلين الفوضى العسكرية التي تتعرض لها البلاد، وسيَّروا لذلك حملة عسكرية كبيرة اصطدمت بتحشيدات قوية لقبائل الآق قوينلو أسفرت عن هزيمة الجيش المملوكي، وهي على حد وصف ابن إياس لها « كانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر.. بحيث إن حوافر الخيل كانت لا تطأ إلا على جثث القتلى من العسكر»[٤].

وبالرغم من كل ما ذكر أعلاه وما يمكن تخيله مما عانته بغداد من ظروف، إلا أن الباحثين في فترة حكم الآق قوينلو يعدون فترة حكم حسن الطويل، ومن بعده السلطان يعقوب من أهدأ الفترات التي عاشتها بغداد مقارنة بالمائة سنة التي سبقتها!

(١) العزاوي، تاريخ العراق، جـ٣، ص ٢٤١.
(٢) العزاوي، تاريخ العراق، جـ٣، ص ٢٥٠.
(٣) قداوي، تاريخ العراق، ص٩٧.
(٤) ابن إياس، تاريخ ابن إياس، جـ٢، ص١٩٩.

٧- بعد وفاة السلطان يعقوب سنة ٨٩٦هـ-١٤٩٠م، اضطربت أحوال الآق قوينلو، بسبب صراع الأبناء على السلطة، واستقلال كل فرد من أمراء الأسرة الحاكمة بجزء من الدولة فاستغل الصفويون الأوضاع السائدة للبلاد للاستفراد بأمراء الآق قوينلو، والسيطرة على ولاياتهم الواحدة تلو الأخرى، وكان آخرها بغداد، بعد هروب مراد بن يعقوب آخر حكام الآق قوينلو إلى الدولة العثمانية[١]، طلبًا للأمان تاركًا بغداد تحت رحمة احتلال من طراز جديد لم تعهده الفترات السابقة من التاريخ البغدادي بدمويته العقائدية عام ٩١٤هـ - ١٥٠٨م[٢].

٨- وكانت أصول جميع من تولى منصب قاضي القضاة في العراق محلية، وهذه دلالة على أن أمور الشرع الإسلامي بقيت بأيدي السكان المحليين[٣].

احتلال التحالف الصفوي لبغداد:

على الرغم من أن الاحتلال الصفوي لمدينة بغداد للمرة الأولى زمن الشاه إسماعيل الصفوي، وللمرة الثانية زمن الشاه عباس الصفوي لم يدم طويلاً، إلا أن فضائح وفظائع الممارسات الطائفية والمجازر التي طالت سكان بغداد لم تكن ليغفلها أحد من المؤرخين جريًا كعادتنا اليوم[٤]، حتى عده البعض كمجازر هولاكو.

والذي نراه أن الغزو المغولي لبغداد كان بوابة لما تلاها من مآسٍ عاشتها هذه المدينة، وإذا كان الغزو المغولي كما وصفه البعض بأنه غزو لقبائل لا تحمل الحضارة هدفها الوحيد هو التوسع، وإقامة إمبراطورية لهم، فقد وصف الغزو الصفوي بأنه غزو عقائدي شيعي جاء لاحتلال الأرض، وقتل السكان، أو إجلائهم وتوطين بدلاً منهم العنصر الفارسي لتغيير ديموغرافية المكان[٥]، الهدف منه تحقيق أهداف آنية لهم في زمنهم وبعيدة في زمننا اليوم.

ولا تزال بغداد إلى هذه اللحظة تعيش آثار ما خلَّفته الغزوات المتكررة عليها، من صراع الهوية

(١) قداوي، تاريخ العراق، ص١٣٨-١٤٠.
(٢) العزاوي، تاريخ العراق، جـ٣، ص ٣١٥.
(٣) قداوي، تاريخ العراق، ص١٤٩-١٥٠.
(٤) لونكريك، أربعة قرون، ص٧٧.
(٥) لونكريك، أربعة قرون، ص١٧٧.

بكل جوانبه: العقائدي والفكري، يعلو فيه صوت الأقليات المتنافسة على المناصب والصدارة، ولا نكاد نسمع صوت الأغلبية السنية، التي كان حلمها سببًا في ضياع المدينة إلى يومنا هذا.

كما لا يمكن استبعاد التأثيرات الفارسية على الواقع السني البغدادي، منذ قيام الدولة الصفوية، حتى إن المؤرخين الأوروبيين يرون أن تاريخ العراق قد اندثر على يد الغزو المغولي ومن تبعه، إلى أن جاء الصراع الصفوي- العثماني الذي جعله يرتفع عاليًا مرة أخرى(١)، لكن هذه المرة على حساب القضية السنية.

ويرى المؤرخ المحامي عباس العزاوي أن سبب عدم استقرار بغداد يعود إلى مجاورتها لبلاد فارس، وأن فترات الهدوء التي تمتعت بها بغداد كانت إبان الاحتلال الأفغاني للدولة الصفوية، وإيقاف المساعدات الفارسية للمتمردين من أوائل القرن الثامن عشر، في الوقت الذي يرى د. علي الوردي أن فترات حكم الفرس للعراق تتسم بالقتل والمجازر والذبح.

وبالعودة إلى التأثيرات العسكرية والسياسية لبلاد فارس على العراق، فلا يمكن بأي حال من الأحوال سرد الوقائع التاريخية بأسلوبها التقليدي لكثرتها، وسنكتفي بذكر أبرز مميزات الاحتلال الفارسي لبغداد منذ قيام الدولة الصفوية والأفشارية والزندية والبهلوية.

صفات الاحتلال الصفوي:

١- تعدّ مجازر الغزوات الصفوية في بغداد بصورة عامة، وعلى أهل السنة على وجه الخصوص، الصفة الأبرز للاحتلال الصفوي، وقد تركت أثرًا بالغًا لدى الكثير من المؤرخين الذين عاصروا أو سمعوا ما حدث، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ العراقي الحديث إلا وأبدى دهشته من وحشية المجازر التي لا يمكن تغاضيها أو تقييدها ضد مجهول، ابتداءً من مجازر الشاه إسماعيل الصفوي الذي شبّهه الشيخ صبغة الله الحيدري بمجازر هولاكو من قتل للناس ونبش لقبور الأولياء وحرق لعظامهم، ثم أطلق على الوالي الذي ولاه على ولاية بغداد بلقب (خليفة الخلفاء) احتقارًا لأهل السنة بعد أن كان اسمه (خادم بيك)(٢).

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص١٣.

(٢) لونكريك، أربعة قرون، ص١٧٤؛ ياسين، العنف الدموي، ص١٨٤.



ثم تبعتها مجازر عباس الصفوي الذي كان ينوي فيها القضاء على كل أهل السنة في بغداد، وتحويلها إلى مدينة فارسية شيعية[١]، بعد استجلاب العنصر الفارسي إليها، حتى صار سكان بغداد من أهل السنة يهرعون إلى الهروب نحو الفلوجة والحلة على إثر سماعهم فقط بوصول الجيوش الفارسية إلى بغداد في كل مرة يقتربون فيها من المدينة[٢]، وبلغ سكان بغداد في عهد عباس الصفوي ثلاثين ألف نسمة[٣]، أغلبهم أو كلهم من الفرس بعد أن كان تعداد مدينة بغداد السكاني بلغ مائتي ألف نسمة قبل غزوه لها، أما عن حصار نادر شاه عام ١٧٣٢م، لبغداد فقد راح ضحيته مائة ألف نسمة نتيجة نقص المؤنة الغذائية للمدينة بسبب طول الحصار[٤].

٢- مساعدة الفرس للتمردات الخارجة على الحكم العثماني، وانضمام عساكرهم للعشائر الشيعية وانتفاضات الولاة الخارجين عن سلطة الوالي، واستمالة القبائل العربية ضد العثمانيين، وفوق هذا وذاك كان الفرس يتوسطون لدى العثمانيين للعفو عن تلك القبائل الخارجة من الشيعة، وكانوا يهددون العثمانيين بقبول الوساطة أو أن يهاجموا بغداد بمعية تلك القبائل وإحداث الفوضى.

أما عن أحوال القبائل العربية السنية كقبيلة آل الشاوي الزبيدية التي تعرضت للنفي من بغداد، بسبب اعتناقها المنهج السلفي، ودعوتها له في مناطق الأعظمية[٥]، فلا وساطة لعودتهم إلا بالرضوخ للوالي الانكشاري البكتاشي، أو بالتحالف مع القبائل الشيعية ذات الولاء الفارسي، وفي كلتا الحالتين تكون فيها القضية السنية هي الخاسرة.

٣- استخدام الفرس للخطابات الدينية الرنانة، متخذين من العتبات والمراقد ذريعة لاحتلال بغداد، لكسب التأييد المطلق من قبل الجيش الفارسي والقبائل الشيعية العراقية، منها خطاب نادر شاه الذي صرح فيه عن المرتكزات الحقيقية للسياسة الخارجية الفارسية تجاه العراق: «إننا نطالب بحق لا نزاع فيه في زيارة قبور الأئمة علي والحسين والمهدي وموسى... نحن سائرون حالاً على رأس جيشنا

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص٧٩.
(٢) الوردي، لمحات، ج١ص٧٠.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص٩٨.
(٤) لونكريك، أربعة قرون، ص١٧٧؛ ياسين، العنف الدموي، ص٢٠٤.
(٥) العزاوي، بين احتلالين، ج٦ص١١٢.

المظفر لتتنسم هواء سهول بغداد العليل، ولنستريح في ظل أسوارها»[١].

جاء هذا الخطاب في عام ١٧٣٢م في الوقت الذي لم تكن الدولة العثمانية لتمنع الزوار الفرس من العراق، ومن جهة أخرى وضح الخطاب الربط المتعمد في السياسة الفارسية بين العتبات والمراقد وحقهم في احتلال العراق[٢]، وهذه أحد أسباب تأثير السياسة الفارسية في الشيعة العراقيين.

٤- وكنتيجة اعتيادية لأساليب تنفيذ السياسة الفارسية تجاه العراق جاءت المطالب الفارسية بإطلاق حزمة من الشروط لترسيم الحدود العراقية الفارسية عام ١٨٨٦م، منها حماية القبائل العصية على الحكم العثماني، وحقوق إسكان وإقامة الأمراء الفرس المشكوك في ولائهم في بغداد دون مضايقات أو تساؤلات عن نشاطاتهم، وإلحاق إدارة العتبات والمراقد بالدولة الفارسية أو الفرس، والحق في تمويل حملات الدعوة الشيعية الكبيرة حول العتبات.

٥- كان لملك جورجيا اليد الطولى في مد يد العون العسكري للدولة الصفوية في بسط نفوذها ونشر عقائدها في بلاد العراق والأناضول على حد سواء[٣]، والسعي لعقد معاهدات دفاع مشترك بين الصفويين وأوروبا ضد الدولة العثمانية، ثم نالت هذه الجهود مباركة كل من البابا بيوس الخامس والبابا كريكوري الثالث عشر في مساعدة الدولة الصفوية[٤].

وفي عام ١٥٢٥م استنجد الشاه الصفوي طهماسب بملك هنغاريا ضد الدولة العثمانية لتعزيز سلطانه في العراق[٥]، ومنها أيضًا استعانة نادر شاه بالأوروبيين لعبور نهر دجلة وإحكام الحصار على بغداد لاحتلالها عام ١٧٣٣م.

٦- كانت السياسة الفارسية بشكل عام، دعوة عقائدية دءوبة في أوقات ضعفها وقوة الطرف العثماني، وحروب واحتلالات في أوقات الضعف العثماني، وإجبار العثمانيين على الاعتراف بالسيادة الفارسية على الجالية الشيعية في بغداد، وتكوين التحالفات الاستخبارية والاقتصادية مع الشركات

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص١٦٩.
(٢) لونكريك، أربعة قورن، ص١٦٢.
(٣) إبراهيم خليل، خليل علي، تركيا وإيران، ص٢٢.
(٤) المصدر السابق.
(٥) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٥.



الأوروبية لتسهيل عملها التجاري، مقابل تقوية الطرف الآخر وتأييده للعنصر الشيعي في بغداد بوجه العثمانيين[١].

الحكم العثماني لبغداد:

لم تكن الدولة العثمانية لتهمل ما لبغداد من مكانة روحية واقتصادية وعسكرية لتوجه أنظارها صوب القارة الأوروبية، لكنها كغيرها من الدول التاريخية التي تحمل العقيدة السنية كانت إذا ما قويت شوكتها، واشتد عودها سهرت على نشر الإسلام، وتوسيع أراضيه وكسر شوكة أعدائه، عكس الدول الشيعية التي لم يحفظ لنا التاريخ نصًّا واحدًا أنها أضافت إلى الخارطة الإسلامية ولو شبرًا واحدًا، بل غالبًا ما كانت توسعاتها، وهمومها تنصب على طعن الإسلام في عقر داره، والأمثلة كثيرة، لكن ظهور التحالف الصفوي، وإعلانه العداء للدولة العثمانية بمساندة دول أوروبية، وارتكابه المجازر المروعة بحق أهل السنة في بغداد، واستنجاد أهل بغداد بالسلطان سليمان القانوني، كل ذلك أعاد بغداد إلى أولويات الفتح العثماني، ولمعرفة مكانة بغداد في السياسة العثمانية، يظهر لنا نقش على إحدى القلاع الجبلية كتب على لسان السلطان سليمان القانوني فيه يقول: «أنا عبدالله، وسلطان هذا العالم.. يُذكر اسمي في الخطبة بمكة والمدينة، في بغداد أنا الشاه، وفي بيزنطة أنا القيصر، وفي مصر أنا السلطان...»[٢].

وهذا يدل على أهمية بغداد التي ابتدأ بها خطابه، وأنها لا زالت تمتلك من النشوة في قلوب سلاطين العالم عند حكمها، لكن الحال لم يدم على ما هو عليه، فالدولة العثمانية كما بدأت قوية انتهت ضعيفة تضرب الفوضى في أرجائها حتى سقوطها في عام ١٩١٨م بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

صفات الحكم العثماني:

١- يرى د. علي الوردي أن فترات حكم السلطة العثمانية كانت تتسم بالفوضى؛ بسبب اعتماد الدولة العثمانية في حكم ولاياتها، وفرض سطوتها على الجيش الانكشاري، وأوكلت إليه حقوقًا استثنائية في إدارة هذه الأقاليم، تفوق سلطة الولاة، وغالبًا ما كانوا يسهمون في استبدال الولاة الذين لا يوافقون رغباتهم بدافع المخالفة أو قبض رشاوى أو دسائس لذلك، فكيف إذا علمنا أن الجيش الانكشاري في أيامه الأخيرة، كان مؤيدًا لفكرة وضع بغداد تحت سلطة النفوذ البريطاني منذ القرن

(١) الوردي، لمحات، ج١ ص٥١-٥٢.
(٢) إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية، ص٦٧.

الثامن عشر الميلادي؛ الأمر الذي أدى إلى سرعة تبدل الولاة العثمانيين[١]، وهذه من أهم نقاط الضعف التي أعطت الضوء الأخضر للدولة الصفوية بالتدخل في شؤون بغداد الداخلية، علماً بأن العقيدة التي يحملها الجيش الانكشاري هي الصوفية البكتاشية، والتي كانت تؤمن بعصمة الأئمة الإثني عشر من نسل الإمام عليّ، وأحقيتهم بالولاية، والبكتاشية ملئوا الولايات العراقية بالعساكر، وكانوا يعلنون في تكاياهم لعن الصحابة (رضي الله عنهم) والإيمان بغيبة المهدي ابن العسكري، ثم إيصال الإمام عليّ إلى مرتبة الألوهية في دعائهم المشهور: «نادِ عليًّا! يا مظهر العجائب تجده عونًا لك في النوائب»[٢]، ويصفون حالهم بالصوفية السنية، وهذا ذاته ما كانت تنشده وتدعو له الدولة الصفوية في سياستها الخارجية![٣].

٢- ثم إن العقيدة الصوفية البكتاشية كانت تستحل دماء وذمة كل من يخالفها، ومن مواقفها أيضًا الوقوف بوجه الوالي داود باشا؛ تأييدًا للإنجليزي ريج في استثماراته مقابل بعض الأموال المقدمة للانكشارية، ومنعوا أهل السنة البغداديين من تولي مناصب مؤثرة في حكم الولاية، ومحاربة علمائهم في الرزق ومنعهم من رواتب الأوقاف[٤]، ونفيهم عن بلادهم التي يملكون فيها تأثيرًا على عقائد الناس لإزالة خطرهم من أمام البكتاشية، وحرقهم لدور العلماء البغداديين المخالفين لهم[٥]، وبيع مناصب الولاية للعجم أمثال عجم محمد وعلي الخصي أصحاب المجازر المشهورة في بغداد[٦].

ومما وُصفوا به على لسان رحالة أوروبيين، (إن حراس أبواب مدينة بغداد من الانكشارية لا يهتمون لمن يدخل المدينة ولا يسألونه حتى، وإن بغداد خربة بسبب الولاة الانكشارية)[٧]، مما شكَّل عبئًا جديدًا على العقيدة السنية في بغداد في الدفاع عن هوية المدينة بعلم الدولة العثمانية أو بدون علمها.

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص٥٣.
(٢) الوردي، لمحات، ج١ ص٣٦.
(٣) زقزوق، محمود حمدي، موسوعة الفرق الإسلامية، ص١٩١.
(٤) العزاوي، بين احتلالين، ج٧ص٧١.
(٥) الوردي، لمحات، ج١ص١٦٤.
(٦) عثمان بن سند، مطالع السعود، ص٩٦- ٩٧؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٧ص٤٩.
(٧) نيبور، الرحلة، ص٢٤٩.



٣- تذبذبت مكانة بغداد بين عاصمة ولاية وسط العراق والتي سميت بولاية بغداد وبين عاصمة ولاية العراق، وتمتد من ديار بكر وماردين شمالاً، إلى دولة عمان جنوبًا، على طول الشريط الساحلي للخليج العربي حسب الوقائع التاريخية.

٤- كان الولاة العثمانيون كلهم ليسوا من أصول عراقية، وهم ليسوا من العرب أصلاً، بل قيل: إن بعضهم لم يسلم حتى[١]، وكان بعضهم الآخر مملوكًا فارسيًّا على العقيدة الشيعية كالوالي علي رضا اللازر الذي كثر الإغراب في زمانه في بغداد[٢]، وتبادل عبارات الود والهدايا مع الحكام الفرس[٣]، وكان بعض الولاة قد أسلموا حديثًا (قريبي عهد بالإسلام)[٤]، ولا علم لهم بالدين أمثال الوالي داوود باشا ١٨١٦-١٨٣١م[٥]، وجل الولاة المتدينين منهم كانوا بكتاشية صوفية أو شيعة، ومن أراد منهم أن يصبح سنيًّا سلفيًّا يُقتل بأمر الباب العالي كسليمان باشا الصغير[٦].

٥- إن العامل الديني كان حاضرًا وبقوة في التأثير على الصراع العثماني - الفارسي في العراق، والذي بدوره يلقي بظلاله على السياسة العشائرية العربية، وعلى نوع وعمق تحالفاتها، وعلى تأثير العتبات والمراقد في صياغة هذه الأدوار، فالصراع كان بين صوفية سنية! وشيعية، أي: الصراع بين أصل التشيع وقنطرة التحول السني إلى التشيع[٧]، وفي كل الأحوال فُرِّغت القضية السنية من محتواها العقائدي لتلائم طبيعة سياسة الحكم القائم، وغالبًا ما كان بكتاشيًّا.

٦- يشير الرحالة جيمس أن العرب السنة متسامحون مع مَن يخالفهم، وأن الشيعة يكرهونهم ولا يجرءون على الوصول إلى مناطق شمال بغداد؛ لأنهم عرب سنة، والسبب في ذلك أن العشائر الشمالية شديدة المراس قياسًا بالوسط والجنوب، ولأن الدعوة السلفية كانت قد وصلت إليهم مبكرًا بعيدًا عن ضغوطات ولاة بغداد[٨].

(١) هادي، بغداد، ص١٠٥.
(٢) جيمس بكنغهام، رحلتي إلى العراق، ص١٩٩.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٠٧.
(٤) نيبور، الرحلة، ص٣٣.
(٥) هادي، بغداد كما وصفها السواح، ص٦١.
(٦) عثمان بن سند، مطالع السعود، ص١١٣.
(٧) العزاوي، بين احتلالين، ج٤ ص١٤.
(٨) جيمس بكنغهام، رحلتي إلى العراق، ج٢ ص٢٦٦.

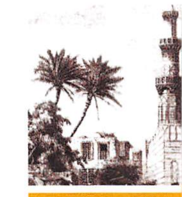
٧- الملاحظ أن جلّ علماء أهل السنة في بغداد من العرب أو العراقيين، وأن لغتهم العلمية هي اللغة العربية بخلاف لغة علماء الشيعة فقد كانوا فرس الجنسية والولاء واللغة.

٨- بسبب سوء أخلاق بطانة الولاة العثمانيين[١]، أدخلت البلاد والقبائل السنية خصوصًا في دوامة حروب الخلاص من التبعية الفارسية الشيعية، أمثال: فتنة محمد عجم (أو عجم محمد) الفارسي الذي عُرف بدق الدفّ والرقص للوالي عمر باشا؛ ليرتقي في المناصب حتى كاد أن يصبح والي بغداد[٢]، لولا ثورة العشائر الشاوية السلفية البغدادية في الأعظمية[٣]، التي طردته من بغداد والعراق كله، وهذه القصة نفسها تنطبق على علي الخصي الساعد الأيمن للوالي علي رضا اللازر الشيعي، وكان مستبدًّا، وعاث في الأرض الفساد[٤].

ومنها أيضًا دور قبائل شمر في طرد الفرس بقيادة الشيخ صفوك[٥]، وكذلك دور قبائل العزة وشمر في طرد الفرس عن مناطق أطراف بغداد، ودور قبائل الجبور والكروية القيسية، ضد قبائل الهماوند الفارسية وطردهم عن الحدود[٦]، ثم إن هذه الخدمات التي كانت تقدمها القبائل العربية السنية للبلاد لم تكن لتعطيها الحصانة من تسلط الولاة العثمانيين، ورفع الظلم عنهم، ودفع سوء خُلق الولاة، فلم يستثمر الولاة العثمانيون تلك القوى، بل عمدوا إلى إذلالها والتدخل في شئونها[٧]، ومنها: عزل شيخ قبائل عنزة وتعيين بديلاً له، الأمر الذي لا ترضاه القبيلة، فتثار المعارك ضد جيوش الولاة، وكانت عادة ما يكون النصر للقبائل، مثل: انتصار قبائل زوبع والدليم والجبور والبو عيسى في غرب بغداد[٨]، وانتصار قبائل العبيد الزبيدية في غرب بغداد وشمالها[٩]، وثورة ظاهر المحمود شيخ قبائل زوبع في حادثة الوردية بعد هروبه من الأسر، وتنظيم حملات ضد جيوش الوالي العثماني.

---

(١) فيضي، مذكرات، ص٦٢.
(٢) عثمان بن سند، مطالع السعود، ص٩٨؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٦ص٦٩.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص٢١٩
(٤) الوردي، لمحات، ج٢ ص٩٨.
(٥) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٩٦.
(٦) العزاوي، بين احتلالين، ج٨ ص٧٢.
(٧) لونكريك، أربعة قرون، ص٦٧.
(٨) الوردي، لمحات، ج١ص١٣٩.
(٩) لونكريك، أربعة قرون، ٢٦٩.



ويعود سبب هذه الأحداث إلى الوشايات الكاذبة، ونعزوه بدورنا إلى النظرة الدونية التي كان ينظر بها الوالي العثماني للقبائل العربية، وطبعًا وكما أسلفا ذكره أن سوء إدارة الولاة لمدينة بغداد جاء بعد الضعف الذي دبَّ في جسد الخلافة العثمانية العظيمة من أيامها الأخيرة، وتكالب الدسائس والمؤامرات عليها، وعلى مدينة بغداد من كل حدب وصوب.

٩- خيانة الولاة العثمانيين للسلطان، وإقحام أرض العراق وعشائره العربية في حروب العروش المدعومة من الحكام الفرس، ابتداءً بالوالي بكر صوباشي وإغرائه للفرس لاحتلال بغداد[١]، وعلى الرغم من صحوة ضميره في اللحظات الأخيرة إلا أنها لم تغنِ عنه شيئًا، فقد قام ولده محمد بمراسلة الفرس لفتح أبواب بغداد لهم، وتسليمهم رأس أبيه مقابل أن يجلس هو على عرش بغداد، كحاكم ممثل للاحتلال الفارسي، والنتيجة كانت مجزرة فارسية في بغداد طالت جميع الأحياء، ومنهم ابن بكر صوباشي الخائن[٢]، وحُرقت مقابر أهل السنة وهُدمت مساجدهم، واستمر مسلسل الخيانات حتى سقوط الحكم العثماني في العراق من عام ١٩١٨م.

والتاريخ كفيل بتقديم عشرات الأمثلة بمجرد تناول أي كتاب يتحدث عن هذه الحقبة من تاريخ العراق الحديث، ولسنا بصدد سردها خشية الطول والملل، وبعبارة موجزة لوصف حال الحكم العثماني في العراق وعلى لسان حاكم السليمانية الأمير الكردي (إن ولاءه -الحاكم الكردي- للمذهب السني، ولو كان الأتراك حسني الخُلق لحكموا البلاد بهدوء).

١٠- كانت المناصب الإدارية تُباع بالمزاد الحكومي، وكانت رواتب العساكر تُجبَى بالفرهود من العامة[٣]، وكان الولاة العثمانيون المسئولون عن تطبيق الشريعة الإسلامية، لا يهتمون بصلاة الفقراء ولا بدينهم، بل جلّ ما كان يعنيهم هو تقاعس الأغنياء عن صلاتهم في المساجد؛ لأنه يعطي الحق للوالي أن يصادر أمواله العينية، لاسترجاع ضماناته المالية التي أوصلته إلى المنصب![٤].

١١- إن عدم خضوع مناطق الجزيرة العربية الداخلية للحكم المركزي العثماني، جعل من أبناء قبائلها أحرارًا، يدعون إلى تخليص العراق والبلاد العربية من السيطرة الفارسية الشيعية وسطوة

(١) رحالة أوربيون في العراق، رحلة الأب فيليب الكرملي، ص٦٤؛ موسى، العراق، ص٣٣.
(٢) عثمان بن عبدالله بن بشير، سوابق عنوان المجد في تاريخ نجد، ص٥٢.
(٣) العمري، تاريخ مقدرات العراق، ج١ ص٩٨.
(٤) المصدر السابق.

ولاتها على القبائل العربية، وبعد إعلان الدعوة السلفية ووصول دعاتها إلى أطراف العراق ومضارب عشائر الخزاعل الشيعية وعتبات كربلاء والنجف، أثيرت ثائرة الصوفية البكتاشية العثمانية، والشيعية الفارسية، وجندت القبائل الشيعية والصوفية البكتاشية في إطاره حربًا طائفية لإنقاذ أوكار الشيعة من السقوط على يد الحركة السلفية، وكانت هذه الأحداث غالبًا ما تجر الهلاك والخسران على القبائل الشيعية، الأمر الذي دفع بالولاة العثمانيين إلى الهستريا ضد القبائل العربية السلفية، فحُوربت قبائل شمر والعبيد الشاوية البغدادية، ذات المواقف العظيمة في إيقاف الزحف الفارسي على العراق مرارًا.[١]

وبلغت السلطة العثمانية من الإذلال والضعف أن الوالي العثماني كان يبلغ الحاكم الفارسي بكل ما قام به تجاه الهجمات السلفية على العشائر الشيعية، وكأنه تابع للفرس، بل إن الدولة العثمانية وإرضاءً للبكتاشية والشيعية سيَّرت حملة واسعة وكبيرة جنَّدت خلالها كل العشائر الصوفية بكل طوائفها، والشيعية؛ لمحاربة والي بغداد سليمان باشا الصغير؛ لمجرد إعلانه تأييد العقيدة السلفية، كرد فعل على المواقف الطائفية الفارسية التي كانت تمارسها في العراق، بواسطة السماسرة الشيعة من سدنة المراقد المقدسة! وغيرهم، وانتهى المطاف بقتله على يد أحد عشائر الشيعة[٢]، وافتقد أهل السنة العرب الوالي أو الجهة الرسمية التي تناصر عقائدهم صوفية كانت أو سلفية، حتى مجيء السلطان عبدالحميد الثاني، وقيامه بصولات وجولات في إيقاف الزحف الشيعي والتطاول الفارسي على المناطق العربية السنية في بغداد وغيرها[٣]، حتى تنحيته عن السلطنة على يد يهود الدونمة آنذاك أحلاف البابية والبهائية في العراق وفارس[٤].

وإنَّ رحيل السلطان عبدالحميد الثاني عن سدة الحكم العثماني قد أثار شجون وبكاء كل القبائل العربية[٥] من جنوب العراق إلى شماله، وهو دليل على أن تلك القبائل كانت تواقة إلى العزة الإسلامية بعيدة عن التبعية الفارسية[٦]، كل هذا وذاك جعل من مدينة بغداد أن تقف ولمرات عدة على خط الموجهة بين الهوية الإسلامية وضغوطات المرحلة التاريخية.

---

(١) نيبور، رحلة، ٥٨؛ الكركوكلي، دوحة الوزراء، ص١٨١، ٢٢٥.
(٢) عثمان بن سند، مطالع السعود، ص١١٣.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٧٤.
(٤) درويش، د.هدى، العلاقات التركية اليهودية، ص١٠٢.
(٥) باقر ياسين، العنف الدموي، ص٢٧٣.
(٦) مجموعة باحثين، العرب السنة، ص١٨.



١٢- قمع أصحاب الفتاوى الإصلاحية:

محاربة الولاة العثمانيين لعلماء أهل السنة في حال إصدارهم أيّ موقف تقويم لسياسة الوالي القائم، مثل قتل الوالي بكر صوباشي لمفتي بغداد (ملا غانم البغدادي) أبشع قتلة، لإظهار حسن نواياه في تقربه لشاه إيران عباس الصفوي، وأصبح اسم هولاكو وتيمور لنك يُطلق عليه في ذلك العصر(١).

ثم طرد آل الحيدري علماء الحنابلة من بغداد إلى البصرة(٢)؛ بسبب مواقفهم الشديدة ضد ظلم الولاة في بغداد، ووقوفهم ضد تشيعها.

وفي عهد الوالي علي رضا اللازر الشيعي من عام ١٨٣٣م، وبسبب وقوف عبدالغني المفتي مع العامة ضد الوالي، وفساد رجاله وتعسفهم ومضايقاتهم لبعض الأسر البغدادية، بقصد ابتزاز الأموال، كانت نتيجة مواقف المفتي هي إحراق داره وضياع خزانة كتبه الثمينة، فاضطر إلى النزوح خارج بغداد، وكذلك طرد قاضي بغداد؛ لأنه نزيه ولا يأخذ الرشاوى(٣)، وقتل الشيخ عبدالعزيز الشاوي على يد الوالي اللازر؛ بسبب مواقف الشيخ المؤيدة للدعوة السلفية، ولأنه أول داعية لها في بغداد، وقد تبعه الكثير ومنهم الشيخ الآلوسي، الذي أوقفت منشوراته، ونُفي عن بغداد، وقُطع راتب الأوقاف عنه، مصحوبًا بسوء خُلق الوالي في التعامل معه(٤)، وكل ذلك كان بسبب عدم تأييده العقيدة البكتاشية، وإعلانه العقيدة السنية، وقيادته لحملة إعلامية تشهر بسوء القضاء العثماني المدار من قبل البكتاشية، وكذلك لاعتراضه على سوء إدارة الوالي للأزمات القبلية(٥)، ومن صور ظلم الولاة العثمانيين للعلماء حادثة عزل الباب العالي لمفتي بغداد إرضاءً للقنصل الفرنسي.

١٣- الملاحظ في تاريخ بغداد من بعد سقوط الخلافة العباسية، واحتلال المغول للعراق، ثم توالي الانتكاسات، أنّ العقيدة الشيعية كانت تقف وراء كل ذلك، وأنّ سياسة الغزاة الجدد قائمة على قتل وتشريد أهل السنة من بغداد، وتهديم مساجدهم، وإعمار العتبات المقدسة ومراقد الشيعة

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص٧٣.
(٢) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٧٠.
(٣) فريزر، الرحلة، ص١٢٨؛ لونكريك، أربعة قرون، ص٣٣٩، والعزاوي، بين احتلالين، ج٨ ص٢٥٨.
(٤) العزاوي، بين احتلالين، ج٦ص١٥٧.
(٥) لونكريك، أربعة قرون، ٢٩٠.

ومزاراتهم، وتوليتهم الحكم الذاتي على يد نقيب الأشراف الشيعي، الذي ينصب من قبل المحتل أمثال ابن الطقطقي الذي حكم مناطق الفرات الأوسط والحلة[١].

وبعد أن فرغ تيمور لنك من مجزرة بغداد، زار مرقد الإمام الكاظم ومشهد الإمام علي (رضي الله عنه)، ولا غرابة أن تقوم الدولة الصفوية أيضًا بمثل هكذا تصرفات، لكن الغريب هو أن السلطان العثماني مراد الرابع بعد أن تمكن من طرد الاحتلال الصفوي عن العراق عفا عن كل الشيعة الذين ساهموا في قتل أهل السنة، وزار بجيشه المراقد الشيعية، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وأنشأ تكايا للبكتاشية داخل تلك المراقد كمحطات روحانية للجيش العثماني وبإشراف العقيدة الشيعية[٢]!

١٤- كانت سياسة الولاة العثمانيين مع العشائر العربية، قائمة على احتقار العرب وشيوخهم ووجهائهم، والغدر بهم، والتدخل في شؤونهم الاجتماعية من عزل بعض شيوخهم وتولية خصومهم، وتحريض بعض القبائل ضد بعضهم الآخر، وإناطة بعضهم لجباية الضرائب نيابة عن السلطة العثمانية، وتهجير القسم الكبير منها عن بغداد، كل ذلك أدَّى إلى كره الأهالي للولاة وجيوشهم التي امتهنت نهب القبائل كإحدى وسائل معيشتها[٣].

ثم إن طبيعة العلاقة بين الولاة المتعاقبين على حكم بغداد وبين هذه العشائر كانت تشبه العلاقات بين الإقطاعي وأرضه، ووصف ولاة العثمانيين في بغداد كونهم رجال حرب لا إدارة، ورجال إقطاع لا سياسة، وانغمسوا بجمع الأموال والملذات، وأهملوا تجهيز جيوشهم، وأمور معيشة جندهم، فكثرت هجمات الجنود الأتراك على الأسواق والعربان واشتد كره الناس لهم[٤]، وينقل أحد الشهود عن أبيه: أنهم كانوا يسلبونهم حتى كيس الملح، فأخذ الأهالي يدفنون قوت يومهم في الأرض خشيةَ المصادرة.

١٥- انغماس الولاة بالملذات وجمع الأموال، وبسبب كثرة غصب الأموال من الناس والملاك زاد حقد الناس عليهم[٥].

---

(١) بن علي، عمدة الطالب، ص١٦٠؛ العزاوي، بين احتلالين، ج١ ص٢٦٥.
(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج٤ ص٢٢٥-٢٢٨.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ٢٨٩.
(٤) الوردي، لمحات، ج٣ ص١٧٥.
(٥) مجموعة باحثين، العرب السنة، ص٢٣.



١٦- تدخل المقيم البريطاني في عزل ولاة بغداد الذين يتصفون بالكفاءة والقدرة على الحد من تدخلات القنصليات الأوروبية والفارسية في السياسة العشائرية والاجتماعية للعراق[١].

محطات من تاريخ بغداد المعاصر:

من نتائج السياسات السابقة في طريقة حكم العثمانيين للعراق، وكيفية إدارتهم للصراعات المذهبية والتدخلات الفارسية، ضياع العراق في الحرب العالمية الأولى، واحتلاله من قبل قوة جديدة تختلف عمن سبقتها؛ كونها اقتصادية الطموح، ونصرانية الديانة، خبرت العراق من خلال العمل فيه لسنين طويلة، وعلمت ما لبغداد من أهمية إدارية واقتصادية وسياسية، فاختارتها عاصمة للبلاد، وهي كذلك حتى يومنا هذا.

أولاً: قبيل الحرب العالمية الأولى حتى ثورة العشرين:

شهد تاريخ بغداد المعاصر مواقف سنية محورية، سواء في ظل الحكم العثماني الأخير وسياسة التتريك، أو في ظل الاحتلال البريطاني الجديد، أولها المناداة بالوقوف بوجه سياسة التتريك لأعضاء الاتحاد والترقي، والدعوة لإقامة حكم عربي ذاتي في إطار حكومة عربية اللغة والقيادة[٢]، وهذه القيادات السنية هي ذاتها التي تعرضت إلى النفي والاعتقال والإقصاء على إثر مواقفهم من الاحتلال البريطاني، حتى وصفهم البريطانيون بأنهم (وطنيون متشددون)[٣]، في الوقت الذي وصفوا فيه مراجع الشيعة بأنهم (أحسن الأصدقاء للاحتلال البريطاني)، ومدحوا مواقفهم في ترويض العشائر الشيعية، وتقبلهم لفكرة الاحتلال الإنجليزي لبغداد[٤]، وبالرغم من أن السيد طالب النقيب وسليمان فيضي كانوا ضد السياسة العثمانية إلا أن الاحتلال الإنجليزي، وبعد اجتياحه للعراق، حاول نفيهم؛ لأنهم من أعيان أهل السنة الذين آثروا مساندة العثمانيين في حربهم ضد الإنجليز في الحرب العالمية الأولى، ولأنهم رفضوا التحالف والتعاون مع الإنجليز إبان دخولهم البصرة في عام ١٩١٤م[٥]، في الوقت نفسه كان مجتهدو الكاظمية يستلمون الأموال والمرتبات من الأتراك والألمان لقاء إعلانهم الجهاد ضد الغزو البريطاني.

---

(١) فريزر، الرحلة، ص١٢٠.

(٢) فيضي، مذكرات، ص١٩-٢١.

(٣) فيضي، مذكرات، ص٢٤.

(٤) الوردي، لمحات، ج٥م١ص٥٨.

(٥) محمد بن ظاهر العمري، تاريخ مقدرات العراق، ج١ص٦٢ ؛ فيضي، مذكرات، ص٢٢.

وذكرت المس بيل أن هناك دورًا كبيرًا لعلماء مساجد أهل السنة في قيادة الناس ضد الوجود البريطاني، وتأسيسهم لجمعية العهد وحرس الاستقلال على يد العلامة يوسف السويدي الذي تولى فيما بعد رئاسة مجلس الأعيان بعد تشكيل المملكة العراقية، وافتتاح أول مدرسة إعدادية بإدارة علي البزركان التي كانت مقرًّا للوطنيين وأقلقت المس بيل كثيرًا[(١)].

وكانت اجتماعات الوطنيين في بغداد تُقام في دور وجهاء أهل السنة، وعلى إثر هذه المواقف المزعجة للاحتلال البريطاني، نشبت معركة كبيرة في محلة خضر إلياس ضد البريطانيين؛ دفاعًا عن الشخصيات الوطنية، وهي مشهورة في التاريخ العراقي المعاصر، ولا يستطيع متطفل على الحركات الوطنية إخفاءها وتجاهلها أو إلغاء شخوصها، وبعد سقوط عدد من القتلى والجرحى استطاعت عشائر الجبور تهريب البزركان خارج بغداد[(٢)].

أما على صعيد الأفعال العسكرية والمواقف الفعلية والرجولية فهي بدأت منذ دخول الإسلام لأرض الرافدين، ولم تتوقف إلى يومنا هذا، وفي إطار الحقبة التي نتناولها فقد صدرت فتاوى لعلماء السنة في بغداد تعلن الحرب ضد الإنجليز منذ عام ١٩١٤م، وتوجه المتطوعون والمكلفون من العرب السنة نحو جبهة القفقاس[(٣)] تحت مسمى الفيلق الثالث عشر[(٤)].

وأكد أبناء وأحفاد أولئك المجاهدين الأوائل أن أكثر من ٩٥٪ من الذين توجهوا صوب القفقاس لم يرجع منهم إلا النادر، وكان السبب شدة المعارك على الجبهة الروسية، ولأن المجاهدين السنة كانوا قد عاهدوا الله على عدم الرجوع إلا بالنصر أو الشهادة، في الوقت الذي انهالت فيه الحكومة العثمانية بالأموال والأوسمة على شيوخ ومراجع العتبات المقدسة للاستحصال على فتاوى الجهاد على ألسنتهم ولإخماد ثوراتهم في الفرات الأوسط والحلة، ونهبهم للجيش، ورفض آل الصدر الجهاد ضد الإنجليز بالرغم من كل الأموال المصروفة[(٥)]، وإعلان المرجع الأعلى كاظم اليزدي مؤازرتهم للإنجليز، وترحيب أهل النجف بهم، وتوصيات علماء الكاظمية بحسن الظن بالاحتلال الإنجليزي الجديد،

---

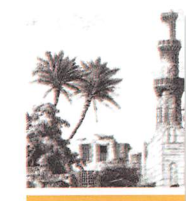
(١) الوردي، لمحات، ج٥م١ص٩٣.

(٢) الوردي، لمحات، ج٥م١ص١٠-١١.

(٣) باقر ياسين، العنف الدموي، ص٢٥٦.

(٤) العمري، تاريخ مقدرات العراق، ج١ص٩٩.

(٥) الوردي، لمحات، ج٤ ص١٣٠.



وعرض مراجع الشيعة خدماتهم للإنجليز مقابل المرتبات[١]، وقد مدحت المس بيل هذه الخطوات من قبل المراجع[٢].

وقد عارض أغلب قبائل الفرات الأوسط الخيانة، وأخذوا ينشدون الأشعار والقصائد في مدح العلماء المجاهدين البغداديين من أهل السنة، متخذين منهم واجهتهم الوطنية، الأمر الذي أوصلهم في الأخير إلى كسر طوق ذل التبعية الفارسية والبريطانية، ودخولهم في ثورة العشرين خروجًا على سلطة المراجع آنذاك.

وفي عودة إلى تاريخ ما قبل الحرب العالمية الأولى وموقف أهل السنة البغداديين منها، فبالرغم من الظلم والإجحاف الذي وقع على علماء أهل السنة قاطبة من قِبل الترك إلا أنهم لم يتأخروا ولو للحظة في إعلان الجهاد ضد الإنجليز، وقاد الشيخ نعمان العبيدي بعثة عثمانية لطلب العون من آل سعود[٣]، ثم أرسل بعده الشيخ الآلوسي بعد أن عانى ويلات الاضطهاد والإقصاء والإبعاد من قبل الولاة العثمانيين[٤]، وبعد مراجع الشيعة بحوزاتهم عن نصرة من نصرهم من العثمانيين ضد السلفية، أثبتوا للتاريخ ولمرات عدة أنه لا يصح إلا الصحيح، وأنهم (السهم الأخيب).

وبعد احتلال الإنجليز للعراق بدءوا بالضغط على زعماء أهل السنة لثنيهم عن مطالبهم الوطنية، تشير (المس بيل) أن علماء الدين السنة يشعرون بالمرارة؛ لأن الإنجليز احتلوا بغداد، وبدأ (ويسلون) بمفاوضتهم وتهديدهم وقطع رواتبهم ونفيهم، وأجبر المندوبون السنة النقيب بلفور بالقبول على توقيع مضبطة المطالبة بالحكم العربي المستقل، التي قوبلت بالرفض من آيات ومراجع العتبات والمراقد الحليف الاستراتيجي للإنجليز[٥].

وكرد فعل إدارية، ولعلم (ويسلون) بالدور الذي من الممكن أن يلعبه الشيعة في تثبيت سلطانهم في العراق أخذ يقود حملة شرسة لتشييع سامراء، الأمر الذي لم يفتَّ في عضُد أهل السنة، بل شنُّوا

---

(١) عدم قطع مرتبات خيرة أودة أو مبرة أودة كما سُميت تلك الأموال التي كانت تصرفها الحكومة البريطانية منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى احتلالها للعراق؛ لضمان تبعية مراجع الشيعة العراقيين للسياسة البريطانية، الوردي، لمحات، ج٤ ص٣٣١؛ ينظر، العلوي، حسن، الشيعة والدولة القومية، ص٩١.

(٢) يطلق حسن العلوي لفظ الخائن على المرجع الأعلى الشيعي كاظم اليزدي؛ لمؤازرة الأخير للاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٨م، ينظر، العلوي، حسن، الشيعة والدولة القومية، ص١٠٣.

(٣) العمري، محمد بن ظاهر، تاريخ مقدرات العراق ج١ ص٥٧؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٨ ص٢٦٧.

(٤) الوردي، لمحات، ج٢ ص١٤٩.

(٥) بطاطو، العراق، ج١ ص٢٢٧.

بالمقابل حملات دعوية وعشائرية، وطردوا كل طائفي عن مدينتهم، ولم تصدَّهم هذه المحاولات عن قضيتهم الأولى، وهي محاربة الاحتلال البريطاني، وأخذ الأفندية السُّنة في كشف المخططات الإنجليزية، وإثارة الناس ضدهم(١).

وفي شهادة للحاكم العسكري البريطاني في بغداد أن الأفندية والمتدينين السُّنة هم من أجَّجُوا الروح الوطنية في العراق، وأُعدم على إثرها وطنيو محلة خضر إلياس، ومنهم عبدالمجيد كنة، الذي كثرت مجالس العزاء له في جميع محلات بغداد، في الوقت الذي فقد فيه حلفاء ويسلون الحاكم البريطاني في بغداد من المراجع الشيعة كالشيرازي وغيره التأييد الشعبي؛ بسبب بُغضهم للتقارب السني الشيعي في بغداد الذي حصل على يد الوطنيين السنة، وبسبب وقوفهم ضد الحكم العربي في بغداد(٢)، تمهيدًا لضم العراق إلى بلاد فارس بعد الطلب الرسمي الذي قدمه شاه إيران لحلفائه من البريطانيين.

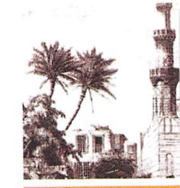
وفي إطار بيان الصعوبات التي كان يواجهها سُنَّة بغداد في حركتهم الوطنية قبيل وبعد الحرب العالمية الأولى حتى ثورة عام ١٩٢٠م؛ فقد كان على رأس الطرف الآخر في العراق وهم مجتهدو الشيعة أمثال المرجع الأعلى كاظم اليزدي الذي وصفه حسن العلوي بأنه عميل للإنجليز، وقد امتُدح من قبل المس بيل، ومحمد علي كمال الدين الذي وصف وفاته أيضًا بأن البريطانيين خسروا سندًا قويًّا كانت تستعين به على العوام، وأنه هو من استطاع كسب التأييد الشيعي لإقامة حكم بريطاني بدل دولة عربية مستقلة في العراق(٣)، ووقَّع على ذلك ثلثا وجهاء ومراجع الشيعة في الجنوب، وأعطتهم الضمانات على ذلك(٤).

بغداد وثورة العشرين:

كغيرها من المواقف، نُسبت الثورة إلى الشيعة في أغلب أحداثها؛ مداراةً من أهل السنة لمشاعرهم، وبسبب الدور الأبوي الذي لطالما تصرف به أهل السنة مع شركائهم في الوطن، لكنها كانت تجني عكس ما يتمنون، وسنحاول معالجة هذا الأمر فيما يتعلق ببغداد من خلال المحورين الآتيين:

---

(١) الوردي، لمحات، ج٥م١ص ٣٤.
(٢) الوردي، لمحات، ج٥م١ص ١٩٩.
(٣) الوردي، لمحات، ج٥م١ص ٦٢-٦٣، ٦٩ .
(٤) العلوي، حسن، الشيعة والدولة القومية، ص١٠٥.



المحور الأول: يدور بشأن الإجابة عن سؤال: من الذي كان وراء قيام هذه الثورة؟:

يؤكد السويدي بأن ثورة العشرين ما قامت إلا على أكتاف الأفندية من أهل بغداد، وجلهم من أهل السنة، يشير المستشرق بيرترام توماس إلى: أن الطبقة المثقفة -وهم طبقة الموظفين- كانت تشكل بدرجة كبيرة سكان مناطق بغداد من أهل السنة والمدن الشمالية، أي: سنية الأفندية في بغداد[١]، وهم من بثَّ روح الحماس في نفوس العامة، وأنهم هم من اجتمع بعشائر النجف[٢]، وخطبوا بهم خُطبًا حماسية حرَّكت فيهم روح الثورة بعد رفض المراجع إعلانها شرعًا.

ومن الأسباب التي أجَّجت الثورة أيضًا: إعلان الوطنيين السُّنة البغداديين من الضباط والمثقفين في سوريا استقلال العراق في تاريخ ٨/ آذار/ ١٩٢٠م، وحثهم العراق على إعلان الثورة ضد الإنجليز، ونصح الشيخ فهد الهذال المس بيل وهالدين أن هذا الوضع سيفرز ثورة في الفرات الأوسط، ومنها أيضًا دور الشيخ ضاري المحمود منذ عام ١٩١٨م في ضرب القوات البريطانية، وقطع سكك الحديد عليهم غرب بغداد، ومخاوف لجمن من أن يشعل ضاري القلاقل في المنطقة في يوم ما، وحدث فعلاً بعد عامين من ذلك (ثورة العشرين)، ولم تكتفِ الثورة في بداياتها على ذلك، بل شملت كل أنحاء العراق، وكان ذلك كله قبل قيامها في الفرات الأوسط والجنوب، وكان المجتهد الأصفهاني الشيعي يتهم الثوار بأنهم مجموعة من المشاغبين، وكان الشيخ الجزائري الشيعي غاضبًا بسبب حدوث الثورة ضد الإنجليز أشد الغضب، ويصف الثوار أنهم أناس لا عهد لهم! علمًا بأنهم لم يعاهدوا المحتل البريطاني، بل على العكس فإن الشيعة من عاهد المحتل بعدم قيام ثورة، ثم إن البريطانيين هم مَن عاهدوا أهل السنة وقياداتهم فيما يُعرف بالثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين بإعطائهم الاستقلال التام في ظل حكم عربي مستقل موحد؟ ويذكر الوردي أن العرب السنة في العراق وسوريا هم أصحاب السبق في تأجيج الثورة.

المحور الثاني: ويتضمن الإجابة عن السؤال الآتي: من هم قادة ثورة العشرين؟

في بغداد كان كبار قادة ثورة العشرين هم الأفندية وعلماء الدين من العرب السنة[٣]، وخصوصًا

(١) سيار الجميل، زعماء وأفندية، ص٢٦٣.
(٢) الوردي، لمحات، ج٥م١ص٤٢، ٤٦.
(٣) الوردي، لمحات، ج٥م١ص٢٠٣.

من محلة خضر إلياس التي سبق ذكرها، وقاد الضباط السنة البغداديون معارك الفرات الأوسط[١]، وكانوا هم سبب الانتصارات المتتالية في بادئ الأمر، ومن هؤلاء الضباط حسيب الدوري، وسامي النقشلي، وغيرهم، وساهموا أيضًا في إصلاح المدافع التي غنموها في المعارك، وقد أرجع الضباط الإنجليز انتصار الثورة في البداية إلى وجود ضباط متمرسين على إدارة المعارك، ومنها معركة الرارنجية[٢]، وهكذا ثبتت أن قيادة الثورة عربية سنية.

ويمكن إجمال الحقبة السابقة بالآتي:

١- إعلان الدولة العثمانية الدخول في الحرب العالمية الأولى، واحتلال بريطانيا للعراق عام ١٩١٧م.

٢- تشكيل المحتل البريطاني لقوة عسكرية موالية لهم من النصارى، وخصوصًا الأرمن، وشكلوا ما عُرف بـ«الجيش الليفي» منهم، ومن خوشية الإقطاع، وهم من لا أصل لهم، وقد امتهنوا القتل لقاء القليل من المال لحماية الإقطاع في المحافظات الجنوبية، إذ كان الناس يُعامَلون كالعبيد، ولا يَحق لأحد الهروب من سيده، ومن يحاول ذلك فجزاؤه القتل، أو قتل أسرته إن لم يظفروا به، وكان جلّ الخوشية من الفرس، أو من سكنة مدينتي الكوت والعمارة، وقد ألّف بهم الاحتلال البريطاني جيش الشبانة، وهم نواة الشرطة البغدادية، واليد البريطانية الضاربة لثورة العشرين، ولكل الانتفاضات البغدادية في بداية الاحتلال البريطاني لبغداد[٣].

٣- في المدارس الفارسية كانوا يدرسون الطلاب أن العراق فارسي، ويجب على الطلبة العمل على إرجاعه لفارس[٤].

٤- ظهور أسر إقطاعية كانت معدومة، كمكافأة لخدمة البريطانيين المحتلين، أمثال: آل سهيل التميمي، وآل الجريان[٥].

(١) مزهر الفرعون، الحقائق، ص٢٣٨.
(٢) الوردي، لمحات، ج٥م١ص٢٨٧-٢٨٨.
(٣) الحسني، تاريخ العراق، ج٣ص٣١٥؛ بطاطو، العراق، ج١ص١٦٤-١٦٥
(٤) إبراهيم خليل، خليل علي، تركيا وإيران / ص١٩١
(٥) بطاطو، العراق، ج١ص١٤١



٥- تعيين بريطانيا لكبار رؤساء العشائر والارستقراطيين حكامًا على ممتلكاتهم، لقاء الولاء لبريطانيا العظمى[١].

٦- تعرض ملكية الأغنياء في المدن للمصادرة، تبعًا لمواقفهم الوطنية[٢].

٧- إذلال الإنجليز لأعيان بغداد، وتولي النصارى واليهود الوظائف، ومناصب الشرطة أُنيطت لأراذل العرب والعجم من الشبانة[٣].

٩- نفي الشخصيات الوطنية عن بغداد، مثل: نفي عبدالقادر الخضيري الشمري الأصل، إلى الهند بسبب مواقفه الوطنية قبيل ثورة العشرين[٤].

١٠- دور الضباط البغداديين في قيادة ثورة العشرين، أمثال: شاكر محمود، وحسين علوان، وحسن الدوري وسامي النقشلي، ومساهمتهم في تأسيس الأحزاب والجمعيات الوطنية[٥].

١١- كانت نخوة عشائر الفرات الأوسط عشائرية ونخوة أهل بغداد إسلامية سنية[٦].

١٢- كان الضباط البغداديون أكثر ميولاً للعروبة من أقرانهم في الجنوب العراقي[٧].

١٣- دعوة المندوب السامي البريطاني ويلسون لكبار البغداديين لإقناعهم بإيقاف الثورة؛ لعلمه بأنها نتاج الخطب الحماسية في جامع الحيدر خانه، واعتراف الحاكم العسكري الإنجليزي أن سبب ثورة العشرين هي مساجد بغداد، فضلاً عن تخوفات المس بيل من قيادة أهل السنة لتقارب سني-شيعي للوقوف بوجه الإنجليز[٨].

١٤- مطالبة البغداديين بحكم عربي مسلم، ومعارضة الشيعة واليهود والنصارى لذلك كما جاء

---

(١) الودي، لمحات ج٥م١ ص٢٤.

(٢) بطاطو، العراق، ح١ ص٢٦.

(٣) الوردي، لمحات، ج٥مج١ ص١٩.

(٤) الدروبي، البغداديون، ص٨٢.

(٥) الفرعون، الحقائق الناصعة، ص٢٣٨.

(٦) بطاطو، العراق ج١ ص٣٢.

(٧) الفرعون، الحقائق الناصعة، ص٢٣٤؛ بطاطو، العراق، ج١ ص٤٧.

(٨) الوردي، لمحات، ج٥م١ ص١٧٢.

في مذكراتهم التي أرسلوها للمندوب البريطاني بعد ثورة العشرين[١].

ثانيًا: بغداد في العهد الملكي:

١- إعلان المملكة العراقية، وعاصمتها بغداد في ١٩٢١م.

٢- لم يكن العراق حرًّا بعد إعلان الحكم الملكي؛ بسبب نظام الانتداب وسلطة المندوب السامي، الذي كان يثير القلاقل ضد محاولات الملك للاستقلال، واستخدام الأقلام الشيعية لذلك منهم أمين الشرشفجي، وكان طائفيًّا شيعيًّا، واعترف بأنه كان مدعومًا من المندوب السامي البريطاني للضغط على الملك فيصل الأول[٢].

٣- تولي عبدالرحمن النقيب نقيب الأسرة الكيلانية الوزارة، قبل تتويج الملك وبعده؛ لإيجاد أقطاب إسلامية قادرة على منافسة الجارة تركيا الإسلامية، التي بقيت مساجد بغداد تخطب باسم الخليفة العثماني حتى قبيل إلغاء الخلافة من عام ١٩٢٤م[٣]، وبالرغم من محاولات الملك فيصل بن الحسين ملك العراق لتهدئة الأجواء السياسية إلا أنها شهدت ثورات وانتفاضات وعصيانًا في بغداد، أجبر الوزارات في كل الأحيان على تقديم استقالتها مرغمة، حتى شهدت الفترة بين عامي ١٩٢٠-١٩٣٢م تشكيل أربع عشرة وزارة عراقية، وهو دليل على الاضطراب الذي عاشته بغداد آنذاك، لكثرة المشاكل التي كانت تقف حائلاً أمام قيام مملكة عراقية مستقلة وبدسيسة بريطانية، لكن وبرحيل الملك فيصل الأول اختلف الأمر فقد اختل توازن القوى السياسية في العراق، وفقدت الثقة في حياته النيابية، وانصرف لفيف من الزعماء والسياسيين والوزراء إلى جمع المال بأي صورة كانت.. على حساب الشعب، وتسيبت أمور المملكة، وحُشدت الدوائر الحكومية بالأميين وأنصاف المتعلمين، بدعوى إنصاف الشيعة في التعيينات الحكومية، وانتشار الفوضى والرشا، كما وردت في محاضر المجلس النيابي[٤]، وبلغ عدد الوزارات بين عامي ١٩٣٢-١٩٤١م عشر وزارات، أي بمعدل بقائها سبعة أشهر، وهو ما يسميه البعض بالعهد الوطني بسبب إلغاء الانتداب بعد دخول العراق عصبة الأمم عام ١٩٣٢م.

---

(١) الوردي، لمحات، ج٥م١ ص٨٤.
(٢) بطاطو، العراق، ج١ص٣٦٤.
(٣) الحسني، تاريخ العراق السياسي، ج٣، ص٦، وبطاطو، العراق، ج١ص٣٥٩.
(٤) الحسني، تاريخ العراق، ج٣ص٣.



٤- وقوف أهل الجنوب والكرد واليزيدية وحتى الإنجليز ضد قانون التجنيد الإلزامي عام ١٩٣٥م، وظهرت الفتاوى المناهضة لذلك من قِبل المراجع في النجف[١]، في الوقت الذي قوبل بالترحيب في العاصمة بغداد أملاً في إحلال جيش قوي مكان سلطة البريطانيين، التي تمنع بغداد من تقديم يد العون للقضايا العربية، وعلى رأسها فلسطين، الأمر الذي دفع برشيد عالي الكيلاني إلى إعلان موقف الحياد في الحرب العالمية الثانية، على الرغم من ارتباطه بمعاهدة دفاع مشترك مع البريطانيين؛ لأنهم السبب الحقيقي وراء المشاكل العربية، وشهدت بغداد تشكيل حكومة دفاع وطني، ودخولها في حرب مستعجلة ضد الجيش البريطاني الموجود في العراق، وخسارة الثورة، وعودة الاحتلال البريطاني المباشر إلى العراق منذ عام ١٩٤١م، الذي لم يقوّض إلا بوثبة بغداد عام ١٩٤٨م، علماً بأن الموقف السياسي العراقي، على الرغم من معارضة الكثيرين لسياسة بغداد، إلا أن المدينة تعدّ المحرك الأول لأحداث العراق بعد إعلانها العاصمة رسميًّا منذ عام ١٩٢١م.

٥- من أسباب الفوضى في بغداد: نزوح مربي الجاموس المتهمين بالسرقة إلى ضواحي المدينة من مدينتي العمارة والناصرية قبل عام ١٩٥٤م، وكانت بغداد -منذ مطلع الملكية حتى قبيل نزوح مربي الجاموس- مدينة آمنة مطمئنة وادعة تكاد تخلو من الإجرام والعنف المسلح، واللصوص معظمهم جاءوا من مدن الجوار، وهناك قصة طريفة تؤكد الشعور بالأمان.

فمما يروى في ذلك أنه في عام ١٩٥٢م شوهد رئيس الوزراء نوري السعيد يسير وحده على جسر الملك فيصل، ويحمل كيسًا ورقيًّا وجريدة، والناس تسلم عليه وهو يرد السلام باحترام، وكانت بغداد مضطربة بالمظاهرات آنذاك، ووقف عند أحد البقالين للشراء فقال البقال لنوري السعيد: «عمي أبو صباح، الله يحفظك، الدنيا هذه الأيام بلا أمان، لِمَ لا يكون معك السائق؟! فأجابه نوري السعيد: أنتم هنا كلكم ولدي، لماذا الخوف؟ ومضى نوري السعيد إلى شارع الصالحية التي تؤدي إلى داره خلف الإذاعة في بيوت السكك، حيث كان يسكن إحداها بكل تواضع مع بقية منتسبي هذه المؤسسة»، كما شُوهد الملك فيصل يمشي وحده ويتسوق لأكثر من مرة في مشهد مألوف في شارع الرشيد، أو مع بعض رجال الدولة من دون حرس[٢].

(١) الحسني، تاريخ العراق السياسي، ج٣، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) أبو طبيخ، مذكرات بغداد، ص٣٣١-٣٤٩.

٦- يمكن إيجاز الحالة السياسية للعراق في العهد الملكي في أن الطائفة السياسية منقسمة إلى وطنيين، وبريطانيي الميول والهوى، وطائفيين فرس، وكان اللون السياسي لبغداد هي نخوة إسلامية، الأمر الذي اعترفت به المس بيل في مذكراتها، وكانت لا تخفي قلقها من قيادة البغداديين لوحدة شيعية سنية، والأمر الآخر هو أن الضباط البغداديين كانوا يُتهمون من قبل الجيش البريطاني بالعروبية، وهذا أيضًا ما أشارت إليه المس بيل في كتاباتها، في الوقت الذي يشير بعض الكتاب العرب إلى أن العرب ضيَّعوا بغداد بل وأسهموا في تفريسها بشكل خفي ومريب وتدريجي[1]، وهي من صدت ولا تزال المد الفارسي الصفوي إلى يومنا الحاضر[2].

ثالثًا: بغداد في زمن الحكم الجمهوري:

في عام ١٩٥٨م أعلنت الجمهورية العراقية في ثورة دموية نتجت عنها شخصيات وأسماء جديدة، ذات طابع عسكري، تولى فيها نجيب الربيعي رئاسة مجلس السيادة، وعبدالكريم قاسم رئيسًا للوزراء، ومن مميزات العهد الجمهوري، أن الحكومات التي تشكلت كانت تعبر عن توجهاتها الحزبية لا المصالح العليا للبلاد في أحيان، وتعبر عن مطامح شخوصها القيادية في أحيان أخرى، وهي الأغلب.

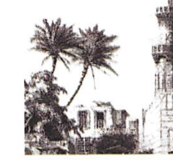
العهد القاسمي:

اتصف هذا العهد بالآتي:

١- استعانة عبدالكريم قاسم بالطائفية الشيعية للحصول على تأييد له في العاصمة، وعمل على تغيير الطابع السكاني من الأغلبية المطلقة السنية إلى تشيعها بتوطين قرابة ٢٩٪ من نسبة سكان بغداد في أحياء مستعجلة التوزيع والتصميم[3] وغير منتظمة، والتي وصفها مصممو المدن بشبه عشوائية والموزعة على مربي الجاموس القادمين من جنوب العراق؛ الأمر الذي أصاب النسيج السكاني البغدادي في الصميم، وزلزل أركانه القيمية والمجتمعية؛ لما عُرِف به هؤلاء من سوء الأخلاق والطباع وامتهان السرقة، كما وصفهم جميل أبو طبيخ في مذكرات بغداد وصراعها الطائفي[4].

---

(١) سليم مطر، الذات الجريحة، ص٨٦.
(٢) يشير حسن العلوي إلى أن ميول القبائل الشيعية في العراق كان فارسيًّا، الشيعة والدولة القومية، ص٤٨.
(٣) بطاطو، العراق، ج١ص١٦١.
(٤) أبو طبيخ، مذكرات بغداد، ص٣٣١-٣٤٩.



٢- استجلاب قاسم لطلبة الحوزة، وتعيينهم مدرسين في المدارس البغدادية، ومحاولة صبغ المدينة بالصبغة الشيعية؛ استجداءً للتأييد الذي فقده بسبب نكبته بزميله عبدالسلام عارف الذي عُرف بطابعه الإسلامي السُّنِّي، وبذلك يكون بداية العهد الجمهوري على يد قاسم هو بداية لتكريس السياسة الطائفية التي عانت بغداد منها الكثير.

٣- إطلاق يد الميليشيات الشيوعية في التنكيل بالمسلمين والمعارضين له، حتى وصل الأمر إلى صلب المعارضين على أعمدة الكهرباء في سابقة لم يشهدها العراق من قبل[١].

٤- وقوفها بالضد من القضايا العربية، ومنها أن توقيت إعلان الجمهورية جاء لينسف الوحدة الهاشمية التي كادت أن تحصل بين المملكة العراقية والمملكة الأردنية الهاشمية؟

ثم إن الجمهورية العراقية زمن قاسم كانت تعارض الوحدة السورية المصرية؟ بغض النظر عن منهاج تلك الوحدة، لكن تصرفات قاسم الطائفية في بغداد توضِّح لنا جانبًا مما كان يرمي إليه.

٥- توظيف الشاه للعمق الشيعي في بغداد لدعم السياسة الإيرانية من خلال فتاوى المرجع الحكيم المؤيدة للسياسة الإيرانية[٢].

٦- تأسيس حزب الدعوة الإسلامية في العراق بخبرات شيعية تدربت على العمل الحزبي؛ من خلال انتمائها إلى أحزاب الإخوان التي كانت لا ترى بأسًا من انتماء الشيعة لها، وكذلك الحزب الشيوعي الذي كان صيته يضرب أطنابه في جنوب العراق[٣]، ويُعدّ حزب الدعوة ومنذ تأسيسه حزبًا شيعيًّا مغلقًا. [٤]

العهد العارفي:

قامت الجمهورية العارفية عام ١٩٦٣م بعد الانقلاب الذي قاده عبدالسلام عارف ضد عبدالكريم قاسم، والتي تولى فيها عبدالسلام رئاسة الجمهورية، واعتبر كأول رئيس جمهورية للعراق، ثم خلفه أخوه عبدالرحمن عارف الذي تنازل عن الحكم عام ١٩٦٨م للبعثيين، ومن مميزات حكمهم:

(١) رشيد البدري، مجزرة الموصل، ص١٨؛ محمود الدرة، ثورة الموصل القومية ص١٦١.
(٢) عادل رءوف، عراق بلا قيادة، ص٣٢.
(٣) صلاح الخراساني، حزب الدعوة حقائق ووثائق، ص٤٦.
(٤) يشير عادل رءوف إلى تحسن العلاقة بين المرجع الأعلى والحكومة العراقية زمن قاسم، رءوف، العمل الإسلامي ص١٠٧.

١- أنه اتصف بالهدوء والتفاعل الإيجابي مع القضايا العربية، ووصف العلاقات العراقية العربية بالود والاحترام.

٢- أنها كانت متعاطفة مع المجتمع البغدادي ذي الطابع الإسلامي السُّني، حتى إنها تدخلت في إنقاذ بعض الدعاة المسلمين من مشانق حكامهم إقليميًّا، ومنها توسط عبدالسلام عارف لثلاث مرات عند الرئيس المصري جمال عبدالناصر لإخلاء سبيل سيد قطب، ووجَّه لقطب دعوة للسكن في بغداد، وجعْلها منطلقًا لدعوته الإسلامية، لكن سيد قطب رفض ذلك العرض، فكانت النتيجة فيما بعد إعدامه.

٣- يشير الكاتب عادل رءوف إلى مؤامرة حيكت في السفارة الإيرانية بحضور مهدي الحكيم ابن المرجع الشيعي آنذاك محسن الحكيم، وكذلك السفير البريطاني للإطاحة بعبدالسلام عارف؛ من خلال اتهامه بالطائفية بعد فشل محاولات اغتياله لعدة مرات، أي: أن عارف كان لا يسير على الخط الغربي الشاهنشاهي، وعرف زمانه بنشاط الأحزاب الإسلامية وعلو شأن دعوتها، وتشكيل العلماء لمجالس الإفتاء العامة على غرار حركة الإخوان المصرية[1].

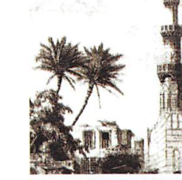
٤- تولي عبدالرحمن عارف رئاسة البلاد بعد وفاة أخيه عبدالسلام وهو العسكري المحنك والقائد الذي تشهد له الميادين بالشجاعة، في وقت لُغِّمت المؤسسات الحكومية بالانتماءات الحزبية، وتجاذبت السياسة أفرادها بين شد وجذب، حتى رأى أنه من الأسلم للبلاد أن يتنازل عن الكرسي لأول حزب طامح يحاول الانقلاب عليه دون إراقة لدماء البغداديين، فكانت ثورة البعثيين في عام ١٩٦٨م وهي أقرب للثورة البيضاء بعد أن سافر الرئيس عبدالرحمن عارف خارج العراق، وأعلن بدله اللواء العسكري أحمد حسن البكر رئيسًا للبلاد.

العهد البعثي:

تولى حزب البعث العربي الاشتراكي الحكم في العراق بين عامي ١٩٦٨-٢٠٠٣م، ومن صفات هذا الحكم:

١- قضى حزب البعث على جميع الأحزاب المعارضة، إسلامية كانت أم علمانية؛ لأنه كان يؤمن بفكرة الحزب الواحد.

(١) عادل رءوف، عراق بلا قيادة، ص ٢٠٠.



٢- ظهور سياسة الند في التعاملات الدولية على جميع الأصعدة، والانفتاح على العالم بشكل أوسع.

٣- التعامل مع المجتمع العراقي وفق سياسة الولاءات للحزب الحاكم، لا وفق الطائفية الدينية أو العِرْقية، الأمر الذي زاد من استقرار المجتمع العراقي، فكان الولاء الوطني والحزبي معيارًا لاستقراره الاجتماعي والأمني.

٤- منع الدعاة المسلمين من ممارسة أدوارهم اجتماعيًا بشكل مستقل عن الدولة، والفتك بالعلماء السنة الثوريين، وتحجيم التمثيل الشيعي بالحوزة فقط، أي: توحيد التمثيل الشيعي بالحوزة، وتشتيت التمثيل السني بتولي الدولة النيابة عنهم إدارة أمورهم الشرعية، وهذا ما سمح للبعض باتهام الدولة البعثية بسُنِّيتها.

٥- لم تتوقف التدخلات الإيرانية في الشأن العراقي على مر العصور، فقد كانت مرافقة له في كل أحداثه، وللتوضيح يذكر محمد حسنين هيكل مدى تأثير ذلك على حكومة بغداد، «في أن العراق أبدى تعنتًا كبيرًا في المفاوضات الجارية بين مصر والكيان الصهيوني من عام ١٩٧٤م، مما أقلق الجانب المصري كثيرًا، فلما علم كيسنجر بذلك طمأن الجانب المصري وقال لهم: إن صديقي الشاه سيتكفل بالأمر، وفي اليوم التالي أعلنت وكالات الأنباء العالمية عن حدوث مناوشات إيرانية عراقية في شمال العراق»[(١)].

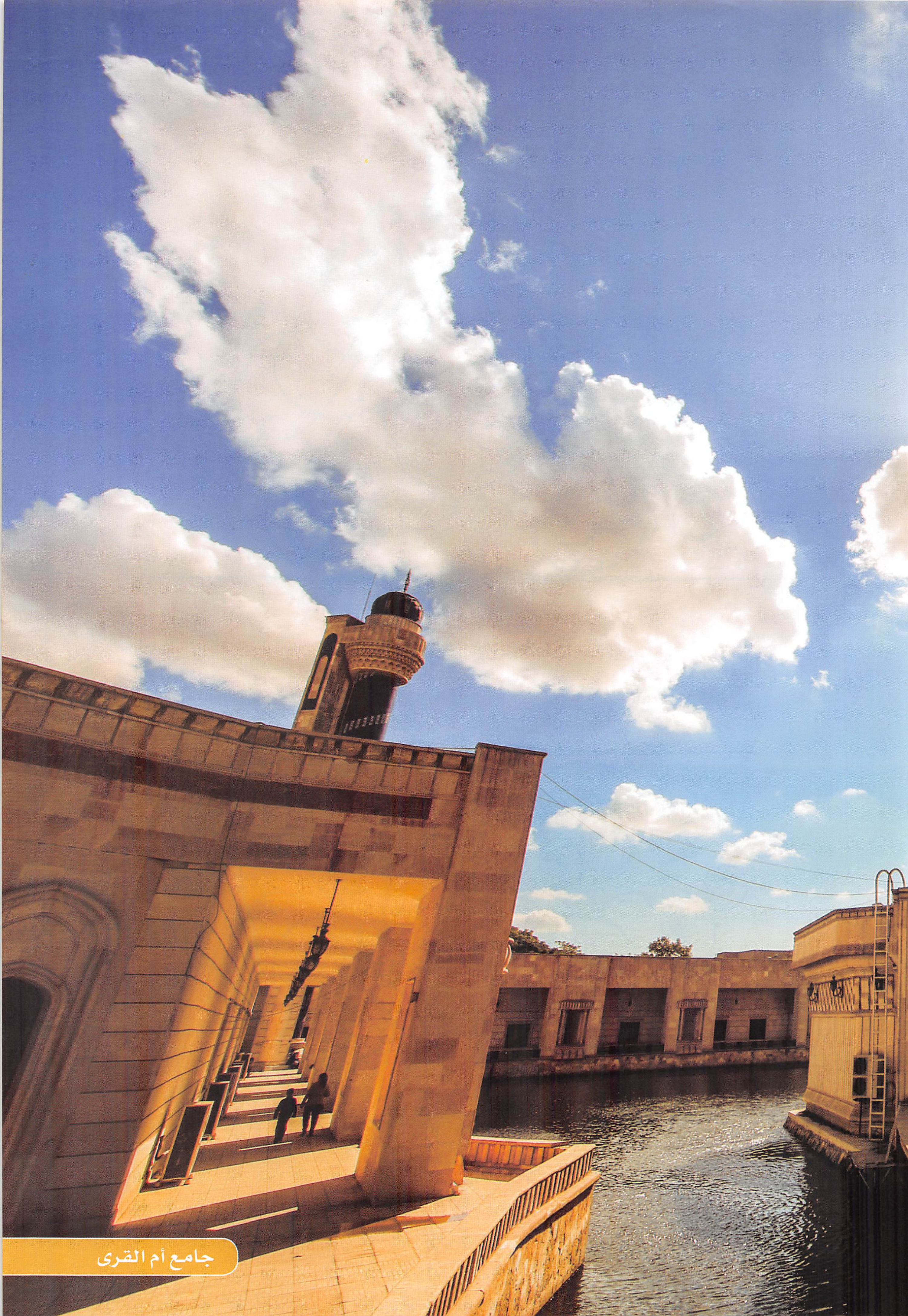
٦- صمدت بغداد في موقفها للدفاع عن حدودها الشرقية ضد تصدير الثورة الخمينية التي لم تتكشف فصولها إلا بعد إعلان الخميني العداء للأمة الإسلامية عمومًا والعربية خاصة، وقصفها للحدود الكويتية والسعودية في عام ١٩٨٢م، وإطلاق لفظة «مكة الأسيرة» في خطاباتهم التحريضية؛ الأمر الذي يذكِّرنا دائمًا بمواقف بغداد عبر التاريخ في وقوفها بوجه الدعوات الشيعية، وصبرها على ذلك حتى تتكشف الأمور للعامة.

(١) إبراهيم خليل، خليل علي، تركيا وإيران، ص٢٢٥؛ مجموعة باحثين، العرب السنة، ص٥٧.



جامع أم الطبول





جامع أم القرى



الفصل الثاني

الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبغداد



إنّ العلماء نجحوا في الحفاظ على مكانة الخلافة الروحية وهيبتها في نفوس الناس عن طريق المحاضرات والخطب وحلقات العلم





المجتمع البغدادي:

تعرف الطبقة الاجتماعية بأنها: «مجموعة من الأفراد في مستوى اجتماعي واحد بحكم القانون أو العرف، يربطهم شعور مشترك بأنهم يلتقون في بعض النواحي الخاصة بهم»، أما التركيبة الفئوية فهي: «تلك العناصر البشرية (المجاميع البشرية) التي تتألف بمجموعها الطبقة الاجتماعية»،[١] ومن المصطلحين سالفي الذكر يتضح لنا أنهما مدلولان اجتماعيان يشيران إلى تمايز اجتماعي في الرتب، يمليه عليهم ويحدده نشاطات أفراد هذه المجموعات، وعلى الرغم من أن الدين الإسلامي جاء ليلغي فكرة الطبقية في المجتمعات المسلمة، وهذا فعلاً ما شهدته مجتمعات الحكومات ذات الطابع الإسلامي، إلا أننا لا يمكن أن ننكر أن الطبقية بدت جلية إبان الاجتياحات والاحتلالات الوثنية كالمغول أو أخرى حديثة العهد بالإسلام للمجتمع البغدادي، وقد اختلفت التركيبة الفئوية لسكان المدن العراقية باختلاف الحقب التاريخية التي مرت عليها، فقد كانت لسياسة الحكام تسندها الظروف الخارجية للمدينة دورها البارز في تحويل المجتمعات من صبغة إلى أخرى، ففي الوقت الذي كانت فيه القومية واللغة العربية تمثل الفئة العليا والمثقفة حتى نهاية العصر العباسي، أصبحت اللغتان التركية والفارسية متشاركتين كأساس لقياس الأديب المسلم في بغداد، ومدى ثقافته وقبوله في دواوين السلاطين إبان الحكم الصفوي والعثماني، وهذا بدوره أثر حتى على مكانة العناصر الإسلامية التي يتكون منها المجتمع البغدادي، فقد أصبح العنصر العربي يمثل المرتبة الأخيرة في سلم العناصر للمجتمع في بغداد، وأصبحت العناصر الأجنبية كالتركي والفارسي والإفرنجي والهندي.. إلخ تمثل فئات وعناصر المجتمع الخاصة[٢]، وإذا كان الأمر كذلك اجتماعيًّا، فما بالك بالسياسة العامة للبلاد في خضم اختفاء العنصر العربي بشكل شبه كامل عن الساحة السياسية؟

التقسيم الفئوي في المجتمع البغدادي:

يقول ابن المقفع: «وعلى العاقل أن يجعل الناس على طبقتين متباينتين.. فطبقة من العامة.. وطبقة من الخاصة»[٣].

(١) نوري، موفق سالم، العامة والسلطة، ص١٥.

(٢) انظر تاريخ العراق منذ الاحتلال المغولي وإلى قيام الملكية من عام ١٩٢٠م لا نكاد نجد ذكرًا لحاكم أو والٍ عربي القومية واللغة إلا واحدًا أو اثنين فقط.

(٣) شرف الدين، الأدب الكبير والأدب الصغير، ص٢٢-٢٣.



جامع الحيدرية خان

أولاً: الفئة الخاصة:

الخاصة هم خلاف العامة، واصطلاحًا: «هي التي امتازت بقدرتها الفائقة على التأثير في الوسط الاجتماعي (القدرة على القيادة) سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا، وعلى الرغم من أنها تكونت من فئات متعددة، تباينت في خصائص عدة، إلا أنها اتسمت بقدرتها على التأثير»[١].

وتتكون الخاصة من فئات عديدة يمكن الإشارة إلى أهمها وهي:

١- النخبة الحاكمة:

وتمثل هذه الفئة قمة الهرم الطبقي، وتشمل السلطان (الحاكم الأعلى) والأمراء والولاة وموظفي الحكومة، من الإداريين والكتبة والقضاة وغيرهم[٢]، وهؤلاء كان جلّهم من العنصر العربي باستثناء القادة العسكريين ومنصب الأمير أو أمير الأمراء في العهد العباسي فقد خضع لرغبات القوة المتسلطة على الخلافة في فترات ضعفها، كما حدث في التسلط التركي زمن المعتصم والبويهي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وهذا لا يعني خلوه من العنصر العربي بقدر إبعاده عن أماكن صنع القرارات للخلافة العباسية لضمان السيطرة التامة.

٢- النخبة المفكرة:

وهي الفئة الثانية في سلم التدرج الفئوي ضمن طبقة الخاصة لما كانت تمتاز به من صفات قيادية[٣]، وآراء مؤثرة في الوسطين الاجتماعي والسياسي، وكان يطلق عليهم مصطلح (أهل العمائم)، كما أطلق عليهم (أرباب الأقلام)، ولقد حظي المعممون باحترام وتقدير السلاطين لإضفاء صفة دينية مقبولة على حكمهم، وليكونوا حلقة وصل بينهم وبين السكان المحليين، وعلى الرغم من الضعف النسبي الذي انتاب مؤسسة الخلافة في العصور العباسية المتأخرة إلا أن العلماء نجحوا في الحفاظ على مكانة الخلافة الروحية وهيبتها في نفوس الناس؛ وذلك عن طريق المصنفات ووسائل التوجيه مثل الخطبة

---

(١) نوري، العامة والسلطة، ص٢٧.

(٢) البكجري، علاء الدين مغلطاي بن قلنج الحنفي، مختصر تاريخ الخلفاء، تحقيق آسيا كليبان علي البارح، دار الفجر، ط١ القاهرة، ٢٠٠١م، ص٢٣.

(٣) نوار، تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٤١.

والموعظة وحلقات العلم الأخرى[١]، وأسندت إليهم وظائف عدة كالقضاء، ونظر الجيوش، وكتابة السر، ومشيخة الشيوخ، والأوقاف كأوقاف المدارس والبيمارستانات (المستشفيات)، وبالرغم من أنهم لم يكونوا بمجملهم ينتمون إلى العنصر العربي إلا أنهم كانوا ينطقون العربية، ويفكرون بالعقلية العربية ويجرون أحكامهم وخطبهم ومواعظهم تبعًا للثقافة العربية حتى قال سيبويه: «لأن أُسَبّ بالعربية أحب إلى قلبي وأطيب من أن أُمدح بالأعجمية»، ومثله قال الزمخشري، وهذا يدلل على حقيقة، وهي أنه لم تقم التركيبة العرقية في المجتمعات الإسلامية أيام الحكم العباسي على الطابع التمايزي والانفصالي القومي، وهو ما تشهده مجتمعات عالمنا المعاصر، فقد كان المجتمع الإسلامي عبارة عن مجموعة من الناس تربطهم وتحركهم الشريعة الإسلامية التي يحافظ عليها الحكام، فعصبيتهم تكون للدين قبل كل شيء. وذلك ما دلت عليه المواطنة في ذلك الوقت، أي الانتساب قبل كل شيء إلى العالم الإسلامي[٢].

٣- الأشراف:

ولا يأتي الشرف إلا بالأجداد[٣]، وهم أحفاد وسلالة البيت النبوي من الطالبيين والهاشميين والعباسيين.

٤- الوجهاء:

وهم أصحاب الحرمة والوجاهة، والوجهاء هم النخبة الاجتماعية والصفوة التي تمتلك مواصفات التأثير الاجتماعي، وتختلف قيمة الوجهاء اجتماعيًا وسياسيًا؛ كل بحسب دوره الذي يميزه، والوجهاء يمثلهم عرفاء الحارات وشيوخها، وأصحاب النسب العريق، ومما يميز المجتمع البغدادي عن غيره من المجتمعات أنه يسمح بتقلد وسام الوجاهة لكل صاحب موقف إيجابي تجاه أبناء حارته أو مدينته، بغض النظر عن انتمائه العِرقي، الأمر الذي حمل في طياته سمات الأبوة التي كانت تتحلى به مدينة بغداد في التعامل مع الأغراب؛ كونها عاصمة الخلافة الإسلامية، ومن جانب آخر استغل أصحاب النفوس الضعيفة طيبة أهل بغداد للتغلغل في مجتمعهم، وزرعوا فيهم الشعوبية والطائفية، وهذه هي

---

(١) المولى، علاقة العلماء بالخلافة العباسية في العصر العباسي الأخير، ص١١٧.
(٢) ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص٩-١٠.
(٣) الأزهري، تهذيب اللغة، ج١١، ص٢٣٤.



أم المشاكل التي تعاني منها المدينة إلى يومنا الحاضر[١].

٥- النخبة الاقتصادية:

وهم من فئات الطبقة الخاصة أيضًا، أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية[٢]، وملاك العقارات، تميزوا بمكانة اقتصادية في المجتمع، ولاقوا نفوذًا وحظوة وجاهًا لدى سلاطينهم، وهم يمثلون بلدانهم التي قدموا منها إذا كانوا وافدين، أو يمثلون أبناء بغداد الأصليين، وباختلاف هذه التركيبة العرقية للمجتمع الإسلامي قامت الخلافة الإسلامية، وبتنوع العرقيات الإسلامية داخل المجتمع الواحد أسلمت الشعوب، وبإسلام هذه العرقيات أصبحت الدعوة الإسلامية تنطق بلغات تلك الأعراق المختلفة، ومع ذلك بقيت اللغة العربية هي لغة الحوار والدبلوماسية داخل جسد العالم الإسلامي وحاضرته بغداد[٣].

ثانيًا: الفئة العامة:

العامة هي أساس المجتمع الإسلامي، وهي طبقة واسعة الانتشار، تتألف من عناصر وطوائف مختلفة سكنت المدن والأرياف على حد سواء، وقد ميَّز فئات تلك الشريحة بالدرجة الأولى الناحية الاقتصادية فظهرت منها فئات تختلف كل فئة منها عن الأخرى حسب مجال عملها، وهي الطبقة الاجتماعية التي تضم الشرائح المتدنية في مستواها المعيشي والثقافي والسياسي في المجتمع، وهي في الأغلب موجهة تقودها الخاصة سياسيًّا وثقافيًّا وفكريًّا ودينيًّا، كما أنها تشكل الأغلبية العظمى من أبناء المجتمع، وتتكون فئات هذه الطبقة من أهل الأسواق والباعة، وأصحاب الحِرَف والصنائع، والعاطلين[٤].

أما العيارون والشطار فهم أعلى فئات العاطلين؛ لأنهم كانوا يأنفون عن السؤال، ويكسبون رزقهم بسيوفهم (سرّاق) ويعيشون في تنظيمات شبه عسكرية تؤمن لهم حوائجهم الأمنية والاقتصادية،

---

(١) ابن قاضي شهبة، التاريخ، ج٣، ص١٥٧، ٤٢٤؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية د.م، د.ت، ج٣٦، ص٥٣٦.

(٢) البكجري، مختصر تاريخ الخلفاء، ص٢٣؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص١٨٠.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص١٢.

(٤) أمين، فتاح عزيز محمد، الجوانب الاجتماعية في كتاب ابن تغري بردي، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى مجلس معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، ٢٠٠٨م، ص١٤٨.

وكانوا لا يعدون اللصوصية جريمة، بل كانوا يعدونها صناعة، وكان هدفهم الأغنياء والتجار[١]، وعدّوا ما يستولون عليه من أموالهم بأنها زكاتها بزعمهم.

واللصوص وهم فئة أدنى من العيارين والشطار؛ لأنهم يسرقون بالخفاء، لكن الأمر من وجهة نظرهم أنهم يرون أنفسهم أرقى من فئات المتسكعين والمساكين والصوفية (الدراويش)؛ لأنهم يعيلون أنفسهم بالسرقة، ولا يسألون الناس[٢].

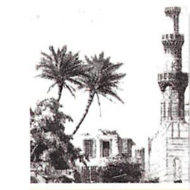
والمتطفلون وهم من يغشى الولائم والأعراس والمجالس، ونحوها؛ من غير أن يُدعَى إليها، ويمكننا أن ندرج المتطفلين ما بعد فئة اللصوص؛ لأنهم لا يسألون الناس بشكل مباشر بل يستخدمون الحيلة والجرأة، لإجبار صاحب الوليمة على التسليم لهم مضطرًّا لا راضيًا[٣]، وهم على كل حال أفرزهم الفقر والحرمان الذي ساد أواسط الطبقة العامة، وللحافظ البغدادي كتاب جمع فيه التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم.

ومن الفئات أيضًا الشحاذون والمتسولون، والفقراء والمساكين، وأهل الأرياف والبوادي والأرقاء والعبيد.

وسياسيًّا فإن العامة قوة هائلة ذات حدَّين، فمرة تكون قوة مدمرة مخربة تنزلق نحو الفوضى والسلب والنهب، تحرِّكها عوامل معينة، وتارة تكون قوة إيجابية أسهمت بفاعلية في الدفاع عن بغداد وعن الخليفة[٤]؛ لأنها لا تمتلك القدرة على تولي زمام المبادرة واتخاذ المواقف والقرارات إلا بوجود القائد الموجه، وغالبًا ما كان هذا القائد من طبقة الخاصة ممن يتحلى بصفات تجعله محط اهتمام العامة واحترامها منها أن يكون خطيبًا، وأن لا يكون خطابه يشعر العامة بالدونية، وأن يستخدم عبارات مؤثرة من قاموس الفئة العامة، الأمر الذي يُضفي على الخطاب الفهم والقبول، ويلغي الحاجز النفسي الذي يحول بينهم وبينه، وغيرها من العناصر الناجحة.

---

(١) الدوري، نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، المجلد الأول، ص١٦٠-١٦١.
(٢) الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ج١، ص٣٨٨، ج٢، ص٢٠٨.
(٣) الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ص٦٢-٦٨.
(٤) نوري، العامة والسلطة، ص٥٣.



التاريخ الاجتماعي لمدينة بغداد:

تمتد جذور المجتمع البغدادي إلى عمق التاريخ الحضاري والاجتماعي، والثقافي والسياسي للمنطقة، تعاقبت فيه أدوار المدينة بين القيادة والتبعية لتؤثر بذلك على طبيعة مجتمعها البشري حسب الدور التاريخي الذي شغلته، وأقدم ما وصلنا عن التاريخ الحضاري للمدينة أنها كانت حاضرة وبقوة في عصر دويلات المدن في بلاد الرافدين فقد شكلت مدينة بغداد الحاضرة الاقتصادية لمملكة إشنونا، وعُثر فيها على أقدم قانون مدوَّن على وجه الأرض (قانون مملكة إشنونا)، وهو بطبيعته العامة أقرب إلى القوانين الاقتصادية والاجتماعية، وتحدثت فقراته بصورة أساسية عن حقوق المزارع والإقطاع، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمُلَّاك وبين المُلاك وعبيدهم، وحقوق كل منهم مع تنظيم الحقوق والعلاقات بين أبناء طبقات المجتمع وقد استخدمه حمورابي أساسًا لتدوين مسلته المشهورة.

ووصل المجتمع البغدادي عبر الأزمنة من الرقي أن استهوى قلوب حكام المحتلين السلوقيين والفرس ليقيموا عواصمهم على أرض بغداد عند ضفاف نهر دجلة، ويشير بعض الباحثين إلى تبنّي المحتلين اللغة والحضارة والثقافة الآرامية السامية كدعامة رئيسة لإنشاء إمبراطورياتهم حضاريًا، فهم أي: السلوقيون والفرس كانوا عالة على الحضارة العراقية والبغدادية القديمة، وليس من الغريب أن قوانين العراق وبغداد القديمة، ومنها قانون مملكة إشنونا وحمورابي وجدت في الآثار الإيرانية كمنظومة حكم دانت له المنطقة.

وبهذا السبق والعمق في الرقي الحضاري بقيت بغداد هي بغداد إلى يومنا الحاضر على الرغم من فوضى الحالة السياسية التي أسلفنا ذكرها في الفصل الأول.

وبالعودة إلى العنصر البشري الذي كان يمثل بمجمله المجتمع البغدادي، فقد استضافت بغداد ومنذ فجر التاريخ موجات الهجرة السامية القادمة من الجزيرة العربية، والتي مثلت نشوء حضارات وادي الرافدين.

أما في حديثنا عن المدينة قبيل الفتح الإسلامي وما بعدها، حيث تشكلت الهوية البغدادية المسلمة، وهي مناط بحثنا هذا، فقد مرت بغداد بتحديات كبيرة جدًا كادت أن تقتلع هويتها العربية المسلمة من الجذور، وكانت كفيلة لاقتلاع هوية أي مدينة في العالم لو تعرضت لمثل تلك التحديات لولا أن قيَّض الله لها أسباب النصر والديمومة.

ومن الوفاء لمدينتنا ونحن نتحدث عن المجتمع البغدادي، لا يسعنا أن نغفل عن تلك التحديات وأهدافها وأساليبها، وهي بمجملها تدور حول صمود مدينة بغداد بوجه المد الشيعي والصفوي في السيطرة على حواضر العالم الإسلامي، ومن خلالها سنتناول العناصر البشرية التي كونت المجتمع البغدادي وحجمهم ونسبهم داخل ذلك المجتمع، فهي مختلفة باختلاف نوع وثقافة الحاكم أو المحتل، وبالعودة إلى طبيعة الواقع التاريخي للموضوع يمكن تجزئة هذا الفصل إلى الأدوار التاريخية التي شهدت فيها بغداد تنوعًا اجتماعيًا بالأعراق والثقافات أو باختلاف الأدوار التي لعبتها تلك الأعراق صعودًا تارة ونزولاً أخرى.

أولاً: بغداد قبيل الفتح الإسلامي:

في الحديث عن المجتمع البغدادي قبيل الفتح الإسلامي، وقع الجم الغفير من الباحثين والكُتاب المسلمين في شباك الاستشراق الغربي من حيث يعلمون أو لا يعلمون، وعممت لفظة الموالي[١] على المجتمع البغدادي قبيل الفتح الإسلامي؛ معللين ذلك بأنهم كانوا نصارى أو وثنيين، وهذا الأمر طبيعي جدًّا؛ لأن الأمر سبق نزول الدين الإسلامي، ومما زاد الطين بلة هو تعميم كلمة فارسي على كل مصطلح مولى أو أعجمي ذكر في التاريخ حتى لغم المجتمع البغدادي في بطون كتب التاريخ بالعنصر الفارسي بعيدًا عن الحقيقة للواقع التاريخي للمدينة، فأصبح البرامكة ذوو الأصول الأفغانية فرسًا، وأصبح أبو حنيفة الكابلي فارسيًّا[٢] أيضًا، وأصبح الطبري ذو الأصول العربية فارسيًّا، ولسنا بصدد سرد أسماء عظماء الإسلام سواء كانوا فرسًا أم لا، بل كل ما يعنينا هو إبعاد تهمة فرسنة المجتمع البغدادي كما يطبل لها مأجورو العصر الحديث لغايات طائفية استعمارية[٣].

كغيره من المجتمعات العالمية كان العنصر الفارسي المحتل لمدينة بغداد لا يمثل أكثر من الفئة الحاكمة الفعلية زمن الاحتلال الكسروي، وما مساعدوه وحواشيه إلا نبطًا آراميين أو عربًا نصارى، وليس من المعقول بتاتًا أن تشكل الفئة الحاكمة المحتلة أغلبية مجتمع ما، بل عادة ما تنحاز الأغلبية للعنصر الكادح أو الفئة العامة، وهم من السكان الأصليين، وهذا ما أكدته المصادر التاريخية كما أسلفنا ذكرها فقد كانت بغداد في غالبيتها عربية من بني تغلب وبكر بن وائل، وبعض النبط الآراميين،

(١) مطر، سليم، الذات الجريحة، ص٨٩.
(٢) مطر، سليم، الذات الجريحة، ص٩٤.
(٣) كما نادى بها الكاتب حسن العلوي في كتابه، الشيعة والدولة القومية، ص٢١.



وكلاهما كانوا من النصارى، ولا صلة تربط بينهم وبين المحتل الوثني الفارسي، سوى أن هذا عربي نصراني، وذاك محتل فارسي مجوسي، وهم توّاقون للخلاص من ظلم الحاكم الفارسي يصدقه سرعة اعتناقهم للدين الإسلامي.

وتتكون عناصر المجتمع البغدادي من الآتي:

١- العرب:

وجاء ذكرهم في الصدارة؛ لأنهم يشكِّلون الأغلبية العظمى والمادة الأساسية للسكان، وجلهم من قبائل تغلب وبكر بن وائل، وقد أجمع المؤرخون والباحثون على أن وصول هذه القبائل وبمسمياتها تلك إلى بغداد كان بعد انهدام سد مأرب في بلاد اليمن، وحدوث الهجرة الجماعية منها، ويسبقها هجرة أقوام الجزيرة العربية بعد انحسار الطوفان وتصحُّر الجزيرة العربية، واستيطانهم في أرض العراق كأول الأقوام وصولاً، معلنين عن وصولهم بتأسيس حضارات وادي الرافدين العريقة قبل التاريخ وبعده، وبالرغم من المحاولات الجادة والمتكررة للحكام الفرس في تهجير العنصر العربي، واستبداله بالفرس إلا أن الصحراء العربية بقيت الرافد الأول لتلك القبائل في تقوية مركز العنصر العربي في السلم الاجتماعي البغدادي، بل أسهم الظلم الفارسي في تقبل العنصر العربي للدين الإسلامي، واعتباره المخلص، وتناول زمام المبادرة بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني لتحرير أرضهم من الاحتلال الفارسي.

٢- نبط العراق[١]:

يشكل نبط العراق الآراميون أحد العناصر الأساسية في تكوين المجتمع البغدادي، وهم يحتلون المرتبة الثانية في سلم العناصر الاجتماعية البغدادية، وبسبب اعتناقهم للديانة النصرانية، وهي ذات الديانة التي دان بها عرب العراق، وبسبب صعود العنصر العربي بشكل كبير في بغداد بفعل موجات الهجرة، وأيضًا بسبب انتمائهم لذات الأصول التي يرجع إليها عرب الجزيرة، ذاب العنصر الآرامي النبطي السامي في المجتمع العربي ليشكلوا مجتمعًا ساميًا عربًا ومستعربين تجمعهم ديانتهم الواحدة ضد ثقافة الاحتلال الفارسي، علاوة على أن الكثير من علماء اللغات يرجعون أصول اللغة الآرامية بشقيها

(١) الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٣٧.

العبرية والسريانية إلى أصولها الأم وهي اللغة العربية، وقد اكتمل ذلك الذوبان للعنصر الآرامي ما بعد الفتح الإسلامي واعتناقهم للديانة الإسلامية، وتبنيهم الثقافة القرآنية في عاداتهم الاجتماعية، وإن إطلاق لفظة الموالي عليهم كانت بداية للمشكلة التي سببها هذا المصطلح فيما بعد[١].

٣- العنصر الفارسي:

وهذا لا يقتصر على العنصر الفارسي فحسب، بل يمثل كل من خدم البلاط الفارسي من غير النبط والعرب، وإنما أطلقنا عليهم لفظ العنصر الفارسي لقلة تلك الإثنيات العِرْقية عددًا مع كثرة تنوعها في المجتمع البغدادي، وهم يستعلون على السكان الأصليين بسبب قربهم من العرش الكسروي؛ مثال ذلك رستم القائد الفارسي الولاء الأرمني الانتماء والقومية، وعلى كل حال فهم لا يشكلون أكثر من ١٠٪ من عموم المجتمع البغدادي متمثلين بالجهاز الإداري، وحرس الحاميات الخاصة لمدينة طيزفون، وهذا ما أثبته الآثاريون؛ لأنهم لم يعثروا على أي معالم فارسية قديمة تُذكر في مدينة بغداد، بل جلها كانت بابلية أو سومرية واكدية سوى ما يعرف بالبيت الأبيض أو (قصر كسرى) الشهير بطاق كسرى في منطقة المدائن، ومما يدل على انعدام العنصر الفارسي هو تبنيهم للثقافة والحضارة الآرامية، وكل ما تم اكتشافه من قطع أثرية تعود لعهد الأكاسرة حتى التي اكتشفت في جوار قصر الطاق الكسروي كان يحمل اللغة والثقافة الآرامية والعربية، فبغداد عربية الثقافة والحضارة رغم أنف الاحتلال الفارسي، هذا قبيل الفتح الإسلامي.

ثانيًا: بغداد بعد الفتح الإسلامي حتى عام ١٤٥هـ:

بقي المجتمع البغدادي على ما هو عليه بعد الفتح الإسلامي للمدينة في عهد أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وبسبب الإصلاحات الزراعية التي أقرها الخليفة عمر -رضي الله عنه- في عدم سلب أو تقسيم الأراضي التي تُفتح في بلاد الرافدين، بل يعمر بعضها، ويترك بعضها الآخر بيد أهلها لقاء ضرائب معينة؛ ليكون ما تُدرّ هذه الأراضي على بيت المال عونًا للأجيال القادمة، وليجدوا ما يقيمون به دولتهم خيرًا من أن يستأثر به الجيل الأول، وهي العبقرية العمرية التي دان لها الاقتصاد الإسلامي حتى نهاية الدولة العباسية، ونتاج لذلك بقي المجتمع البغدادي على ما هو عليه من تكوين عرقي.

---

(١) مطر، سليم، الذات الجريحة، ٨٩.



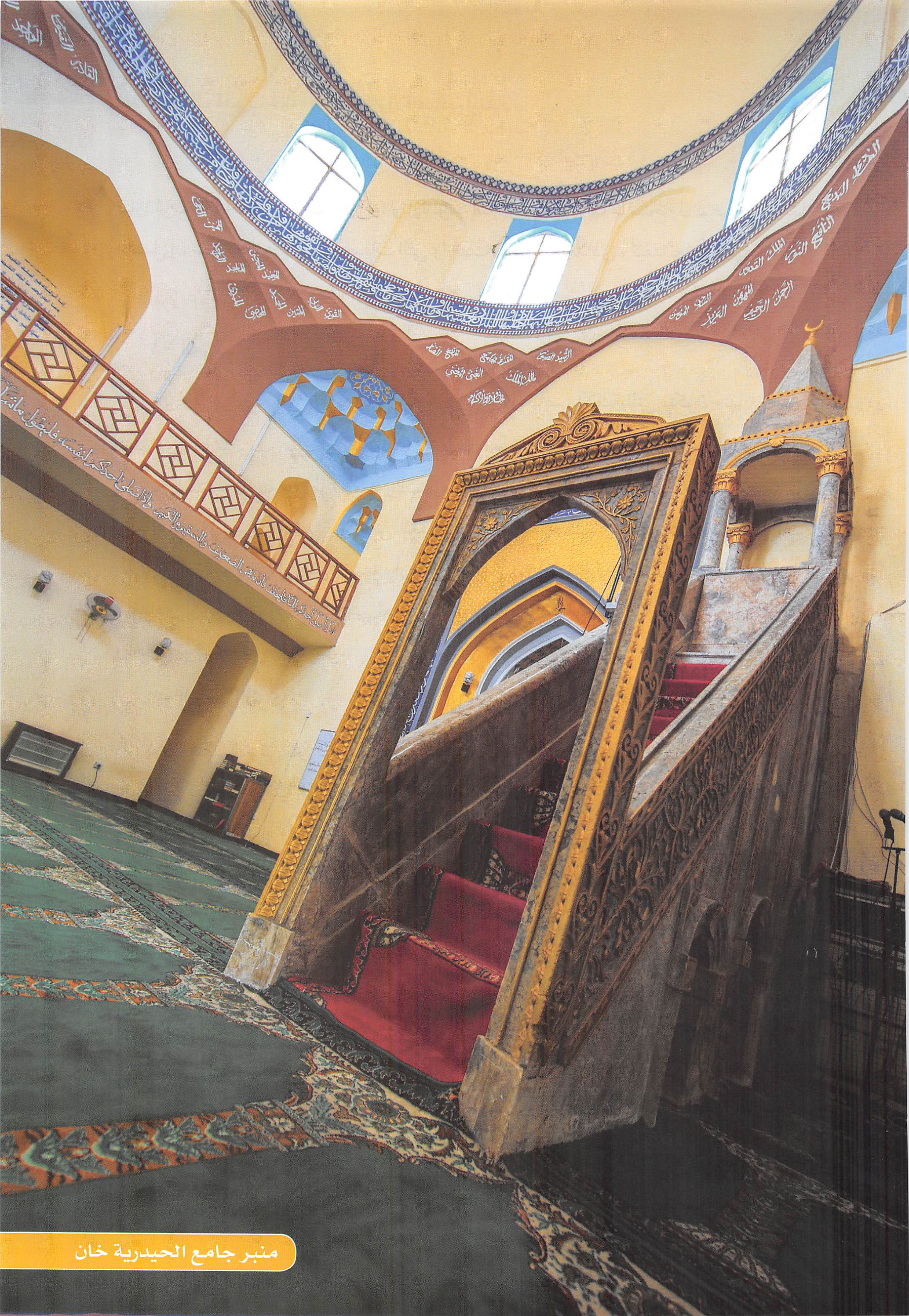
أما الاختلاف الذي حصل ما بعد الفتح، فهو اندثار العنصر الفارسي وأذنابه في المجتمع البغدادي، وصعود العنصر العربي على حساب الآخرين؛ بسبب سيول الفتوحات الإسلامية وما يرافقها من استقرار البعض، ومواصلة البعض الآخر، كذلك تأمين طريق بغداد الجزيرة العربية، الأمر الذي رفع من شأن العنصر العربي بشكل كبير حتى ذابت النبطية في العنصر العربي بشكل كامل، وتحولت الديانة النصرانية إلى الإسلامية بغالبيتها[١]، وناصحوا خلفاءهم، ولم تشهد بغداد موقفًا سلبيًّا من الحكم الإسلامي قط، بالرغم من الأحداث الجسام التي أصابت المسلمين في عهد الفتن أو تحولات الخلافة من راشدية إلى أموية فعباسية، وتشهد لهم الروايات بمناصحتهم لأبي جعفر المنصور في اختيار بغداد عاصمة له.

ثالثًا: بغداد بين عامي ١٤٥-٦٥٦هـ:

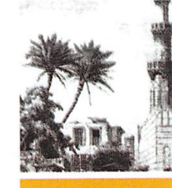
يعتبر عام ١٤٥هـ نقطة التحول والانقلاب الجذري لمدينة بغداد بعد اختيار المنصور لها عاصمةً لخلافته، لتصعد إلى قمة الأحداث السياسية، وتأثير ذلك على مجتمعها الجديد.

باشر المنصور في تأسيس عاصمته الجديدة بغداد كما مر ذكره سابقًا عام ١٤٥هـ؛ ليمثل مجتمعها النموذج المصغر لأجناس وثقافات الخلافة العباسية، ولكن وبكل الأحوال والظروف بقي العنصر العربي يشكل الرقم الأول في رأس الهرم الاجتماعي لأجناس العاصمة بغداد[٢]، فضلاً عن كونها الفئة الحاكمة للعالم الإسلامي، والحديث عن عروبة المدينة بدوره لا ينفي مطلقًا خلو المدينة من بقية الأجناس من الجاليات المسلمة الأخرى كممثلين عن شعوبهم في بغداد، بل يؤكد مركزية الخلافة في حكم العالم الإسلامي، وما كانت تتمتع به بغداد سياسيًّا واقتصاديًّا وتأثير ذلك اجتماعيًّا، وهذا بدوره لا يعطي الحق لأي من تلك الأجناس ادعاء الأحقية في عائدية بغداد، الأمر الذي يستهوي الكُتاب وأنصاف المتعلمين الفرس، وليس من الغريب على دعاة الشعوبية أن تصدر عنهم مواقف هكذا، لكن الغريب في الأمر أن دعاة التشيع حتى ممن يدعي انتماءه العربي يروّج لمثل هذه الأطروحات، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على العمق السياسي الذي يخفيه الشيعة في أطروحاتهم، وكانت بغداد وما زالت شغلها الشاغل هو كيفية التصدي للديانة الشيعية الفارسية الذي كانت في كل مواجهة تلبس ثوبًا باليًا

(١) زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام، دار الفكر، ط٢ دمشق، ١٩٨٢م، ص٩٢.
(٢) خصباك، العراق في عهد المغول، ص١٦٩.



منبر جامع الحيدرية خان



فتارة ثوب العلماء، وتارة ثوب الوزراء، وتارة ثوب التجار.. إلخ، وهذا ما سنحاول توضيحه في هذا الفصل إن شاء الله، وهي أهم التحديات التي واجهت المجتمع البغدادي وكيف تعامل معها.

أبرز عناصر المجتمع البغدادي عام ١٤٥-٦٥٦هـ:

١- العرب:

كان ولا يزال العنصر العربي يمثل المادة الأساسية للعناصر الإثنية التي يتكون منها المجتمع البغدادي[١]، مما ترتب عليهم أن يكونوا في خط المواجهة الأمامية إزاء كل الأطماع والاحتلالات التي تعرضت لها المدينة على مر الحقب والسنين، فكيف إذا كانوا يشكلون هم الفئة الحاكمة للمدينة والعالم الإسلامي، الأمر الذي زاد من العبء على المجتمع البغدادي ومطالبته بإصدار المواقف الإيجابية الداعمة إزاء كل حدث تشهده أرض الخلافة، أي عالمية التفكير والموقف مما رقى بالمجتمع البغدادي إلى مستوى الأحداث التي تعرضت لها أمتنا الإسلامية، كما بينا ذلك في الفصل الأول، ونحاول توضيحه في هذا الفصل.

٢- العنصر التركي:

يُعدّ العنصر التركي ثاني الأجناس التي سكنت مدينة بغداد بعد عام ١٤٥هـ، وأول الأقليات تأثيرًا في الحياة الاجتماعية لشغلهم مناصب حساسة في الدولة كانت أغلبها ذات طابع عسكري، وترددت مواقفهم إزاء المجتمع البغدادي وثقافته بين الإيجابية والسلبية، وهم على نوعين؛ الترك الذين أكثَر من استجلابهم الخلفاءُ العباسيون الأول خصوصًا الخليفة المعتصم بالله[٢]، والنوع الثاني هم الذي استجلبهم السلاجقة[٣].

٣- العنصر الكردي:

يُعدُّ العنصر الكردي من العناصر البغدادية التي أسهمت في بناء مجتمع المدينة بشكل إيجابي كبير إبان الحكم العباسي، استوطنوا المدينة بعد إعلان إسلامهم، وزادت هجرتهم إلى بغداد بعد تمصير المدينة، واتخاذها عاصمة للخلافة من قِبل أبي جعفر المنصور، ومما زان هذه الأقلية البغدادية أنها كانت

---

(١) الجبوري، دور الفئات، ص٢٨.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص٦٢.
(٣) الجبوري، دور الفئات، ص٣١.

منسجمة بشكل كبير حد الذوبان في العادات والثقافة والتقاليد العربية الإسلامية البغدادية، وعدهم بعض الباحثين أقلية بغدادية لا يستحسن ذكرها في الأقليات لصغر حجمها، وبعد البحث والتقصي ظهر لنا عكس ذلك، فهم أقلية تضاهي في حجمها العنصر التركي، لكنها ألفت العيش الهادئ والدعة والابتعاد عن الفتن والغوغاء التي تميز بها سيرة غيرها من الأقليات البغدادية، يؤيد ذلك المساهمة الفعَّالة لجيش الكرد البغداديين في الدفاع عن مدينة بغداد من الأخطار الخارجية، ومن أشهر قادتهم (الأمير عز الدين الشيباني، والأمير الصلاح مبارز الدين كك)[١]، وأنهم كانوا يقاتلون في كتائب مستقلة عن باقي الجيش العباسي لحبهم في إبراز شجاعتهم في دورهم الإيجابي للدفاع عن مدينة بغداد.

٤- عناصر أخرى:

يعتبر العنصر التركي والكردي أكبر الأقليات البغدادية التي عاشت في مدينة بغداد، والتي كاد وجودها وأدوارها أن يمحي كل ذكر للقوميات الصغيرة الأخرى، ومن تلك الأقليات النصارى، وهم لا يمثلون في حقيقتهم عرقًا معينًا بذاته لكنهم كانوا وباختلاف مذاهبهم التي زادت على (٢٨) مذهبًا في بغداد في نظر البغداديين كإثنية عرقية واحدة بسبب توحد مواقفهم العامة من الأحداث المحلية والإسلامية، ويرجع كثير من الباحثين هؤلاء النصارى إلى العنصر العرب من بقايا العرب العاربة من بكر بن وائل وبني تغلب ومن المستعربة من نبط العراق، مع القليل من الوافدين من نصارى الروم، وغيرهم[٢].

ومن الأقليات البغدادية الأخرى العنصر الفارسي الذي شغل علماء الاجتماع والتاريخ بمواضيع جدلية عقيمة كانت تدور في مجملها حول أغلبية الأقلية الفارسية في بغداد، وعن أصول بغداد الفارسية، وغيرها من الشعارات، ولكن لا بد أن نذّكر في هذا المقام أن العنصر الفارسي كان يمثل كغيره من الأقليات شبه معدومة الحال في بغداد مثله كمثل شعوب شمال وجنوب وشرق بلاد فارس، مثل الأفغان والسند والهند، وسيستان من البلوش والآذريين والزط والخزر، لكن نصَّب الفرس أنفسهم الناطق الرسمي باسم تلك الأقليات، وادعوا انتماءهم الفارسي[٣].

---

(١) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق٣، ص٣١٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧٤.
(٢) أرنولد، سير، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة القاهرة، ١٩٤٧م، ص٢٥٤ - ٢٥٨.
(٣) الجبوري، دور الفئات، ص٣٢.



أبرز التحديات التي تعرض لها المجتمع البغدادي:

تعرضت مدينة بغداد لتحديات كثيرة بقدر أهميتها كعاصمة للخلافة الإسلامية، وقد اتخذت تلك التحديات أشكالاً وأهدافًا عدة، منها تحديات عسكرية كما برزت لدينا في معرض حديثنا في الفصل الأول عن الجانب العسكري والسياسي لمدينة بغداد بين عامي ١٤٥-٦٥٦هـ.

ومن الطبيعي ما يرافق ذلك من تأثيرات على الحالة الاجتماعية للمدينة وسكانها؛ تبرز من خلالها المواقف الجماعية للمجتمع البغدادي سلبية كانت أم إيجابية، كلّ حسب مصلحته، لكن الذي يميز كل تلك المواقف أن العنصر العربي بقي بشكل دائم المدافع الأول عن العقيدة والخلافة مع اختلاف مواقف القوميات الأخرى، مثل أطماع الجالية التركية في الخلافة العباسية أيام المعتصم، ونقل العاصمة إلى سامراء؛ بسبب عدم انصياع بغداد لمطامعهم الشخصية.

كذلك ما تعرضت له المدينة زمن التسلط البويهي الذي اعتُبر الراعي الرسمي للحركة الشعوبية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، والتي كانت وما زالت تمثل التحدي الأول والدائم الذي يشعل أحداث الفوضى البغدادية منذ تأسيس بغداد كعاصمة للخلافة الإسلامية وإلى يومنا الحاضر، ومن أشكاله السيطرة العسكرية، والتي من آثارها: طمس فروض الخلافة العباسية، ونشر المذهب الشيعي الباطني، واتخاذه طابع حياة، والجهر بالتعزيات الحسينية لأول مرة في بغداد، وإجبار النساء البغداديات بالقوة على الخروج ناثرات لشعورهن ويندبن الحسين، وإجبار الناس على التعبد بالمذهب الشيعي؛ الأمر الذي نسف التعايش السلمي للمجتمع البغدادي من الجذور، بل أدخل مذاهب وإثنيات المجتمع البغدادي في مواجهات مباشرة معهم (ضد البويهيين)، فظهرت المعارضة البغدادية العسكرية والدينية التي دامت لأكثر من قرن (٣٣٤-٤٤٧هـ) حتى سقوط التسلط البويهي وعودة الهيبة للخلافة العباسية[١].

ومن صور المقاومة البغدادية للتسلط البويهي: ابتكارهم لنظام الحارات المغلقة[٢]، ويتمثل بغلق الحارات البغدادية على ساكنيها الأصليين، ومنع إدخال العناصر الغريبة إليها، واختيار العرفاء

---

(١) أمين، الجوانب الاجتماعية، ص١٥٧.

(٢) حميدي، جعفر عباس، العيارون والشطار والفتوة، مجلة صوت الإسلام، الأعداد الأول والثاني والثالث بغداد، ١٩٧٧م، ص٩٥.

للحارات البغدادية، وأخذ العيارون والشطار في تدريب وحماية تلك الأحياء، وتشكيل كتائب دفاعية شعبية تكون حاضرة للصدام وقت المواجهة حتى غدت تلك الأحياء ملاذًا آمنًا للدعاة البغداديين، ولا تستطيع القوات البويهية ملاحقتهم أو اقتحام تلك الأحياء؛ لقوتها، ووصل الأمر إلى لجوء حرس الخلافة والجيش التركي كدخلاء عند تلك الحارات[(١)]، وهذا ما حدث مرارًا، وكان في كل مرة يعجز فيها الجيش الديلمي من استعادة دخلاء تلك الحارات، وأخذ الخليفة العباسي يتحرر من سطوة البويهيين الإدارية بسبب شعوره بقوة تلك الحارات.

وما كان من قرار إلغاء المذهب الشيعي الباطني مذهبًا رسميًّا للبلاد، أو إلغاء الدعوة للفاطميين على المنابر البغدادية، وإلغاء المواكب الحسينية، المظهر الدخيل على مدينة بغداد إلا نتاج الضغط الجماهيري البغدادي لتلك الحارات.

ومن نتاجها أيضًا: حماية أفراد الحارات من العوز الاقتصادي، ومن ظلم وسراق الجيش الديلمي الشيعي، واشتهرت العديد من تلك الحارات بصناعات معينة[(٢)]، ووقوفها كسد منيع أمام التغيير الديموغرافي لمدينة بغداد، واضطر البويهيون إلى إسكان جنودهم وعناصرهم خارج أسوار المدينة، وهذا بدوره حصَّن المدينة من جور التسلط البويهي، وأعطى الحصانة للعلماء في ممارسة دورهم التوعوي لفضح العقيدة الشيعية، فلجأت الشعوبية الباطنية إلى أساليب المكر والنفاق للإطاحة بالمجتمع البغدادي، ومنها وأشهرها ما قام به الوزير ابن العلقمي في إغراء المغول لاحتلال المدينة، وإسقاط الخلافة العباسية، وبمساعدة نصير الدين الطوسي، فتم لهم ذلك عام ٦٥٦هـ[(٣)] لتبدأ مرحلة جديدة من المواجهة البغدادية للمد الشيعي لكن تحت ظل الحكام الملاحدة.

رابعًا: بغداد بين الاحتلال المغولي والصفوي:

يُعدُّ الاحتلال المغولي لمدينة بغداد من أهم المحطات التاريخية التي واجهت المجتمع الإسلامي بسقوط الخلافة الإسلامية على وجه العموم، وما تبع ذلك من الدمار الذي أصاب مدينة بغداد على وجه الخصوص، فقد تعرض المجتمع البغدادي المسلم لإحدى أكبر عمليات الإبادة التي شهدها

---

(١) الأعظمي، الدول الفارسية، ص٨٠.
(٢) سعيد، العامة، ص١١٨.
(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٣.



التاريخ، ودمرت أشهر معالم المدينة ولم يسلم من مجزرة هولاكو سوى النصارى وبعض اليهود والشيعة[١].

وعزز هولاكو إجراءات الاحتلال بطرده لعماله العرب الذين استجلبهم من بلاد فارس، ونصب بدلهم الفرس؛ خوفًا من تحرير أرضهم؛ لاشتهار العرب بحميتهم الإسلامية، الأمر الذي كان يفتقده الفرس الشيعة، وسيطر جاثليق النصارى على دار الدويدار الكبير ودار الفلك في بغداد، وتسلط التجار الفرس على الأسواق[٢].

وأبرز المغول الكفرة اهتمامهم بالعلويين؛ لاستمالة الشيعة والصوفية إليهم[٣]، وكثر الموالي الفرس والترك في بلاط الحاكم، وبالرغم من أن العالم الإسلامي بما فيه بلاد فارس كانت تدين لله بالتسنن إلا أن سقوط الخلافة العباسية أدى إلى نشاط المذاهب الأخرى بعد تولي أبنائها الوظائف المغولية السلطانية المهمة، وبنيت لهم دور لنشر دعوتهم، وفرض الإيلخان المغولي خربنده المذهب الشيعي بالقوة على المجتمع البغدادي[٤].

وقبل الدخول في التحديات التي أصابت المجتمع البغدادي، نود الإشارة إلى أنه على الرغم من الهزة العنيفة التي أصابت المجتمع في الصميم، إلا أن العنصر العربي بقي يمثل الصفة الأبرز للتركية السكانية لمدينة بغداد، وما الواقع الذي فرضه الاحتلال الجديد إلا حالة طارئة تزول بزوال المحتل المعين، وظهور آخر على المدينة، ويظهر ذلك في تولي عطا ملك الجويني حكم ولاية بغداد، وإقامة المشاريع التشجيعية للسكان الأصليين على العودة لمدينتهم بعد الفوضى التي أحدثتها العناصر الوافدة الجديدة، الأمر الذي أقره الإيلخان المغولي خصوصًا بعد أن أدت تجربة الجويني في عودة السكان العرب الأصليين إلى زيادة كبيرة في خراج المدينة[٥].

---

(١) ٣ ياسين، العنف الدموي، ص١٧٣.

(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج١ ص٢٣٦، ٣١٣.

(٣) العزاوي، بين احتلالين ج١ ص٣٩٨.

(٤) العسقلاني، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٩٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٠٠؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٣٣؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٢٤٢.

(٥) اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٥٤م، ج٤، ص٢٢٥.

التحديات التي أصابت بغداد في هذه الحقبة:

١- بقي الشيعة والعنصر الفارسي يمثلان التحدي الأول لإسقاط المجتمع البغدادي في براثن الفوضى اللامتناهية، ليتسنى لهم السيطرة السياسية والعسكرية على المدينة، وضرب المسلمين بيد المحتل المغولي، ومنها قتل المغول لكل أبناء وأحفاد أسرة الجوزي الحنبلية البغدادية، بوشاية من قبل ابن العلقمي الشيعي بسبب قوة تأثيرهم على المجتمع البغدادي[١].

فكان الرد من المجتمع البغدادي هو إعلان المقاطعة التامة لنائب الحاكم المغولي الجديد وزير الخليفة العباسي ابن العلقمي! وإبراز ازدرائه واحتقاره في الطرقات والأسواق، مما أشعر المغول بخيبة أمل في تولي ابن العلقمي لنيابة حكم بغداد.

ويروى عن ذلك أن المغول كانوا يمنعون ابن العلقمي من ركوب الخيل وأعطوه برذونًا كثير الحركة؛ يُذهِب هيبته انتقاصًا منه، فرأته إحدى النساء البغداديات، وهو في تلك الحال فقالت له: «أهكذا كان شأنك عند خليفة المسلمين»، فطلب ابن العلقمي من هولاكو أن ينقل عمله إلى مقره السلطاني في تبريز بمعية المستشارين المغول، فرفض هولاكو طلبه ورد عليه: «لقد خنت من أكرمك -يقصد الخليفة العباسي- فكيف بمن أهانك؟!»، فمات كمدًا بعد مضي قرابة الشهر على احتلال المغول لبغداد[٢].

ومن أساليب الشيعة الأخرى هي الوشاية بالعمال المسلمين لدى الإيلخان المغولي، واستبدالهم بالفرس بعد إثباتهم الولاء التام للعرش المغولي، بالتعاون مع التحالف الصليبي الذي يمثله جاثليق النصارى في بغداد[٣]، أو مع الوزير سعد الدولة اليهودي[٤]، فما كان من المجتمع البغدادي إلا إعلان العصيان التام في المدينة، والخروج في مظاهرة مسلحة نكبت جاثليق النصارى وابن كمونة

---

(١) خيون، العقائد، ص٤١٦.

(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج١ص٢٠١؛ سليمان، الفوز بالمراد، ص٢١٤؛ ملخص من كتاب التاريخ السياسي للخلافة العباسية للدكتور فائزة إسماعيل، الموقع الإلكتروني fsejiny.kau.edu.edu.sa

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٥٤.

(٤) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت، د.ت، ج٢، ص٦٩٦.



اليهودي[١]، واضطرتهم للهروب خارج المدينة إلى الأبد، وجعلهم عبرة لكل من سوَّلت له نفسه التحالف مع الشيعة ضد أبناء المدينة، وطرد التجار الفرس من الأسواق، وأغلقت حارات الشيعة والنصارى واليهود؛ خوفًا من اجتياحها من قِبل البغداديين، ولم تستطع الحامية المغولية تهدئة الوضع إلا بعودة الوالي المسلم عطا ملك الجويني على ولاية بغداد، وإعلائه لشأن الأمة السنية وعلمائها؛ مما اضطر الإيلخان المغولي إلى الرضوخ لتلك المواقف[٢].

ومن التحديات الشيعية الأخرى: تحالفاتهم مع كل محتل يسعى لضرب المجتمع السني أمثال غازان حاكم المغول، ومن بعده خربندا؛ الذي حاول فرض المذهب الشيعي بالقوة على المجتمع البغدادي ذي الأغلبية السنية الساحقة، فشهدت بغداد تصادمًا حادًّا بين قضاتها من أهل السنة وبين دعاة ابن مطهر الحلي رأس الشيعة المدعوم من خربنده، فقام القضاة والعلماء[٣] بحراك بغدادي منع جيش خربنده العائد مكسورًا من أرض الحجاز بعد أن سوَّل له ابن مطهر الحلي هدم قبري أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، واحتشد حينها اثنا عشر ألف بغدادي مسلحين منعوا خربنده وجيشه من دخول بغداد حتى اضطر إلى إعلان براءته من الدين الشيعي، وتمكين الدعاة المسلمين في مدينة بغداد بعد إعلاء شأنهم[٤].

ومن المضحك المبكي أن أبواب الفقه الجهادي لدى الدين الشيعي مؤصدة ومقرونة بخروج الإمام المهدي، ويستثني بعضهم (أو بخروج الإمام العادل)، وبناء على ذلك لم يحفظ لنا التاريخ قط قيام دولة شيعية واحدة بالتوسع على حساب أراضي غير إسلامية، بل على العكس كانت كل توسعاتها على حساب الأراضي الإسلامية، وبالتعاون مع الصليبية، سواء أكانت فاطمية أم بويهية أم قرمطية، والأمثلة تطول، ولكن من المضحك أيضًا في هذا الدين الذي يغلق أبواب الجهاد للأسباب أعلاه يفتحها على مصراعيها، ويعلن الجهاد في حربه إلى صف الجيش المغولي ضد الخلافة العباسية أو مماليك مصر وبلاد الشام[٥]؟! فهل يمثل لديهم هولاكو المهدي المنتظر أم الإمام العادل؟! وهذا يقودنا إلى أمرين:

---

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، مج٢، ج٢، ص١٤٠، ١٦٠، ١٥٠.
(٢) الجبوري، دور الفئات، ص١٥.
(٣) العزاوي، بين احتلالين، ج١ ص٤٠٧.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٥٦.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١ ص٢٥١.

الأول: أن الدين الشيعي ذو طابع سياسي أكثر منه روحاني، ومن تحديد الجهة المستفيدة نعلم بوصلة هذا المذهب في دمار الشعوب الإسلامية عبر التاريخ.

والأمر الثاني: ما أوضحه لنا الجاحظ في تمام القرن الثالث الهجري حيث قال: (الشعوبية هي أن تكره العرب وما جاءوا به من الدين)[١]، فلا يقول أحدهم: أكره الدين الإسلامي بل أكره العرب.

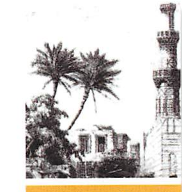
ومن التحديات الشيعية الأخرى على المجتمع البغدادي: تقرُّبهم للحكام الظالمين وتزيين الباطل لهم من خلال فتاوى ملفقة على الدين، منها جواز عمل المنكرات لغير المسلم كونه لا تجري عليه أحكام الدين الإسلامي، وشجَّعوا الحكام المغول وما تلاهم من جلائريين وغيرهم على الخروج والعودة للدين الشيعي مرات عديدة؛ تبريرًا لمواقفهم الإجرامية بحق المجتمع المسلم حتى عدهم علماء مسلمون وباحثون من الملاحدة، وكثرت الثورات والاضطرابات التي ظهرت في بغداد ضد هؤلاء الحكام الملحدين ومن يضللهم من الشيعة[٢].

لم يتمكن الاحتلال المغولي بعد ذلك من تجاهل نقابة الأشراف العباسية التي ظلت مدينة بغداد معترفة بالجميل لهم في إعلاء شأنها ردحًا من الزمن، فأعلن البغداديون طاعتهم للأشراف العباسيين، وتقديمهم في حل النزاعات التي تحدث في المدينة، واستغلال حادثة وفاة السيدة خديجة بنت الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة (٦٧٦هـ) أي: بعد عشرين سنة من احتلال بغداد، وتذكّر الناس أباها خليفة المسلمين، وبكوا بكاء شديد، ورفعت الطرحات حتى اضطر الوالي المغولي لبغداد -تحت ضغط المجتمع البغدادي؛ ولامتصاص نقمة الشارع- من الجلوس على الأرض للعزاء، وتوسيع صلاحيات نقيب الأشراف العباسيين في المدينة؛ لقوة تأثيرهم[٣].

ومن آثار الحكومات الشيعية أيضًا ما حدث بسبب الصراع السياسي لحكام القره قوينلو في العراق من مآسٍ كبيرة للسكان، فبعد أي حصار أو اقتحام لمدينة بغداد كان يقضي آلاف من السكان نحبهم، فضلاً عن نهب الدور والممتلكات والأوقاف، وكان الحاكم يفرض على كل جندي من عسكره بأن يقتل عددًا معلومًا من السكان؛ إمعانًا في إلحاق الأذى بسكان بغداد حتى قال فيهم المؤرخون: «فإنه

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج٧ص١٧١.
(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج٣ص١٦٧.
(٣) الوافي بالوفيات، ج٤، ص٣٥٩.



لم يعلم لا في طوائف التركمان ولا في أوباش عساكر جغتاي ولا في جهال التتار أوحش سريرة، ولا أقبح طريقة، ولا أسوأ سيرة، ولا أضعف دينًا، ولا أعدم مروءة، ولا أقل نخوة، ولا أبشع خبرًا من هؤلاء الزنادقة الكفرة الفسقة أولاد قره يوسف..»، وفي سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٣م قام أسبان من القره قوينلو بعد طرد الشاه محمد من بغداد بـ« سلب ممن بها جميع ما بأيديهم، بحيث لم يبقَ بها من الأسواق سوى حانوتين فقط»(١).

وفي سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م أوقع جهانشاه بعد انتزاع بغداد من أمراء أسبان «على كل خيمة من عسكره عشرة رءوس، فقتلوا مقدار عشرة آلاف وأكثر، وقتل بسبب ذلك من الرعية خلق كثير»(٢).

كما نهبت المدينة ثلاثة أيام، وفي أثناء حصار جهانشاه الثاني لبغداد سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م عمت المجاعة سكانها، بعد أن نهب غلتها حاكمها بير بوداق لتموين جنده المحاصرين، وبعد اقتحامها سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م فعل بها جهانشاه «أفحش مما فعل - بسكانها - أول مرة» فنهب البلد وقتل خلقًا كثيرًا(٣)، وعلى حد قول أبي بكر الطهراني فإن عملية القتل طالت معظم سكان بغداد بحيث «... غدا الذبح والنهب ديدن القوم وسط عويل النساء»(٤).

والواقع أن عمليات النهب والفتك بسكان بغداد لم تنحصر في أيام الحصار والاقتحام، بل كانت تقع أحيانًا في ظل ظروف طبيعية كما حدث عندما قام بير بوداق سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م(٥) بمصادرة سكانها، ولم تقتصر الكارثة التي حلت بالعراق على يد حكام القره قوينلو على عمليات القتل والنهب، بل صاحبتها في كثير من الأحيان عمليات تشريد جماعية للسكان على نحو منظم أو غير منظَّم.

وقد أسهب بعض المؤرخين في وصف الحالة التي آلت إليها أحوال المجتمع البغدادي بفعل هذا التشريد الذي حدث إثر الصراع بين الشاه محمد وأسبان، فالمقريزي يذكر بخلو «أحد جانبي بغداد من السكان، وزال عن بغداد اسم التمدن، ورحل عنها حتى الحُيَّاك...»(٦)، كما أنه ينقل لنا على لسان

(١) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ٣، ص٢٦٧. مجهول، حوليات دمشقية، ص٦٤.
(٢) الغياثي، التاريخ، ص٢٨٣-٢٨٦، ٣٠٤.
(٣) الغياثي، التاريخ، ص٢٨٦، وص ٣٢١و ٣٢٥.
(٤) ديار بكرية، جـ٢، ص٣٧٣.
(٥) الغياثي، التاريخ، ص٣١٧.
(٦) السلوك، جـ٤، ق٢، ص٨٣٧، ٨٩٩، ٩٩١.

شاهد عيان الحالة التي آلت إليها بغداد سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٤م فيقول: «إن أسبان فعل أفعالاً شنيعة فظيعة، منها أنه لما أخذ بغداد من أخيه شاه محمد بن قره يوسف أمر بإخراج جميع من ببغداد من الناس بعائلاتهم وأخذ كل ما لهم من جليل وحقير، فتشتتوا بنسائهم وأولادهم في نواحي الدنيا، وصارت بغداد وليس بها سوى ألف رجل من جند أصبهان لا غير، وليس بها إلا ثلاثة أفران تخبز الخبز فقط، ولم يبقَ بها سكان ولا أسواق»[١].

وقد علل ابن تغري بردي دوافع أسبان في تشريد سكان بغداد عنها؛ كي «لا يبقى لأخيه إسكندر ولا غيره طمع فيها»[٢].

وفي عهد بير بوداق شهدت بغداد حركة هجرة أجنبية إليها، كان القصد منها طمس معالمها العربية؛ بإحلال عناصر فارسية محل سكانها العرب، وحدث هذا عندما استقدم بير بوداق سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م أكابر أصفهان وأسكنهم بغداد، وتكررت الحالة سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م، ولكن على نطاق أوسع حيث جمع بير بوداق جماعة عظيمة من أهل شيراز وأسكنهم بغداد[٣]، بقصد طمس معالمها العربية ومزاحمة سكانها الأصليين الذي اضطر الكثير منهم إلى الجلاء عنها مرغمين إلى تبريز سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م، وشهدت سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م، هجوم المشعشعين الشيعة على أطراف بغداد فنهبوا وقتلوا وسبوا الذراري[٤] تحت حكم تطبيق أحكام الدين الشيعي، فرد عليهم حكام بغداد من القره قوينلو بإعلان المذهب الشيعي رسميًّا للبلاد؛ بهدف كسب التأييد الشيعي في العراق، وسحب البساط من تحت المشعشعين، وباتت بغداد بين سندان حكام بغداد المترفضين ومطرقة المشعشعين للحفاظ على دينهم.

وفي خضم تلك الأحداث فاتنا أن نذكر الغزو التيموري للمدينة عام ٨٠٣هـ[٥]، والذي راح ضحيته -كما يقدِّر المؤرخون- من الأهالي نحو تسعين ألف قتيل، وعمل تيمور من رءوس قتلى أهل بغداد هرمًا كبيرًا بعد أن أشار عليه مستشاروه من الشيعة بأن يأتي كل جندي تتري بعشرة رءوس من أهل المدينة؛ علمًا بأن تيمور كان يدين بالدين الشيعي!

---

(١) السلوك، جـ٤، ق٢، ص٨٣٧، ٨٩٩، ٩٩١.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٥.

(٣) الغياثي، التاريخ، ص٣٠٧، ٣١٧.

(٤) الغياثي، التاريخ، ص٣١١.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص٣٦٦. الغياثي، التاريخ، ص١٢٤-١٢٦، ٢٠٢.



وفي سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م وعلى الرغم من استنجاد أهل بغداد بحسن الطويل حاكم قبائل الآق قوينلو لتخليصهم من جور القره قوينلو، ووقَّع العلماء والوجهاء على طلب التخليص والاستقدام إلا أن حسن الطويل وبعد حصار دام (٥٥) يومًا، لمدينة بغداد لم يتمكن من فتح المدينة فعمد إلى قتل وتهجير سكان القرى والأرياف من المسلمين العرب المحيطين بالمدينة»، فلم يترك نفسًا واحدة، إلا ورحَّلهم إلى بلاده ديار بكر، وأسكنهم في تلك الأرض ومات منهم خلق كثير»[١].

على الرغم من ذلك فإن المؤرخين يعدون حسن الطويل أرحم الحكام المتسلطين على بغداد منذ سقوط الخلافة العباسية إلى ظهور الصفويين سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م[٢].

وبذلك طويت صفحة من صفحات الاحتلال الأجنبي للعراق، لتبدأ صفحة أخرى أكثر دموية ومقتًا من سابقاتها؛ لقد كان لاحتلال القره قوينلوي والآق قوينلوي للعراق آثار سلبية كبيرة على الحياة الاجتماعية فيه؛ إذ بفعل الفوضى والاضطهاد والتخريب اضطر الكثير من العلماء والمشايخ للهجرة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز وبلدان أخرى[٣]، ومن بقي انتُزعت منه حرية التفكير والإبداع، كما طال أغلب المؤسسات التعليمية التخريب ووقف الدراسة فيها لاستيلاء الحكام على أوقافها وقطع أرزاق مدرسيها وطلبتها.

وعلى الرغم من إسلام بعض الحكام الجدد، فقد ظلت القيم البدوية الرعوية المتخلفة تتحكم في سلوكهم وعاداتهم، وهذه القيم كانت تتقاطع في أحيان كثيرة مع ثقافة البغداديين الضاربة في عمق التاريخ، فبقيت الهوة كبيرة بين الحكام الجدد وبين سكان بغداد، ومما زاد الطين بلة أنهم أهملوا اللغة العربية، واتخذوا اللغة الفارسية لغة رسمية متداولة في دواوينهم وفي نشاطاتهم الثقافية[٤]، ولم يترك هؤلاء الحكام أيَّ أثر ثقافي على المدينة، فهم لم يقوموا ببناء مؤسسات تعليمية أو ثقافية جديدة، ولم يشجعوا التأليف باللغة العربية، ولم يتقربوا إلى العلماء، وإن ما يقال عن اهتمامهم بالعلماء ودعوتهم لعدد من علماء العراق البارزين لحضور مجالسهم؛ فإنها إنما عُقدت لمناقشة الأمور المذهبية، ولم تكن

(١) الغياثي، التاريخ، ص٣٨٠.
(٢) العزاوي، تاريخ العراق، جـ٣، ص ٣١٥. لونكريك، أربعة قرون، ص ٣١.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣١، ص٣٨٥
(٤) قداوي، تاريخ العراق، ص٢٠٩.

إلا لاعتبارات سياسية بحتة؛ لأنهم كما وصفوا «مختلي العقيدة والعقل والعادات يفطرون جهارًا في رمضان، ويمدون السماط، ويتبعهم جماعة من الزنادقة والملحدين، كالحروفيين والحيدريين الذين يطعنون بالدين الإسلامي، وينادون بترك الشعائر الإسلامية»[(١)].

٢- الأمراض: ونتيجة للأحداث سالفة الذكر انتشرت الأمراض والأوبئة التي حصدت آلاف الأرواح من سكان بغداد؛ ففي سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م داهم مرض الطاعون بغداد، وخلت المدينة من سكانها، وتكرر عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م، وعام ٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م، وعام ٨٣٨هـ/ ١٤٧٥م، وفي عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٨م، وفي سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م عاد ليصيب بغداد وتكريت وشهر زور وأربيل والموصل، إلا أن قوة تأثيره كان في بغداد أكثر؛ فقد كان يموت في اليوم الواحد من سكانها زهاء (١٥٠٠) شخص[(٢)].

والواقع أن هذا المرض (الطاعون) لم يكن المرض الوحيد الذي كان يفتك بالسكان، بل كانت هناك أمراض أخرى، إلا أنها كانت أقل تأثيرًا منه، ومنها مرض الجدري، وهناك من أشار إلى طرق انتشاره وأساليب علاجه، وممن أُصيب به في هذا العهد العالم الفقيه العراقي أحمد بن رمضان بن عبدالله الشهاب المولود سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م. ومرض القولنج الذي كان حاكم بغداد أسبان مصابًا به وتوفي بسببه سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٥م، وهو مرضٌ مُعدٍ مؤلم يعسر معه خروج الثقل والريح[(٣)].

ومرض حمى الدق «التدرن الرئوي أو السل»، والمصاب به تضعف بنيته تدريجيًّا بفعل الحمى التي تدوم طويلاً، ومرض الاستسقاء والمصاب به ينتفخ بطنه ويتمدد، وإذا ضرب بخفة سمع منه صوت شبيه بصوت الطبل، وكان هذا المرض يفتك بالسكان[(٤)]، شأنه شأن مرض الكوليرا الذي كان كذلك منتشرًا بين السكان، أما الملاريا فيبدو أنه كان منتشرًا في المدينة لكثرة المستنقعات والإهمال الصحي والبيئي؛ حيث يكثر البعوض في هذه المناطق، وبوساطته ينتشر المرض.

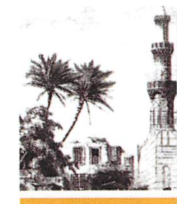
---

(١) العزاوي، تاريخ العراق، جـ٣، ص١٦٧.

(٢) الغياثي، المصدر السابق، ص٢٧٤؛ العمري، منية الأدباء، ص١٧٣؛ أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٣٥٧.

(٣) الغياثي، المصدر السابق، ص٢٧٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١، ص٣٠٢-٣٠٣؛ الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف، مفاتيح العلوم، دار النهضة العربية، ص١٣٣. البستاني، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧م، ص٧٦٣.

(٤) علي، الأوبئة والأمراض، ص٦.



وأخيرًا، ومن سنن التدافع الكونية التي أوجدها الله للحفاظ على هذه المدينة هي إحاطتها بالبيئة العربية، فبالرغم من انخفاض معدل ساكنيها إلى أدنى مستوياتها عبر التاريخ بلغ في إحداها ألف جندي تركي فقط[١]، وهي خاوية على عروشها بعد أن كانت إبان الحكم العباسي تقدر بالمليون والنصف نسمة عادت لتُملأ من جديد بالعنصر العربي، والذي تمثله القبائل العربية المحيطة بالمدينة أصحاب العقيدة الصافية والطباع الحرة كما يصفهم الوردي.

ومن الجدير بالذكر أن مدينة بغداد أُفرغت عمدًا مرات عديدة بسبب خوف الحكام المتسلطين من مواقف أهلها المعارضة[٢]، لكنها ما تلبث أن تعود لتُملأ بالعنصر العربي من جديد، وعلى الرغم من سيادة اللغة الفارسية في بلاط الحكام إلا أن الثقافة العربية بقيت هي السائدة على أرض بغداد منذ تأسيسها، وإلى يومنا الحاضر، وبقيت العادات والأعراف العربية هي التي تحكم طبقات المجتمع كافة نبيلة كانت أم بسيطة، ويرجع ذلك إلى أن الغزاة الجدد على اختلاف مشاربهم وأجناسهم لم يكونوا يمثلون أو يحملون أي حضارة، بل كانوا عالة على الحضارة البغدادية الإسلامية.

تأثيرات العامل الاجتماعي:

يشير الرحالة جيمس إلى أن العرب السُّنة متسامحون مع مَن يخالفهم، وأن الشيعة يكرهونهم، ويرى الحيدري في «عنوان المجد» أن سكان بغداد الأصليين -وهم في الغالب من أهل السنة- أحلم أهل العراق، وأحسنهم خُلقًا، وقد ساهم تقبُّل أهل بغداد وترحيبهم بكل غريب ينوي مشاطرتهم المسكن، إلى حشو المدينة بالأغراب من الشيعة، فكانت سببًا ببدء الصراعات الطائفية بين أبناء المحلات البغدادية[٣].

ومن أهم تأثيرات العامل الاجتماعي:

١- تطبعت القبائل البدوية على القيم النبيلة من الصدق، والوفاء بالعهود، والكرم، وعدم الغدر، وانعدام الخبث، وصفاء السريرة، وكل الصفات الحميدة التي يُوصَف بها المرء[٤]، علمًا أنهم كانوا

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٤-٤٥. والصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ٣، ص٢٨٩.
(٢) النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٥.
(٣) الوردي، لمحات، ج١ص٢٠١.
(٤) السواح، بغداد، ٩١؛ بلنت، الرحلة، ٢٧٩؛ الحيدري، عنوان المجد، ص١٨٦.

غير ميالين للخضوع لتسلط الحكومات وجَوْرها؛ لأنهم أحرار[١]، وهذا ما دفعهم إلى طرد العناصر الفارسية عن الأراضي العربية[٢].

٢- عرفت القبائل البدوية بسهولة فهمهم للعقيدة الإسلامية، أي: أنهم لا يميلون إلى التعقيدات ووضع الوسائط في دعاء الله، عكس أهل الأرياف الذين يميلون إلى استقبال العقائد ذات الوسائط والخرافات؛ تماشيًا مع واقعهم الملموس من تعقيد سلسلة مراجع الحاكم والمحكوم[٣].

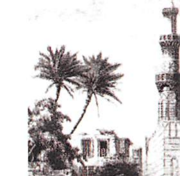
وهذا يفسر لنا التباين العقدي لدى سكان بغداد بين التصوف الحكومي والتسنن الحر، وهم غالبًا من أهل البادية[٤] وحديثي عهد بالمدينة غالبًا.

٣- كانت المجازر التي تحدث في بغداد على مدار الأزمان من الاحتلال المغولي إلى الاحتلال الإنجليزي، وفق بوصلة طائفية، وكانت حصة القتل والمجازر من نصيب أهل السنة فقط؛ لعدم رضوخهم لأي محتل بسهولة[٥].

٤- كثرة تفشِّي الطاعون الذي أصاب المدينة حتى خلت من المارة[٦].

٥- نزوح القبائل في حالات المجاعة إلى المناطق الزراعية الخصبة والمدن[٧]؛ الأمر الذي يؤدِّي إلى تغيير في العادات والتقاليد والخارطة السكانية لهذه المناطق، وكذلك دور القبائل الشاوية في توطين قبائل سنية في الكرخ؛ الجانب الغربي لمدينة بغداد؛ لإيقاف الزحف الفارسي الصفوي[٨]، وكذلك من أسباب الهجرات الجماعية: عمليات النفي الجماعي للقبائل كنفي الأكراد إلى بغداد وانتشارهم

(١) الوردي، طبيعة المجتمع، ص١٢؛ لمحات، ج١ ص١٧٥.
(٢) بكنغهام، الرحلة، ج٢ ص١٣٧-١٣٨.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص ١٠؛ الوردي، طبيعة المجتمع، ص١٤٢، ١٤٤، ١٤٧.
(٤) فيضي، مذكرات، ص٥١.
(٥) السواح، بغداد، ص١٠-١١؛ لونكريك، أربعة قرون، ص٤٥، ٢٣٣؛ الوردي، لمحات، ج١ ص١٧٥؛ ياسين، العنف الدموي ص١٧٣، ١٨٤.
(٦) هادي، بغداد كما وصفها السواح، ص٢٧-٤٢-٦٦.
(٧) عثمان بن عبدالله، سوابق عنوان المجد، ص٩٤.
(٨) إبراهيم بن فصيح الحيدري، عنوان المجد، ص٨٣؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٦ ص٤٣-٤٤؛ الوردي، لمحات، ج٣ ص٣٨.



هناك[١]، وهم من أهل السنة.

٦- مساعدة تحالفات القبائل الشيعية ضد أخرى سنية، وسحق قراهم، والهروب صوب بلاد فارس في حال فشل أيّ مخطط، أو في حال قدوم والٍ حازم[٢]، ثم إنهم لتخليص أنفسهم يأخذون بزمام الفتنة والوشاية بشيوخ العرب السنة في العراق كوشاية شيخ الخزاعل بالشيخ ظاهر المحمود شيخ عشائر زوبع، وهو الذي ناصرهم في معاركهم ضد الولاة، حتى أُسرت وهُجِّرت قبائله بسببهم ولأجلهم[٣]، وكان الدافع وراء تلك المواقف الشيعية هو الولاء الفارسي ودور الفرس في التوسط لهم لدى الحكومة العثمانية، وضمان رجوعهم، والعفو عنهم[٤]، ووصلت مراحل الذل بالشيعة وقبائلهم للسلطة الفارسية التي تتصنع الدفاع عن قضاياهم حد القبول بمشايخ ليسوا منهم أصلاً ليرضى الطرف الفارسي أمثال أمير بني تميم الفارسي الأصل والمجوسي العقيدة حتى إنه كان متزوجًا بابنته، ولا ينكر ذلك عليه أحد[٥].

٧- وأما دور القبائل العربية السنية فقد كان يتمحور على الصعيد الداخلي في استغلال طاعتهم للولاة، وإقحامهم في الصراعات بين الولاة للاستئثار بالسلطة وتثبيت سلطانهم[٦]؛ لأن الاستعانة بالقبائل الشيعية تعني الخسارة لهم[٧]، هذا فضلاً عن استخدامهم في قتال الفرس وغالبًا ما تحدث المعارك الفاصلة بقيادة تلك القبائل، وبدافع الغيرة على الأرض العربية، الأمر الذي كانت تفقده القبائل الشيعية، والسبب في ذلك هو تسريح الولاة للقبائل الشيعية من الخدمة العسكرية بسبب خيانتهم، في الوقت الذي كُوفئت فيه القبائل السنية بمصادرة الولاة لأوقاف مساجدهم وقطع الرواتب عن علمائهم؟! فضلاً عن خوضهم المعارك العثمانية على جبهاتها الروسية والأرمينية والقرم والبلقان والقفقاسية[٨]، وهذا كله بطبيعة الحال يترك آثارًا اجتماعية خطيرة على النسيج الاجتماعي

(١) ريج، الرحلة، ص٦١.
(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج٥ص١٦٢-١٦٤؛ الوردي، لمحات، ج٣ص١٨٦، ياسين، العنف الدموي، ص١٩٠.
(٣) عثمان بن سند، مطالع السعود، ص٣٢٠.
(٤) الكركوكلي، دوحة الوزراء، ص٢٥٧، ٣٣٤؛ لونكريك، أربعة قرون، ص٣٣٤؛ ياسين، العنف الدموي، ص٢٣١.
(٥) العزاوي، عشائر العراق، ج١ص٨٨.
(٦) العزاوي، بين احتلالين، ج٥ ص١٧٤-١٧٧، ج٦ ص٢٣٨، ٢٤٥-١٤٨، ج٧ ص١٤٠.
(٧) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٢٣؛ الوردي، لمحات، ج١ص٢١٦.
(٨) العزاوي، بين احتلالين، ج٨ ص٣٤، ص٢٦٧.

البغدادي وتقاليده العربية أو الإسلامية.

وعلى الرغم من الانتصارات التي سطرتها تلك القبائل على هذه الجبهات، إلا أنها كانت طاحنة؛ إذ بلغت نسبة الشهداء فيهم ٨٠٪ من المتطوعة[(١)]، وفي الوقت الذي خسرت فيه القبائل العربية السنية هذا العدد من الرجال، عاشت القبائل الشيعية بحياة دعة واستقرار لا همَّ لها سوى إثارة الفتن، وتفريس البلاد العربية شيئًا فشيئًا، ثم إن هذه الخدمات التي كانت تقدمها القبائل العربية السنية للبلاد لم تكن لتعطيها الحصانة من تسلط الولاة العثمانية، ورفع الضرائب عنهم، ودفع سوء خُلق الولاة، فقد عمد الولاة العثمانيون إلى إذلال كل قوي[(٢)]، ومنها عزل شيخ قبائل عنزة وتعيين بديلاً له، الأمر الذي لا ترضاه القبيلة فتثار المعارك ضد جيوش الولاة، وتتعرض بغداد لغزوات تلك القبائل، وتنشأ حروب، وكانت عادة ما يكون النصر حليف القبائل، أمثال انتصار قبائل زوبع والدليم والجبور والبوعيسى في غرب بغداد، وانتصار قبائل العبيد الزبيدية في الفلوجة والدجيل[(٣)]، وثورة ظاهر المحمود شيخ قبائل زوبع في حادثة الوردية بعد هروبه من الأسر وتنظيم حملات ضد جيوش الوالي العثماني، ويعود سبب هذه الأحداث إلى سوء خلق الولاة يضاف إليها الوشايات الكاذبة[(٤)].

٨- انحطاط مستوى التعليم الديني في المناطق السنية بسبب ربط هذه المدارس بمالية وسياسة الولاة بعد أن كانت تُدار من قِبل متولين للأوقاف مستقلين عن مالية الدولة، في الوقت الذي كانت هناك مدارس نصرانية ويهودية وفارسية حرة التعليم[(٥)]، وإن إعلان الدستور العثماني زاد من حرية العقائد الأخرى وشدَّد الخناق على العقيدة السلفية السنية، وبدأت حملات نفي لمن يدعون أنهم أعداء الدستور والدولة، أمثال الشيخ الآلوسي، وعبدالعزيز الشاوي وغيرهم.

الملاحظ أن جل علماء أهل السنة في بغداد كانت لغتهم العلمية هي اللغة العربية بخلاف لغة

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٥٢؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٨ص٢٥٦؛ الوردي، لمحات، ج١ص١٤١ وج٣ص١٦، ٣٥، ١٥٠؛ ياسين، العنف الدموي، ص٢٥٦.

(٢) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٤٣-٢٤٥.

(٣) العزاوي، بين احتلالين، ج٦ص٤١.

(٤) الحيدري، عنوان المجد، ص٨٤؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٦ص٣٠ وج٦ص١٨٩؛ الوردي، لمحات، ج١ص٢٣٩، والكركوكلي، دوحة الوزراء، ص١٨١-١٨٤.

(٥) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٨٠.



علماء الشيعة، فقد كانوا فرس الجنسية والولاء واللغة، وكانت تأثيراتهم على الصراع الفارسي العثماني إلى درجة أخذت القبائل العربية الشيعية تطلب الرعوية الفارسية للخلاص من التبعية العثمانية، وإعفائها من التجنيد والضرائب على حساب القبائل العربية السنية[١]، ومع التصعيد في حروب العرش الفارسية، وضيق المعيشة؛ دفع الأمر إلى هجرة فارسية جماعية صوب العراق، وتكوين جالية لهم في بغداد، ثم إن الكثير منهم يدَّعِي نسب السادة العلوية[٢]؛ لتسهيل استغفال العامة، وهم أصول لمن يمثلون المراجع الشيعية العراقية اليوم.

خلاصة التحديات العقائدية في بغداد:

قامت الدولة العثمانية بحمايتها لعقيدة أهل السنة ضد الغزو الفارسي، لكن الأمر لم يكن له أيّ تأثير بالنسبة لسكان بغداد من أهل السنة، بل على العكس فقد بقي الجيش الانكشاري الذي يمثل العقيدة العسكرية العثمانية هو الحامي الرسمي الوحيد لها وصاحب السلطة العليا في المدن العراقية[٣]، الأمر الذي أثر على الواقع الديني للمدن العراقية السنية أو ذات الأغلبية السنية (الموصل، بغداد، البصرة).

وكان الجيش الانكشاري يعتنق العقيدة الصوفية البكتاشية، وهي التوأم للعقيدة الصوفية المولوية القزلباشية[٤]، والتي تمثل جذور الدعوة الصفوية خصوصًا إذا علمنا أن من أساسيات العقيدة الانكشارية» الإيمان بعصمة الأئمة الإثني عشر من آل البيت، والإيمان بغيبة المهدي ابن العسكري، ثم إيصال الإمام عليّ إلى مرتبة الألوهية في دعائهم، ويصفون حالهم بالصوفية السُّنية.

وخلطت الدولة العثمانية على العرب السنة المفاهيم العقائدية؛ لدرجة فقد فيها القدرة على التمييز العقائدي بين أهل السنة والرافضة، فمثلاً جاب أحد شيوخ البهائية (٣٠) دولة يدعو لعقيدته، وكان يظن به الصوفية أنه من علماء السنة؟! ثم إن هذه العقيدة الصوفية الانكشارية كانت تستحل دماء وذمة كل من يخالفها[٥]، وإثارتهم الفتن في الدولة العثمانية كدور قاضي العسكر العلوي

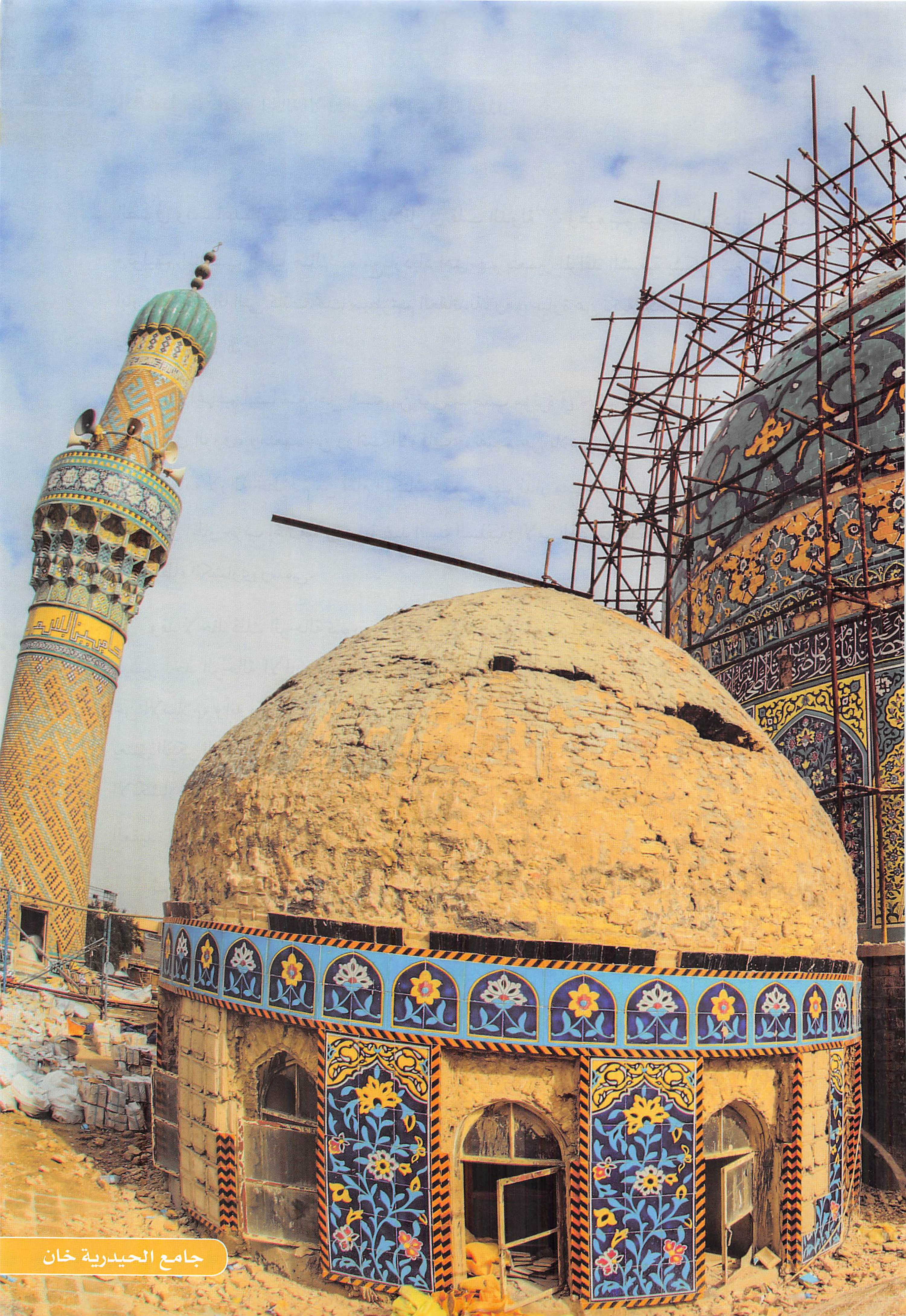
(١) سليمان فيضي، المذكرات، ص٧١؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٨ص١٥٠، لونكريك، أربعة قرون، ص٤٤؛ الوردي، لمحات، ج٣ص٢٦٢ وج٤ص٨٧.

(٢) العزاوي، عشائر العراق، ج٤ص٢٢٩، ٢٤١.

(٣) نيبور، الرحلة، ص٣٧.

(٤) خيون، الأديان، ص٢٧٤-٢٧٩، ٢٨٤.

(٥) نورس، العراق في العهد العثماني، ص٣١، ٤٨.



جامع الحيدرية خان



الصوفي وبمساعدة اليهود في صنع القلاقل في قلب الدولة(١)، وهروبهم صوب البلاد الفارسية، وتوليهم المناصب العليا هناك(٢)، مع ازدياد اهتمامهم بتعمير المراقد الشيعية بشكل كبير كتعمير آبار مسجد براثا التي كانت تحت سيطرتهم العقائدية، وهو عبارة عن تكية بكتاشية يعلن فيها سبّ صحابة رسول الله ﷺ(٣).

ومن أعمالهم أيضًا منع أهل السنة من تولي مناصب مؤثرة في حكم الولايات العربية، ومحاربة علمائهم في الرزق، ومنعهم من رواتب الأوقاف، ونفيهم عن بلادهم التي يملكون فيها تأثيرًا على عقائد العامة لإزالة خطرهم من أمام البكتاشية، وحرقهم لدار مفتي بغداد(٤)، وإعلان اتحادهم مع الفرس في إطار حرب إعلامية ودعوية ضد السنة السلفية؛ الأمر الذي ساعدهم على نشر مذهبهم(٥) تحت غطاء انكشاري رسمي.

وقد لاحظ ذلك الرحالة نيبور، وأفصح عن شعوره بوجود اتحاد صوفي شيعي في جوهره(٦)، ويشير أحد الرحالة الألمان إلى أن بغداد يكثر فيها الصوفية الذين يعتقدون بالخرافات البعيدة عن الإسلام، وأنه وجد في خان الدراويش الذي يأتي إليه الفرس ليبيعوا فيه الحشيشة، وأن من يعتنق الفكر السلفي لا يجرؤ أن يعلن نفسه خوفًا من الموت أو الفتنة، والسبب في ذلك هو الولاة الانكشارية، ثم يرد جملة من خرافات الصوفية هناك التي لا ترتقي إلى العقل السليم، ولا تقبل بها العقيدة الإسلامية(٧).

ثم إن أغلب السواح الأوروبيين حينما يزورون العراق، يبدءون بوصف المقابر والمقامات المقدسة، وهذا يدل على قوة العقيدة القبورية، واهتمام الدولة العثمانية بالأموات، وإهمالها الأحياء، ومن الغريب بالأمر أن تكايا المولوية القزلباشية محمية من قِبل الوالي؛ كونها من الطرق الصوفية التي

---

(١) د.هدى، يهود الدونمة، ص١٧٢-١٧٣.
(٢) علمًا بأن الدولة الفارسية دولة طائفية، فبماذا يوحي ذلك؟ ينظر، ريج، الرحلة، ص٢٢٨.
(٣) العزاوي، بين احتلالين، ج٥ص١٠٣.
(٤) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٨١؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٧ص٩٥، ١١٢؛ خيون، الأديان، ص٢٨٩.
(٥) لونكريك، أربعة قرون، ص٦٥.
(٦) نيبور، الرحلة، ص٣٢.
(٧) السواح، بغداد، ص١١١-١١٦.

تتبنى السلطنة العثمانية حمايتها[١].

ومن العجب العجاب في سياسة الدولة العثمانية الحامية للمذهب السني هو أن الوالي العثماني المعين على المدينة المنورة كان بكتاشي العقيدة، ويعلن سبّ الصحابة من على منبر رسول الله ﷺ وينشر الرفض[٢]!

ثم يشير ابن فصيح الحيدري أن سببَ ضعف العرب السنة عائدٌ لضعف علمائهم، ونرى أنه لا يعود لضعف العلماء فحسب، وإنما لسياسة الدولة وعقيدتها التي تعتنقها؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[٣]، والدليل أن سبب الاستقرار العقائدي في منطقة الجزيرة العربية سوى العراق يعود إلى عدم خضوعها بشكل مباشر للسلطة العثمانية، ثم إن تأييد السلطة العثمانية للعقائد الشيعية والصوفية أدّى إلى تجبر دعاة هذه العقائد وانقلابهم على سلطة المركز وإعلانهم حكماً ذاتيًا في مناطقهم، مما أضعف فيها سلطة المركز[٤].

هذا من جانب، ومن جانب آخر كان خطاب المفتي العثماني في إسطنبول يحمل عبارات النفاق واللين مع الشيعة، بل نرى معانقة حارة بين علماء البكتاشية الصوفية والنصارى في إسطنبول؛ للمباركة على إعلان الدستور في الوقت الذي يُكفِّر فيه السلفية! ثم يعترف بالطائفة الشيعية، ويعطي لهم ركنًا في الكعبة الشريفة للعن الصحابة وسبهم وإعلان مذهبهم[٥].

ثم وبسبب إعلان قبائل الجبور في جانب الكرخ من بغداد اعتناقهم العقيدة السلفية، قام الجيش الانكشاري بمحاربتهم، وطردهم عن قراهم من بغداد[٦]، وأسوأ من ذلك أن الدولة العثمانية كانت ترفد بغداد كل عام ما بين (٣٠٠٠-٥٠٠٠) انكشاري لتثبيت سلطانها[٧].

وكرد فعل مماثل من قِبل قبائل الشاوية والعبيد الزبيدية السنية ذات المكانة العالية في بغداد قاموا بجلب قبائل سنية من الموصل وأكراد من الشمال؛ لطرد العناصر الفارسية من المدينة[٨]، وتم اختيار

(١) نيبور، الرحلة، ص١٥، ١٨.
(٢) الوردي، لمحات، ج٤ ص٧٧.
(٣) الشاطبي، الاعتصام، ج١ص٢٩٣.
(٤) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٦٥، والوردي، لمحات، ج١ ص٢٥٩.
(٥) الوردي، لمحات، ج١ ص١٤٣.
(٦) الوردي، لمحات، ج١ ص٢٦٦، ج٢ص ٢٠ وص ٢٥٧، وج٣ص ١٣٢.
(٧) نيبور، الرحلة، ص١١-١٢.
(٨) العزاوي، بين احتلالين، ج٦ ص٧١-٧٨.



القبائل الموصلية؛ لأن علومهم الشرعية كانت تُدرس باللغة العربية وهم أهل دين[١] وعلم، وفي الوقت الذي عُرفت فيه النجف بسعة مدارسها الفارسية الشيعية[٢]، وإغواء علمائها للعامة باللبس الأنيق ومظاهر الفخامة والوقار المصطَنع، كان دعاة الصوفية والدراويش يرتدون زي المتسولين والمتشردين بدعوى التزهد عن الدنيا[٣]، وتركهم للشيعة ينشرون عقائدهم ومذهبهم!

والسبب في توحد الموقف والنتائج بالرغم من اختلاف المسميات العقائدية الباطنية، شيعية أم انكشارية بكتاشية، يعود إلى اتصال الجميع بالحلاج وأفكاره الفلسفية الملحدة.

وخلاصة القول: إن عدم وجود ضغوطات دينية عثمانية ضد العقيدة الصفوية، وربط مناهج المدارس الوقفية السنية بسياسة الوالي الانكشاري، دفع بأهل السنة إلى السعي الجاد في الحفاظ على وجودهم وكيانهم العقائدي بجهودهم الفردية، وكان لهم في هذا الميدان جهد جبار حتى قيل فيهم: لا مجدد سلفيًّا مدافع عن الإسلام إلا من البادية السنية وقبائلها[٤].

وختامًا فإن التاريخ لم يتحدث أبدًا في هذا العهد ولا غيره، وحتى المتعاطفين مع الشيعة عن اضطهاد منظم ومنهجي للشيعة في العراق، على أساس انتمائهم الطائفي، فالدولة العثمانية (السنية) سمحت بعمليات التشيع الواسعة النطاق التي جرت في العراق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وشملت الكثير من القبائل العربية السنية، وما حمل ذلك من تبعات جرت على بغداد إلى يومنا الحاضر.

قراءة مجملة للتحديات الاجتماعية في العهد العثماني:

١- تعيين خادم بيك واليًا على بغداد من قِبل عباس الصفوي بعد مجزرة بغداد عام ١٦٢٣م، وتلقيبه بخليفة الخلفاء؛ احتقارًا لعقيدة أهل السنة في بغداد.

٢- قتل بكر صوباشي لمفتي بغداد (ملا غانم) كعربون يتقرب به إلى الفرس، وعدم احترام الدين، وعدم اهتمام العثمانيين بعقيدة بغداد يقابله الهجرة والعمل الدءوب الصفوي لتشييع المدينة، وتوطين

(١) سليمان فيضي، المذكرات، ص٣٣.
(٢) الحيدري، عنوان المجد، ص٤٣.
(٣) فريزر، الرحلة، ص١٥٥.
(٤) سليمان فيضي، المذكرات، ص١٦٢؛ لونكريك، أربعة قرون ص١٠، ص٩٥.

التجار والفرس فيها[١].

٣- هروب سكان بغداد بعد كل مرة يسمعون فيها بتقدم الجيش الفارسي على المدينة، بسبب سوء سيرة أسلاف الفرس في المدينة، وقتل عباس الصفوي عام ١٦٢٣م لخطيب بغداد والإمام الأعظم محمد أفندي، والقاضي نوري أفندي، وأربعين ألفًا من سكان بغداد، وإلقاء كتبهم في النهر، وتسكين التجار الفرس مكانهم، وتفريغ المدينة من سكانها الأصليين[٢]، ويشير أغلب الرحالة الأجانب إلى أن الحملات الفارسية كانت تبيد أهل السنة عن بكرة أبيهم[٣].

٤- عفو السلطان مراد الرابع عن الفرس المحتلين لبغداد بعد تحريرها عام ١٦٣٨م، بينما أباد عباس الصفوي سكان بغداد بالكامل، بل وسمح السلطان مراد الرابع لهؤلاء الفرس بالاستيطان في المدينة[٤].

٥- ظهور الجانب الطائفي في صراع محلات بغداد عام ١٨٠٢م؛ حيث ساند الشيعة الانكشارية، وساند أهل السنة الينكرجية (المماليك).

٦- تعرض عشيرة العبيد في منطقة الأعظمية[٥] ذات العقيدة السلفية لحملات الإبادة المنظمة من قبل الولاة العثمانيين؛ لثنيهم عن عقيدتهم، وقيام الانكشارية البكتاشية بفتن كثيرة في بغداد، ودور عشيرة الجبور جنوب بغداد في القضاء على الفتنة والانكشارية معًا، ونصرة أهالي الأعظمية الشاوية[٦]، وبسبب كثرة الفتن الانكشارية التي قاموا بها وموالاتهم للفرس في أواخر الحكم العثماني نُكِبُوا عام ١٨٢٦م على يد السلطان عبدالمجيد.

ومن دسائس الانكشارية أيضًا: طرد أسرة الحيدري البغدادية الحنبلية من بغداد إلى البصرة؛ بسبب قوة تأثيرهم في الأوساط الاجتماعية البغدادية[٧].

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص٧٣، العزاوي، بين احتلالين، ج٤ص١٧٠.
(٢) لونكريك، أربعة قرون، ص٧٩.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص١٠٧.
(٤) العزاوي، بين احتلالين، ج٤ص٢٢٨.
(٥) الوردي، لمحات، ج١ص٢٠٢.
(٦) لونكريك، أربعة قرون، ص٢٢٢.
(٧) لونكريك، أربعة قرون، ٢٧٠.

٧- سوء الأوضاع المعيشية لعلماء بغداد من أهل السنة قبيل وبعد عام ١٩٠٠م[١].

٨- في زمن الوالي علي رضا اللازر، وأصله مولى شيعي فارسي، تولى للدولة العثمانية ولاية بغداد! قام باعتقال وسبي نساء بغداديات، والاستيلاء على أموالهن، ونصرة المفتي عبدالغني جميل لهن، وقصف محلة قنبر علي، وتدمير دار ومكتبة المفتي، وتهجيره خارج بغداد؛ أمور معلومة في التراث البغدادي[٢].

وانخفض سكان بغداد عام ١٨٣٤م حتى الخمسين ألفًا، بعد أن كانوا مائة وخمسين ألفًا، وقتله لشيوخ الشاوية، ووجهاء بغداد السلفية، وكان يوصف بالرحيم تجاه تمردات الباطنية[٣].

أما عن الفيضانات الذي شهدتها فترة حكم اللازر فقد قضت على ثلث أبنية بغداد، كما وصفها السائح البريطاني فريزر، وشهدت أيضًا أفجع الطواعين لعام ١٨٣١-١٨٣٤م، وكان طاعون ١٨٣١م[٤] يحصد يوميًا من الأرواح ٣٠٠٠ نفس، حتى لم يبق من الموظفين من يسجل بعد ذلك.

٩- طاعون بغداد عام ١٧٧٢م[٥].

١٠- انتشار الكوليرا (الهواء الأصفر أو أبو زوعه) عام ١٨٢٠م في بغداد، وحصاده آلاف الأرواح.[٦]

١٣- حصدت كوليرا عام ١٨٨٩م الكثير من أرواح البغداديين.

١٤- مشاركة أهل بغداد في حروب القوقاز في الحرب العالمية الأولى، وما سبقها من حروب القرم، وفي كل مرة يتم استشهاد أكثر من ٨٠٪ إلى ٩٥٪ منهم، ولا يرجع إلا القليل.

١٥- تهديم الصفويين للأضرحة والمساجد السنية[٧].

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ٣٨١.
(٢) لونكريك، أربعة قرون، ٣٣٩.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ٢١٠-٢١١.
(٤) فريزر، الرحلة، ص٩٢.
(٥) الوردي، لمحات، ج١ص١٥٩.
(٦) الوردي، لمحات، ج١ص٢٤٤.
(٧) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٢؛ الوردي، لمحات، ص٤٣.

١٧- اعترفت الدولة العثمانية بالشيعة، وبشكل رسمي زمن الوالي علي رضا اللازر الباطني من عام ١٨٤١م، وتم السماح بمجالس العزاء الحسينية واللطميات في بغداد، وفي عام ١٨٧٠م زار شاه الفرس ناصر الدين بغداد، وتم إلزام الشيعة بذكر الشهادة الثالثة في الأذان ولأول مرة في العراق دون منع العثمانيين له[١].

١٨- دور سليمان الشاوي في صدّ الفرس الزنديين الذين قدموا بغداد بطلب من عجم محمد مستشار الوالي العثماني على بغداد وصاحب خزنته، ومساندة الوالي حسن باشا بعد استنجاده بهم لاستقرار المدينة، وكان لعجم محمد اثنان من إخوته يعملون لدى الحاكم الفارسي بينما تمكن هو من تولي المناصب وسرقة خزينة الدولة في بغداد[٢].

١٩- لم يكن حراس بغداد من الانكشارية يهتمون بمن يدخل المدينة، وتركز الشيعة في منطقة الكاظمية فقط[٣].

٢٠- يذكر الرحالة نيبور أن بغداد حتى عام ١٧٠٢م كانت خربة بسبب الانكشارية.[٤]

٢١- كان الجيش العثماني المرابط في بغداد على أهبة الاستعداد دائمًا؛ بسبب كثرة التمردات، مما جعل من بغداد مدينة بعيدة عن الإصلاح وولاية شبه عسكرية.

٢٢- كان البغداديون يحفرون الأنفاق بين البيوت؛ استعدادًا لأي اجتياح فارسي.[٥]

٢٣- عند زوال الانكشارية عام ١٨٢٦م سلمت المراقد في بغداد إلى الشيعة كمسجد براثا[٦]، ومرقد الإمام الخلال (الخلاني) وغيرها.

٢٤- ظهور فتنة دفن جثة الحاخام اليهودي عبدالله إبراهيم سوميخ؛ حيث لم يشأ اليهود أن يدفنوه في الجانب الشرقي من بغداد في مقبرة اليهود، بل أرادوا دفنه في مقبرة المسلمين في مقبرة الكرخ قرب

---

(١) الوردي، لمحات، ج٢ص٢٥٧.
(٢) الوائلي، مطلع السعود، ص٩٦-٩٧؛ العزاوي، بين احتلالين، ج٦ص٦٩.
(٣) نيبور، الرحلة، ص٢٣٨.
(٤) نيبور، الرحلة، ص٢٤٩.
(٥) الدروبي، البغداديون أخبارهم ومجالسهم، ص٨٠.
(٦) العزاوي، بين احتلالين، ج٥ص١٠٣.



قبر يوشع، وثار قيِّم القبر وهو مسلم، وثار أهل الكرخ، وحضر رئيس بلدية الكرخ عبدالله الزيبق لمساندة القيِّم، لكن اليهود وبمساندة أمير إحدى ألوية الجيش سعيد أغا ضربوا القيِّم ورئيس البلدية، ودفنوا الحاخام في مقبرة الكرخ المسلمة، وكان ذلك بإذن من الوالي مصطفى عاصم باشا، لكن عمد الوالي لتدارك الوضع، ونقل جثة الحاخام إلى مقبرة اليهود في الرصافة، وأثار الموقف احتجاجًا واسعًا لدى يهود أوروبا، وبالأخص فرنسا وبريطانيا، ووصل الأمر حتى تدخلت أم السلطان العثماني لمناصرة اليهود، لكن السلطان أمر بدفن الحاخام في مقابر اليهود، وتهدئة الفتنة، وتغيير الوالي.(١)

٢٦- بعد تولي عبدالوهاب باشا الألباني ولاية بغداد عام ١٩٠٤م باشر بإبعاد السيد محمود شكر الآلوسي إلى الأناضول، بعد اتهامه بالوهابية، ومحاربة الوالي لكل من يقف بوجه شعوذات الشيعة(٢).

٢٧- كان حال بغداد عام ١٩٠٨م بعد إعلان المشروطية، حدوث ثورات في المساجد ضد الرصافي وعبداللطيف ثنيان اللذين كانا يلقيان خطب الاتحاديين في المساجد، فثار الناس لذلك، ونادوا (الدين يا محمد)، وظهرت المراقص للنساء لأول مرة في بغداد، ثم انهال سفر الراقصات على المدينة من الشام ومصر، وضربت المنظومة الأخلاقية البغدادية بالصميم، وكثر انتشار السلاح والقتل، وانتشار الملاهي، واستفحال الشتائم الصحفية، وكل من وجد في نفسه ثقافة ضحلة أصبح كاتبًا، وشهدت بغداد كثرة صدور الصحف، وكثرة زوالها، أي: فورانًا في عالم الصحافة(٣).

٢٨- اعتاد الناس في بغداد قبل مجيء ناظم باشا على كثرة هجمات الجيش على الأسواق بسبب تأخر رواتبهم(٤).

٢٩- يشير الرحالة جيمس بكنغهام أنه شاهد كثرة الإعراب في بغداد في القرن التاسع عشر، وأن المسلمين يلبسون العمائم والنساء الخمار، مع كثرة القبائل العربية حول بغداد للدفاع عنها وأن حكام بغداد ليسوا عربًا(٥).

---

(١) العزاوي، بين احتلالين، ج٨ص٩٤.

(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج٧ص٩٣؛ الوردي، لمحات، ج٣ص٦٩.

(٣) العزاوي، بين احتلالين، ج٨ص١٦٠-١٧٢.

(٤) الوردي، لمحات، ج٣ص١٧٥.

(٥) جيمس بكنغهام، رحلتي إلى العراق، ج١ص٢٠٢.



القشلة: مقر الحكومة العراقية في العهد الملكي



٣٠- تحول دور التكايا في بغداد في القرن التاسع عشر من الدعوة إلى التسول.

٣١- يذكر العزاوي أن قلة الاهتمام بالحالة الصحية والمعيشية للسكان، وانتشار الظلم[١] والطبقية، وكثرة الأوبئة والأمراض حتى كادت أن تكون سمات كل سنة، وهو ما ساعد على قلة المعدل الإنمائي للسكان[٢].

٣٢- يشير تولستوي أول سفير روسي رسمي للدولة العثمانية في عام ١٧٠١م أن الشعب العربي مضطهَد من قِبل الترك، ومسلوب الحرية والأموال، وخائف على نفسه، وأن الوضع الاقتصادي لرعايا الدولة بائس ورديء، بينما يجني الفرس الأموال الكثيرة من التجارة في أزمير وتركيا، يذكر الرحالة الأب فيليب الكرملي أن العرب في بغداد عام ١٦٢٩م فقراء جدًّا[٣]، ويشير الرحالة الروسي لوكيانوف عام ١٧١٣م إلى أن الجيش الانكشاري كان يقتل كل من يعارضه حتى لو كان السلطان، ونُهب الأهالي، وأُفقر العرب قياسًا ببيوت اليهود، وتسلط الباشوات على الناس، وعاش الفلاح عيشة العبودية، وأن المزارعين تركوا بساتينهم الغنَّاء هربًا من الوالي، وأن البدو فرحون بحريتهم[٤].

٣٣- يشير الرحالة الروسي جيريكوف عام ١٨٦١م إلى أن الترك كانوا يعتقلون العرب لفترات طويلة لحين حاجتهم وسَوقهم إلى الحروب، وكان الفقر من نصيب القبائل العربية.[٥]

٣٥- يشير الرحالة تايلر عام ١٧٨٩م إلى سوء أخلاق ومعتقدات أهل المدن، باستثناء العرب والبدو أصحاب الأخلاق العالية[٦]، ويشير جون أشر إلى انحطاط بغداد عام ١٨٦٤م عن مكانتها السابقة[٧].

٣٦- محلة الشيخ بشار هي محلة بغدادية صوفية تحولت إلى بابية وبهائية؛ بسبب هجرة هذه العقيدة إليها، وتوطين العثمانيين لهم في تلك المحلة، وإعطائهم الدور والمسجد[٨].

---

(١) فيضي، مذكرات، ٧٠.
(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج١ص٤٣٣.
(٣) رحالة أوربيون في العراق، فيليب الكرملي، الرحلة، ص٦١.
(٤) دانتسيغ، الرحالة الروس، ص٨٧، ٨٨، ١٠٢، ٢٩٨.
(٥) دانتسيغ، الرحالة الروس، ص٣٥٨.
(٦) رحالة أوربيون في العراق، رحلة تايلر ١٧٨٩م، ص١١١.
(٧) رحالة أوربيون في العراق، جون أشر، ص١٤٧.
(٨) رءوف، عماد عبد السلام، مساجد بغداد، ص١١٣؛ الوردي، لمحات، ج٢ص٢٠٢.

٣٧- سيطرة اليهود على المدرسة التاجية، وبمساعدة الباطنية؛ بادعائهم أن القبر الذي فيها لأبي إسحاق الفيروزآبادي، وادعوا أن أبا إسحاق هو صراف الإمام عليّ، واستهوت الفكرة الانكشارية والبكتاشية، فساعدوهم على ذلك، وتحوّل إلى بيعة عام ١٨٧٠م، وبعدها سيطر اليهود على قبر إسحاق الشيرازي الشافعي، ناهيك عن بعض المحلات البغدادية بالكامل في أوقات الأوبئة والفيضانات، وهدم مساجدها[١].

٣٨- سوء إدارة أوقاف أبي حنيفة، وإعلان الاتحاديين حربهم الشعواء ضد كلية الإمام الأعظم التي أُسست عام ١٩١١م[٢].

٣٩- جامع الخاصكي الذي باعه الفرس للفرنسيين إبان الاحتلال الفارسي، واستعاده أهل السنة بالقوة[٣].

بغداد والعهد الملكي:

قبل الحديث عن الجانب الاجتماعي لبغداد في العهد الملكي، نقف بصورة مجملة عند التحديات الاجتماعية قبل هذا العهد، وهي:

١- مشاركة النصارى واليهود في التجسس ضد الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى؛ في الوقت الذي قدم المجتمع البغدادي السني خيرة أبنائه في الدفاع عن الدولة العثمانية[٤].

٢- تألفت الشبانة من اليهود والنصارى، والعجم والخوشية، وأراذل الناس لمساعدة المحتل البريطاني في السيطرة على بغداد والعراق، وأقطعوا الإقطاعات في بغداد، وبُنيت لهم البيوت الحديثة، أمثال محلة الآثوريين والبتاوين، وكمب سارة، وأجريت لهم الرواتب المغرية، وكانوا نواة لتأليف جهاز الشرطة[٥] الذي اعتبره الباحثون اليد الطولى للمحتل البريطاني في ضرب وإخماد الثورات

---

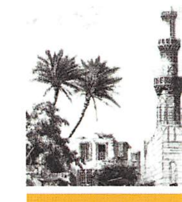
(١) رءوف، مساجد بغداد، ص١٢٩.

(٢) عبادة، عبد الحميد، العقد اللامع، ص٤٣.

(٣) عبادة، عبد الحميد، العقد اللامع، ص٣٦٢.

(٤) العزاوي، بين احتلالين ج٨ص٢٧٧-٢٨٥.

(٥) بطاطو، العراق، ج١ص١٦٤-١٦٥.



والانتفاضات الوطنية[١]؛ بسبب امتناع الجيش عن ذلك، علماً بأن نصارى الليفي هم في الغالب من أرمن تركيا وإيران تلقوا الوعود بتوطينهم لقاء تقديم خدماتهم للجيش البريطاني.

أما عن الشبانة فهم من قُطاع الطرق واللصوص وخوشية الإقطاع من مناطق العمارة والكوت، وجلهم وليس كلهم من العجم، وممن لا يجيدون حتى اللغة العربية، لكن كلهم كما قد وُصفوا من أراذل الناس.

٣- أكثر من نصف أرمن بغداد أصلهم أرمن فرس نزحوا إلى بغداد بعد طرد عباس الصفوي لهم عام ١٦٠٤م وعام ١٦١٦م، وبعد تشجيع مراد الرابع الحرفيين لملء بغداد بعد إفراغها من قبل عباس الصفوي عام ١٨٣٨م وتشجيع الكنيسة الأرمنية في بلاد الفرس لهم للهجرة، وكانوا تجارًا وأطباء وصناعيين وأصحاب شركة (جلبينكيان لاستثمار البترول في العراق)، ودافعت أوروبا عن حقوق الأرمن في بغداد، وضمنت ذلك في مؤتمر فرساي ١٩١٩م.

وذكر الرحالة وليم بيري فون الأمريكي أن الأرمن أغنى أهل بغداد بعد الاحتلال البريطاني[٢].

٤- استعلاء الجاليات والأقليات غير المسلمة على العرب المسلمين بعد احتلال بريطانيا لبغداد، وسمع الأهلون منهم المذلة خصوصًا بعد استقوائهم بجيش الليفي[٣].

٥- ظهور كبار الملاك زمن الإنجليز مكافأةً على خدماتهم مثل آل سهيل من تميم وآل الجريان من البو سلطان، وكلاهما لم يكونوا يملكون دونماً واحدًا قبل الاحتلال الإنجليزي[٤].

٦- أما عن أهل السنة في عاصمتهم بغداد؛ فلم يتغير الأمر بالنسبة إليهم كثيرًا اقتصاديًّا عن الحكم العثماني؛ لأن السلطات المحتلة عمدت إلى إذلال وجوه السكان الأصليين بيد الليفي وإعلاء شأن الأقليات[٥] اجتماعيًّا واقتصاديًّا، وإداريًّا؛ بتوليهم المناصب العليا، وإقطاعهم الأراضي الخصبة[٦].

---

(١) المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، ص٣٣١.
(٢) الحسني، تاريخ العراق، ج٣ص٣٢٤ ؛ غازي، أرمن بغداد، موقع البيان الإلكتروني.
(٣) العمري، تاريخ العراق، ص١٤٥.
(٤) بطاطو، العراق، ج١ ص١٤١.
(٥) الوردي، لمحات، ج٥م١ص١٧.
(٦) بطاطو، العراق، ج١ ص٢٢٧.

وبالرغم من تصدر العنصر السني لكل مشاهد السياسة البغدادية والإدارية إلا أن المشكلة كانت وما زالت تكمن في أن القادة السنة عادة ما كانوا يعملون بشكل منفرد وفقًا لردود أفعال المواقف المختلفة، ودائمًا ما يسعون لبناء نظام المواطنة، ويهملون تحصينهم للمجتمع البغدادي السني والعراقي من الأخطار الباطنية الشيعية ذات التوجهات الفارسية، وبسبب ما يحملونه من نظرة شمولية للمواطن البغدادي، كانوا دائمًا ما يضيعون جهود قاعدتهم السنية ومجتمعهم المظلوم! بسبب الطابع التطفلي الذي كان يميز الدعوة الشيعية الفارسية على الأحداث البغدادية.

والآن نبيِّن التحديات التي واجهت المجتمع البغدادي في العهد الملكي، وتتمثل بالآتي:

١- نفي علماء العرب السنة ووجهائهم؛ إذ كانوا يشكلون عقبة بوجه تطبيق السياسة البريطانية، ولاسيما الذين يملكون زمام الرأي العام مثل نفي الأستاذ والتاجر المعروف عبدالقادر باشا الخضيري إلى الهند بسبب مواقفه الوطنية، ونفي العلامة الدفتري، وغيرهما[(١)]، واعتقال بعضهم ونهب دورهم ومقراتهم.

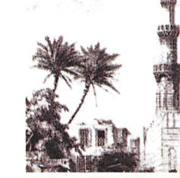
ومنها أيضًا ممارسة الضغط والتهديد من قبل المندوب السامي البريطاني على زعماء العرب السنة البغداديين، وتهديد المناطق العربية السنية لترك مواقفهم المعارضة؛ من خلال إشعال الفتنة بينهم وبين قبائل المناطق الشيعية، خصوصًا الكاظمية، التي اقتطع فيها الإنجليز آلاف الدوانم من الأراضي الزراعية الخصبة من سكانها الأصليين، ، وأعطوها لعملائهم من آل سهيل من تميم الذين لم يكونوا يملكون شبرًا واحدًا قبل ذلك، الأمر الذي دفع أحد شيوخهم إلى اللجوء إلى منطقة الكاظمية ذات الحصانة العالية التي اكتسبتها بسبب موقف مراجعها الموالية لكل محتل، وعاش هناك وأعلن تشيعه لحماية عائلته، وتوفي بها[(٢)].

٢- على الرغم من كل تلك المضايقات، لكن الأمر لم يكن ليمنع الشيخ يوسف السويدي من أن يقود أكبر معارضة في العراق للاحتلال البريطاني، وهو أحد مؤسسي حرس الاستقلال المدافع عن عراق مستقل، واستغل الشارع السني حادثة وفاة الشيخ ضاري المحمود بطل ثورة العشرين، لتعبئة الشارع والخروج بمظاهرة عمت جميع العراق لإيصال مطالبهم الوطنية المشروعة، الأمر الذي حدا

---

(١) الدروبي، البغداديون، ص٨٢، ١٠٢، والوردي، لمحات، ج٥م٢ص٩-١٠.

(٢) الدروبي، البغداديون، ص٥٠.



بالمراجع الشيعية لاستعادة سيطرتهم على الشارع الشيعي التي فقدوها على خلفية مواقفهم السلبية من المسائل الوطنية المتتالية، ومنها ثورة العشرين، فبدءوا بقيادة حملة تهريج طائفي استغلوها ضد رئيس الوزراء العراقي عبدالمحسن السعدون في إعلانه لانتخابات المجلس التأسيسي، أو في إعلانه للتجنيد الإلزامي لتقوية الجيش العراقي، فأعلن الآيات رفضهم للتجنيد، وأخذوا يدرسون في مدارسهم الفارسية في العراق أن العراق بلاد فارسية، والواجب على الشيعة إعادة العراق إلى أصحابه[١]، ووضعوا لذلك الفتاوى، في الوقت الذي كان أهل السنة يحضرون لقيادة الرأي العام، وحث الناس على التطوع في الجيش العراقي؛ لحماية الحدود، ورفض المعاهدة البريطانية المذلة، وإخماد ثورات قطاع الطرق والميلشيات التي أحدثتها العشائر الشيعية في الجنوب وبدعم بريطاني لإشغال الناس عن قضية الاستقلال[٢].

٣- سبقت هذه الأحداث بقليل مشكلة الموصل، ومسألة تحديد تبعيتها للدولة الأتاتوركية أم للعراق، لتدهشنا فتوى أخرى في مسلسل الخذلان الشيعي الصفوي لأهل السنة، وإعلان فتاويهم بحرمة قتال الأتراك فيما إذا حاولوا إرجاع الموصل إلى تركيا وسلخها عن العراق[٣]! في الوقت الذي كانت تلك المراجع قد أفتوا عام ١٩١٤م بوجوب الجهاد ضد العثمانيين المسلمين الظلمة ونصرة الجيش البريطاني النصراني، ثم أفتوا بحرمة قتال الجيش البريطاني؛ لكون الكافر العادل خيرًا من مسلم ظالم!

ثم أفتوا بحرمة إقامة دولة عربية في العراق بعد إخماد ثورة العشرين، ثم اتصلوا بالجانب الشيوعي لاستلام السلاح، وضرب حكومة السعدون بعد طردهم من أرض العراق إلى بلدهم فارس بسبب وقوفهم بالضد من قانون التجنيد الإلزامي! ثم عادوا ليعتذروا عن مواقفهم السابقة ويعودوا إلى حوزة النجف وكربلاء بعد تعهدهم بترك التدخل في سياسة الحكومة؛ كونهم رعايا فرس، وليسوا عراقيين[٤].

٤- كل تلك المواقف كان على بغداد العاصمة التعامل معها بحزم وسرعة، مما استنزف طاقة المجتمع الوطنية في صراعات داخلية بعيدة عن الهدف الأول، وهو طرد المحتل البريطاني؟! فعمد المحتل البريطاني إلى اتخاذ خطوات فاعلة لإخماد جذوة المشاعر الوطنية السنية، من خلال إلغاء

---

(١) خليل، التاريخ الحديث، ص٢٠٧، هامش ١٢١ص١٩١.

(٢) الدروبي، البغداديون، ص٤٥؛ الحسني، رؤساء العراق، ص٥٨-٦٠، ١٢٩-١٣٤.

(٣) الحسني، رؤساء العراق، ص٣٨.

(٤) عادل رءوف، عراق بلا قيادة، ص٢٠-٢٧.

أوقافهم الإسلامية، وتهديم المساجد؛ كونها النواة التي تكمن فيها قوة الرأي العام السني، ومنها تخرج القيادات المجتمعية، كما تم الاستيلاء على الأوقاف الشخصية كذلك، أمثال السيطرة على أوقاف آل الرومي، وتحويل مسجدهم إلى بناية عامة[١]، وتحويل المدرسة المرجانية والمدرسة المستنصرية إلى مخازن حكومية، وهدم أجزاء من مسجد الحيدر خانة وبناء مكانه عمارة في شارع الرشيد، وهدم مسجد أبي طالب نصر بن علي الناقد وزير الخليفة المستضيء عام ٥٧١هـ، والمعروف خطأ بـ«قنبر علي»، ومسجد إمام طه[٢]، وتحول مقبرة الخلفاء العباسيين الأثرية قرب جامع الخلفاء إلى دكاكين، ووضع اليد على المدرسة العمرية قرب جامع قمرية، وتحول مسجد السيف إلى مرأب، والأمثلة تطول[٣].

٥- حاول أهل السنة صياغة مطالبهم في إطار حزب سياسي تمشيًا مع متطلبات المرحلة الراهنة آنذاك قبل عام ١٩٤٨م، وأعلنوا عن قيام حزب الإخوان المسلمين في العراق، وأصدروا أول جريدة ذات طابع إسلامي، وأعلنوا استعدادهم لتقديم يد العون لكل من يريد استنساخ تجربتهم بعد أن أثبتت نجاحها في الوسط المدني البغدادي، واتصل بهم مهدي الحكيم نجل المرجع الأعلى محسن الحكيم[٤]، لكن النتيجة كانت على العكس، حيث أعلن المرجع الأعلى الحكيم تأييده للحزب الشيوعي الملحد؛ محاولة منه لإيقاف التأييد الشعبي الكبير الذي حظي به حزب الإخوان، ولما سئل عن سبب فتواه تلك الخارجة عن نطاق الشريعة الإسلامية تحجج بأعذار لا تمت إلى الإسلام وحلاله وحرامه بصلة؛ فقد أرجع تأييده للإلحاد بأن معظم سكان الجنوب الشيعي قد يأسوا من سوء مواقف مراجعهم الإسلامية المخجلة، وكرد فعل معاكس انخرطوا جماعات في هذا الحزب المخالف للشريعة، ولحمايتهم من الأنظمة الحاكمة أعلن المرجع تأييده لإلحادهم![٥]

علمًا بأن مسئول الحزب الشيوعي في النجف كان المدعو أبا يحيى النجفي من أقارب الحكيم ذاته[٦]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أصبح الحزب الشيوعي الناطق الرسمي باسم المرجع علي

---

(١) الدروبي، البغداديون، ص٨٠.
(٢) رءوف، مساجد بغداد ص١١٦.
(٣) عيادة، العقد اللامع، ص٣٨١، وص٥١٦.
(٤) صلاح الخراساني، حزب الدعوة، ص٣٩-٥٢.
(٥) عادل رءوف، عراق بلا قيادة، ص ١٣٨.
(٦) صلاح الخراساني، حزب الدعوة الإسلامي، ص٤٦١.

الشهرستاني في النجف، وأصبح رئيس الحزب منسّق اللقاءات بين المرجع والوفد الروسي[١]، وقاموا بقيادة حملة إعلامية شيعية شيوعية متحدة لضرب عرين أهل السنة والمتمثلة بالأحزاب السنية.

٦- يشير بطاطو في جدول لأغنياء بغداد قبل الهجرة اليهودية في أربعينيات القرن العشرين، وأغلبهم من أهل السنة يضاف إليهم اليهود والنصارى، لكن هجرة اليهود في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي أفرز العنصر الفارسي كبديل للتاجر اليهودي بعد حادثة الفرهود في إطار عمل منظم ومبيت سلفًا، فحامل الأغراض الفارسي في الأسواق البغدادية أصبح تاجرًا بعد استيلائه على أموال اليهود[٢].

وقد وجَّه مراجع الشيعة أتباعهم بوجوب فرهود اليهود المغتصبين لفلسطين خلاف الحقيقة التي فطن لها المجتمع البغدادي بأنها دسيسة بريطانية لإجبار يهود العراق على الهجرة بالقوة إلى الكيان الصهيوني بعد رفضهم ذلك، وبمساعدة الفتاوى الشيعية حتى شُوهدت العوائل الشيعية الوضيعة في قصور اليهود، وكما أسلفنا قام قاسم بتوطين الشيعة في محلات اليهود البغدادية لتغيير ديموغرافية المجتمع، ثم وبعد ترحيل نظام البعث للتبعية الفارسية من العراق صعد العنصر الشيعي كبديل للتاجر الفارسي في إطار تبادل الأدوار لرسم سياسة الطابع الشيعي على المجتمع البغدادي.

٧- سيطرة وزارة المالية على أوقاف الشيخ عمر[٣].

٨- مسح الشيعة لأسماء القبور وبعض المساجد في بغداد زمن الاحتلال البريطاني وقاسم ليتسنى لهم بعد فترة ادعائهم عائديتها إليهم، ومنها محاولة الشيعة السيطرة على قبر إبراهيم شاه أو شاه إبراهيم القائد العثماني الذي فتح بغداد عام ١٥٣٤م[٤]؛ بزعمهم أنه إبراهيم أخو محمد ذو النفس الزكية بن الحسن بن علي، والحقيقة أن إبراهيم بن الحسن قُتل في الكوفة.

وكذا السيطرة على جامع النوبختي عام ١٩٧٥م، ومسجد بنات الحسن، ومسجد المصلوب، وهي مساجد سنية بغدادية، وقبر السيد إدريس نقيب أشراف بغداد في الكرادة البغداديةف ويقولون:

---

(١) العلوي، حسن، الشيعة والدولة القومية، ص٢١٤، وعادل رءوف، عراق بلا قيادة (د.م)، (د.ت)، ص٣٣.
(٢) بطاطو، العراق، ج١ص٣١٠.
(٣) عبادة، عبد الحميد، العقد اللامع، ص٢٠٦.
(٤) المرجع السابق، ص١٠٧.

إنه إدريس بن موسى بن علي بن أبي طالب، ومسجد العيدروسي البغدادي، اليوم هو مقام عثمان بن سعيد العمري أحد أبواب المهدي بزعمهم، والحقيقة أن القبر هو لمحمد الكناس[(١)].

إن ندرة حملة المؤهلات العلمية من الشيعة في ذلك الوقت كانت سببًا في قلة عدد من يملكون معايير التعيين في وظائف الدولة من الشيعة؛ تشير المس بيل إلى أن الأفندية هم من قاد الناس قبل وبعد ثورة العشرين، ويقول بيرترام توماس[(٢)]: «يتضح من خلال التعرف على المجتمع العراقي بأن طبقة الموظفين والمثقفين هناك يشكلها بدرجة كبيرة سكان بغداد من أهل السنة والمدن الشمالية»، وهذه النصوص تعطي كل ذي حق حقه.

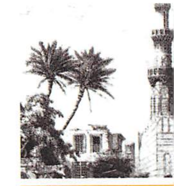
والأمر ذاته ينطبق على الجيش؛ حيث شكل السنة غالبية هيئة ضباطه خلال العهد الملكي، فيما احتفظ الشيعة بالمراتب الأدنى، ولاسيما بعد إقرار الخدمة الإلزامية عام ١٩٣٤م، ويرجع السبب لقلة التمثيل الشيعي؛ إضافة للفتاوى السلبية السالفة الذكر من القضايا الوطنية، فقد أفتى المراجع الشيعية أيضًا بحرمة المشاركة في العملية السياسية، أو الانخراط في الجيش أو الوظائف العامة للدولة العراقية الفتية.

ثم إن قيادات الدولة العراقية عند التأسيس أسندت إلى (الضباط الشريفيين) الذين قاتلوا في الثورة العربية الكبرى تحت لواء الأمير (الملك) فيصل؛ من أمثال نوري السعيد وياسين الهاشمي، وجعفر العسكري، وسواهم، وكذلك من قاد معارك ثورة العشرين العراقية؛ إذ كان هؤلاء قد تلقوا تدريبًا عسكريًّا وإداريًّا في الدوائر العثمانية، وحظوا بثقة الملك فيصل بعدما رافقوه من الحجاز إلى سوريا، ثم إلى العراق، كما أن بعض القوميين الذين استقدمهم الملك فيصل لبناء مؤسسات الدولة (كساطع الحصري) مثلاً، كان موقفهم الرافض لبعض تصرفات الشيعة ليس لكونهم شيعة، وإنما لولائهم المفرط لبلاد فارس، وتبنيهم أجندة الدولة الشاهية، وفي أربعينيات القرن الماضي وقف الشيعة موقف المتفرج من ثورة الكيلاني، علاوة على تأخر مواقفهم الإيجابية من القضايا المصيرية للعراق، وهو ما يعرف بسرقة جهود الغير بعد حشر أنفسهم مع رجالات الصف الأول إعلاميًّا لا فعليًّا عند استهلاك القضية المعينة، وبيعهم الفتاوى المؤيدة للقضايا العربية أو بالضد؛ كل حسب الطلب!

---

(١) عماد عبد السلام رءوف، مساجد بغداد، ص١٩ - ٣١، ١١٧.

(٢) سيار الجميل، زعماء وأفندية، ص٢٦٣.



المجتمع البغدادي في العهد الجمهوري:

يذكر جميل أبو طبيخ أن عناوين القتل لم تظهر في بغداد إلا في زمن عبدالكريم قاسم والنظام الجمهوري، وأن الملوك كانوا يسيرون دون حراسة في شارع الرشيد، وقد ذكرنا من قبل قصة لنوري السعيد في الفصل الأول يظهر فيها الأمان الذي كانت تنعم به بغداد في العهد الملكي، ولم تكن الملايين تُصرف لحماية نواب البرلمان أو أعضاء مجلس الوزراء، ويشبِّه الشيخ علي الطنطاوي في كتابه (بغداد ذكريات ومشاهدات) القصر الملكي بالقصر العادي الذي تفوقه قصور الأغنياء حجماً وزخرفة، وقد يخطئ المارُّ ويدخل أراضي القصر دون أن يعلم لانعدام الأسيجة المانعة، وعلى كل حال افتتح عهد قاسم بمجزرة للعائلة المالكة، ثم تلاها بقرارات لا صفة لها إلا الطائفية المقيتة منها اعتقال زميله صاحب التوجهات الإسلامية والقومية العربية عبدالسلام عارف، والتقرب من المرجع الشيعي عبدالمحسن الحكيم وحينها حدثت أمور عدة آذت السلم الأهلي للمجتمع البغدادي:

١- الاعتراف الرسمي بالحزب الشيوعي(١)، وتخويل ميلشياته في تصفية قادة الأحزاب السنية، ومنها الإخوان المسلمين، والتدخل في المؤسسات الاجتماعية المدنية، ونشر الفساد الخُلقي والديني، ومنها خروج مظاهرة مرخَّصة من وزارة الداخلية القاسمية تطالب بالإباحية.

٢- إفتاء الحكيم بحرمة الانتماء للأحزاب الإسلامية كافة؛ كونه -أي: الحكيم- الممثل الوحيد لمسلمي العراق! والإفتاء بوجوب إبادة الثورات القومية مع جواز الاستعانة بالميلشيات الشيوعية والحوزوية الشيعية والكردية، وحتى اليزيدية(٢).

٤- السيطرة التامة على الأوقاف السنية في بغداد، وإرجاع إدارتها لوزارة الأوقاف ووزارة المالية بعد انتزاعها من أهلها(٣).

٥- غلق المدارس الإسلامية بعد السيطرة على أوقافها.

٦- تعيين آلاف المدرسين الحوزويين من الشيعة كمدرسين في ثانويات القُطر، ومنها بغداد

---

(١) رءوف، عادل، عراق بلا قيادة، ص١٣٨.

(٢) الخراساني، صلاح، حزب الدعوة الإسلامي، ص٤٩٣.

(٣) عبادة، عبد الحميد، العقد اللامع، ص٧.

لإيقاف المد القومي الحصري كما كانوا يسمونه[١].

٧- الاستيلاء على ممتلكات اليهود المهاجرين من عقارات ومصالح وتوزيعها على أصحاب الدين الشيعي الوافدين الجدد على بغداد؛ لتوطينهم، ورفع نسبة مؤيديه في العاصمة بعد نبذه من قبل المجتمع السني ذي الأغلبية الساحقة في بغداد.

٨- تشجيعه على هجرة سكان الجنوب الشيعي إلى بغداد وبناء المدن لاستقبالهم مثل مدينة الثورة (الصدر حاليًا)، ومدينة الشعلة، والألف دار، وغيرها من المدن، وتمليكهم الأراضي الزراعية حول بغداد، بدعوى تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي علمًا بأن أراضي بغداد الزراعية كانت مملوكة وبشكل مغلق لأهل السنة، وتأجيل تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي في مناطق جنوب العراق إلى يومنا الحاضر، وما يزال الكثيرون من أحفاد رجالات الإقطاع السابقين يتمتعون بالملكيات الزراعية الشاسعة، الأمر الذي أصاب النسيج السكاني البغدادي في الصميم، وزلزل أركانه القيمية والمجتمعية؛ لما عُرِفَ به هؤلاء من سوء الأخلاق والطباع وامتهان السرقة، كما وصفهم جميل أبو طبيخ في مذكرات بغداد وصراعها الطائفي، حتى بلغت نسبة الزيادة الشيعية في بغداد في العهد القاسمي قرابة ٢٩٪ من سكان العاصمة.

أما العهد العارفي فقد تميز بالهدوء النسبي تجاه العقيدة الإسلامية بعد الفوضى التي أحدثتها الحكومة القاسمية، واستعاد المجتمع البغدادي بشكل متسارع مكانته الاجتماعية بوجه العناصر الوافدة الجديدة، لكن لم تكن الرياح لتجري كما تشتهي السفن، فقد تحالفت القوى الشيعية والشيوعية وبعض القومية تحت إشراف السفير البريطاني والإيراني والأمريكي لاتهام الحكم العارفي بالطائفية، علمًا بأن الحكم العارفي لم يسعَ لتصليح أخطاء الحكم القاسمي الذي عانت منه بغداد، بل على العكس أكمل ما بدأ به قاسم في تكملة تقديم الخدمات وسبل الراحة للوافدين الشيعة على بغداد.

ويعد الانقلاب البعثي بداية الضربة القاصمة التي تعرض لها أهل السنة في بغداد على وجه الخصوص فقد افتتح حزب البعث حكمه بمجزرة طالت العلماء من أهل السنة، وفي مقدمتهم الشيخ عبدالعزيز البدري؛ بسبب عدم اعترافه بحزب البعث، وعدم إصداره لفتاوى تجيز الانضمام إليه! في

---

(١) خيون، الأديان والمذاهب، ص٣٠٤.



حين أصدر المرجع الشيعي الأعلى السيد الخوئي فتواه بجواز الانضمام إلى حزب البعث الحاكم[١]، وفي حقيقة الأمر كانت الذات الإيرانية الشيعية في المراجع والأحزاب الشيعية العراقية ظاهرة وبوضوح، وإن أغلب انتفاضاتهم ضد الحكومات المتعاقبة كانت تُدَار من طهران[٢].

وعلى الرغم من أنه وللمرة الأولى في تاريخ العراق كان النظام قد أسس هيكل دولة واسعًا بما يكفي لهيمنة أغلبية شيعية في شتى أجهزته الإدارية في الفترة ما بين ١٩٦٨ - ١٩٨٨، كانت المواقف الشيعية في بغداد تتمثل في اتهام السنة بالبعثية، وهو ظلم وتزييف للحقائق، وهي دعوة غربية استدمارية للنَّيْل منهم؛ لأنهم المكوّن الوحيد الذي لا يمكن اختراقه، لذلك يجب تهميشه[٣].

ومما يجدر ذكره اعترافات أبناء المراجع والكتاب الشيعة بدور الدول العظمى في تنصيب مراجع حوزات النجف وبالأخص الخوئي، وإجراء اتصالات سرية كثيرة، منها اتصال فيلق بدر بواشنطن وإيران ضد العراق، وأن الأحزاب الشيعية في العراق ذات قيادة إيرانية وقراراتها إيرانية وغربية[٤]، ويعزز ذلك اللقاءات التي جرت بين عبدالعزيز الحكيم والمسئولين الأمريكان لتقديم المعلومات الاستخباراتية ضد الجيش العراقي[٥].

أما عن حرب الثمانينيات فقد كانت المناطق السنية هي الهدف الأول والأخير للجيش الإيراني، وكانت مناطق الشيعة ومنها مناطق العتبات والمراقد مناطق محمية عسكريًا، لإعطائها صفة القدسية في دعوتهم الصفوية، وكانت حتى العوائل النصرانية والسنية تلوذ بمنطقة الكاظمية للخلاص من الصواريخ الإيرانية[٦]، وسابقًا كان النهج ذاته أيام المجازر الفارسية إبان الاجتياحات العسكرية.

ثم جاءت سنة ١٩٩١م لتعلن على الملأ وحشية المعارضة الفارسية الشيعية وتعرض فيها أهل السنة لأبشع أنواع القتل في المناطق الوسطى والجنوبية[٧]، بينما بقيت المناطق العربية السنية بعيدة عن

---

(١) النعماني، محمد رضا، الشهيد الصدر د.م، د.ت، ص١٦٢.
(٢) رءوف، عادل، عراق بلا قيادة د.م، د.ت، ص٢٧٢-٢٧٤.
(٣) التقرير السنوي الثاني لمجلة البيان، ص١٤٥.
(٤) رءوف، عادل، عراق بلا قيادة، ص١٧٠، ٢٠٠، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٨.
(٥) البياتي، حامد، سقوط الشيطان د.م، د.ت، ص١٠-١٢.
(٦) خيون، الأديان، ص١٧.
(٧) مطر، سليم، الذات الجريحة، ص٣٣٧.

الخيانات السياسية والطائفية للوطن، بالرغم من كرههم لنظام البعث، ونقل الكثير من الفارين من مجازر ثورتهم الشعبانية كما يسمونها أفظع المشاهد المرعبة، في الوقت الذي كانت حوزة النجف تعلن الولاء للسلطة الحاكمة، وتحشد لها التأييد الداخلي والخارجي مقابل إبقائها على سدة المرجعية، وحماية أخماسهم من أن تمتد إليها يد المراجع الفرس في إطار الصراعات المرجعية.

وقد يعتب القارئ الكريم بسبب الإسهاب في ذكر التحديات الدينية أكثر من الاجتماعية بصفة عامة، لكن أهل مكة أدرى بشعابها، وما يتعرض له عالمنا الإسلامي والعربي على وجه الخصوص اليوم من فوضى دينية وسياسية إلا نتاج ما زرعه الإيرانيون بالتعاون مع قوى الاستكبار الغربي والصهيوني، والأمة للأسف في فوضى الأحزاب القومية والوطنية الضيقة، والأنظمة الدكتاتورية العلمانية بطبعها ليست إسلامية، وتلك الأمة الشيعية تتربص بنا المحن حتى أعلن ناطقهم بإسقاط عدة عواصم، عربية وأفغانية في نشوة من الفخر بالانتصار كأنه فاتح عامورية أو القسطنطينية أو بيت المقدس!

مجمل الحياة الاجتماعية لمدينة بغداد:

على الرغم من انتشار جميع الأعراق والديانات في بغداد إلا أنه بقي الطابع والعادات واللبس العربي هو الغالب، والديانة الإسلامية بمنهجها السني هي الأساس، وافتتح العهد الملكي وقلب بغداد يمتد من باب المعظم شمالاً إلى الباب الشرقي، ويقابلها منطقة الكرخ (حيفا) اليوم، وتحيط بها البساتين من كل الجهات، وانحسار الأقلية الشيعة في منطقة الكاظمية فقط[(١)]، وهي عبارة عن قرية يغلب عليها الطابع الفارسي، وهم يسيئون للبغداديين أيام حكمهم للمدينة ويكرهونهم[(٢)]، وتتمتع قرية الكاظمية بالحصانة العالية التي اكتسبتها بسبب موقف مراجعها الموالية لكل محتل.

مما ساعدها -كرد للجميل- في السيطرة على أوقاف قبر أبي يوسف القاضي وقبر الإمام أحمد ابن حنبل ومقبرة القريشيين، وفيها قبور خلفاء عباسيين، وظهر فيها كبار الملاك زمن الاحتلال الإنجليزي مكافأة على خدماتهم، وبقي المجتمع الكاظمي متقوقعًا على طباعه الفارسية حتى إعلان الملكية العراقية وقيادة أهل السنة البغداديين لحركتهم الوطنية.

---

(١) نيبور، الرحلة، ص ٢٤٣؛ بطاطو، العراق، ج١ ص٣٧.
(٢) بغداد بأقلام رحالة، ص٢٧-٢٩.



وهذا ما أكدته المس بيل بقولها في المذكرات: إنها كانت تخاف من قيادة أهل السنة إلى اتحاد شيعي سني بما كان يتمتع به القيادات السنية من روح الوحدة الوطنية، الأمر الذي ساهم في اندماج المجتمع الشيعي الكاظمي شيئًا فشيئًا في المجتمع البغدادي، وعندما أراد ويلسون الحاكم البريطاني أن يتفاوض مع ممثلي بغداد لمعرفة مطالبهم الوطنية، وإيقاف ثورة العشرين اختير للمهمة ثلاثة رجال بغداديين من أهل السنة للتمثيل عن المدينة في المفاوضات[1]، واختيرت محلة خضر إلياس السنية الكرخية منطلقًا وملاذًا آمنًا للوطنيين البغداديين، علمًا بأن نظام الحارات المغلقة السابق الذكر بقي معمولاً به حتى عهد قريب في قلب العاصمة، لكن بشكل ضعيف بسبب سيطرة الدولة الأمنية على الحياة الاجتماعية.

وكانت الحارات البغدادية تعيش جوًّا من التكافل الاجتماعي؛ كونهم في كثير من الأحيان يمثلون أبناء قبيلة واحدة؛ كمحلة الدوريين أو العانيين والشويخ، وغيرهم، ويعود سبب تجمعهم إلى تعرض بغداد للإبادة التامة في أيام الأوبئة أو الفيضانات أو الحروب والمجاعات، فتنزح هذه القبائل من أطراف العاصمة إلى قلبها كبدائل للسكان الأصليين، وقد تهدم مساجد البغداديين بعد خلوها من أهلها وتسكين اليهود أو النصارى بدلهم، ومن أشهر المحلات النصرانية عكد النصارى الذي يمتد من حافظ القاضي إلى الشورجة، وكان يُعتبر مسكنًا للرحالة الأجانب والقنصليات الأوروبية، وسكن فيه أول قنصل فرنسي قبيل الحرب العالمية الأولى والقنصل الأمريكي، ومدير شركة النفط الأمريكية، ومدراء الشركات البريطانية[2].

ومما يميز (الحارات) المحلات البغدادية روح الشجاعة البدوية العربية والغيرة الإسلامية، فلا يمكن للغريب الدخول إلى أي محلة دون التعرض للأسئلة من أبناء تلك المحلات، عن سبب الزيارة، فهو إما زائر مرحَّب به حتى يتم إيصاله إلى مبتغاه، أو غريب لا شغل له فيُطرَد، وقد وصفت المس بيل حمية ثوار بغداد عام ١٩٢٠م بأنها إسلامية، عكس شيعة الفرات الأوسط فإنها كانت عشائرية.

ومما زان الحركة الوطنية في بغداد ضد الاحتلالات هو تسابق أشقياء المحلات في تسجيل المواقف البطولية ضد المحتل، دون المبالاة بالموت حتى لا يقال: إن المحلة الفلانية ليس فيها أشقياء، وكلمة شقي في هذا العهد تعني الشجاع، وحامي المحلة، وقائد رجالها الميداني، لا المدلول اللغوي المعروف.

---

(١) الوردي، لمحات ج٥م٢ص٨.
(٢) أبو طبيخ، مذكرات بغداد، ص٣٥٤.

ومما حفظته لنا الذاكرة البغدادية عن محلة خضر إلياس ما قام به بطلها عبدالمجيد كنة في مقاومة المحتل وجيش الليفي، ومنع المساس بالرموز الوطنية الدخيلة على محلته؛ حتى استُشهد معه مجموع من أبطال محلته بعد تهريب الدخلاء إلى قبائل الجبور جنوب بغداد لحمايتهم، الأمر الذي ذاع صيته (عبدالمجيد كنة) في محلات بغداد، وأخذ أشقياء بغداد في ضرب الدوريات البريطانية والشبانة والليفي حتى ضاق بهم المحتل ذرعًا، ودعا وجوه بغداد من أهل السنة للمفاوضة، وطرح نوع الحكم الذي يرغبون به، فضلاً عن إقامة الفواتح (مجالس العزاء) لشهداء محلة خضر إلياس وعبدالمجيد كنة في جميع محلات بغداد، وصار الأطفال يتغنون باسمه[١].

أما عن النهاية المأساوية لأسطورة البطولة البغدادية -الأشقياء- فبدلاً من أن تستثمر الحكومة القاسمية نخوتهم الأصيلة، كما حدث إبان ثورة العشرين، وتوجيهها الجهة الصحيحة قامت بالقبض عليهم، وضمانًا لعدم إثارتهم القلاقل ضد الدخلاء الجدد من الشيعة الذين أسكنهم قاسم في محلات اليهود قلب بغداد القديم، قام بحقنهم بحقن أصابتهم بشلل دائم، وقد التقينا بأحدهم وهو على كرسي الشلل يتحدث بشموخ عن شجاعة جده في تطوعه لمرات عديدة في الجيش العثماني، حتى ذهابه دون عودة في حرب القرم العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى، ثم يذكر والده مع كوكبة من أشقياء محلته للتطوع وذهابهم للحرب في فلسطين ضد الاحتلال الإسرائيلي، ومما أتحفنا بذكره أن أشقياء المحلات البغدادية كانوا لا يتعرضون للضعفاء في شجاراتهم، بل يسعون لحمايتهم، وإبعادهم عن المشاكل، ويضبطون الأمن في حاراتهم ويحترمون الكبير حتى لو اعتدى عليهم والعبارة البغدادية المشهورة بالعامية (أنت بكد والدي ما أكدر أمد أيدي عليك) أي: أنت بعمر والدي، فلا أعتدي عليك بالضرب.

الأمر الذي كان يفتقده تمامًا جيش الليفي من النصارى واليهود والشبانة الشيعة[٢]، وهم نواة جهاز الشرطة بعد دخول المحتل البريطاني، أي وبشكل أوضح لم تعرف بغداد الهدوء إلا بنظام حاراتها الاجتماعي، فلما سعى عبدالكريم قاسم إلى ضرب ذلك النسيج الاجتماعي انفض عقد الأمن، وسادت الفوضى الاجتماعية في بغداد، وزادت الحكومات من أجهزتها القمعية للحصول على التأييد الشعبي!.

---

(١) الوردي، لمحات، ج٥م٢ص١٩-٢٠.

(٢) الوردي، لمحات، ج٥م٢ص١٠٤.



وبالرغم من تلك الضغوطات التي تعرضت لها منظومة التعايش السلمي للمجتمع البغدادي، إلا أن العادات العربية البغدادية الحميدة بقيت متأصلة فيه حتى عام ٢٠٠٣م.

ثانيًا: الناحية الاقتصادية لمدينة بغداد:

هيمنت الناحية الاقتصادية على المرويات التاريخية التي تناولت الحديث عن مدينة بغداد منذ فجر التاريخ، فهي قبل كل شيء من أوائل المدن العراقية نشوءًا، وكانت تمثل الزراعة طابعها الأبرز؛ كونها من صنوف المدن النهرية حتى مثلت إحدى المقاطعات الزراعية لمملكة إشنونا ومخزنًا لغلتها، وفيها اكتشف أول قانون في التاريخ البشري الذي يميزه طابعه الاقتصادي بالدرجة الأولى في الوقت الذي كانت معايير الاقتصاد العالمي تُقاس بمستوى خصوبة الأرض ومدى القدرة على استغلالها(١).

هذا فضلاً عن موقعها الجغرافي المميز الذي يتوسط قارات العالم القديم الثلاث وملتقى عوالمه، وقد أوجزت النصيحة التي قدمها صاحب بغداد للخليفة أبي جعفر المنصور عندما أراد استشارته في اختيار موضع بغداد عاصمة له، كل تلك الإشارات الاقتصادية التي ميزت هذه المدينة عما سواها، بقوله: «الذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج (مقاطعات) في الجانب الغربي طسوجان، وهما قطريل وبادرابا، وفي الجانب الشرقي طسوجان، وهما نهر بوق وكلواذى فأنت تكون بين نخيل وقرب الماء فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته، كان في الطسوج الآخر العمارات، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات، وتجيئك طرائف مصر والشام، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في تامرا حتى تصل إلى الزاب، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة. وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وخربت القناطر لم يصل إليك عدوك، وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل»، فضلاً عن وصف بغداد قبيل الفتح الإسلامي بأنها سوق عامرة يرتاده التجار من جميع أنحاء العالم(٢).

---

(١) الهاشمي، رضا جواد، القانون والأحوال الشخصية، سلسلة حضارة العراق، ج٢ص٧٥؛ الأعظمي، الدول الفارسية، ص٣١.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ج١ص٤٥٧.

وقد أثرت الجوانب السياسية والعسكرية في الاقتصاد البغدادي بشكل كبير جدًّا، وهذا ما سنلاحظه من خلال تناول الحقب التاريخية للمدينة كما يأتي:

أولاً: اقتصاد بغداد بين عامي ١٤٥-٦٥٦هـ:

أ- الزراعة:

عُني الخلفاء العباسيون الأوائل بتنمية الثروة الزراعية، فأقاموا المبازل وشقوا الترع والأنهار، وزاد إنتاج المدينة بعد تحسين ريها، ومن أشهر أنهار بغداد العباسية نهر كرخيا الذي تخترق روافده شوارع المدينة في عقود وثيقة من أسفلها، ومحكمة بالآجر من أعلاها، وصُمِّمت بحيث لا ينقطع ماؤها في جميع أوقات السنة، فضلاً عن نهر الدجاج ونهر طابق ونهر عيسى الأعظم[١] الذي يستمد معظم مائه من الفرات، ويتفرع عنه نهر الصراة الذي يصب في نهر دجلة، ونهر المهدي[٢] وغيرها من الأنهار العباسية، وفضلاً عن تلك الأنهار عُني العباسيون بالأساليب العلمية، لتطوير المنتج الزراعي نوعًا وكمًّا، وفي حديث متصل صُنِّفت الأرض البغدادية من الناحية القانونية ملكًا للدولة على وفق نظام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في تصنيف الأراضي المفتوحة، وأقر الخلفاء العباسيون السكان الأصليين من أصحاب تلك الأراضي عليها ليستثمروها ويؤدوا خراجها[٣]، ونهى الخلفاء عمال الخراج عن إلحاق الأذى والجَوْر بالمزارعين، ومن يخالف يُعزل ويُعاقب[٤].

ومن صنوف الأراضي الأخرى صنف الإقطاعات الزراعية[٥]، وفيها يقطع الخليفة عماله وقادته الإقطاعات الزراعية لتعميرها، ومنها إقطاع البرامكة أرض الشماسية، وإقطاع المنصور للعباس بن محمد بن علي بين الصراتين (نهرين في بغداد)، وإقطاعات آل الحسن بن سهل من قِبل المأمون، حتى صارت هذه الإقطاعات عبارة عن بساتين عامرة طيلة أيام السنة، ومن يصل إليه البنيان يتحول إلى حي سكني يحمل ذات اسم الإقطاع الذي كان يحمل اسم صاحبه كدرب ابن دينار، ومحلة الظفيرية، وغيرها.

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج٩ص٦٦٧.
(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج٨ص٣٧.
(٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٤٣.
(٤) سليمان، الفوز بالمراد، ص٣٣، ص٢٠٣.
(٥) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٤٦.



وقد يُقطع صاحب الأرض جزءًا منها لمستفيدين آخرين؛ لقاء نسبة من المحصول، ولكي لا يتم مصادرتها بسبب عدم استغلالها، وتبقى إرثًا في ذريته. وقد يدخل صغار الملاكين الزراعيين أراضيهم في إقطاع الأمراء الكبار تهربًا من الخراج؛ ليدفعوا عنها العشر فقط، ضمن اتفاق معين مع أمراء الإقطاع.

ومن الأنظمة الاقتصادية أيضًا: شيوع نظام الضمان(١)؛ حيث يضمن شخص جمع الخراج لقاء مبلغ متفق عليه سلفًا مع الحكومة البغدادية، فيعمد الضامن إلى استخدام العنف للحصول على الضمان وأرباحه من ذلك فيخرب ما تعمر، وكانت نسبة الخراج تختلف بحسب أنواع سقي الأرض، سيحًا وعليها العشر، أم بالدولاب (الوسائط) وعليها نصف العشر، أو على الأمطار وكانت تُعفى الخضراوات والبطيخ من الخراج، وبسبب خصوبة الأرض البغدادية الرسوبية فقد كثرت البساتين فيها، وتنوعت صنوفها، ومن منتجاتها التي اشتهرت به الحنطة والشعير والتمر والأرز والفواكه، كالعنب والمشمش، والخضراوات بأنواعها، والأزهار كالنرجس والياسمين، وكذلك الجوز والموز واللوز، والقرنفل، وكذلك البطيخ والنارنج وغيرها(٢).

ب- الصناعات:

اشتهرت بغداد العباسية بتنوع الصناعات؛ كونها مركزًا للخلافة العباسية، فتقدمت صناعة حياكة الثياب من القطن والحرير، فضلاً عن صناعة العمائم والمناديل والنسيج الحريري المعروف بـ(السقلاطون)(٣)، وكذلك الثياب العتابية، وهي مصنوعة من خيوط قطنية وحريرية، وصناعة البسط كذلك من الكتان والقطن(٤).

ومما اشتهر في بغداد أيضًا دار القطن في الجانب الغربي من قطيعة الربيع، التي كانت من أكبر المراكز التجارية ذات النشاط الاقتصادي، وكذلك بالقرب من محلة العتابين دار القز لمعالجة نسيج القز، ويذكر ياقوت الحموي أن دار القز صارت كالمدينة، وعليها سور، وأنه كان يصنع فيها في زمنه الكاغد، ومنها أيضًا دار لصناعة الثوب الصفيق في قرى الخضيرة ثم تحمل إلى البلدان، أما قرية باقدار

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص٦٠.
(٢) اليعقوبي، البلدان، ص٢٦٤، ٢٩٣؛ سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٦.
(٣) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٧ص٩٥.
(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١١٨.

فقد كان البغداديون يضربون المثل بثيابها، وللخلفاء كانت تصنع من الذهب والديباج عليها صور الحيوانات البرية والطيور، وبلغ سعر بعضها ألف ألف درهم، وكان في قصر المأمون (٣٨٠٠) بساط، منها (١٢٠٠) مزركشة بالذهب[١].

وبموضوع متصل ظهرت صناعة دور الطراز التي ارتبطت بالدولة بشكل مباشر، ومن أعمالها نقش أسماء الخلفاء أو علامة مميزة تخصهم على الأثواب وتهتم بصناعة ملابس الجند ورجال الدولة، وعليها شارات الخلافة والدعاء والكتابة، كانت تُحاك بخيوط الذهب، أو نحوها من الألوان، أما الرواتب والأموال فتُصرف من بيت المال لدور الطراز ومن منتوجات دور الطراز الأخرى: الأعلام والفرش.

ومن الصناعات البغدادية أيضًا، صناعة الصابون المدهن المعطر، وكذلك صناعة الزيوت، وصناعة الورق[٢]، التي وجدت طريقها للازدهار زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد، وأصبح الورق الأبيض في متناول طلاب العلم دون عناء أو غلاء، وكان قبل ذلك يأتيهم الورق من سمرقند ومصر، وكان في بغداد قرابة المائة ورَّاق، وهي أشبه بالمطابع، وتلحقها مكاتب كبيرة أشبه (بمعارض للكتب).

وازدهرت كذلك الصناعات الزجاجية، وبلغت من الدقة والإتقان ومهارة صناعتها أن رُصِّعت بالجواهر، وكُتب عليها بالذهب المجسم، فكانت أقداحًا بديعة الصنع[٣]، وازدهرت كذلك الصناعات الحديدية والخشبية[٤]، ومنها صناعة السفن والقوارب الحربية والتجارية أو الترفيهية، وأمر الخليفة الأمين ببناء خمس سفن، وهي على خلقة الأسد والفيل والأفعى والفرس والعقاب، وأنفق أموالاً كثيرة على سفينته التي على هيئة الدولفين، الذي عرف في التاريخ (بالدابة البحرية التي تنقذ البحارة من الغرق).

ومن الصناعات الخشبية والحديدية أيضًا: ازدهار صناعة الأبواب المكتوب عليها بالزجاج الملون المحاط بالخشب الأسود والأبنوس، أو تعليق رسوم نحاسية تمثل غصونًا وثمارًا وأزهارًا، وكان لهم في صناعتها مهارة ودقة وذوق.

---

(١) سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٧، وص٣٣.
(٢) اليعقوبي، البلدان ص١٣٥.
(٣) سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٨.
(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١١٨.



كذلك من الصناعات الخشبية: صناعة النقوش التي كانت تزين السقوف، وبلغت بغداد من التطور الصناعي مما جعلها محط استثمارات الصناعات العالمية، ومنهم الوراقون المصريون والزَّجَّاجُون الخراسانيون، وصُنَّاع السفن الشاميون، وغيرهم[١].

ومما شجَّع الصناعات البغدادية أيضًا: وفرة اليد العاملة، والسوق العالمي لتصريف البضائع وتشجيع السلطة الحاكمة للمستثمرين، ودعمهم بالأموال حتى أُحصي في بغداد أربعمائة رحى مائية، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، وبضعة آلاف معمل لصنع الخزف، فضلاً عن صناعة المجوهرات؛ بسبب ازدهار الحياة الاقتصادية، وكان لكل صناعة سوقها الخاص، ومن هنا ازدهرت التجارة البغدادية، ويشير الهمداني إلى ذلك بقوله: «لقد اجتمع في بغداد ما هو متفرق في جميع الأقاليم من التجارة والصناعة، وتفردت ببعضها كالثياب البيض المروية والزجاج المحكم من الأقداح والأقحاف والكاسات، وغيرها».

جـ- التجارة:

من عوامل ازدهار التجارة البغدادية فضلاً عن الأسباب آنفة الذكر، فقد تميزت بغداد بمكانتها الإدارية على مستوى الخلافة الإسلامية أولاً، والعالم ثانيًا، يضاف إليه الروح التجارية التي جبل عليها العقل البشري لساكني الجزيرة العربية حكام بغداد العباسيين، فضلاً عمن سبقهم منذ أيام الفتح الإسلامي إلى إعلان الخلافة العباسية، الأمر الذي لم يغفل عنه الخليفة أبو جعفر المنصور في بناء عاصمته بغداد فعمد إلى إنشاء الأسواق، وإنعاش الناحية التجارية، وجعل من الأسواق صنوفًا لكل نوع من التجارة شوارعه وحوانيته المعلومة، ولا تختلط مع غيرها فكل فئة من التجار لهم سوقهم منفردين بتجارتهم، ومن يخالف يجد العقاب، وجعل سوق القصابين آخر الأسواق؛ لأنهم في أيديهم الحديد، وللخلاص من القاذورات التي تضر ببيئة المدينة.

وعُرف أول أسواق بغداد بسوق الكرخ بين نهر الصراة ونهر عيسى، وخُففت الضرائب عن التجار البغداديين تشجيعًا لهم، فكثر التجار، وتوسعت المدينة، وبُنيت الأسواق الجديدة من أموال التجار الخاصة، وبسبب إلغاء المنصور للضرائب على تجار بغداد حُملت إليها الغلات والصناعات من جميع أنحاء العالم، حتى وصل سعر الكبش بدرهم، والحَمَل بأربعة دوانق، وينادى على لحم الغنم كل

(١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٣٠.

ستين رطلاً بدرهم، ولحم البقر كل تسعين رطلاً بدرهم، والتمر كل ستين رطلاً بدرهم، والزيت كل ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم(١).

وبسبب هذا الأمن والرخص ازداد سكان بغداد، وازدهرت الأسواق حتى إن المارَّ لا يستطيع أن يجتاز أسواقها لكثرة زحام أهلها، ولا يختلف الأمر في غرب بغداد عن شرقها فقد اشتهرت في رصافة بغداد أسواق كبيرة تعكس صنوف شاغليها منها سوق الخبازين وسوق القصابين وسوق الصاغة وسوق الوراقين، وليس من أهل بلد إلا ولهم في بغداد متجر أو متصرف(٢)، وبسبب جريان دجلة والفرات جلبت لهم التجارة برًا وبحرًا، فحملوا الحديد من خراسان، والرصاص من كرمان، والآنية والتوابل من الهند، والنسيج الملون من كشمير، والعود والمسك وسائر العطور من الصين واليمن، والذهب والأبنوس من إفريقية، والكافور والعود والثياب القطنية من السند، والياقوت من سرنديب، والماس والدر واللؤلؤ والمرجان من سواحل الخليج العربي، والجلود من بلاد الروم، والسلاح والحديد من بلاد الروس، وسفن الخضراوات والدقيق من سوريا، في الفرات ثم نهر عيسى، ومن بلاد ما وراء النهر القطن والمنسوجات الحريرية والملابس الصوفية والفرو، والأسلحة والكاغد، ومن أرمينية البسط والطنافس والسجاد، وثياب الكتان والثياب الرقاق والطيالس من الصوف والقلانس، وكانت تُجلب من مرو أجود أنواع البطيخ في قوالب الرصاص المعبأة بالثلج(٣).

د- طرق التجارة:

أما عن طرق بغداد التجارية بصفة عامة؛ فأبرزها: طريق شرقي حلوان، ثم فارس، وأواسط آسيا وما تلاهما، وطريق شمالي إلى الموصل والجزيرة وما تلاهما، وجنوبي إلى واسط ثم البصرة، ومنها إلى أنحاء العالم بحرًا، وجنوب غربي إلى الكوفة، ومنها إلى الجزيرة العربية حيث ينتهي إلى الحجاز، وطريق غربي إلى الرحبة، ومنها إلى سوريا فمصر وما تلاها.

ووضح الرحالة المسلمون طرق التجارة البغدادية برية كانت أم بحرية، ووصفوها بأن التجارة العربية كانت تبدأ من بغداد زمن الخلفاء العباسيين، ثم البصرة، فالخليج العربي وصولاً إلى شبه جزيرة

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ص٤٥٩؛ الخطيب، تاريخ بغداد، ج١ ص٧٠؛ العلي، صالح أحمد، معالم بغداد، ص٢٠.

(٢) اليعقوبي، البلدان ص٢٣٤.

(٣) زغروت، النوازل الكبرى، ص٥٢.



ملقا (الملايو)، وكانوا يمرون بعدة موانئ تمكنهم من ابتياع بضائع الهند والصين وغيرهما، وكان سوق خضير في الرصافة تُباع فيه طرائف المنتجات الصينية[١].

هـ- المعاملات المالية:

ومن المظاهر الاقتصادية أيضًا (الجهابذة)[٢]، وهم أصحاب بيوت المال التجارية في بغداد (البنوك الأهلية)؛ حيث تقبل الودائع وتقرض القروض، وتتوسط بين الناس ودار الضرب، وتتاجر في المعادن النفيسة والسندات، وفي غالب الأحيان تسند إليهم مهمة جباية الخراج، ويساهمون في تنظيم بيت المال لخبرتهم الواسعة، وهم في طبيعتهم مستقلون عن الوظائف الحكومية غالبًا، وقد منع المنصور خالد البرمكي من استغلال الجهابذة لحسابه الخاص، وغرم لذلك مبلغًا من المال بسبب إيداعه عند الجهابذة لغرض النفع مستغلاً منصبه الوظيفي، فكان هدف المنصور هو إبعاد أصحاب المناصب المؤثرة في القرارات العامة عن تنظيمات المجتمع الاقتصادية المستقلة، وقد صادر الرشيد من بعده ما قيمته أكثر من ثلاثين مليونًا من آل برمك لمّا نكبهم، وهم -الخلفاء- لم يكونوا ليمنعوا غيرهم مما يحلونه لأنفسهم فقد ورد عن المنصور أنه خلف في خزانة الدولة للخليفة المهدي (أربعة عشر مليون دينار ذهبي وستمائة مليون درهم فضي)، وكان ذلك في العصر الأول الذي شاهدنا فيه القيمة الشرائية للعملة الإسلامية، ولما شعر الخليفة العباسي المنصور بدنو أجله استدعى ولي عهده المهدي، وقال له: «عليَّ دَيْن أحب أن تقضيه وتضمنه وقدره ثلاثمائة ألف درهم ونيف، ولست أستحلها من بيت المال فاضمني عنها»[٣]، ومن هذا النص يمكن أن نفهم وبشكل مبسط السبب الرئيس وراء التطور الاقتصادي الذي شهدته العاصمة بغداد في ظل الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول.

وبسبب ازدهار التجارة البغدادية عالميًا، وظهور الحاجة إلى طرق معاملات نقدية أكثر سهولة وأمانًا، ظهرت (السفاتج)[٤] (الحوالات المالية)، وهي حوالات ذات قيمة مالية معينة قابلة للصرف في أيّ مكان من عملاء الشخص الذي له السفتجة، أي تدفع النقود في أي بلد مقابل سفتجة بقيمتها

---

(١) سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٩.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢ ص٢٢٦.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ج٨ ص١٠٤.

(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج١ ص٣٠١.

المالية، وتحمل في الترحال الطويل بأمان، وهي لا تُسرق؛ لأنها لا تُصرف إلا لصاحب السفتجة فقط؛ بغية إنجاز عملياتهم التجارية، واستخدمت الخلافة العباسية السفاتج حتى في تحويل أموال الجباية.

ومن المعاملات المالية الأخرى الصكّ (الشيك)؛ فقد كان يثبت فيه قيمة القرض أو الاستحقاق وموعد استحقاق صرفه، وكان الجهابذة يصرفون الصكوك لأصحاب الأموال المودعة لديهم نظير مبالغ معينة، ومن الطبيعي لإثبات صحة الصك يسجل عليه شاهدان، وختم الجهبذ أو يُستعاض عنه بضامن يدفع قيمة الصك في حال عجز المقترض عن سداد المبلغ، ولا غرابة إذا علمنا أن رواتب الموظفين الرسميين للخلافة مثل الجند والشرطة وغيرهم كانت تُصرف في صكوك يوقِّع عليها رؤساء دواوينهم[١].

أما عن أصل تلك النقود فقد كانت تتعامل بغداد بالدرهم الفضي والدينار الذهبي التي تُسَك في دور الضرب، وظهر أيضًا أجزاء لتلك العملات منها مثلاً الربع والخمس والسدس والثلث للدينار والدرهم، كذلك ضرب الخلفاء العباسيون مضاعفات للعملة مثل دينار بقيمة دينارين حسب الوزن والجودة، وضرب أيضًا في عصر الرشيد دينار وزنه (مائة دينار ودينار) كتب على أحد جوانبه:

يزيد على مائة واحدًا إذا ناله معسر ييسر

ومما شاع عن الأجزاء أيضًا للعملات البسيطة القيراط والحبة، والدانق والطسوج، والفلوس والنحاس، كذلك نظام المقايضة[٢]، ومن المعلوم تاريخيًا أن اختلاف وزن ونقاوة المسكوكات الإسلامية تبعًا للاستقرار السياسي والعسكري والاقتصادي للبلد، وبسبب بذخ الخلفاء وازدهار الحالة الاقتصادية في بغداد نزح الشعراء والعلماء والأغنياء وقادة المجتمعات إليها لمجاورة الخلفاء وللحصول على أعطياتهم[٣]، لكن لم تكن الحياة الاقتصادية البغدادية زمن الخلافة العباسية لتخلو من المنغِّصات التي رافقت في غالبها الاضطرابات العسكرية التي شهدتها المدينة، والتي كان ابتداؤها في حروب الأمين والمأمون، وانتهاؤها بالغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية.

---

(١) سليمان، الفوز بالمراد، ص٤٠.
(٢) سليمان، الفوز بالمراد، ص٤٣.
(٣) هدى، تاريخ الحضارة ج٩-١٠ص٨٩.

التحديات الاقتصادية:

١- يعتبر عهد المأمون أولى عهود التخريب التي طالت أسواق المدينة بعد نهبها، فضلاً عن مصادرة أموال المؤيدين للخليفة الأمين، على حساب زيادة الحضور الاقتصادي لآل سهل الفرس.

٢- وفي عام ٢٠٢هـ لما عجز إبراهيم بن المهدي عن سداد مرتبات جند بغداد، اضطرب الجند ونهبوا كل شيء مروا عليه[(١)].

٣- تعرضت بغداد على يد الجند الترك لسرقة الأموال وتخريب الأسواق زمن الخليفة المعتصم بالله، حتى اضطر الخليفة إلى نقل العاصمة إلى سامراء، وقد لعب العلماء الحنابلة دورًا بارزًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوجيه العياريين والشطار إلى حماية مدينتهم، ونشر العادات العربية والإسلامية الأصيلة بدل الفتك بالتجار وسرقة الأسواق، وقد حصل بذلك استجابة كبيرة وعمت بهم الفائدة.

٤- اشتداد الحرب بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني عام ٣٣٥هـ داخل مدينة بغداد، ودارت رحى حرب طاحنة بين الطرفين، فكانت المجاعة ونهب البويهيون المدينة، وخربت المعالم والأسواق، وانتشر اللصوص، وقُدرت خسائر بغداد في هذه الحرب بعشرة ملايين دينار ذهب، أي بما يعادل خزانة الخلافة بأجمعها، وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على القوة الاقتصادية الهائلة لهذه المدينة[(٢)].

٥- عجز المعز البويهي عن سد العجز الحاصل في مرتبات الجند؛ نتيجة تحريمهم الجهاد، فعمد المعز إلى اغتصاب أموال الأغنياء والملاكين وأصحاب المزارع، ووزع الإقطاعات على قادته للاستفادة من غلتها لصالح الجند الديلمي الباطني، وبلغت المصادرة حتى أراضي الخليفة العباسي الشخصية، ومن المفارقات أنه في الوقت الذي يعجز فيه المعز البويهي عن سداد مرتبات الجند بنى له قصرًا في الشماسية بلغت تكلفته المليون دينار ذهب، ولإشباع جشعه ضمن مؤسسات الدولة كافة ومنها الحسبة والشرطة والقضاء، وقد كان عبدالله بن الحسن بن أبي الشوارب أول من ضمن القضاء في الإسلام الذي بلغ مائتي ألف درهم سنويًا[(٣)].

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج٨ص٥٥٧.

(٢) الأعظمي، الدول الفارسية ص٥٩-٦٠.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ج١١ص٤١.

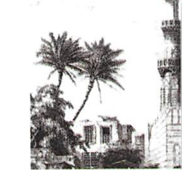
٦- جاء في عام ٣٦١هـ إلى بغداد فريق كبير من المسلمين مستعرضين ما فعله الروم في الجزيرة ونصيبين، فثار العامة يريدون الحرب، وطلب عز الدولة البويهي من الخليفة مالاً لتجهيز الجنود فرد عليه الخليفة «تلزمني النفقة على الحرب إذا كانت البلاد في يدي وتجبى إليَّ الأموال، أما إذا كان حالي هذه فلا يلزمني شيء، وإنما يلزم من في يده البلاد، وليس لي إلا الخطبة، فإذا شئتم أن أعتزل فعلتُ»، ولكن ألزم عز الدولة البويهي الخليفة بجلب المال وهدده بالقتل، فباع الخليفة أنقاض قصره القديم وأثاثه وثيابه، وجمع أربعمائة ألف درهم، لكن صرفها عز الدولة البويهي على مصالحه وملذاته الشخصية، وانقطع الحديث عن حرب الروم في بغداد[١].

٧- وعندما تولى جلال الدولة البويهي الإمارة في بغداد بين عامي ٤١٦-٤٣٥هـ تميز عصره بكثرة الاضطرابات، والسرقة والنهب، وثورات الجيش، وطغيان الجند الديالمة حتى حاول سكان بغداد ترك المدينة، لكنهم عجزوا عن ذلك؛ لكثرة انتشار قُطاع الطرق الذين وصلت غاراتهم لبساتين المدينة وداخلها، ووصلوا إلى جامع المنصور، ومما يميز فترة التسلط البويهي كثرة الفتن والاضطرابات والاقتتال داخل مدينة بغداد، وأحرقت الأسواق بعد نهبها وقتل العلماء، ومنهم مدرس الحنفية أبو سعيد الرحبي، واحترقت دور الفقهاء وقبور الخلفاء وبني بويه، فضلاً عن اندثار الأنهار، وخربت الزراعة، وهاجر الصناع، وانتشر اللصوص الذين قطعوا طرق التجارة حتى عانت هي الأخرى من الركود[٢].

ثانيًا: اقتصاد بغداد في الاحتلال المغولي:

لا يمكن الحديث عن بغداد من الناحية الاقتصادية أو من جميع النواحي الحضارية بعد الغزو المغولي بموازاة حديثنا عنها أثناء الخلافة العباسية؛ إن المدينة لم تعد كسالف عهدها من حيث الأمن السكاني بعد تلك المجازر، وما يرافق ذلك من انحدار في جوانب الحياة كافة، فقد اندثرت الأنهار وهاجر السكان، وخربت الأسواق، وضعفت التجارة بسبب الحروب، ولا يكاد يحفظ لنا التاريخ المغولي نشاطًا اقتصاديًّا كسابقه في العهد العباسي قاموا به في مدينة بغداد سوى ما قام به الوالي عطا ملك الجويني الذي شجَّع الناس على العودة إلى المدينة بعد تأمينهم، ولجم اعتداءات الشيعة والنصارى

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧ص٣٠٣.
(٢) الأعظمي، الدول الفارسية، ص٩٣ و٩٨.



على المسلمين وقام بكري بعض الأنهار التي اندثرت لزيادة خراج المدينة بعد تحسن الناحية الزراعية والأمن السكاني[١]، وهذا لم يستمر طويلاً، وانتهى بانتهاء ولاية الجويني على المدينة، ودخولها في إطار فوضى اجتماعية كبيرة بسبب انتهازية الأقليات الدينية والقومية فضلاً عن فداحة الضرائب.

لم يحدث المغول - الإيلخانيون والجلائريون - تغيرات كبيرة على نظام الأراضي التي كان يعمل بها في العصر العباسي الأخير، فقد ظلت أصناف الأراضي؛ أراضي الخليفة، وأراضي الديوان، وأراضي الوقف، والملكيات الفردية كما هي، باستثناء التسميات فقط[٢]، وبقيت الدولة هي المالكة القانونية الرئيسة لمعظم الأراضي، ولكن ربح الأرض سار إلى وجهة جديدة من بيت المال العام إلى بيت المال الخاص، وهذا النظام أخذ به القره قوينلو والآق قوينلو.

ويمكن القول باطمئنان: إن النشاط الزراعي في ظل الفوضى السياسية والحروب والسياسة المالية الجشعة لحكام التركمان، وإهمال أنظمة الري قد تقلص كثيرًا فتناقصت مساحة الأراضي الزراعية لمصلحة التصحر والمستنقعات، وانحسر النشاط الزراعي تدريجيًّا بالمدن الرئيسة وأطرافها لأسباب أمنية، ولتلافي مشكلات النقل، كما أن الناتج الإجمالي للوحدة الزراعية قد تناقص أيضًا، ومع أن المؤرخ الغياثي ينوِّه إلى أن (الغلال كانت في بغداد في بعض السنين كثيرة)[٣]، ورغم ذلك فإن ذلك لا يعطي مؤشرًا على حدوث تحسن في الإنتاج الزراعي، ولكنه قد يكون مؤشرًا على انخفاض الطلب على الناتج الزراعي نتيجة لتناقص السكان.

وبصورة عامة بقيت الزراعة هي محور النشاط الاقتصادي للغالبية العظمة من السكان، لوجود نهر دجلة الذي يشق المدينة، ويقسمها إلى جانبين شرقي وغربي، كذلك قرب نهر الفرات منها جعل كل من دجلة والفرات عاملاً أساسيًّا في انتشار القرى الزراعية الكثيرة فيها، وبالرغم من أن الرحالة الإيطالي جوزيف باربارو عام ١٤٧١م يشير إلى (التوسع في زراعة أشجار الفاكهة، وكان قسم كبير من الإنتاج يصدر كفاكهة مجففة من بغداد إلى فارس)[٤]، ولكن هذا الرحالة يقول عن بغداد أيضًا :

---

(١) اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٥٤م، ج٤، ص٢٢٥.

(٢) العاني، المجتمع والسلوك، ص١٨٧؛ قداوي، تاريخ العراق، ص٢٢٠.

(٣) التاريخ الغياثي، ص٢٨٠، ٢٨٢.

(٤) قداوي، تاريخ العراق ص١٩٠.

«كانت في الماضي مدينة مشهورة، هي الآن خربة إلى حد كبير»[١].

والخراب لم يطل مبانيها فحسب، بل اقتصادها ومنه الزراعة، وهذا ما يؤكده ابن تغري بردي (ت ١٤٦٩م) فيقول: (وجف أكثر نخلها زمن الشاه محمد بسبب تخريب قنوات الري، لكن وفي كل الأحوال بقيت المناطق المحيطة بالمدينة عامرة زراعيًا، بسبب إبعادها نوعًا ما عن مركز الصراع في المدينة)[٢]، وأشار إلى ذلك الغياثي أيضًا ضمن أحداث سنة ١٤٤٥م فيقول: «كان ببغداد غلال وخيرات وأجناس لا حد لها ولا حساب»[٣]، وكانت بغداد تنتج القطن ويجري في كل سنة احتفال بزراعته، ويعتمد على حاصله في صناعة المنسوجات القطنية التي اشتهرت بها بغداد، واكتسبت منسوجاتها هذه شهرة واسعة في بلاد الشام ومصر، كما ظهر في بعض المصادر المملوكية.

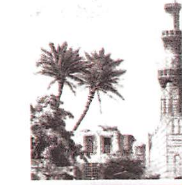
وعلى الرغم من محاولات الإصلاح التي قام بها بعض السلاطين، مثل محمد بن قره يوسف، والسلطان حسن الطويل، والسلطان يعقوب، والسلطان أحمد بن الآق قوينلو، وسبقهم في ذلك عطا ملك الجويني عند المغول إلا أنهم كانوا يذهبون ضحية محاولاتهم الإصلاحية، ومنهم عطا ملك الجويني الذي تعرض في مرات عدة للسجن والتحقيق، وكذلك مقتل السلطان أحمد نتيجة لذلك[٤]، فضلاً عن استشهاد القاضي عيسى الساوي على يد كبار الملاكين وقائد الجيش صوفي خليل بسبب محاولته تنظيم خراج الأراضي الزراعية للاستفادة من عائداتها والحد من عمليات السرقة[٥].

الصناعة:

لم تنج الصناعة البغدادية من الكوارث التي حاقت بجوانب الحياة الاقتصادية المختلفة، فقبل احتلال القره قوينلو للعراق كان تيمورلنك قد انتقى أمهر حرفيي وصُناع بغداد وهجَّرهم إلى سمرقند لغرض إقامة نهضة صناعية وعمرانية فيها على أيدي حرفيي بغداد، وذلك من سنة ١٣٩٢م، ومن بقي منهم أصابتهم أضرار كبيرة بسبب تعسف حكام القره قوينلو بعد احتلالهم بغداد[٦].

---

(١) رحالة أوربيون في العراق، تنكو اينهولت، ص١٨٤.
(٢) تاريخ، ص٢٨٢.
(٣) التاريخ الغياثي، ص٢٨٢.
(٤) اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٣٥٣.
(٥) العزاوي، تاريخ العراق، جـ٣، ص٢٦١.
(٦) قداوي، تاريخ العراق، ص١٨٣.



ومع ذلك فقد حافظت الكثير من الصناعات على نشاطها النسبي، ومنها صناعة المنسوجات، ولاسيما القطنية منها، ويرجع ذلك لتوافر المقومات الأساسية لهذه الصناعة، والمتمثلة بتراكم الخبرة الفنية منذ العهود العباسية، واعتدال المناخ فيها، وخصوبة الأراضي المحيطة بها والصالحة لزراعة القطن، فضلاً عن موقعها الجغرافي الذي جعل منها مركزًا تجاريًا مهمًّا لهذه الصناعة لكن اقتصر إنتاجها على البيوتات المحلية بعد أن غابت عنها المصانع الحكومية التي كانت تنتج الأقمشة الفاخرة، ومع ذلك فقد حافظت هذه البيوتات على جودة الإنتاج، مما جعل منتوجاتها مرغوبة فيها في الأسواق الخارجية، سيما في بلاد الشام ومصر، فهذه البلاد كانت تستورد كميات كبيرة منها(١).

ومن الصناعات الأخرى: صناعة المجوهرات التي لم تندثر في بغداد، وصناعة الحديد والخشب ومواد البناء والأسلحة والسفن(٢)، ولا تكاد تخلو قرية من طاحونة حجرية تُدار بالماء، وصناعات السكر والجلود.

وأخيرًا كل هذه النصوص لا تنقض فرضية التدهور الكبير في صناعات العراق في هذه الفترة، فكثير من الصناعات لم يعد لها ذِكر في حين كانت بغداد تشتهر بصناعتها في القرن الثامن الهجري كالورق ذي النوعية الجيدة الذي كان ينتج في بغداد، واعتبر أفضل من الورق السوري والمصري، وكذلك الأواني الزجاجية النفيسة، وغيرها(٣).

التجارة:

تدهورت تجارة العراق في هذه الحقبة تدهورًا كبيرًا(٤)، وهناك أسباب عدة لهذا التدهور، منها فقدان الأمن على الطرق التجارية العصب الرئيس للتجارة البغدادية؛ بسبب جور الحكام، وطغيان اقتصاد المقايضة، فلم يحدث من قبل - ومنذ أن فتح المسلمون العراق - تراجع البلاد إلى اقتصاد طبيعي ذي مستوى منخفض، كما حدث في عهد التركمان، ولا بد أن فقر السكان العام أدى إلى تقلص التجارة، ويشهد على هذه الأحوال أن قِطَع النقود التي وصلت إلينا من أيام حكم القره قوينلو والآق

---

(١) الفيل، الحالة الاقتصادية، ص٣١٢.

(٢) الغياثي، التاريخ، ص٢٥٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص١١٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٢، ص٤٨٧؛ اشتور، الحياة الاقتصادية، ص٣٤٠.

(٤) الغياثي، تاريخ ص٣١٧ وص ٣٩١.

قوينلو محدودة جدًّا، فضلاً عن ثقل الضرائب وجشع القائمين على استحصالها[١].

وعلى الرغم مما قيل بأن حسن الطويل قد قلل من عملية التراجع لمعظم فروع التجارة عن طريق تخفيف ضريبة التمغة إلى النصف[٢]، فإن هذه الضريبة بقيت مرتفعة جدًّا قياسًا لما كانت عليه زمن الإيلخانيين، والتي كانت أقل من ذلك بكثير، وإجراءاته هذه لم يستمر العمل بها طيلة عهد الآق قوينلو، ففي عهد السلطان مراد استغل أتباعه التجارة بمختلف الطرق، وببساطة أنهم سلبوا التجار بضائعهم.

على الرغم من أن بغداد زمن الجلائريين كانت تضم أسواقًا كثيرة، فإن معظم هذه الأسواق قد غاب ذكرها في حقبة (القوينلو)، بل هناك من يذكر أن بغداد زمن أسبان لم يعد فيها أسواق وليس بها إلا ثلاثة أفران، وهذا يعني أن بغداد فقدت مركزها الكبير الذي كانت تشتهر به من قبل في النشاط التجاري العراقي والعالمي، وفي عهد الآق قوينلو لم تجرِ محاولات لإنقاذ وضع المدينة، فقد وُصِفَتْ على لسان شاهد عيان وهو جوزيف باربارو بأنها « خربة إلى حد كبير»[٣].

ومع ذلك فإن مزاولة عدد من سكان المدينة مهنة التجارة واستمرار بعض من خاناتها كخان مرجان (الاروتمة)، وإلى فترات لاحقة تعمل كمنشآت تجارية، واستمرار إنتاجها لبعض الصناعات كلها علامات تدلل على وجود حركة تجارية شهدتها المدينة، ولكن في أدنى مستوياتها[٤].

وفضلاً عن مشاكل التجارة البغدادية الداخلية بسبب التسلط التركماني مُنع التجار البغداديون من البيع بالآجل في بلاد الشام لكي لا يزداد ربحهم، وألزم السلطان المملوكي المصري تجار بغداد الموجودين في مكة بلزوم التوجه إلى القاهرة قبل العودة إلى بغداد بتجارتهم[٥]؛ لاستحصال الرسوم الضريبية الإضافية، ولكي لا يتمكن التاجر البغدادي من رفع مستوى أرباحه بعد أن ترتفع أسعار البضائع بسبب طول المسافة بين مكة والقاهرة فبغداد، ووصل الأمر بالمماليك حكام مصر والشام أن

(١) اشتور، الحياة الاقتصادية، ص٣٥٣؛ قداوي، تاريخ العراق، ص١٨٩.

(٢) الغياثي، التاريخ، ص٣٩١.

(٣) اشتور، الحياة الاقتصادية، ص٣٥٨.

(٤) بكنغهام، جيمس، رحلتي إلى العراق سنة ١٨١٦م، ترجمة، سليم طه التكريتي، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٨م، جـ١، ص١٩٧، ٢١٥.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٣١٠. الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ٣، ص٣٣٨.



أجبروا بعض التجار البغداديين على بيع منتجاتهم ومنها الألبسة البغدادية الشهيرة بأبخس الأثمان وبالقوة[١]، وكانت الجمال المحمَّلة بالبضاعة المكية والمتوجهة إلى القاهرة فبغداد يتم جردها على طول الطريق في محطات مملوكية لمنع تسريب إحداها بطريق مباشر إلى بغداد[٢]، مما أسهم في عزل بغداد عن أخبار محيطها العربي، بسبب الإجراءات المملوكية وتعزيز الصلات الفارسية والشرقية عمومًا، الأمر الذي زاد من حظوة التجار الفرس لدى حكام بغداد، علاوة على أن بلاد فارس وأذربيجان كانا جزءًا من الدولة المغولية فالجلائرية وصولاً إلى الصفوية.

ولكن يبقى العامل الجغرافي (الترانزيت) العامل الرئيس في استمرار التجارة البغدادية؛ كونها كانت الرابط البري والبحري بين شرق وغرب العالم القديم، وأصدق دليل على الضعف الاقتصادي للحكومات المحتلة بعد الخلافة العباسية هو سيادة نظام المقايضة، وتداول السكان لنقود مختلفة السك والبلدان كما جرى تداول نقود تعود لعهود سابقة منها عباسية، كما أن النقود الفارسية والمملوكية هي الأخرى كان يجري التعامل بها في العراق، وكان هناك ذكر للآقجة[٣] العثمانية في التعامل المالي لدولة الآق قوينلو، فبعض الضرائب كالضريبة المفروضة على أصحاب الجواميس جرى استحصالها بالآقجة، واعتمد الآق قوينلو في تعاملهم المالي على البارة، حيث استخدموها على نطاق واسع[٤].

والبارة بالأصل عملة تيمورية، وقد وضع حسن الطويل اسمه على هذه العملة دون سكها من جديد، فكان على الوجه الأول العادل حسن بيك، وعلى ظهرها سنة الضرب ومكانه شيراز ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، وهذا يعني أن الدولة غير قادرة على سك عملة جديدة بسبب قلة الفضة والذهب والضعف الاقتصادي، لذا جرت الاستعانة بالعملة السابقة، ويلاحظ أن قيمة هذه النقود لم تكن ثابتة، بل هي عرضة للتذبذب لارتباطها، كما هو الحال في الوقت الحاضر، بطبيعة الظرف السياسي والاقتصادي للبلد، ففي سنة ١٤٣١م، وبسبب الحروب والحصار والأوبئة التي ضربت مدينة بغداد، ارتفعت الأسعار بشكل مذهل.

---

(١) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ٣، ص١٥٥.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٣١٠.
(٣) سُمِّيت العملة العثمانية بـ«الآقجة» والتي تعني البيضاء المشرقة، وكانت تُصك من الفضة.
(٤) قداوي، تاريخ العراق، ص٢٠٥.

وحدث سنة ١٤٤٥م تضخم كبير عندما فتح أحد أمراء بغداد، ويدعى شيخي بيك، خزائن بغداد وقسمها على الجند من أجل حثهم على مقاومة حصار جهانشاه للمدينة، وقد أشار إلى ذلك الغياثي قائلاً: «صارت الدراهم بسعر الفلوس في بغداد وبلغ رأس الغنم بألف دينار، وما ذاك من قلة الغنم واللحم، فكان للناس غنم ودجاج كثير يعلفونه، ولكن من كثرة الدراهم.. »، وحدث انخفاض قيمة النقد كذلك سنة ١٤٦٤م أثناء حصار جهانشاه بغداد فارتفعت الأسعار، وبيع رأس الغنم بما يوازي مائة دينار، والرطل البغدادي من الثوم بنحو خمسة عشر دينارًا[(١)].

ثالثًا: اقتصاد بغداد بين الصفوية والعثمانية:

إذا أردنا أن نصف مدينة بغداد حضاريًّا أم اجتماعيًّا أم سياسيًّا وعسكريًّا في العهد الصفوي والعثماني من التاريخ الحديث، فمن الممكن وببساطة إيجازها برسم خط بياني منحدر بقوة ٤٥ درجة يبدأ الانحدار منذ سقوط الخلافة العباسية حتى العهد الملكي المعاصر، ومهما قدم لنا التاريخ نماذج مشرقة لبعض تصرفات الولاة العثمانيين في النهوض بمدينة بغداد، فهي في واقعها لا تعدو أن تكون محاولة لتبطئة هذا الانحدار السريع، ولا يقوى على استقامة أو صعود في الجانب الحضاري للخط الزمني لمدينة بغداد.

يقول الأستاذ عباس العزاوي واصفًا هذه المرحلة التاريخية: «إن قلة الاهتمام بالحالة المعيشية والصحية للسكان، وانتشار الظلم والطبقية وكثرة الأوبئة والأمراض حتى كادت أن تكون سمات كل سنة، ساعد على قلة المعدل الإنمائي السكاني»[(٢)].

يقول الرحالة الروسي تولستوي ١٧٠١-١٧١٣م أول سفير روسي رسمي في الدولة العثمانية: «إن الشعب العربي مضطهَد من قبل العثمانيين، ومسلوب الحرية والأموال، وخائف على نفسه.. وإن الوضع الاقتصادي لرعايا الدولة العثمانية بائس ورديء».

ويصف العمري سوء الأوضاع في الدولة العثمانية: «وبيعت المناصب، وصار همّ الولاة نهب الموظفين، وهمّ الموظفين نهب الشعب، وكثرة المشاكل مع الفرس»[(٣)].

---

(١) قداوي، تاريخ العراق ص١٨٩-١٩٠.

(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج١ ص٤٣٣.

(٣) العمري، تاريخ مقدرات العراق، ج١ ص٩٨.



وفي رحلة الأب فيليب الكرملي عام ١٦٢٩م يذكر أن العرب فقراء جدًّا في بغداد بسبب السيطرة الفارسية ومجازر عباس الصفوي التي طالت المدينة عام ١٦٢٣م[١]، ويذكر لونكريك أن همّ الوالي حسن باشا الصغير هو إرجاع سكان بغداد بعد مجزرة عباس الصفوي بين عامي ١٦٢٣-١٦٣٨م، وكان أول من استقدمهم هم النصارى من الأرمن واليهود والتجار الفرس لملء الفراغ الاقتصادي للمدينة[٢]، وعليه أقطع اليهود والنصارى المحلات البغدادية بدورها ومساجدها بعد خلوها من أهلها، وهذا يفسر إلى حد كبير تمركز هاتين الديانتين في قلب بغداد القديمة، وسيطرتهم على التجارة العامة.

وإن سبب الهجرات الفارسية والأرمينية والأوروبية إلى بغداد كان لكونها مدينة عظيمة، ولا تزال التجارة فيها كبيرة[٣]، بفعل موقعها الجغرافي فضلاً عن التسهيلات التجارية التي كانت تقدمها الحكومة العثمانية للغرباء لقاء رشاوى مالية علاوة على تشكيلها كبرى المراكز التخزينية التجارية لالتقاء تجارة الشرق الآسيوي بالغرب الأوروبي، وهذا لا يعني ازدهارًا لدى التاجر البغدادي بصفته العامة؛ لأن التسهيلات كانت تُقدم للغرباء ويُستثنى منها أهل البلد.

ورأى الباحث الروسي وانتسيغ -المختص في تدوين أدب الرحلات الروسية إلى الشرق المسلم- أن جميع الولايات العثمانية أفلست في عام ١٧٧٨م بسبب ابتزاز الولاة للناس، فضلاً عن كثرة الصراعات بين ولايات الدولة العثمانية[٤]، وأن أوضاع العرب الاقتصادية فقراء قياسًا باليهود[٥] الذين يملكون بيوتًا جيدة، علمًا بأن البيوت اليهودية في أصلها كانت بيوتًا عائدة للعرب المسلمين الذين أبادتهم اجتياحات الصفويين والأوبئة والفيضانات، ليتم تمليكها لليهود بالمجان من قِبل الولاة العثمانيين استجلابًا للمستثمرين وذوي الأموال للنهوض بالواقع الاقتصادي.

ثم يوجز الحالة الاقتصادية في عام ١٨٣٢م بقوله: «إن تجارة الدولة العثمانية الخارجية كلها بيد

(١) رحالة أوربيون في العراق، فيليب الكرملي، الرحلة، ص٦١.

(٢) لونكريك، أربعة قرون، ص١٠٧.

(٣) كارستن نيبور، بغداد في رحلة نيبور، ترجمة مصطفى جواد، بغداد بأقلام رحالة، لندن، دار الوراق للنشر المحدودة، ٢٠٠٧، ص ٣٤.

(٤) وانتسيغ، الرحالة الروس، ص١٦٩.

(٥) دانتسيغ، الرحالة الروس، ص٢٠٢.

الأجانب والداخلية ست أعشارها بيد اليونانيين -من يهود الدونمة- أما عمليات تداول العملة النقدية فهي بأيدي الأرمن واليهود، وكان يعيش الفلاح العربي مثقلاً بالعبودية.. وتسلط الباشوات والأغوات وجميع رجال السلطة على سكان المدن، وعلى الرغم من انتشار البساتين الغنَّاء حول مدينة بغداد إلا أن الناس كانوا دائمًا يتركونها هربًا من ظلم الولاة، أما البدو فهم فَرِحون بحريتهم ولا يعترفون بسلطة الوالي مطلقًا»[١].

ومن التحديات الأخرى التي أضرت بالواقع الاقتصادي لمدينة بغداد يذكر منها المؤرخ عثمان ابن سند فتنة عجم محمد الفارسي الباطني، وكثرة القتل والنهب في أسواق ومحلات ودور بغداد[٢]، وكذلك يذكر الرحالة الروسي لوكيانوف عام ١٧١٣م تمرد الانكشارية في جميع أنحاء البلاد العثمانية، ونهبهم للسكان والأسواق، وإبَّان حكم الوالي العثماني الشيعي علي رضا اللازر يصف السائح والرحالة البريطاني فريزر حالة الفوضى والنهب التي وجهها ذلك الوالي ضد أحياء مدينة بغداد الشرقية وأسواقها، وبالأخص محلة قنبر علي وبيت مفتي بغداد وعالمها جميل المفتي والذي قُصف بالمدفعية، وكان أصل الموضوع هو وقوف المفتي بوجه الوالي الشيعي؛ لمحاولته سرقة أموال الأرامل البغداديات بعد وفاة أزواجهن الأغنياء ليسترجع الوالي اللازر ضمانات حصوله على ولاية بغداد بالرشا[٣].

وبسبب هذه الضمانات في شراء المناصب يرى الشيخ رسول الكركوكلي أن الثورات البغدادية ضد الحكم العثماني كانت بسبب سوء إدارة الحكم وفداحة الضرائب، الذي ساعد كما يرى الوردي[٤] على انتشار الأشقياء واللصوص في بغداد، وأصبحوا يتباهون بذلك عام ١٨٦١م.

ومن مشاهدات الرحالة الروسي جيريكوف عام ١٨٦١م واصفًا الحالة في بغداد « كان الفقر من نصيب القبائل البدوية العربية.. وكانت أرباح التجارة العثمانية تعود للشركات الأجنبية والبلاد غارقة بالديون والضرائب -التي تثقل سكانها الأصليين-»[٥].

(١) دانتسيغ، الرحالة الروس، ص٢٤٨-٢٩٨.
(٢) مطالع السعود، ص١١٦.
(٣) رحلة فريزر، ص١٢٨.
(٤) الوردي، لمحات، ج٢ص٢١٩.
(٥) دانتسيغ، الرحالة الروس، ص٣٦١.



وبالرغم من أن الرحالة جون أشر عام ١٨٦٤م يرى أن أسواق بغداد فيها البائع العربي والمسيحي - الأوروبي- والفارسي والتركي[(١)]، إلا أنه يرافقه انحطاط في جميع النواحي التي تعتري مدينة بغداد حتى أصبحت بغداد كما وصفها الرحالة تنكو آينهولت عام ١٨٦٦م عبارة عن بلدة كبيرة خربة[(٢)].

وعلى الرغم من الإصلاحات التي توصف بالكبيرة من قبل الوالي مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢م إلا أن الكاتب والباحث الإنجليزي في شؤون التاريخ العراقي الحديث لونكريك يقلل من أهميتها على مستوى ذلك العصر، ويوجزها بمد خط الترمواي بين الكاظمية وبغداد[(٣)]، واهتمام مدحت باشا بدار الحدادة، وتأسيسه محلاً لنسيج الملابس العسكرية، وهذا بدوره لا يعود على الجانب الاقتصادي بكبير فائدة، لكن الأمر لم يدم أكثر من تنحي الوالي مدحت باشا حتى عاد الوضع لما كان عليه؛ ففي رسالة بعثها (المسيو يونيون) القنصل الفرنسي في بغداد لحكومته عام ١٨٩١م واصفًا حال بغداد من تسيب الأمور، وكثرة القتلة، وخروجهم براءة، بعد دفع الرشوة للحكام، وأصبح الجند يسرقون أموال الناس والأسواق، ولا يأمن الفقراء على أنفسهم[(٤)].

وتبرز القوة الاجتماعية والمكانة الاقتصادية لحاملي السلاح، أو لمن يستطيع تحريك حرس الولاية لحماية مصالحه الشخصية بالأموال والرشا[(٥)]، ومنها استجابة الآستانة للقنصل الفرنسي في تنحية قاضي بغداد عن منصبه، أو استبدال واليها بتأييد من الحامية العسكرية للمدينة.

ويرى جميل أبو طبيخ أن عكد النصارى بين الشورجة وحافظ القاضي يعتبر مسكنًا للرحالة الأجانب والقنصليات الأوروبية؛ لأنه يتوسط المدينة، وممن سكن فيها القنصل الفرنسي قبيل الحرب العالمية الأولى، والقنصل الأمريكي، ومدراء الشركات البريطانية، في الوقت الذي وصف عمارة بغداد الأستاذ سليمان فيضي بعد عام ١٩٠٠م أن البناء في بغداد كان ينحصر بين باب المعظم وسيد سلطان علي، وباقي المدينة عبارة عن بساتين[(٦)].

---

(١) رحالة أوربيون في العراق، جون أشر، ص١٤٨.
(٢) رحالة أوربيون في العراق، تنكو اينهولت، ص١٨٤.
(٣) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٥٩.
(٤) الوردي، لمحات، ج٣ص٤٧.
(٥) فيضي، مذكرات، ص٧٠.
(٦) فيضي، مذكرات، ص٣٦.



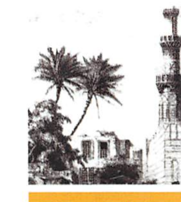
هذا يعني أن عكد النصارى كان يحتل قلب المدينة، ويشير حنا بطاطو أن في هذه المدينة شكل اليهود أغنى أغنياء بغداد، في الوقت الذي زاد فيه الإنجليز واليونانيون من شرائهم للأراضي العراقية الواسعة[١].

وفي رحلة نواب حميد يارجونك بهادر عام ١٩٠٧م يضيف نقيب بغداد الكيلاني إلى أصحاب النفوذ الكبير الذي يتمتع به[٢]، فضلاً عن الإقطاعات الواسعة والتي تدار بشكل روتيني لا دخل لها بخطط التنمية الاقتصادية للمدينة، وكان الولاة يتجنبونه، ولا يثيرون معه المشاحنات؛ لما يتمتع به من مكانة اجتماعية؛ كونه نقيب الأشراف والقائم على أوقاف الشيخ عبدالقادر الكيلاني ورئيس الطريقة القادرية الصوفية التي تستهوي قلوب الكثير من المسلمين في أنحاء العالم.

وفي حالة لإثبات الغيرة الدينية المزعومة للولاة المؤيدة من قبل جهلاء السلاطين لم يكن الولاة يهتمون لصلاة الفقراء في المساجد، ولا لاستقامتهم الاجتماعية، بل كان اهتمامهم ينصبُّ على متابعة صلاة الأغنياء، ومدى التزامهم بها؛ لأن تقاعسهم عن الصلاة يعطي الحق للوالي أن يصادر أموال الغني[٣]؛ الأمر الذي يجعل التاجر المسلم في ترقب دائم، والحذر من الوقوع في شراك الولاة، وبسبب تصرفات الولاة السابقة الذكر يرافقها بيع المناصب[٤] الاقتصادية لولاية بغداد من قِبل الولاة جعل من أصحاب الأموال فئة سريعة التغير صعودًا تارة ونزولاً أخرى، وبما أن التاجر العربي المسلم هو الوحيد المجبر اجتماعيًّا بحكم انتمائه للمجتمع البغدادي وسياسيًّا بالإجبار على صرف المعونات للفقراء والمتعففين وبناء المساجد والمدارس[٥]، وإيقاف الأوقاف، وتجهيز مؤنة الجيوش في حالات الحرب التي لم تتوقف قط، جعل منهم عرضة للإفلاس أو الهجرة، وظهور حالات المجاعة في المدينة التي كانوا هم سد أمانها، وأصيب الأمن الاقتصادي للفئات الفقيرة بالشلل، مما أدى إلى ظهور الفوضى الاجتماعية، وكثرة الغوغاء والسراق والقتلة، خصوصًا بعد تولي الاتحاد والترقي الحكم في البلاد العثمانية بعد عام ١٩٠٨م.

---

(١) بطاطو، العراق ج١ ص٢٨٩.
(٢) حميد يار، الرحلة، ص٢٠٦.
(٣) الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص١٣٢.
(٤) دانتسيغ، الرحالة الروس، ص٥٦- ٥٧؛ الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع، ص١٣٤.
(٥) العزاوي، بين احتلالين، ج٤ ص١٤٣.



ونُهبت القوافل التجارية حتى داخل مدينة بغداد، بل وفي سوق السراي المجاور لسراي الحكومة (القشلة) دون أن تحرك الحكومة ساكنًا، بل وشارك الجيش للأهالي في الفرهود حتى طالت أعمال الفرهود جميع المحلات البغدادية وبساتينها.

ويشير الدكتور الوردي إلى منع الفريق ناظم باشا عام ١٩١٠م لحوادث الفرهود التي اعتادت أسواق بغداد قبل توليه على هجوم الجيش على الأسواق قبل الأعياد بسبب عدم صرف مرتباتهم، ويرى الباحث باقر ياسين في كتابه العنف الدموي أن مما زاد الطين بلة هو دخول الدولة العثمانية للحرب العالمية الأولى في إطار حسابات خاسرة، مما عرَّض مدينة بغداد إلى قطع العشائر الجنوبية المؤنة عن الجيش العثماني وعن بغداد، وظهور السلب والنهب في أسواق بغداد ومنها سوق السراي[(١)]، وبسبب ذلك كله وغيرها من الضغوط التي تعرضت لها ولاية بغداد، يرى الموظف في السراي البغدادي والشاهد على الأحداث آنذاك الأستاذ محمد ظاهر العمري في كتابه تاريخ مقدرات العراق السياسية أن الدولة العثمانية جمعت النقود الذهبية من أهل بغداد بالقوة وأبدلتها بورقية، وكانت تعاقب كل من يخالف أوامرها لسد العجز الحاصل في تمويل الحرب العالمية الأولى.

أما عن السبب الرئيس للأطماع الأوروبية في العراق عامة، وبغداد خاصة، فيرى الأستاذ محمد ظاهر العمري أن الأوروبيين بحثوا عن أسواق لمنتجاتهم ومستعمرات للمواد الأولية فكان العراق كموقع بين بلدين كبيرين، ووفرة مواده الأولية، وكثرة آثاره التاريخية التي بدأ التنقيب عنها حال وصولهم، يضاف إليه الزيادة الهائلة الحاصلة في نفوس القارة الأوروبية، كل ذلك أظهرت للعيان المسألة الشرقية، وبدأ التنافس على الأراضي العذراء، وبدأت الحروب الاستعمارية، وكثرت سفن ألمانيا التجارية والعسكرية في الشرق، وقويت علاقتها بالدولة العثمانية[(٢)].

وبرزت أهمية بغداد في المسألة الشرقية بزيارة إمبراطور ألمانيا للآستانة لغرض دراسة مد سكة حديد بغداد برلين؛ لأن العراق كان ينتج من الحنطة وحدها سنويًّا عشرة ملايين طن، ونصيب بغداد منها قرابة المليون طن من الحنطة، ولذلك أطلق السير ويليام ويلفوفس خطة لاستثمار أراضي المدينة، ورفع إنتاجها من القطن إلى مليوني قنطار سنويًّا، إضافة إلى جلود المواشي، ومليون طن من الحنطة،

(١) ياسين، العنف الدموي، ص٢٨٧.
(٢) العمري، تاريخ مقدرات العراق، ص١١٩.

وأراد البريطانيون أيضًا من جانبهم السيطرة على بغداد من خلال نقل الهنود إليها، وتوطينهم بها، وجعلها أشبه بالمقاطعة التابعة لهم بعد ربطها بخط تلغراف بغداد كراجي الهند، وسيرت البواخر التجارية من الهند إلى بغداد خلال نهر دجلة عام ١٨٣٧م[١].

وأسست في بغداد شركة الملاحة في دجلة والفرات، وعائديتها بريطانية، ثم أسست روسيا شركة الملاحة الروسية بعد أن تأسست لهم قنصلية لأول مرة في بغداد عام ١٨٨١م، وكانت تصدر روسيا لبغداد البترول وألواح الخشب والسماورات، وكانت بغداد تصدر لهم الجلود برًّا والتمر بحرًا عبر البصرة.

وفي محاولة من الولاة العثمانيين على مدينة بغداد لمواكبة التطور الاقتصادي عمدوا إلى تأسيس الإدارة النهرية، أو الإدارة الحميدية، وعائديتها عثمانية ما بعد عام ١٨٦٠م[٢].

وبنى الوالي رشيد باشا الكوزلكي في العقد السادس من القرن التاسع عشر معملاً لإصلاح البواخر والآلات المستوردة من الخارج باسم (دمير خانة)، وسماها أهل بغداد (الحداد خانة)، وفي زمن مدحت باشا أسهم المعمل في إصلاح بنادق الجيش العثماني، وعلى كل حال فإن البغداديين يصفون هذا المعمل بأنه أشبه بالمحل أو ورشة صناعية كما نسميها في عالمنا اليوم لا أكثر.

وفي عام ١٨٦٤م بنى الوالي نامق باشا أول معمل نسيج في العراق، وأطلق عليها اسم (العبا خانة)، وبه عرفت المحلة المحيطة به، وطوّره مدحت باشا، وزاد في إنتاجه، وفي عام ١٨٧٠م جلب مدحت باشا ماكينة للطحين بقوة (٧٥ حصان) بعد أن كان يطحن الأهالي دقيقهم بالرحى أو الحجر، ثم توالى ظهور المطاحن البغدادية حتى كثرت، وشكا أهالي محلة الشورجة ومحلة قاضي الحاجات عام ١٩٠٩م من صوت ماكينات الطحين ورائحتها وهزها للأبنية.

وفي عام١٨٨١م بني أول معمل لصنع الثلج في بغداد، ونصب في شريعة الميدان، وكان يباع بالكيلو غرام، وسعر الكيلو قرش صاغ، وفي أواخر القرن التاسع عشر استورد الإقطاعيون وأصحاب الأموال مضخات الماء البخارية لسقي المزروعات ومضاعفة الأراضي المزروعة[٣].

---

(١) لونكريك، أربعة قرون، ص٣٥٣.

(٢) العمري، تاريخ مقدرات، مج ١ ص٢٠-٢١، وص٢٦ وص٣٢ و٣٩.

(٣) الوردي، لمحات، ج٣ص٢٤٤.



وفي حديث متصل عن الجالية الأرمينية في بغداد يشير الرحالة بكنغهام أن رئيس الكنيسة الأرمينية في بغداد أصله فارسي هاجر في القرن السابع عشر إليها بسبب خلو المدينة من أهلها وتشجيع الوالي العثماني حسن باشا لأصحاب الصنائع في الهجرة إلى المدينة بعد إسكانهم في أحياء بغداد الفارغة تمامًا.

وقد كانت هذه الجالية تشتغل في الصناعة والتجارة، ومنهم الأطباء والحرفيون وخياطون ومزارعون، وكانت لهم مؤسسة (جلبينكيان) في استثمار البترول العراقي، وبغداد كانت مخزنًا للمصنوعات والمنتوجات الفارسية التي تُحمل إلى الأسواق الأوروبية والسورية والتركية، وقد دافعت أوروبا عن حقوق هذه الجالية الاقتصادية والاجتماعية، وضمنت ذلك في مؤتمر (باريس للسلام عام ١٨٥٦م) و(مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م) و(مؤتمر فرساي عام ١٩١٩م)، وشاهد الرحالة وليم بيري فون الأمريكي العوائل الأرمينية وهي أغنى سكان بغداد[(١)].

وفيما يخص الجالية الفارسية فيرى الباحث سليم مطر أن سبب المطامع الإيرانية في العراق يتمثل في أن الأراضي العراقية سهلة، والأراضي الإيرانية صحراء وجبلية[(٢)].

ويضيف لونكريك سببًا آخر للهجرة الفارسية إلى بغداد يتمثل في الحرية التامة للتجار الفرس في المدينة مصحوبة بحماية الشاه للجالية الفارسية، الأمر الذي كانوا يفتقدونه في بلادهم.

ويرى الرحالة الروسي تولستوي ١٧٠١-١٧١٣م أن التجار الفرس يجنون الأموال الكثيرة من التجارة في البلاد، مما دفع بالأستاذ الوردي إلى إرجاع بعض أغنياء بغداد الشيعة -ومنهم الكاظميون- إلى أصولهم الفارسية لا العربية والهاشمية كما يدعون.

وتوصلت الدكتوره هدى في كتابها قصة تاريخ الحضارة؛ من خلال اطلاعها على النصوص التاريخية البغدادية، إلى أن الوضع لم يتغير ما بعد الاحتلال البريطاني كثيرًا فقد أقرت الحكومة البريطانية المحتلة البلاد على ما هي عليه، ولم تفِ بوعودها الإصلاحية، وأهملت الزراعة وخربت قنوات الري، وزادت الضرائب، وقلت السلع وانتشرت الأمراض والأوبئة، وأقامت بريطانيا نظامًا إداريًا شبه إقطاعي في العراق، فقد عينت كبار الارستقراطيين حكامًا للمناطق التي تخضع لها، وتساهلت في معاملتها لرؤساء العشائر الموالية لها باعتبارهم إقطاعيين وحكامًا محليين[(٣)].

(١) غازي، أرمن بغداد، موقع البيان الإلكتروني.
(٢) مطر، الذات الجريحة، ص١٩٨.
(٣) هدى، قصة تاريخ الحضارة ج٩-١٠ ص٩٤.

رابعًا: اقتصاد بغداد في العصر الحديث:

افتتح الصراع الأوروبي الشرقي بخطابات دينية رنانة، ووُضعت له العناوين العريضة كان أشهرها عنوان (الحروب الصليبية)، لكن أرجع الباحثون المستشرقون الصليبيون أنفسهم أسباب الحروب الصليبية إلى العامل الاقتصادي، وطمع الفرسان الأوروبيين في تكوين ممالكهم الخاصة من بلاد الشرق المسلم.

ثم جاءت حركة الاستكشافات الجغرافية، وما تلاها من ثورة صناعية لتظهر من جديد الحملات العسكرية الأوروبية على الشرق المسلم، لكن هذه المرة تحت مصطلح (المسألة الشرقية) العنوان الذي غزا عقول المستعمرين الأوروبيين الجدد، والذي كان في أصوله ذا مدلول اقتصادي أولاً، فضلاً عنه صليبي، ويعلل الأستاذ محمد ظاهر العمري بعد إجرائه دراسة شبه استقصائية عن أسباب الحرب العالمية الأولى وما سبقتها من مشاكل استعمارية، وخصوصًا على أرض العراق، فقال: «بسبب تزايد نفوذ أوروبا وزيادة الإنتاج الصناعي يرافقه الحاجة إلى السيطرة على منابع المواد الأولية العالمية، وظهور النفط الذي طرح ذكره حتى في مؤتمر الصلح في لوزان عند نهاية الحرب العالمية الأولى، أظهر للعيان حمى المسألة الشرقية التي أصابت الدول الصناعية الأوروبية، وبدأ التنافس على الأراضي العربية، وبدأت الحروب الأوروبية، وكثرت السفن التجارية والعسكرية في الشرق، وقويت علاقتها ببغداد التي وصفت بأنها مخزن للمنتوجات الزراعية العراقية، حتى وصفها الأوروبيون بأنها -أي: بغداد- قادرةٌ على سد حاجات نصف الدول الأوروبية من الأمن الغذائي»[1].

وخطب الألمان ود العاصمة بغداد، وعملوا على مد سكة حديد بغداد برلين؛ لعدم قدرتهم على الوصول بحرًا بسبب سيطرة البحرية البريطانية على الشرق المسلم، ومنعهم للسفن الأوروبية من الاقتراب في إطار المنافسة الاقتصادية الدولية، الأمر الذي أشعل نيران الحرب العالمية الأولى، وأظهر المسألة الشرقية كأهم نقاط الاختلاف والالتقاء في تنافر وتحالفات المعسكرين الأوروبيين الممثلين للحرب عام ١٩١٤م.

وهذا بدوره انعكس أيضًا بشكل سلبي على واقع المجتمع الاقتصادي البغدادي وظهرت عقدة الأقليات الوافدة، فسكان البلد الأصليون من الأغلبية العربية المسلمة، وبطبيعة الحال هم لا يحتاجون

---

(١) العمري، تاريخ مقدرات، مج ١ ص٢٢-٢٣ وص ٣٨٣.



إلى تحالفات دولية ضارة بالمصلحة العامة للمدينة لإثبات وجودهم أو سيادتهم على المجتمع البغدادي لحماية أجيالهم، هم فقط وباختصار (الأغلبية الساحقة)، الأمر الذي يفسر لنا أسباب تهافت الأقليات البغدادية وخصوصًا الشيعة وغير المسلمة من النصارى واليهود وغيرهم على إرضاء المحتل البريطاني، وتقديم التسهيلات والمعلومات الاستخبارية لقاء مكاسب مادية.

ومن المعلوم أن الأقليات المستفيدة من فساد الولاة العثمانيين إبان الحكم العثماني والتي كانت في مأمن من جورهم، هم ذاتهم من انقلب على الشرعية العثمانية ليعيشوا تحت أجنحة المحتل البريطاني، ولم يسعَ المحتل الجديد إلى تغيير الواقع الاقتصادي للحالة البغدادية بقدر ما إنه استثمرها بعد إثبات تبعيتها له؛ لاسترجاع الخسائر المادية للخزينة البريطانية جراء الحرب العالمية الأولى، وبالرغم من الوعود التي أطلقها المحتلون للشعب العراقي، والتي أقرتها خطبة الجنرال مود الشهيرة «إننا جئنا محررين لا فاتحين».

إلا أن الواقع العملي للمحتل البريطاني من الناحية الاقتصادية تمثل بشكله العملي خلافًا لذلك، فبعد انسحاب الجيش العثماني المنكسر من بغداد ودخول الاحتلال البريطاني في ١١/ آذار / ١٩١٧م استُقبل المحتل البريطاني بحفاوة من بعض الملل غير المسلمة، وافتتح البريطانيون حكمهم باحتقار الجنود الإنجليز لأعيان بغداد[(١)]، وتولي النصارى واليهود، بل والهنود الوظائف المهمة، وإذلال الناس، وتولي مناصب الشرطة وأفرادها لأراذل العرب ومنهم عجم وهم ذاتهم الشبانة خوشية الإقطاع التي تألفت منهم نواة شرطة المحتل البريطاني، ونفي التجار البغداديون الأصلاء عن المدينة بسبب مواقفهم الوطنية، حتى كانت ملكية الأثرياء في المدن معرَّضة للمصادرة بشكل كبير، وهذا يؤثر على مكانتهم الاجتماعية[(٢)].

على الرغم من أن بغداد حفظت لهم مكانتهم الاجتماعية مع أنهم صاروا بلا أملاك إن لم يكونوا معدَمين مع سمو المنزلة[(٣)]، يقابله ظهور كبار ملاك الأراضي الجدد، وبالرغم من رفض العالم محمود شكري الآلوسي تسلم مبلغ كبير كهدية من أنستاس الكرملي أرسله له المندوب السامي البريطاني

---

(١) الوردي، لمحات ج٥م١ص١٩.

(٢) بطاطو، العراق، ج١ص٢٦.

(٣) بطاطو، العراق، ج١ص١٨٦.

الحاكم الأعلى للعراق برسي كوس، وقال: «أفضل الموت جوعًا على أخذ مالٍ لم أكسبه»[١]، إلا أن أمين الشرشفجي الفارسي الشيعي في بغداد كان يأخذ الأموال من المندوب السامي البريطاني لقاء قيادته لحملة تشويه طائفية ضد أهل السنة؛ تمهيدًا لإظهار المحتل البريطاني بموقع الطرف الضامن لحرية الطوائف، وكسب تأييدها لربط بغداد بمستعمرتهم الكبرى (الهند) كولاية تابعة لها؛ بغرض تأمين استمرارية تدفق السلع الأوروبية إلى الشرق، وبالعكس بالنسبة للمواد الأولية[٢].

واختار البريطانيون بغداد عاصمة للعراق؛ لما كانت تتميز به، حتى عدّها بعض الباحثين صمام الأمان للمستعمرات البريطانية في الشرق الآسيوي، وعلى كل حال فقد وصفت بغداد منذ مطلع الحكم الملكي إلى خمسينيات القرن العشرين بأنها كانت مدينة آمنة مطمئنة وادعة تكاد تخلو من الإجرام والعنف المسلح، وكان الحرامية معظمهم من غير أهل المدينة، وكان الملك والمسئولون يسيرون في شارع الرشيد ذات المؤسسات والشركات المدنية الفاخرة بدون حراسة أو تشنج أمني، حتى شُوهِد مرارًا الملك وهو يسير لوحده، وكانت تُجبى لها خيرات العراق من الشمال إلى الجنوب كونها العاصمة، فضلاً عن لعبها دور الوسيط للتجارة الأوروبية الكبيرة، وإقامتها للمعارض الزراعية والصناعية التي كان يحضرها الصحفيون من كل الأقطار في نيسان من عام ١٩٣٢م.

وبدراسة قدمها التجار البغداديون المسلمون الذين كانوا يشكلون الأغلبية في غرفة تجارة بغداد آنذاك اقتنعت الحكومة العراقية بإصدار عملتها المستقلة الدينار العراقي بأجزائه لأول مرة بدل الروبية الهندية في ١/ ٤/ ١٩٣٢م، وهي أول عملة وطنية تُسَك للعراق[٣]، الأمر الذي رفع من قوة الدينار العراقي الجديد بسبب قوة الاقتصاد العراقي ووفرة خيراته حتى صار يضاهي بل يعلو على الجنيه الإسترليني والكثير من العملات الأجنبية، مما حدا بحكومة الاحتلال البريطاني إلى ربط الدينار العراقي بالجنيه الإسترليني؛ بحجة كونها الوصي الشرعي على الحكومة العراقية، لكن هذا الإجراء في حقيقته كان محاولة بريطانية للنهوض بالجنيه الإسترليني بعد محاولة إرجاع تبعية الاقتصاد العراقي القوي إليه.

---

(١) بطاطو، العراق، ج١ ص١٨٦-١٨٩.

(٢) بطاطو، العراق، ج١ ص٣٦٣- ٣٦٤.

(٣) الحسني، تاريخ العراق، ج٣ ص٩٩-١٠٠.



وعلى الرغم من محاولات التجار البغداديين المسلمين إلغاء هذه التبعية، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل، وجابهت السلطات البريطانية المحتلة هذه المحاولات بتعويق عمل التجار المسلمين في الأسواق، وإعطاء التسهيلات المالية والإدارية للنصارى الذين سيطروا على تجارة واستثمار البترول في العراق، وسهلت لليهود التجارة الداخلية بمعية سيطرتهم على التعاملات المالية والمصرفية، وقدمت للفرس التسهيلات داخل الأسواق العراقية.

ومما زاد الأمر تعقيدًا وفاة الملك فيصل الأول، واختلال توازن القوى السياسية في العراق من عام ١٩٣٣م وفقد الثقة في الحياة النيابية، وانصراف لفيف من الزعماء والسياسيين والوزراء إلى جمع المال بأي صورة كانت.. على حساب الشعب، وتسيب أمور المملكة وحشد الدوائر الحكومية بأنصاف المتعلمين، وانتشار الفوضى والرُّشا، كما ورد في محاضر المجلس النيابي، مما فتح الساحة الاقتصادية البغدادية أمام الانتهازيين والسائرين في ركب المحتل لتبوء مواقع مهمة في السوق البغدادية.

بل وقف البريطانيون ضد أي مشروع استثماري أو تجاري للعراق مع بلدان العالم عام ١٩٣٤م؛ كمحاولة منهم لتقييد التاجر البغدادي المسلم من الخروج عن طوق الأصفاد البريطانية المعمولة لهم في الداخل البغدادي، حتى استبدل التاجر البغدادي باليهودي كأغنى تجار بغداد حتى صاروا مهيمنين على قرارات غرفة التجارة.

هذا على مستوى التجارة البغدادية الداخلة والخارجة، أما على مستوى الاستثمارات النفطية فقد هيمنت الأقلية الأرمينية الوافدة على المدينة؛ بمساعدة الانتداب البريطاني واتفاقيات الحماية الدولية الممنوحة لهم على حساب الحكومة العراقية والشعب العراقي، وافتتاح خط أنابيب نقل النفط من كركوك إلى ساحل البحر المتوسط في ١٤/ ١/ ١٩٣٥م.

وبسبب الضغوطات التي قامت بها الحكومة العراقية على المحتل البريطاني للخروج من طوق التبعية الاقتصادية وضعت معاهدة تجارية مع ألمانيا في الشهر العاشر من عام ١٩٣٥م، الأمر الذي ساعد في الضغط على البريطانيين في تقديم تنازلات اقتصادية للحكومة العراقية لإعادة كسب الثقة، ومنها تنازلها لحكومة بغداد عن ملكية خط سكك الحديد العراقية بصورة نهائية في العام ذاته ١٩٣٥م[١]، وتقليل مدة العقود الاستثمارية النفطية علاوة على زيادة نسبة الحكومة العراقية منها حتى

---

(١) الحسني، تاريخ العراق السياسي، ج٣ص١٥١.

وصلت عام ١٩٥١م إلى النصف من أرباح الاستثمارات وتحسين ظروف العمال الاقتصادية[١].

وبالعودة للأسواق البغدادية الكبيرة فقد اتصفت بالتخصصية؛ فكان لكل سوق لونه التجاري، الأمر الذي حجَّم من السيطرة اليهودية على السوق بشكل عام، وانحسارهم في مجالات معينة، فزاد التمثيل العربي السني للتجارة البغدادية؛ من خلال سيطرتهم على أسواق محلاتهم وحاراتهم القديمة التي مثَّلت قلب العاصمة، لكن الذي حصل بسبب الانفجار التجاري لمدينة بغداد بعد الاحتلال البريطاني، واتباعها لسياسة السوق المفتوح التي تخدم المحتل البريطاني، لما كانت تتمتع به بغداد من موقع استراتيجي بالنسبة للتجارة العالمية آنذاك، وظهور نظام الأسواق المركزية الشاملة أمثال سوق الشورجة الذي يمثل قلب العراق النابض للاقتصاد التجاري، ودخول رءوس الأموال اليهودية المحلية بمعية العالمية وسلطة الاحتلال، والسيطرة على منابع التجارة للأسواق البغدادية ككتلة متحدة، عكس التجار البغداديين العرب الذين خضعوا لكل ابتزازات سلطة الاحتلال والحكومة المحلية على حد سواء؛ بسبب انتماءاتهم الوطنية، حتى مثَّل العنصر اليهودي في أربعينيات القرن العشرين أغنى تجار العاصمة بغداد والمسيطر الأقوى على غرفة تجارة بغداد، لكن الذي أصاب التجارة البغدادية فيما بعد هو صعود التجار الشيعة ذوي الأصول الفارسية بشكل كبير بعد هروب اليهود في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين بأموالهم وتركهم للسوق العراقي في كساد كبير، فملأ الشيعة الفراغ حتى صار لهم في غرفة التجارة (١٤) مقعدًا من أصل (١٨) مقعدًا[٢].

وقد ابتعدت التفسيرات للكتاب القوميين الذين تناولوا حادثة الفرهود عن بعض عناصرها الخفية، واكتفوا بإبراز الحمية العربية ضد إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني، وانعكاساتها على الواقع البغدادي، والذي نراه بعد البحث والتقصي عن حادثة الفرهود المفتعلة أن القصة كانت من بدايتها هو رفض يهود العراق للهجرة إلى فلسطين؛ بسبب ما يتمتعون به من حياة حرة وغنية في بغداد بعيدًا عن أجواء المشاحنة وحياة العصابات التي كانت يعيشها الواقع الصهيوني، الأمر الذي دفع بالعصابات الصهيونية بالتعاون مع حكومة الاحتلال البريطاني إلى اتباع وسائل للضغط على الأقلية اليهودية البغدادية، ومنها إطلاق يد العصابات الشيعية في مضايقة وابتزاز العوائل اليهودية، مما عرَّضهم

---

(١) هدى، قصة تاريخ الحضارة، ج٩-١٠ص١٠٣.

(٢) بطاطو، العراق، ج١ص٣١٠.



للضرب والقتل حتى في مدارسهم الخاصة في الوقت الذي شهدت فيه هذه الفترة من الحياة البغدادية عودة للسيطرة العسكرية للمحتل البريطاني حتى نهايات أربعينيات القرن الماضي.

لكن الأمر لم يكن ذا جدوى كبيرة؛ بسبب علم يهود بغداد بأن الأمر كله فبركة دولية للضغط عليهم، ودفعهم للهجرة إلى فلسطين، فعمدت السلطات البريطانية المحتلة إلى شراء فتاوى محرِّضة على قتل ونهب اليهود في بغداد وتهجيرهم إلى الكيان الصهيوني، بدعوى أنهم لا يستحقون العيش بيننا.

وبالفعل صدرت هذه الفتاوى من كبار مراجع الشيعة في العراق، وهم فرس الجنسية تساندها فتاوى المراجع الإيرانيين من حوزة قم، الذين زادوا على فتواهم بوجوب اغتنام أموال اليهود البغداديين وحليتها، حتى شُوهدت كبار القصور اليهودية وهي تُسكن من قِبل الحمالين والخدم الفرس الشيعة الذي كانوا يعملون في خدمة تلك العوائل اليهودية.

وتكملةً للحلقات الأخيرة من مسلسل السيطرة الشيعية على الأسواق البغدادية وتهجير الأقلية اليهودية هو سكوت الملكية العراقية عن ذلك، بل وتمليك الحكومة القاسمية العقارات والدور اليهودية للوافدين الشيعة الجدد بعد أن ظلت فارغة على مدار أعوام؛ بسبب تحريم الفتاوى السنية البغدادية لحادثة الفرهود، وما نتج عنها متسائلين عن الفائدة التي جناها أهل فلسطين من فتاوى الشيعة (الفرهود)، وما لحقها من ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وهم مشحونون بالحقد ودوافع الانتقام من كل عربي؛ لقاء ما جرى لهم في بغداد[(١)].

والتساؤل الثاني إذا كان رجال الدين الشيعة في قم حريصين على القضية الفلسطينية، وأفتوا بما سبق ذكره، فلِمَ لَمْ تشمل فتواهم يهود إيران بشكل عام، وأصفهان على وجه الخصوص، بعد إثبات تواطؤهم في دعم العصابات الصهيونية في قتل الفلسطينيين المسلمين، ونتيجة لذلك كله وبدعم من الشاه الإيراني برز العنصر الشيعي الفارسي في طبقة التجار بعد تهجير اليهود[(٢)].

واستمر الأمر كذلك حتى وصول حزب البعث إلى السلطة العراقية، وقيادته لحملة تصفية كبيرة للأحزاب والعناصر المعارضة، والقضاء على كل عناصر قوتهم، ومنها القضاء على التحالف البريطاني الإيراني بمعية أبناء المرجع الأعلى محسن الحكيم، وبسبب المعاداة الفارسية للقضايا العراقية، والاعتداء

---

(١) بطاطو، العراق، ج١ ص٣١٠.

(٢) بطاطو، حنا، العراق، ج١ ص٥.

على حدوده الدولية التي نتج عنها فيما بعد حرب الثماني سنوات خضع التجار الشيعة الفرس إلى عملية ترحيل عن العراق، ليحل محلهم التاجر الباطني العراقي، في تنسيق لتبادل الأدوار في السيطرة على الاقتصاد العراقي؛ استكمالاً لبروتوكولات آيات قم وطهران، لكن هذه المرة بإشراف مباشر من الحكومة العراقية على وقع التداولات التجارية والمصرفية، ومراقبة نشاطاتها المشبوهة.

وفي مراجعة سريعة لتقييم النشاط التجاري لمدينة بغداد؛ من خلال مؤسساتها الاقتصادية عبر التاريخ، والتي نخص بالذكر منها الأسواق التجارية والخانات التي كانت تمثل مخازن تجارية للمدينة، فضلاً عن كونها سكنًا للتجار الأجانب، ولعبت باحاتها ساحات للبيع المباشر، وهي كالآتي على سبيل الإجمال والشهرة لا الحصر[١]:

١- (خان وردان)، وكان أول خان عُمِّر في بغداد، ثم (خان النجائب)، ويحصي الأستاذ ياسين العمري خانات بغداد قبيل احتلال المغول لها بـ(٩٨٠) خانًا، على الرغم من تدهور المدينة من جميع النواحي، أما فيما ذكر بعد الاحتلال المغولي فمنها (خان الخليفة) الذي بناه عطا ملك الجويني قرب نهر دجلة، ثم (خان مرجان) عام ٧٦٠هـ في العهد الجلائري، وهو نفسه (خان الاورتمة) أي: الخان المسقف باللغة التركية، وفي القرن السادس عشر الميلادي بني (خان جغان) في عام ٩٩٩هـ، وبعد ذلك كثرت الخانات في المدينة، لكنها خربت بسبب عوامل الزمن.

وقد زاد وأنقص الرَّحَّالة في ذكر عدد تلك الخانات حسب الأزمنة التي زاروا فيها بغداد، فعدها تافرنييه بعشرة خانات، بينما ذكر نيبور أن عددها اثنان وعشرون خانًا، ويرى بكنغهام أنها ثلاثون، وأوصلها بعضهم إلى (١١٨) خانًا، ومن أشهرها (خان اللاوند) في منطقة الفضل من عام ١٨١٦م الذي تحول إلى حديقة عامة، وفي وسطها حوض ماء، ثم أصبح محلة عامرة بالسكان، و(خان قابجيلر كهيه سي) في سوق البزازين على طريق سوق الصفافير، و(خان دلة الكبير) في سوق البزازين وهو اليوم محل تجاري كبير، و(خان دلة الصغير) في المرادية.

و(خان النخلة أو خان مخزوم) في رأس سوق البزازين، و(خان الباجه جي)، ويقع باتصال جامع الخفافين، وهو الآن محل تجاري، و(خان الباشا الكبير)، و(خان الباشا الصغير)، ويقع في شارع البنوك، و(خان محمد سعيد جلبي الشابندر) في شارع المستنصر.

---

(١) المورد، ص٢٧.



و(خان الدفتر دار) في شارع المستنصر أيضًا، وقد استبدل مكانه ببنايات حديثة، و(خان الحاج ياسين جلبي الخضيري) في شارع المستنصر، و(خان باب المعظم) وموقعه كان على شارع مستشفى الجمهوري.

و(خان البرزنلي) في آخر شارع البنوك، واليوم هو بناية من عدة طوابق، و(خان جني مراد) في سوق مرجان قديمًا العطارين اليوم، و(خان دجاج) في سوق العطارين أيضًا، وشيدت اليوم على أرضه بنايات ودكاكين عديدة، و(خان المواصلة) وهو جزء من المدرسة المستنصرية لتجار الموصل، و(خان الزور) وهو من الخانات التي أعلن أثريتها عام ١٩٦٩م ويقع بالقرب من خان مرجان في سوق الخياطين قديمًا المقابل للمدخل الرئيس لخان مرجان.

و(خان القوندرجية) في سوق القوندرجية مقابل جامع الوزير، و(خان الذهب الصغير)، ويقع في سوق القزازين، و(خان فتح الله عبود) في باب الأغا، ويعرف (بخان اللكي)، و(خان الكمرك)[١]، وهو متصل بالمدرسة المستنصرية، وجزء منها، و(خان القبلانية) في سوق القبلانية، و(خان الوقف) مقابل جامع مرجان، و(خان درويش علي) و(خان الريجي) و(خان المميز)، وكلها في الشارع المتفرع من سوق الصفافير والنافذة إلى الدنكجية، و(خان الرماح) في سوق الخردة فروشية، و(خان العادلية) بجانب جامع العادلية الكبير، و(خان الصفافير) عند مدخل سوق الصفافير من جهة سوق الجوخه جية، و(خان المصبغة) ملاصق (لخان الخفافين)، و(خان اللوقنطة) في سوق المولة خانه مقابل سوق القرطاسية، و(خان الجسر) في آخر سوق القرطاسية، و(خان الزئبق) في الدنكجية، و(خان التمر)، و(خان الكبابجية) (المعظماوي) في سوق الكبابجية.

وأخيرًا.. إن دلت هذه الخانات على شيء فهي تدل على سرعة الإنماء الاقتصادي للمدينة، واستعادة السوق البغدادي لعافيته بمجرد عودة الهدوء إليها، ومن النصوص التي عكست حجم التجارة البغدادية العملاقة قبيل الاحتلال البريطاني ما ذكره كاندلر «صادر الأتراك المؤن والبضائع في بغداد، وكان آخر قطار غادر بغداد في الصباح الباكر من ١١/ آذار/ ١٩١٧م وقال لنا أحد تجار بغداد: إنه فقد ما قيمته مليوني فرانك من البضائع بين الساعة الثانية صباحًا، وبين ساعة دخول القوات الإنجليزية التاسعة صباحًا».

---

(١) رحالة أوربيون في العراق، تنكو اينهولت، ص١٨٣.

٢- أما عن الأسواق البغدادية فلم يكن ليخلو حي من أحياء المدينة من سوق تجاري يخدم أبناء المنطقة المعينة، فضلاً عن اشتهار بعض الأسواق بالتخصص التجاري لبضائع معينة بذاتها، جريًا على سياسة الخليفة أبي جعفر المنصور في بناء العاصمة بغداد، وبالعودة السريعة لتاريخ بعض تلك الأسواق وما وصلت إليه اليوم فهي كالآتي، سوق الثلاثاء وكان ذكره قبل أن تعمر مدينة بغداد، وسُمِّي كذلك لأنه كان يباع فيه نهار الثلاثاء فقط، وسوق السلاح، وسوق حجاج، وسوق يحيى وهو مجاور لقبر أبي حنيفة، سوق الرياحين يباع فيه الأزهار والرياحين، وسوق العطارين، وسوق البزازين، وسوق الصياغ والمشهور اليوم بسوق دانيال، والذي يعود في تاريخه للحقبة العباسية، وسوق الحدادين وسوق النجارين، سوق باعة الأجواخ، سوق الهرج وغيرها مما لا يحصه عدٌّ، والتي حافظت على عراقتها؛ لكونها تحتل قلب العاصمة التجاري النابض حتى بنت السلطة العثمانية مؤسساتها الحكومية بمحاذاة تلك الأسواق، وأشهرها سوق السراي المجاور لدار القشلة مقر الحكم العثماني والملكي من بعده، وكانت بناية البنك المركزي العراقي تحتل مكانة القلب لتلك الأسواق، والتي أصبحت مركزًا للتجارة العراقية اليوم، والتي امتدت على مساحات واسعة من بغداد شملت معظم إن لم يكن كل مساحة المدينة قبيل الحرب العالمية الأولى ما بين الباب المعظم شمالاً، والباب الشرقي جنوبًا.

وبسبب ازدياد عائدات النفط العراقية بعد الحرب العالمية الثانية بشكل كبير جدًّا انعكس ذلك على ثروة البلاد ووفرة رأس المال، فشرع التجار يهتمون بالاستيراد والتوزيع، وأخذوا يهتمون بإنشاء المصانع للبضائع الاستهلاكية، ومما جاء في دائرة المعارف الأمريكية عن التجارة البغدادية: « كانت بغداد منذ عهد طويل تهيمن على جزء كبير من وسائل النقل بينها وبين أوروبا من ناحية، ومع إيران والهند من ناحية أخرى. وما تزال التجارة الإيرانية والهندية على نطاق واسع؛ حيث يتم نقل جزء كبير منها بالمراكب في النهر. وكانت التجارة مع أوروبا سابقًا واسعة بطريق البر أيضًا.. ومنذ أن فتحت قناة السويس غدت الطرق البحرية أكثر أهمية.. غير أن تطور تسهيلات النقل بالسكك الحديدية جعل منها السوق التي يمكن الاستيراد منها من منطقة البحر الأبيض المتوسط والتصدير إليها».

الناحية العمرانية:

تمثل الناحية العمرانية لمدينة بغداد طبيعة نوايا الحكم السائد للمدينة، سواء أكان إسلاميًّا أم سلطويًّا أم محتلاً، وكذلك يعكس مدى الرقي الفكري لتلك الجماعات الحاكمة حضارية كانت أم



بدوية أو همجية، وفي قراءة مقتضبة للناحية العمرانية لمدينة بغداد لا يمكن في حال من الأحوال أن نطلق مصطلح الثورة العمرانية على سياسات الأنظمة التي حكمت المدينة عبر العصور باستثناء الخلافة العباسية والجمهورية العراقية الثالثة بين عامي ١٩٦٨-٢٠٠٣م، التي أعيت من جاء بعدهم على أن يأتوا بمثلهم، ولا نكاد نسمع في كتب التاريخ سوى مصطلح إعادة ترميم، أو إعادة بناء، أو إعادة تعمير، أو إعادة حفر النهر الفلاني.

وفي تاريخنا المعاصر لازالت عشرات المؤسسات الحكومية يعلوها الخراب والدمار منذ عام ٢٠٠٣م على الرغم من صرف مليارات الدولارات لتعميرها، علمًا بأن بناءها لم يكن ليكلف سوى الملايين بالأمس القريب!! هذا كله يحدث وبغداد في نشوة من الثراء المادي فميزانيتها السنوية تكاد تعلو على ميزانيات دول تعرف بترتيبها الأول عالميًا من النواحي العمرانية والتعليمية والخدمية وغيرها، الأمر الذي لا تكاد بغداد أن تجد له أثرًا يُذكر بعد أن كانت ترسم في سياستها العمرانية بالأمس القريب طريق أحلام لدول باتت اليوم قبلة الإبداع العمراني العالمي، وأخص بالذكر منها دول الخليج العربي وجنوب شرق آسيا.

ومن المعالم العمرانية لمدينة بغدادية:

١- بسبب كثرة أنهار بغداد كثرت المتنزهات التي بلغت العشرات، وملئت بالحيوانات النادرة والطريفة وحتى المفترسة منها، وبعضها كان للترويح يقصده الكُتاب والشعراء للصفاء الذهني وكان أروعها متنزهات الشماسية[١].

وعُنيت الخلافة العباسية بإيصال الماء الصالح للشرب إلى جميع السكك والدور عن طريق شبكة مياه في سواقي مبطنة ومغطاة بالآجر لضمان نظافتها، واعتنت الخلافة بنظافة المدينة، ولم يكن يُسمح بإلقاء القاذورات على جانبي الطرق أو الأزقة، وكانت الشوارع تُكنس وتُرش بأحسن نظام، الأمر الذي جعل من تلك الخدمات سببًا في انفجار سكاني كبير للمدينة، وبلغت أكثر من ستة آلاف سكة، مثل سكة المؤذن، وسكة الطبق، وسكة الشرطة، ومن الحمامات ما ناف على العشرة آلاف حمام، ومن المساجد الثلاثين ألفًا، وبلغ تعداد سكانها مليوني نسمة[٢].

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ج٢ص٢٣٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨ص٧٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص١١١.

وشيَّد أهل بغداد دُورهم المسورة بالأسوار على ارتفاع طابقين من الآجر والجص ووسطها أحواض الماء، عليها الأعمدة المزخرفة تعلوها قبة عليها آيات قرآنية وحولها الأشجار والحديقة الخاصة بالمنزل بعد إيصال الخلفاء المياه ومجاريها إلى شوارع المدينة التي كانت تُضاء بالمصابيح ليلاً، وكان أهل بغداد يزينون أرض وجدران منازلهم بالسجاد والديباج(١).

٢- ومن أنهار بغداد نهر موسى، وينقسم إلى ثلاثة أنهار تسير في الجانب الشرقي من بغداد، ونهر الملك وعليه ثلاثمائة وستون قرية، ومزارعه غزيرة تُجلب غلتها إلى بغداد، ونهر العلي، ونهر القلايين، ونهر طابق، ونهر الرفيل، ونهر الدجاج، ونهر الصراة، ونهر عيسى، ونهر كرخيا، وغيرها الكثير(٢).

٣- وبُنيت الجسور والقناطر والطاقات حتى بلغ ذكرها العشرات، ومن أشهر طاقاتها طاق أبي سويد، وطاق العكي، وطاق الغطريف، طاق أسماء، وطاق الحراني، وقيل إن جسورها بلغت خمسة وخمسين جسرًا، ويرى بعض الباحثين أنها لم يجتمع فيها أكثر من سبعة جسور كان أشهرها جسر باب الشعير، وعند باب البستان ثلاثة جسور، وعند الرشيد جسران، وكان لابن جعفر جسر عند المربعة، فكانت سبعة جسور، ما عدا القناطر التي على أنهارها ومنها قنطرة البردان في شارع بغداد، قنطرة بني رزيق على نهر الرفيل، قنطرة الشوك على نهر عيسى، قنطرة المعبد غرب بغداد، وهي من أشهر القناطر في بغداد(٣).

٤- ومن وسائل الترفيه في بغداد لعب الصولجان في الميدان، ورمي النشاب، وسميت أيام الرشيد بأيام العروس، وتشتهر بسباق الخيل، وربَّى الناس الخيل، لذلك أفتى العلماء بحل هذه المسابقات إذا لم يُؤخَذ من المتسابقين مالٌ.

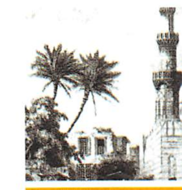
ومن وسائل الترفيه أيضًا: رحلات الصيد، وبسبب عمارة الأرض حول بغداد كثرت الطيور والغزلان، وغيرها من حيوانات الصيد؛ باستخدام الصقور المدربة والكلاب حتى حُكي عن الأمين

---

(١) سليمان، الفوز بالمراد، ص٣٨٣.

(٢) ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٩٥؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص٧٣؛ ابن الجوزي، المنتظم ج١٥ ص٢٣٤؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص٢٠٧.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ج٧ ص٦٢٤، ٦٥٣، ج٨ص ٢٣٢، ٤٤٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ص٣١٩، ج١٠ ص٢٦٠؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص١٤٦.



أنه كان يصارع الأسود وصنوف السباع[١].

٥- وتعتبر قصور الخلفاء والذوات من مظاهر الرقي المعماري الذي ميَّز مدينة بغداد حتى بلغ تعدادها العشرات، وكانت تكتنفها الحدائق، وتبلغ مساحتها مسيرة ساعات، ومن أشهرها (قصر باب الذهب)[٢]، وهو أول قصر بناه المنصور في مدينته المدورة، وكانت عليه قبة خضراء ترتفع ثمانون ذراعًا.

(قصر السلام) بناه المنصور، و(قصر الخلد) بناه المنصور تجاه باب خراسان، وعليه القباب الجميلة وطُرِّزت أبوابه بمسامير من ذهب وفضة، والأعمدة التي زينت بالرسوم البديعة وفرش بالرخام والبسط والديباج يتوسطه قضبان من ذهب، ورُصِّعت كراسي المجلس باللؤلؤ معدة لجلوس كبار الدولة، وكان بناؤه بسبب ازدياد سكان بغداد، ولكي لا يكون المنصور في معزل عن رعيته، وجعل منه مقرًّا لحكمه، وقصر وضَّاح بناه المنصور لولده المهدي[٣].

و(قصر السلامة) شيَّده المهدي شرق بغداد بعيسى باذ، (قصر الرشيد) الذي شيَّده الرشيد على نهر دجلة، وزينه بأجمل الزينة وأقام فيه أساطين الرخام، و(قصر السلام) بناه الرشيد، و (قصر التاج) بناه الخليفة المعتضد بالله وأكمله ولده المكتفي بالله، و(قصر الرياحين) أحدثه المستظهر وهو مشرف على سوق الرياحين وهو واسع، و(قصر الخيل) وهو دار الخيل من دور الخلافة وكان يوقف بها في الأعياد وعند ورود الرسل من البلاد في كل جانب خمسمائة فرس ملبسة بالذهب والفضة، و(قصر الخلافة)، ويعرف بالحريمي، وكان مقدار مساحته ثلث بغداد وهو قائم في الوسط ودور العامة محيطة به، وله سور كأنه نصف دائرة وله عدة أبواب[٤].

ومن القصور أيضًا (دار الشجرة)[٥]، وسمي بالشجرة؛ لأن فيه شجرة من الذهب والفضة فيها ثمانية عشر غصنًا لكل غصن فروع مكللة بالجواهر على شكل الأثمار وعليها طيور من ذهب، فإذا

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١ ص٤٥٣.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٣ ص٥٥.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ج٧ص٦١٦،ج٨ص ٤٩٦، ١٥٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص١١١؛ البلنسي، الحلة السيراء ج٢ص١٥٢؛ ديورانت، قصة الحضارة، ج١٣ ص١٦٤.

(٤) ابن العمراني، الإنباء، ص٣١١.

(٥) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج١ ص١٢٧.

هبَّ الريح ظهر لها صفير وهدير مختلف كأصوات تغريد الطيور، وكان فيها بركة ماء عليها خمسة عشر فارسًا مصورين من الذهب، وخيولهم من الفضة عن يمين البركة، ومثلهم عن الشمال، و(دار الطواويس) بناها الخليفة المطيع، وكانت أعجوبة الزمان لحسنه(١).

أما عن قصور أمراء العباسيين فأشهرها (قصر عيسى)، وهو ابن علي بن عبدالله بن عباس ولا أدل على سعته من أنه كان يسكنه عيسى مع بضع آلاف من عياله ومواليه، وكان للعديد من سيدات البيت العباسي قصر منفرد أعظمها قصر (السيدة زبيدة)، ومن قصور بغداد أيضًا القصر الذي بناه جعفر بن يحيى البرمكي في الرصافة من منطق الشماسية، وكان محاطًا بالبساتين، ويطل على نهر دجلة وزُيِّن بالرخام والرسوم من الداخل والخارج، وسور من الجص المجسَّم سكنه الحسن بن سهل في زمن المأمون، وسمِّي بدل القصر الجعفري بقصر الحسن، وقصر الفضل بن يحيى البرمكي في الشماسية.

وبنى يحيى بن خالد قصرًا سماه (بقصر الطين)، وكذلك بنى الفضل بن سهل والحسن بن سهل قصورهم على أطراف بغداد، وقالوا بأن الأطراف هي منازل الشرفاء، ومن القصور البغدادية الشهيرة أيضًا (قصر الحريم الطاهري) ينسب إلى الأمير طاهر بن الحسين الخزاعي ويقع في الجانب الغربي أعلى بغداد، و(قصر أم حبيب) وهو لبنت الرشيد، وكان من نُزَه الدنيا في جانب المدينة الشرقي(٢).

٦- ومن آثار العصر العباسي الشاخصة في يومنا الحاضر، أحد مداخل سور بغداد في جانبها الشرقي، والمعروف بالباب الوسطاني، أو باب الظفرية، الذي بُني في عهد الخليفة المسترشد بالله ٥١٢-٥٢٩هـ.

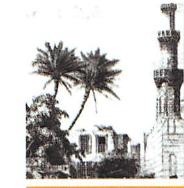
ومنها أيضًا ثلاث مآذن، وأقدمها مأذنة مسجد الحظائر، ويعرف حاليًا بجامع الخفافين، والذي شُيِّد من قِبل زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة عام ٥٩٩هـ، والمأذنة الثانية هي مأذنة مسجد الجنائز المعروف حاليًا بجامع الشيخ معروف، وقد دُوِّن عليها تاريخ بنائها عام ٦١٢هـ، والثالثة مأذنة مسجد قمرية الذي بناه الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦هـ.

ومن الأبنية العباسية أيضًا: البناية المعروفة بالقصر العباسي، ويرى بعض الباحثين أن البناية

---

(١) القطيعي، مراصد الاطلاع، ج٢ص٥٠٧؛ الرومي، الخزل، ص٦.

(٢) ينظر، الخطيب، تاريخ بغداد، ج١ص٧٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٧ص١٠٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٩٠؛ سليمان، الفوز بالمراد، ص٨٠-٨٣.



كانت تعرف بالمدرسة الشرابية، بُنيت عام ٦٢٨هـ.

ومن الأبنية العباسية القديمة أيضًا: المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة المستنصر عام ٦٢٥هـ، والتي لا تزال قائمة إلى يومنا الحاضر بعد أن شغلت من قبل عدة مؤسسات حكومية وغير حكومية على مدار تاريخها الطويل كمخزن للأسلحة ودائرة للكمرك، وخانًا للتجار، وغيرها من الأدوار[١].

ولم تشهد الفترة الزمنية التي تلت سقوط الخلافة العباسية نشاطًا عمرانيًّا يُذكر بل من الممكن جدًّا أن يُوصَف بالمعدوم، واكتفت الحكومات المتتالية بشغل البنايات العباسية وحتى المؤسسات التعليمية منها لصالح دواوين وجنود السلطة الحاكمة، واستمر الأمر كذلك حتى قيام الجمهورية العراقية الثالثة، ومن منجزاتها التي تسنَّى لنا جردها إلى قرابة السبعينيات من القرن العشرين، ما يلي:

١ - الوحدات السكنية:

بعد عام ١٩٦٨م تبنت حكومة بغداد مشاريع سكنية عملاقة لاستيعاب الزيادة الكبيرة الحاصلة في أعداد السكان نتيجة تطور الخدمات الصحية للمدينة، وارتفاع دخل الفرد البغدادي، وتوفير فرص العمل للوافدين الجدد، فكانت النتيجة بناء قرابة (٣٥) مجمعًا للعمارات السكنية في جميع بغداد، منها في منطقة الزعفرانية وحيفا والعطيفية ونيسان، وتتراوح بين ٣-٦ طوابق، فضلاً عن إنشاء مشروع الثورة بطاقة (١٠٠٠) شقة سكنية مع خدماتها الصحية والتعليمية والاجتماعية، ومشروع عمارات زيونة السكنية، وعمارات السيدية السكنية بطاقة (٣٠٠٠) شقة، وفي منطقة الدورة بطاقة (١٤٥٠) شقة، ومجمع الكرادة السكني بطاقة (٢٣٠٠) وحدة سكنية، وبناء (١٤٤٨) وحدة سكنية و(٣٤٠٠) شقة و(٣٨٢٣) دارًا جاهزة في مناطق متفرقة من بغداد، و(٣٠٠) دار للعمال في السيدية، ومثلها في منطقة البلديات، و(٢٠٠٠) وحدة سكنية شرق بغداد.

فضلاً عن عمارات الأوقاف، منها عمارات السبع أبكار ٣٢٢ وحدة سكنية، وعمارة العلوية الثالثة من (١٤) طابقًا، وبجوارها من (٨) طوابق، وعمارة سكنية في العلوية من (١٤) طابقًا، وعمارة المنصور في المنصور تتكون من (٨) طوابق، وعمارة هيبة خاتون في الأعظمية، وغيرها كثير، أما منجزات وزارة العمل فكانت (٨١٧) دارًا، و(٤٠) عمارة سكنية كل منها يحتوي على (١٢) شقة و(١٣) عمارة يحتوي كل منها على (٤٨) شقة، أما عدد الدور فكانت (١٣٠) دارًا، علمًا بأن هذا الجرد

---

(١) عيادة، العقد اللامع، ص٣٣٧، ورحالة أوربيون، ص١٨٣.

هو عبارة عن مقتطفات تمكنا من الحصول عليها ولا تستوعب كل ما هو مشاهد على أرض الواقع للفترة الزمنية المغطاة في البحث، والتي لا تتجاوز أغلبها حقبة السبعينيات من القرن العشرين.

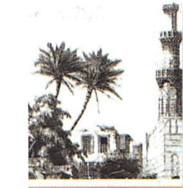
علمًا بأن جميع ما تم ذكره آنفًا وُزِّع على الفئات المستفيدة بأسعار مدعومة، وبالتقسيط مع مراعاة دخل المستفيد، وعدم المساس بضمانه الاجتماعي والصحي للعائلة، فضلاً عن ما وُزِّع بالمجان للمتعففين منهم، ولم يكن هذا كل شيء، بل اختطت مئات المحلات السكنية ووزعت أراضيها بشكل يظهر نوع الفئة المستفيدة، ويسمى الحي باسمهم كالمعلمين، والضباط، والشرطة والإسكان والأمن، والكفاءات، وغيرها، وهيئت لهم حكومة بغداد المصرف العقاري لتسهيلات الإسكان وبالأقساط الذي يضمن للمواطن القدرة على بناء داره مع الحفاظ على كرامته وأمنه الغذائي، ولم تستثنِ حكومة بغداد من هذه التسهيلات أحدًا مهما كان انتماؤه العرقي أو الطائفي أو الوظيفي[(١)].

٢- ومن الخدمات الصحية المقدَّمة للمواطن فضلاً عن بناء المستشفيات التخصصية كمستشفى العلوية للولادة ومستشفى الفردوس وغيرها، فقد صدر قانون العيادات الطبية الشعبية العامة والتخصصية منها عام ١٩٧٠م والتي غطت جمع الأحياء السكنية حتى بلغت المئات وألحقت بها خدمات الإسعافات الفورية، ومن العيادات النسائية بلغت (٤٥٦) لم يكن لها وجود، و(٥١) مستشفى لم تكن موجودة، وتم زيادة العيادات الطبية المركزية من (٣٤) إلى (٥٨)، و(١٧٩) مستوصفًا سيَّارًا، و(٤١٠) عيادة لطب الأسنان[(٢)].

٣- تطور كبير في شبكة النقل الخاصة والعامة تضمنت استيراد مئات الباصات المختلفة الأنواع، ومنها ذوات الطابقين السياحية، والتي تميزت بها مدينة بغداد عما سواها من المدن سوى لندن، وهي ذات طابع سياحي تغطِّي في عملها جميع مناطق بغداد الرئيسة منها والفرعية، يضاف إلى استيراد آلاف سيارات النقل الخاص، وتطوير شبكة النقل للسكك الحديدية، والتي ربطت في خدماتها مناطق شرق بغداد وشماله بالمركز.

٤- تبليط كل شوارع بغداد والبالغة عشرات الملايين من الكيلو مترات، وبمعيتها المناطق والأحياء، والمحلات السكنية الحديثة النشوء، وشق الأنفاق، ووضع إشارات المرور التي بإمكانها أن تستوعب الزحام الذي من الممكن أن يحدث نتيجة الزيادة السكانية ولسنين طويلة، إضافة إلى مد

(١) مجلة المورد، ص١٥٥.
(٢) مجلة المورد، ص١٦١.

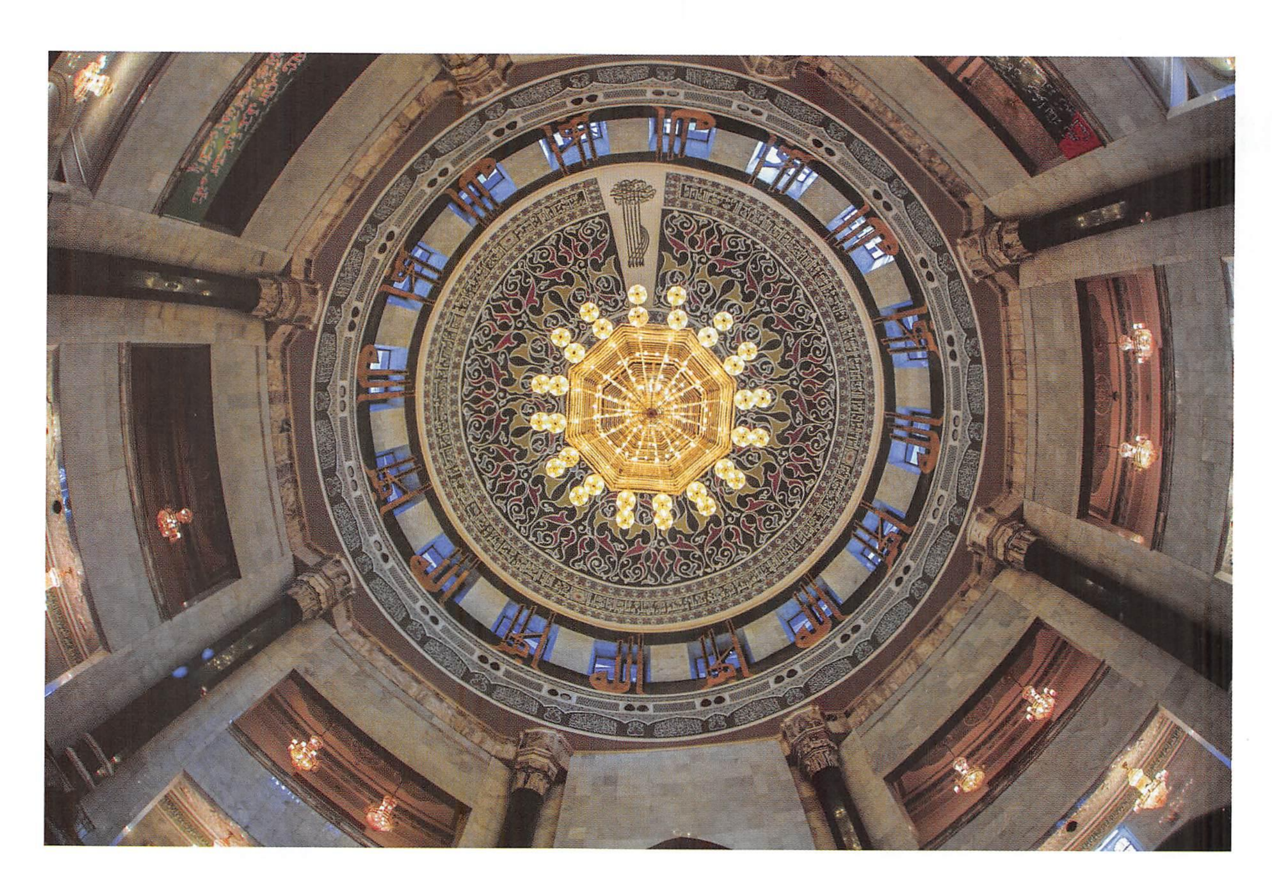


الجسور التي بلغ تعدادها الرئيسة منها قرابة العشرة جسور، ناهيك عن الجسور المقامة دون شروط السلامة، والتي تتصف بالمؤقتة، ومنها جسران على نهر ديالى جنوب بغداد، وجسر في منطقة التاجي، وواحد شمال التاجي وغيرها.

ومن الخدمات الأخرى مد شبكة المجاري للمياه الثقيلة التي شملت معظم مدينة بغداد بما فيها الأحياء الحديثة النشوء، والماء الصالح للشرب الذي تم إيصاله ليشمل حتى المقيمين في القرى الزراعية في حزام بغداد، فضلاً عن بنايات خاصة ككراجات للسيارات تحوي أحدها على أكثر من ألف سيارة، وكذلك بناء المسابح الترفيهية في المناطق الشعبية، وبناء المطار الكبير (مطار بغداد الدولي)، وجميع الوزارات والقصور المشغولة اليوم، وأماكن السياحة والآثار والمتنزهات والمتاحف، ومعارض الزهور، والصناعات المختلفة والبانورامات الترفيهية، أمثال (بانوراما القادسية قرب طاق كسرى في المدائن، وما يلحق بها من حدائق، وبلغت متنزهات المدينة قبل عام ١٩٦٨م إجمالي مساحة قدرها (٢٥٠٠٠) متر مربع، بينما وصلت حتى سبعينيات القرن العشرين إلى (١٤،٥٢٨،٧٩٠) مترًا مربعًا موزَّعة على (٥٩١) متنزهًا وحديقة، ومنها متنزه المدينة الخضراء أو الزوراء، وهو بذاته مدينة سياحية بمساحة (١٢٠٠) دونم، ومن المواقع الأثرية موقع الدائن وعقرقوف، وتل حرمل، وتل أبو صخير، وهي مواقع سومرية، وبابلية، وكذلك المدرسة المستنصرية، والقصر العباسي، وخان مرجان، ومنارة سوق الخلفاء، وبوابة بغداد الوسطانية، وغيرها، ومن المتاحف قاعة المسكوكات في المتحف العراقي، ومتحف الأزياء، ومتحف المدائن، والمتحف الطبيعي، ومتحف الطفل، ومتحف الآثار العربية الإسلامية والجندي المجهول، فضلاً عن المطاعم والفنادق السياحية.

٥- نقل المصانع، وورش العمل، ومعارض بيع السيارات إلى أطراف المدينة، مثل مجمع البياع، وكسرة وعطش، والمنطكة، وغيرها.

٦- ومن المنشآت الحكومية الأخرى التي بلغت (١٣٧)، أبرزها مجمع المرور، وبنت أمانة بغداد (٢٧٠) دارًا للأيتام، والأرامل والشهداء، ومن المطاعم (٥٥) مطعمًا، أهمها مطعم اللؤلؤة، والمجمع الأندلسي والبغدادي، والياباني والكواكب في المسبح، والخورنق والسدير في الأعظمية، والعائم في أبي نؤاس، فضلاً عن المنتشرة على قناة الجيش شرقي بغداد.







القشلة: مقر الحكومة العراقية في العهد الملكي



الفصل الثالث

الحياة العلمية والفكرية في بغداد



يقول غوستاف لوبون: «إنّ خلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم».. «وعندما كانت بغداد مركزاً أضاءت العالم بنورها الوهاج، كانت اوروبا غارقة في دياجير الهمجية».





ازدهرت الحياة الثقافية في مدينة بغداد إبَّان الحكم العباسي، نتيجة لعوامل متعددة، منها:

١- اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء، وبذلهم الأموال في ذلك.

٢- ازدهار الحالة الاقتصادية في العاصمة بغداد، الذي أسهم في هجرة الشعراء والعلماء إلى المدينة للحصول على الأعطيات بعد استثمار خبراتهم العلمية، حتى صارت بغداد عاصمة النهضة الفكرية للعالم.

٣- استوعب المسلمون العرب علوم الشعوب التي فتحوا أراضيها، واستعملوها في حاجاتهم الآنية آنذاك، وأضافوا إليها أعمال جديدة، يقول روجيه غارودي: «إنّ الإسلام.. قد خلَق بفتوحاته الواسعة الظروف الضرورية لتجديد الحضارة، ولتجديد شباب العالم»[١].

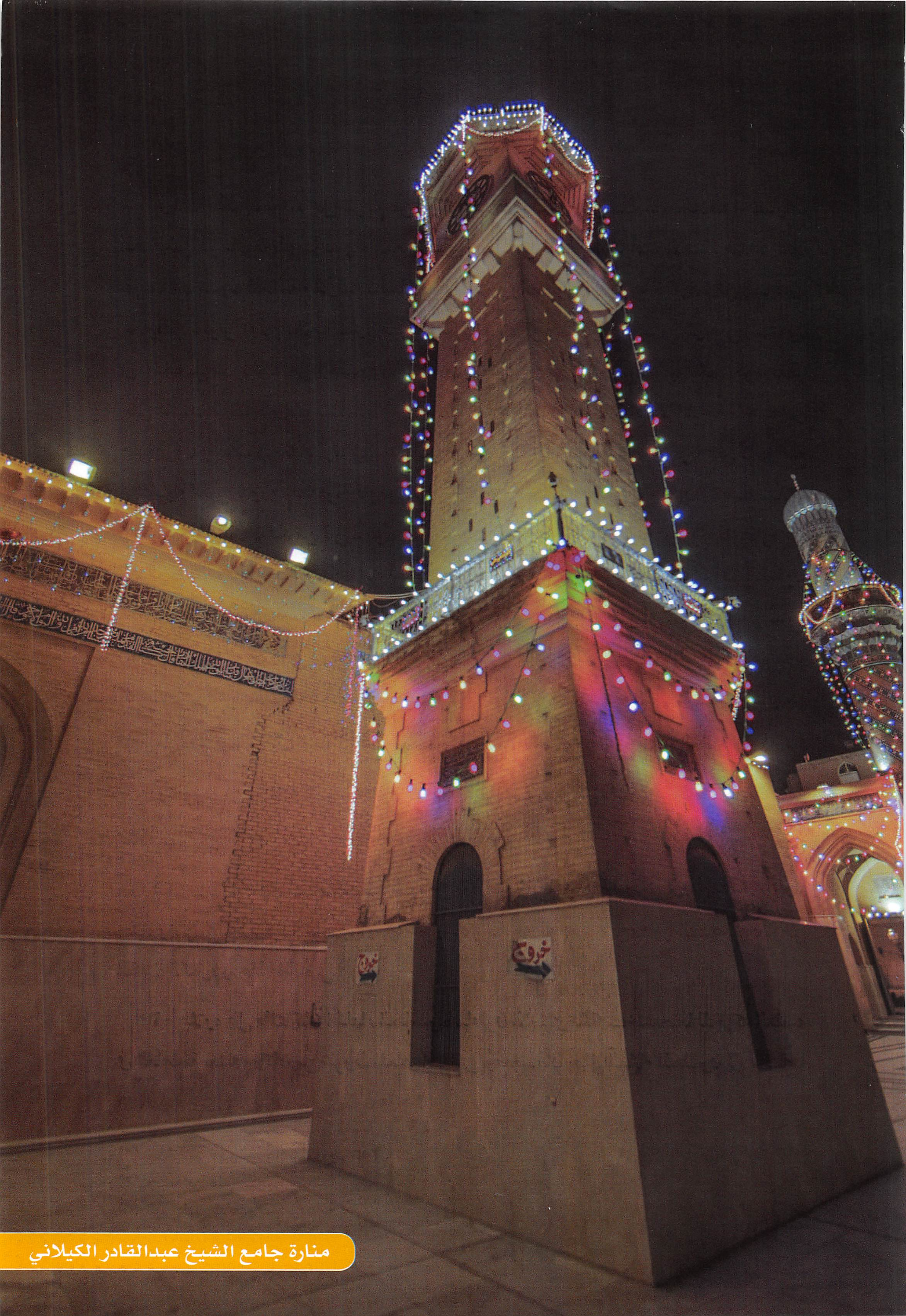
ومما يقال عن بغداد العباسية: «كلّ الحضارات العالمية تتفاخر عادةً بعلمائهم الذين بنوا حضاراتهم، والذين هم في العادة من أبناء جنسهم، إلا الحضارة الإسلامية العباسية فقد افتخرت بعلمائها من جميع الأجناس الذين بنوا مدارسهم في بغداد تحت لواء الإسلام[٢].

ومن هنا بدا الفرق بين الحضارات المادية والحضارة الروحية؛ فالحضارة الروحية كالحضارة الإسلامية في بغداد تحمل طابعها الإسلامي الإنساني، الذي بني على الأخلاق والمنفعة الإنسانية، بعيدًا عن الأرباح المادية المجردة من القيم الإيجابية، يقول غوستاف لوبون: « إنّ خلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص».

ويرى المستشرق الروسي كراجكوفسكي "أنّ الحضارة والتأثير العباسي لم يصل إلى الغرب الأوروبي فحسب، بل حتى أقصى الشرق الآسيوي والشمال الأوروبي والآسيوي كالبلطيق وفنلندا، لذلك كتب لها الديمومة ما دامت البشرية على وجه الأرض».

(١) المورد، ص٢٤٥.

(٢) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٤٤.



منارة جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني



وبقت حضارة بغداد على الرغم من زوال الخلافة العباسية المؤسسة لها، بخلاف الحضارات المادية التي سرعان ما تذوب بانتهاء منفعتها المادي أو المتبني لها، وهذا ما أكده الأستاذ عبدالله عنان بقوله: «إنّ الدولة المغولية والتركية كالسلاجقة أو التتر، والصفوية والعثمانية وغيرهم من السابقين، تمكنوا من تكوين دول إسلامية كبيرة جغرافيًّا، لكنها لم تتمكن من تكوين حضارة، كما فعل المسلمون في بغداد، بل كانوا عالة على الحضارة الإسلامية في بغداد، وصبغت دولهم بالصبغة العسكرية فقط، حتى عدَّ أغلب الباحثين أن سبب ديمومة الخلافة العباسية على رأس الخلافة الإسلامية ما يزيد على خمسة قرون ونصف في بغداد، وما يزيد على القرنين خارجها، هي نتاج المساحة والحرية التي كان يتمتع بها العلماء الذين بدورهم دافعوا وقاوموا الواقع الهزيل للمجتمع البغدادي، وما إن سقطت الخلافة العباسية، واحتُلت بغداد من قبل المغول حتى دخلت المدينة في دوامة صراعات دموية للسيطرة على العرش، خلت فيها بغداد ولمرات عديدة من سكانها الأصليين؛ بسبب شدة الصراعات العسكرية التي كانت كفيلة بعدم ديمومة مُلك أحدهم، الأمر الذي وعاه جيدًا، وفطن له السلطان محمد الفاتح العثماني على الرغم من قوته العسكرية، وامتلاكه للأسلحة المتطورة كالمدافع العملاقة وغيرها، وفتحه للقسطنطينية التي مثلت نقطة الانطلاقة نحو الفتوحات الأوروبية المتتالية، إلا أنه كان يشكو دائمًا من قلة العلماء، ويدعو رجال دولته إلى استجلابهم وإغرائهم بالأموال من جميع أنحاء العالم[١]».

وبالعودة إلى الخلافة العباسية، فإن الارتقاء العلمي والنهوض الحضاري كانت لها مقومات وعوامل اعتمدت مع باكورة الحكم العباسي، ومن أهمها:

١- أسس أول معمل للورق في بغداد عام ١٧٨هـ لصنع الكاغد، وزاد الوراقون البغداديون حتى وصل عددهم قرابة مائة ورَّاق في سوق القراطيس[٢]، وهم أشبه بدور الطباعة ومعارض الكتب الكبيرة في عالمنا الحاضر.

٢- علاوة على ذلك كان الخلفاء العباسيون يبادلون الأسرى بالكتب؛ تشجيعًا للحركة العلمية في العاصمة بغداد، وكان من شروط المعاهدات التي وُضعت أن يصل العلماء المسلمون إلى مكتبات الكنائس وقصور بيزنطة[٣].

---

(١) إيناجيك، تاريخ الدولة العثمانية، ص٢٥٦.
(٢) مقدمة ابن خلدون، ص٢٤١.
(٣) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٤٨.

٣- للعلماء مكانتهم التي علت على مكانة الشعراء والندماء، وكان يسمح لهم بممارسة أدوارهم الاجتماعية في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنهم سهل بن سلامة الأنصاري الذي علق مصحفًا في عنقه، وأحبَّه الناس، وطاف شوارع بغداد يقاتل المفسدين، ومنهم أيضًا سالم بن سالم البلخي، وأسد بن يزيد، فالأول أنكر على الرشيد والثاني على الأمين لهوهما[(١)].

ولمكانة العلماء الاجتماعية فرضت لهم عمائم تميزهم عما سواهم تشريفًا لهم وحفاظًا على مكانتهم.

وقد قام العلماء بواجبهم العلمي والإصلاحي على الرغم من المنغِّصات التي أصابت الناحية الفكرية لمدينة بغداد زمن التسلط البويهي، وكثرة المعارك الطائفية، حتى قتل بعض العلماء والفقهاء، ومُثِّل بجثثهم بعد حرق دورهم، ونبش قبورهم؛ كقتل مدرس الحنفية العلامة أبي سعيد الرحبي.

كما أن بغداد سرعان ما عادت لتستعيد مكانتها الروحية والعلمية بزوال التسلط البويهي، حتى وصفها المؤرخون بأنها تمثل أعظم الجوانب الروحية والفكرية للعالم الإسلامي، ومركز قلبها النابض على الرغم من تشتت أرض الخلافة، وتناحر الإخوة، يقول غوستاف لوبون: «عندما كانت بغداد مركزًا أضاءت العالم بنورها الوهاج، كانت أوروبا غارقة في دياجير الهمجية»، ويقول ج. د. برنال: «فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا»[(٢)].

وعبر بعضهم عن حادثة سقوط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ بشتى عبارات الحزن والأسى، ووصفها ابن خلدون بأنها: (طمس معالم الملة، وكادت أن تكون من أشراط الساعة)[(٣)].

ومثَّل احتلال المغول لبغداد بداية جادة لحروب الهوية التي استعاضت عن حروب التبعية، التي كان من نتاجها الإيجابي إيقاف الزحف المغولي نحو بلاد الشام ومصر، ويرى مؤرخ المغول وحاكم بغداد عطا ملك الجويني: أنّ مكانة بغداد بعد الاحتلال المغولي، وعلى الرغم من الإصلاحات التي استحدثها، لم يكن ليضيف إليها تلك الشهرة الكبيرة التي كانت تمتلكها بين الأقاليم كما استقر في الأذهان قبل ذلك[(٤)].

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم حوادث سنة ٢٠١؛ سليمان، الفوز بالمراد ص٩٩.

(٢) لوبون، حضارة العرب ص١٧١، ومجلة المورد، ص٢٤٥.

(٣) عبد السلام، تاريخ الدولة المغولية، ص١٣١.

(٤) السعيد، علاء الدين الجويني، ص٣١.



والسبب في ذلك هو احتقار المغول للمدارس، وحرقها بعد نهب كتبها، وعمّت المجاعة، وباع الناس كتبهم بأبخس الأثمان، وظهرت مكتبات بغداد الكبيرة في مدن أخرى، كما نقل لنا صاحب كتاب الحوادث الجامعة، ويرى المستشرق إدوارد براون "أنّ اللغة العربية ضُرِبَتْ في الصميم بعد الغزو المغولي، وبعد تحطم مكانة بغداد كعاصمة للمسلمين، وإنزالها إلى المدن الإقليمية، وأصيب رباط الوحدة بين الأمم والشعوب الإسلامية بلطمة شديدة، كما أصاب مكانة اللغة العربية في إيران بضربة قاصمة، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على علوم الفقه والفلسفة، فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري، لم نعد نصادف إلا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في إيران»[(١)].

وهذه الحالة استغلتها الشعوبية الفارسية فيما بعد، وبدءوا يروِّجون لفارسية الحضارة الإسلامية في بغداد، وتبنّي السابق واللاحق من المنجزات العلمية البغدادية، ونسبها إليهم بعد ترجمتها إلى اللغة الفارسية، وهذا في حقيقة الأمر لا دليل له من الصحة، وباطل ما استدلوا به عليه، وذلك من وجهين:

الأول: قالوا بأعجمية بعض العلماء[(٢)]، وأنهم فرس، والحقيقة أنه لا صحة لفارسية الأعاجم فليس كل أعجمي فارسيًّا، كما يروِّج له.

والثاني: قالوا بالجذور الفارسية للعلوم والآداب العربية، والحقيقة أنّ الحضارات العراقية القديمة خلَّفت لنا آلاف النصوص الأدبية والعلمية، التي تروي مرحلة رقيها الحضاري إبان حكمهم للعراق ما قبل الحقبة الساسانية، والتي هي الأخرى تبنَّت اللغة الآرامية السامية لتدوين نصوصها الأدبية، بينما الحضارة الفارسية كما يسمونها لم يشتهر منها في الأدب الإسلامي سوى ترجمتهم لكتاب كليلة ودمنة الهندي الأصل، ومن برز من العلماء الفرس إبان الخلافة الإسلامية، فحالهم كحال بقية العرقيات المسلمة شرقها وغربها[(٣)].

وبالعودة إلى الحضارة البغدادية فقد عانت من تدنٍ شديد، وانعدام الاهتمام فيها بعد سقوط الخلافة العباسية حتى تاريخنا المعاصر وقيام المملكة العراقية، وهذا ما يمكن ملاحظته في حديثنا

---

(١) براون، تاريخ الأدب، ص٥٦٤.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص٥٤٣.

(٣) مطر، الذات الجريحة، ص١٠٣.

التالي عن المدارس البغدادية وعلمائها، وانعكاس ذلك على المنجزات المادية للمرحلة الزمنية؛ إذ يرى بعض الباحثين: أنّ التعليم في العراق بدأ بالانحطاط ابتداءً من دخول المغول إلى بغداد، ثم توالت الاحتلالات الهمجية على المدينة، حتى حُصِر التعليم في المساجد والكتاتيب لكثرة الخراب الذي أصاب المؤسسة التعليمية وإهمالها تمامًا، واندراس المدارس وتشريد العلماء ونهب الكتب أو حرقها[١].

واستمر الأمر كذلك حتى قدَّر بعضهم عددَ الكتاتيب في عموم العراق في أواخر العهد العثماني بـ(٤٠٠) من الكتاتيب، على الرغم من قلة العدد وعدم دقة الأرقام؛ كونها غير رسمية، إلا أنها قدرت حصة كرخ بغداد من الكتاتيب بخمسة فقط[٢].

وقد يعود سبب ذلك إلى:

١- الفوضى، وهي السمة الأبرز التي رافقت أواخر الحكم العثماني، فضلاً عن قلة الاهتمام بالحالة المعيشية والصحية للسكان[٣].

٢- الطبقية وكثرة الأوبئة والأمراض، وقلة المعدل الإنمائي للسكان[٤].

٣- سيادة اللغة التركية في الدواوين الحكومية في بغداد خلافًا للغة الأصلية للسكان، وبسبب انحسار التعليم العام في بغداد بالمؤسسات الدينية كالمدارس الدينية والمساجد والكتاتيب.

ومع ذلك صبغت الفئة المثقفة البغدادية بالصبغة الإسلامية، ومن ذلك إشارة المؤرخين إلى نخوة بغداد الإسلامية قياسًا بالنخوة القبائلية التي ميزت مواقف قبائل الفرات الأوسط في ثورة العشرين، بحسب تعبير المس بيل سكرتيرة الحاكم السياسي في العراق.

ومن الأحداث التي أكدت الروح الإسلامية للثقافة الفكرية البغدادية هي ثورة سكان بغداد عام ١٩٠٨م ضد الاتحاد والترقي، مطالبين بتحكيم الدين الإسلامي في الدستور العثماني، وانطلاق الثورة بعد صلاة التراويح، مما حدا بالاتحاديين إلى طرد العلماء من مناصبهم وتولية الجهال محلهم[٥]، وعندما

(١) حازم، تطور التعليم في العراق، ص١.
(٢) أحمد، تطور التعليم الوطني، ص٢٦.
(٣) فيضي، مذكرات، ص٧٠.
(٤) العزاوي، بين احتلالين، ج١ص٤٣٣.
(٥) بطاطو، العراق، ج١ص٢٠١.

أراد الاتحاديون فرض سطوتهم على المدينة من خلال إلقاء بياناتهم عبر منابر المساجد غضب الناس، وخرجوا في تظاهرة تنادي (الدين يا محمد) وصلت إلى القشلة (سراي الحكومة العثمانية)، وعمَّت الفوضى والاضطرابات بغداد[١].

ولما حاولت إحدى الشخصيات البغدادية، المعروفة بولائها العلماني، الترويج لحزب الاتحاديين، والكلام عن حرية المرأة المطلقة حتى في ارتياد المقاهي، كما حدث في أوروبا بعد خروجهم من طوق الكنيسة، طرق بابه مجموعة من أهل محلته، وطالبوه بأن يبعث معهم زوجته لكي تأخذ حريتها معهم في المقهى البغدادي، فعرف حينها فداحة فكره ومقالته، واعتذر عن ذلك، بعد أن حذروه من الخروج على ثقافة المساجد الإسلامية التي ميزت العاصمة بغداد في حشمتها واتزانها الأخلاقي.

ومن الجدير بالذكر، ومما لا يسعنا إغفاله، أن وصول المطابع الحجرية إلى بغداد كان له أبلغ الأثر في ازدياد تداول الكتاب، وكثرة المطبوعات بين أفراد العامة، والتي كانت القراءة الأدبية والتراثية والإخبارية أهم ما يميز مجالسهم، وعلى اختلاف مستوياتهم[٢].

في عام ١٨٢١م وصلت أول مطبعة حجرية إلى بغداد، وكان كتاب (دوحة الوزراء) الذي يُعنَى بتاريخ مدينة بغداد، أول الكتب طباعة في بغداد على الإطلاق، ثم وصلت مطبعة ثانية إلى بغداد عام ١٨٦١م، وكان من أول مطبوعاتها كتاب (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب)، ثم جلب مدحت باشا عام ١٨٦٩م مطبعة حروفية آلية تدار بالبخار لطباعة جريدة الزوراء، وقد زودت بالأجهزة الحديثة، وفي عام ١٨٩١م أسس إبراهيم باشا في بغداد مطبعة جديدة سميت بمطبعة (دار السلام) وطبع فيها كتاب (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) للسيد محمود شكري الآلوسي، الذي نال به وسامًا من ملك السويد، وهو ما يوازي جائزة نوبل للأدب في أيامنا الحاضرة، وفي عام ١٩٠٢م أسس الحاخام عزرا دنكور في بغداد مطبعة عدت من أكبر مطابع بغداد، تهتم بطبع الكتب اليهودية بالعبرية والأوراق التجارية، وفي عام ١٩٠٧م أسس محمود الشابندر مطبعة (الشابندر)، وكانت تدار بمحركين بخاريين تطبع في الساعة (٣٠٠٠) نسخة، ثم توالت المطابع على بغداد[٣].

---

(١) العزاوي، بين احتلالين، ج٨ص ١٦٠-١٧٢.
(٢) الوردي، لمحات، ج٣ص ٢٤٥.
(٣) الوردي، لمحات، ج٣ص ٢٤٥-٢٤٨.

ومما وُصِف به التعليم قبل الحرب العالمية الأولى بالانحطاط، وكثرة المدارس اليهودية والنصرانية[(١)]، يرافقه سوء المستوى المعيشي للعلماء المسلمين في بغداد.

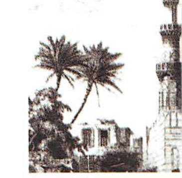
وعلى الرغم من أنّ الملكية العراقية كانت من أوائل الدول العربية في تطوير القطاع التعليمي بكل مراحله، وعقدت لذلك المؤتمرات التربوية، وكان أولها عام ١٩٣٢م الذي دام أسبوعًا كاملاً، ووضعت التوصيات بعد ذلك بضرورة الاطمئنان للمستوى الأكاديمي للمعلم العراقي، إلا أن الأنظمة العسكرية السلطوية عملت خلافًا لذلك لافتقارها للفكر العمراني الشامل، ففي انقلاب عبدالكريم قاسم الدموي وبعد إبادة العائلة الهاشمية المالكة، عمد قاسم -ولكسب التأييد الشعبي الذي فقده بعد ثورة ١٩٥٨م وما رافقه من نكبة لعبدالسلام عارف-، إلى إدخال طلاب الحوزة الشيعية في مدارس بغداد كمدرسين؛ في محاولة منه للزجّ بهم في الوسط المثقف البغدادي، وحسابهم عليه[(٢)].

ومما تفخر به العاصمة بغداد في جمهوريتها الثالثة إصدارها لقانون محو الأمية، الذي قضى على الأمية بصورة شبه كاملة، ودعمت العملية بالأموال، وسخرت لها كل إمكانيات الحكومة، حتى ضاهت بغداد والعراق مدن ودول العالم في مستوى التعليم بمراحله كافة.

وعلى الرغم من كل ما تقدم فإن بغداد لم تخلُ في حقبة من حقب الزمان من العلماء والمفكرين والمثقفين، وبالرغم من شدة الانتكاسات التي أصابت المدينة على مر العصور، وما يرافقها من انعدام للدعم الحكومي لحركة النهضة الفكرية، التي قد تحتاج إليها تجارة العلوم العقلية، إلا أن العلوم النقلية، وخصوصًا الشرعية منها، ظلت محافظة وبشكل دائم على عراقتها، من خلال إيجاد البدائل لوسائل تناقل المعلومة بعد الانهيار شبه التام للمنظومة التعليمية البغدادية، فكانت المساجد والكتاتيب ومجالس الفقهاء والقضاة والأغنياء ومجالس العامة كلها كانت عبارة عن مدارس علمية شرعية حقيقية تارة، تمنح فيها الإجازات العلمية، وتثقيفية تارة، يحافظ فيه المجتمع على إطاره الحضاري الإسلامي من المؤثرات الحديثة.

---

(١) فيضي، مذكرات، ص١٦٢.
(٢) خيون، الأديان والمذاهب، ص٣٠٤.



وعليه فإن حضرية مدينة بغداد وبُعدها عن الحياة الصحراوية جعل منها قبلة العلماء حالما تتأتى الفرصة لذلك، ومن الملاحظ على كتاب الأستاذ الدروبي عن العوائل البغدادية أنهلم يكن يذكر العائلة البغدادية في خانة المشاهير إلا إذا تميزت بمجالسها العلمية كما بيَّن لنا الدكتور عماد عبدالسلام رءوف، وعلاوة على ذلك سرد لنا الأستاذ الدروبي عشرات العوائل البغدادية العريقة بنسبها ومجالسها العلمية، وهذا يدل على نشاط فكري وثقافي ملحوظ تقوده الروح البغدادية المثقفة التي لم تفارق ساكنيها بالرغم من تخلِّي الحكومات عن دعمها.

المؤسسات العلمية والتعليمية البغدادية:

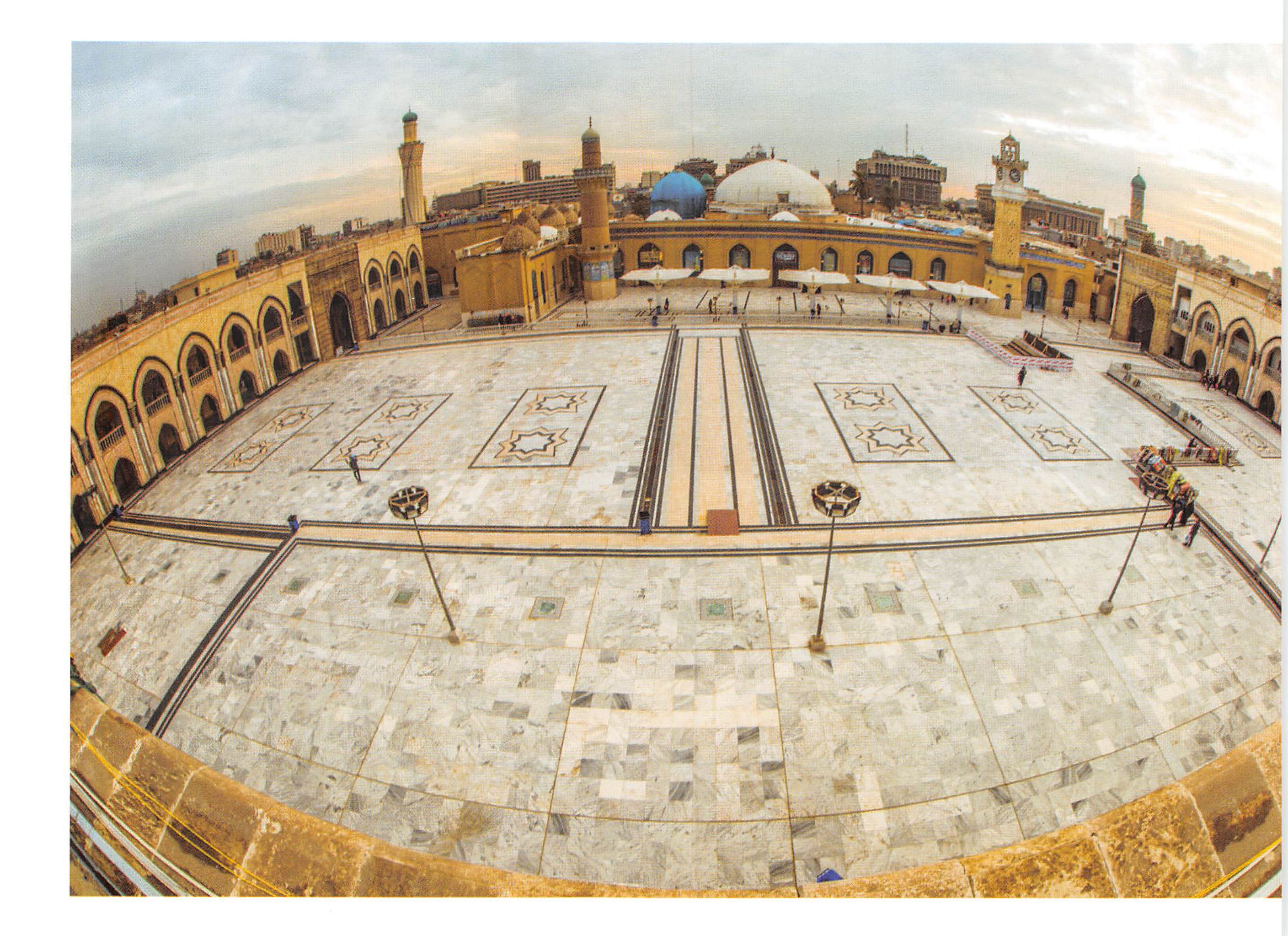
ما إن خرج الإسلام من بطن الجزيرة العربية حتى حدثت أكبر عملية تزاوج فكري عمت أرض الخلافة الإسلامية، وصبغت الحياة الفكرية الاجتماعية فيها بالصبغة العربية الإسلامية، والواقع أنّ العرب المسلمين كانوا وهم في غمار الفتوحات الإسلامية لنشر الدين، يعملون في ذات الوقت على نشر العلم في الأرض التي يحلون بها، ويضعون أسسًا لنهضة علمية مزدهرة، يقول المستشرق هربرت جورج ولز: «العلم كان يثب على قدميه وثبًا في كل موضع وطأته قدم الفاتح العربي»، وهم أرحم الفاتحين في التاريخ؛ كما يصفهم غوستاف لوبون.

وعلى الرغم من ازدهار العلوم التطبيقية، وحركة الترجمة في العصور التي سبقت الخلافة العباسية، إلا أنها كانت حجر الأساس لعمل منظم ومنضبط قائم على التجربة والبرهان، مثل تأسيس بيت الحكمة، الذي وضع حجر أركانه الخليفة هارون الرشيد حتى غدا مؤسسة علمية متكاملة الأركان، وعُدت مكتبته العملاقة[١] من أكبر ثلاث مكاتب إسلامية شهدتها البشرية[٢]، على الرغم من أنه لم يصل إلينا منها إلا القليل بسبب الغزو المغولي الذي سرقها ونقلها في مجملها إلى مقبرتها من بلاد فارس وأذربيجان؛ حيث أُتلفت وأُهملت وماتت بجهلهم، وعلى كل حال فقد تنوعت المدارس البغدادية كلّ بحسب اختصاصه، والمرحلة التي مثَّلها من عهود التاريخ البغدادي.

ففي الوقت الذي مثلت فيه الكتاتيب المرحلة الأولى من مظاهر الجانب الفكري لمدينة بغداد قبيل تأسيسها كعاصمة للخلافة الإسلامية، أصبحت المساجد البغدادية المرحلة الثانية من مراحل التطور

(١) الدينوري، المعارف، ص٣٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١ ص٥٣٧.

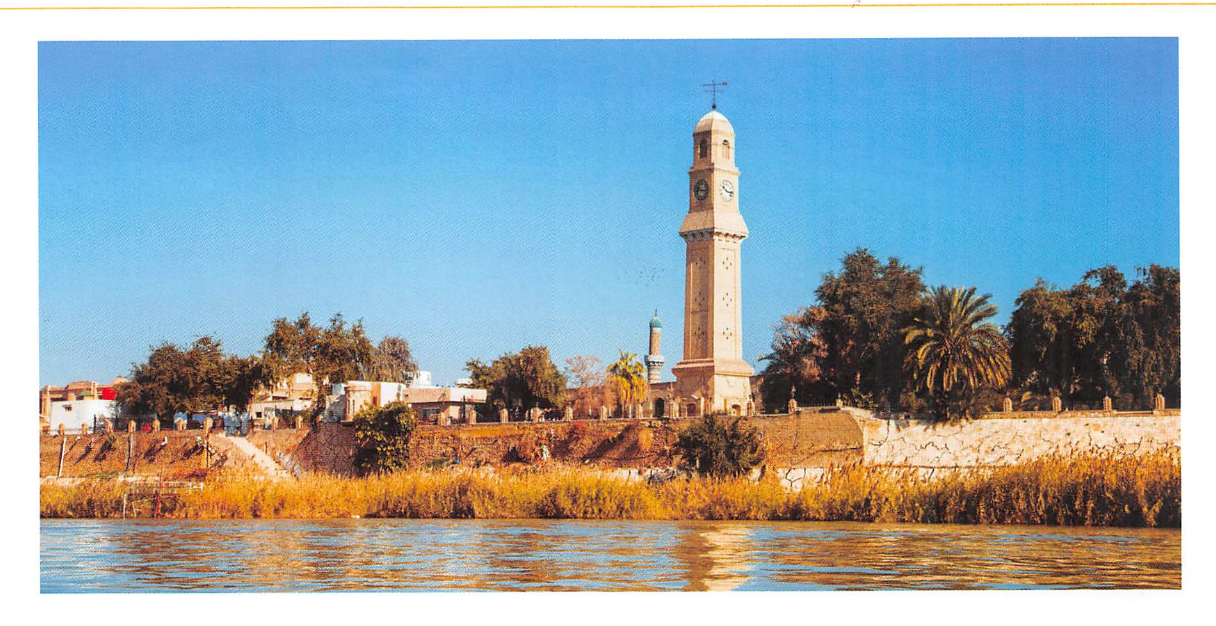


الحضاري الفكري لمدينة بغداد، وبما أن المساجد لم تفقد دورها الريادي في الحركة الفكرية البغدادية، حتى بلغت حلقات مسجد بغداد التعليمية الخمسين حلقة[١]، إلا أنها كانت تمثل المرحلة الأولية للدراسات التطبيقية، علاوة على أنها كانت تمثل جميع المراحل للعلوم النقلية، فهي عبارة عن كليات وجامعات مستقلة تمثل مدارس وأساليب مختلفة تبعًا لطريقة تفكير مذاهب علمائها.

ثم ظهرت المدارس والمكتبات والمستشفيات، لتسهم في استكمال الصورة الحضارية الفكرية للعالم الإسلامي، وكانت الإجازات العلمية الصادرة من مدارس بغداد الفكرية تكتسب صفة القبول العالمي لرصانتها وعلو شأنها العلمي، يقول المستشرق ج- د.برنال: «فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا».

(١) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٢٠٣.





ومن المؤسسات العلمية والتعليمية البغدادية:

أولاً: المساجد والجوامع:

١- جامع المنصور:

وهو أول جامع شيِّد ببغداد من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور، عند بنائه مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، ولم يزل الجامع على حاله إلى وقت هارون الرشيد الذي أمر بنقضه وإعادة بنائه بالآجر والجص، وقد فرغ من تجديده سنة ١٩٣هـ، وفي زمن المعتضد العباسي أضاف الصحن الأول وهو قصر المنصور ووصله بالجامع.

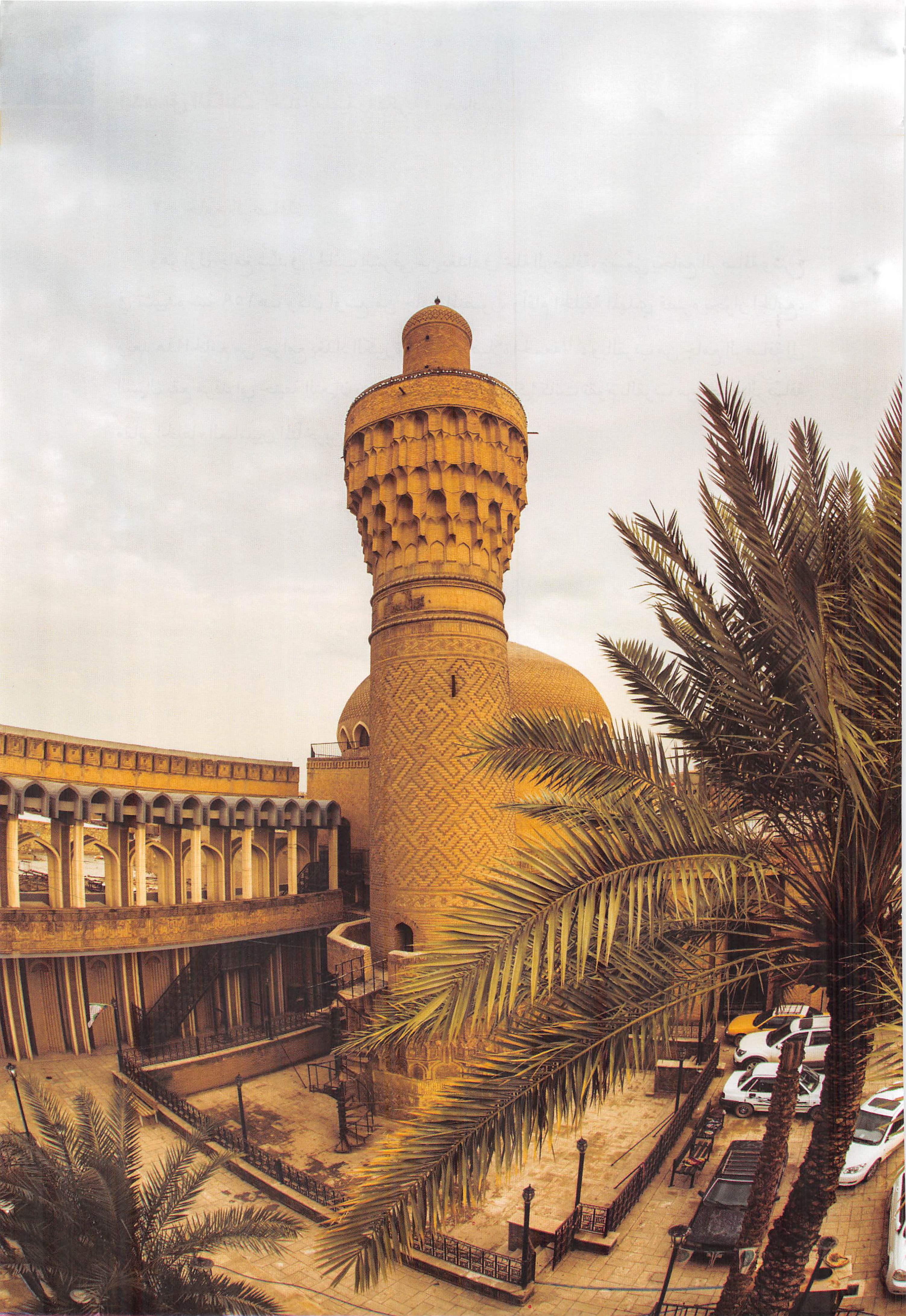
وجرت على الجامع إضافات وزيادات في أوقات مختلفة، وكان لهذا الجامع قيمة حضارية؛ إذ كان مركزًا للتدريس، وتلقي العلوم، وكان التدريس في جامع المنصور أمنية كثير من العلماء والفقهاء، ذكر أن الخطيب البغدادي لما حجَّ شرب من ماء زمزم، سأل الله أن يحقِّق له ثلاث حاجات، إحداها: أن يحقق له إملاء الحديث بجامع المنصور، وكان الكسائي العالم اللغوي الكبير في جامع المنصور يدرس اللغة، وتتلمذ عليه الفراء وابن السعدان(١).

وبقي جامع المنصور إلى أيام الرحالة ابن بطوطة سنة ٧٢٧هـ، وقال: إنّ هذا المسجد لا يزال قائمًا تقام فيه صلاة الجمعة(٢).

---

(١) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء ج١ ص٢٤٦، وج٤ ص٢٤٣.

(٢) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة ص ١٤٢.





٢- جامع الرصافة:

وهو أول جامع شُيِّد في الجانب الشرقي من بغداد في محلة الرصافة، وسُمِّي بجامع الرصافة وشرع في تشييده سنة ١٥٩هـ، وكان أوسع من جامع المنصور، وأقام الخليفة المهدي قصره بجوار الجامع، ويعد هذا الجامع من جوامع بغداد الكبيرة وتقام فيه صلاة الجمعة[(١)]، وبالقرب من جامع الرصافة إلى الشمال يقع مرقد أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ) كما كانت تقوم بالقرب من جامع الرصافة مقابر الخلفاء العباسيين المتأخرين[(٢)].

(١) ابن الجوزي مناقب بغداد، ص ٢٢.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١ ص١٠٩.

٣- جامع القصر (الخلفاء):

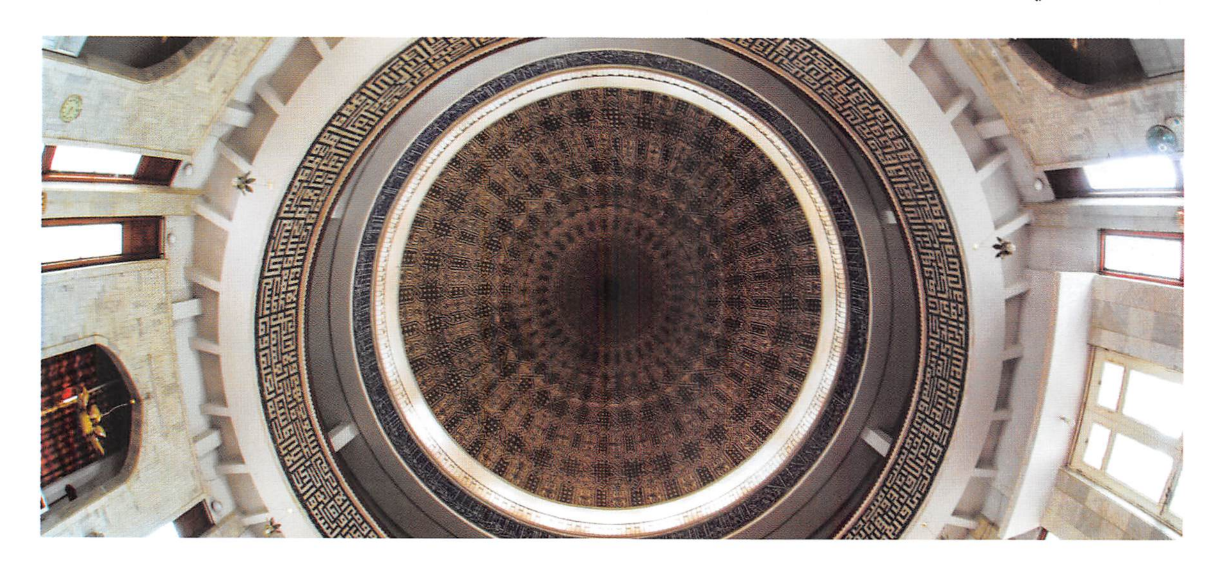
ويعرف بجامع الخلفاء، أسسه الخليفة العباسي المكتفي بالله (خلافته ٢٨٩-٢٩٥هـ) في شرقي دار الخلافة العباسية، وكان باب الجامع مجاورًا لباب العامة أحد أبواب دار الخلافة، وصار هذا الجامع هو المكان الرسمي الذي يؤدي فيه الخليفة العباسي صلاة الجمعة مع حاشيته وأركان دولته، وفيه تُقرأ عهود القضاة، ويُصلَّى على جنائز الأعيان والعلماء، وتُعقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين، وصارت صلاة الجمعة في بغداد إلى الجوامع الثلاثة؛ جامع المنصور، وجامع الرصافة، وجامع الخلفاء، كما يقول الخطيب البغدادي[١].

وقد زاره الرحالة العربي ابن جبير، وقال عنه: إنه متصل بدار الخليفة، وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة للوضوء والطهور[٢]، وذكر ابن الفوطي[٣] أنه شُيِّدت لهذا الجامع مئذنة ٦٧٨هـ، أيام إباق بن هولاكو وولاية عطا ملك الجويني الذي تولى حكم العراق سنة ٦٥٧هـ.

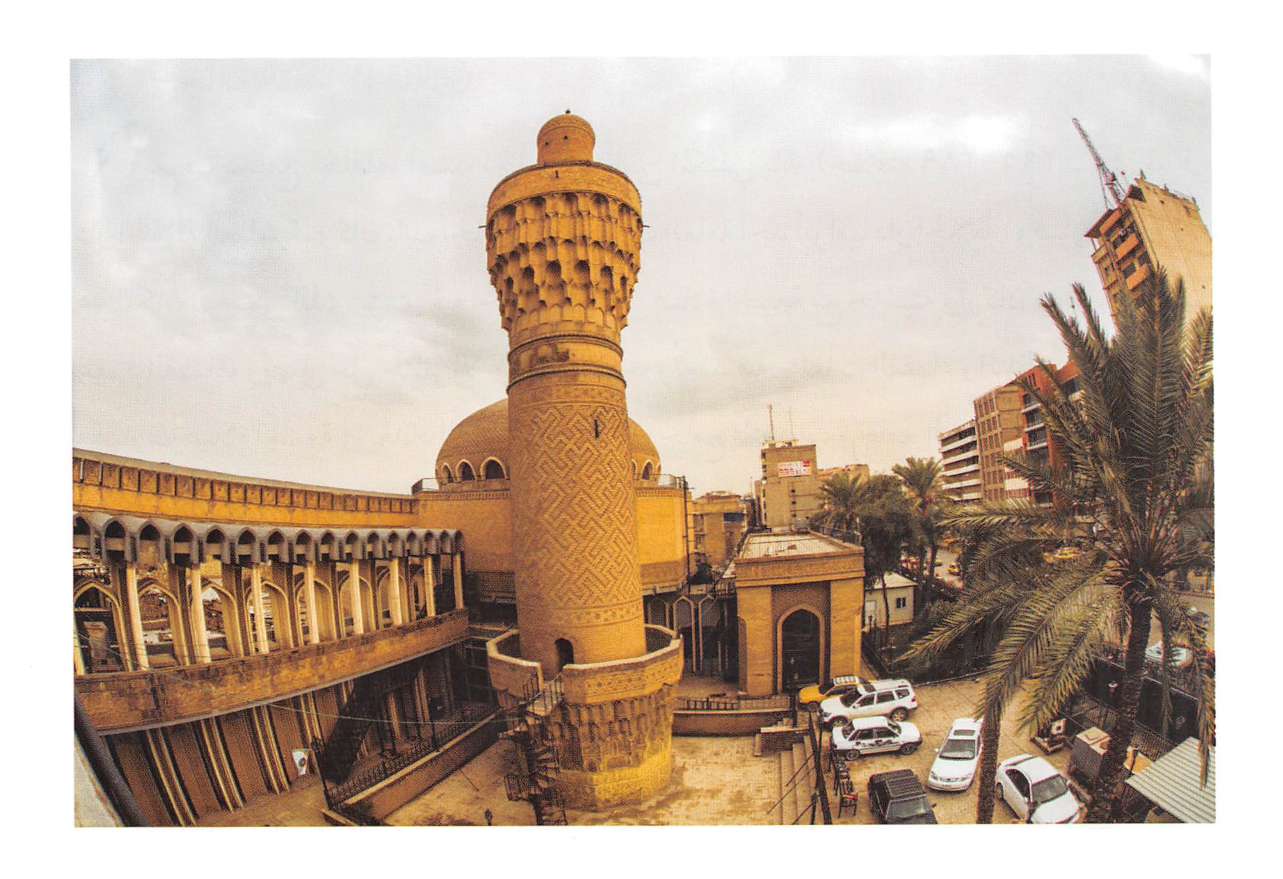
وفي سنة ١٩٦٠م شيدت مكان المئذنة القديمة مئذنة جديدة، وأعيد بناء الجامع على الطراز الذي أنشئ عليه أيام العباسيين، وهو اليوم من المعالم التراثية التي تعبِّر عن الطراز والفن الإسلامي وتُقام الصلاة في هذا الجامع الذي يعرف اليوم في بغداد بجامع الخلفاء كما سمِّي الشارع الذي يقع عليه بشارع الخلفاء وهو من الشوارع الحديثة التي أنشئت في العهد الجمهوري.

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١ ص١١٠.
(٢) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، رحلة ابن جبير ص١٨٢.
(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٣٩.





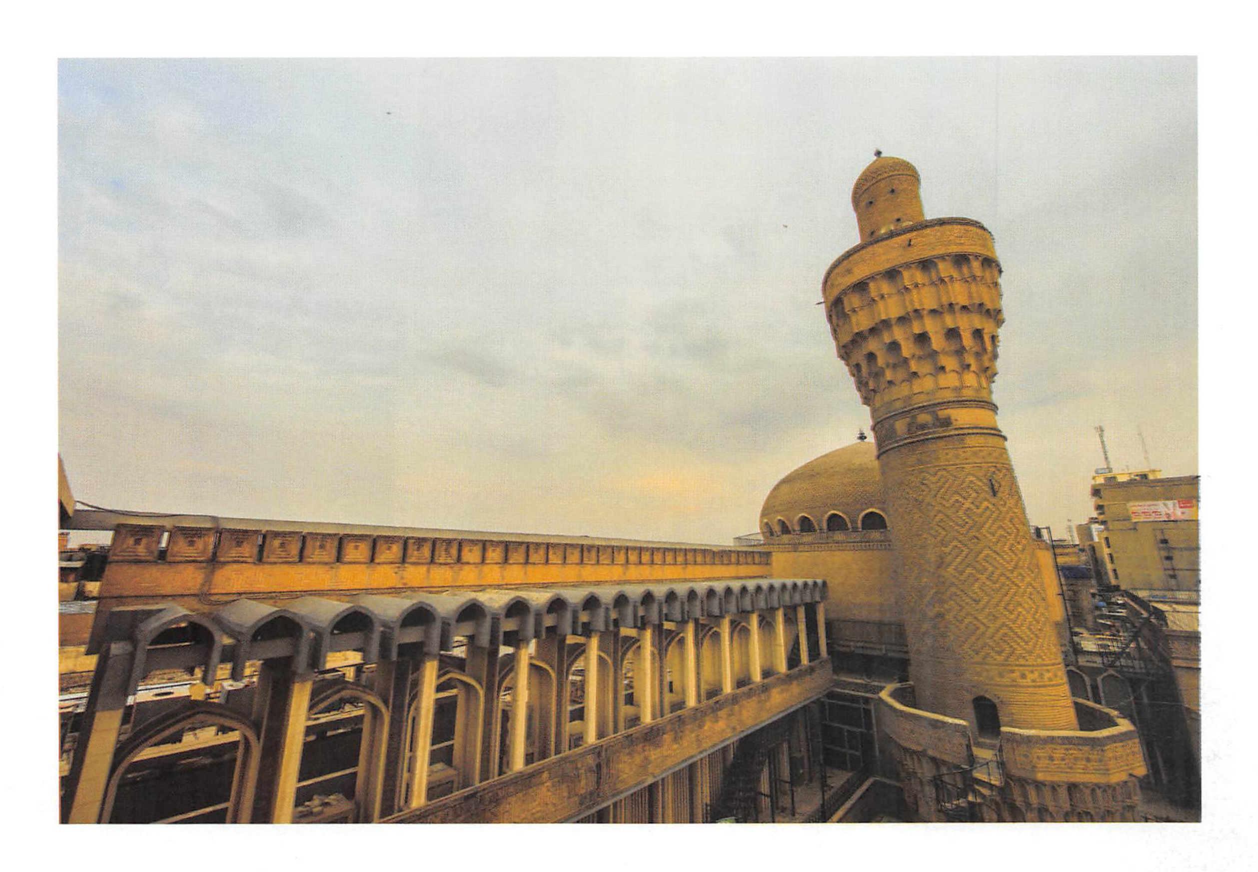




REMOVED



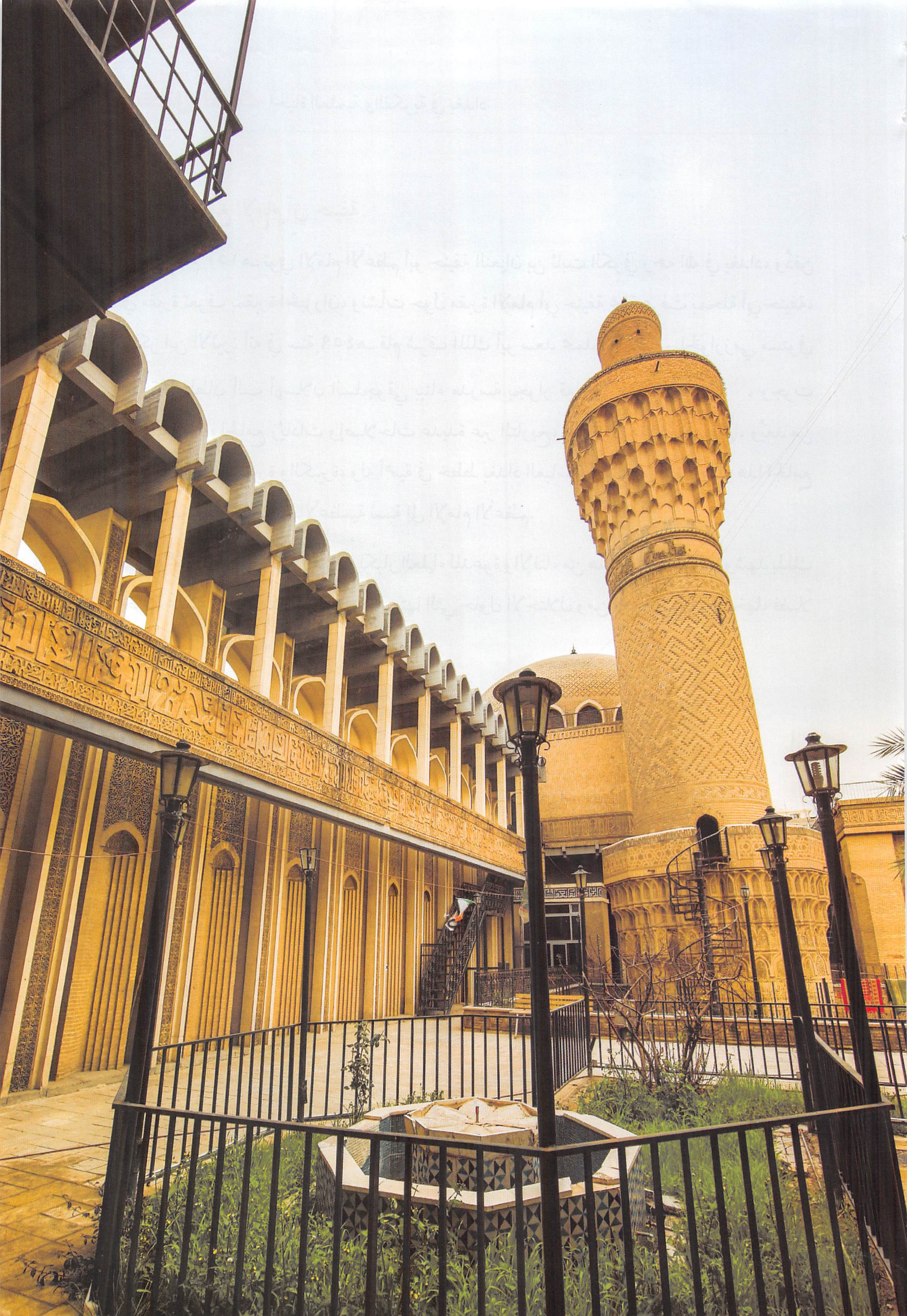














٤- جامع الإمام أبي حنيفة:

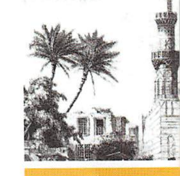
في عام ١٥٠هـ توفي الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رحمه الله في بغداد، ودُفن في مقبرة تعرف بمقبرة الخيزران، ونشأت حول مقبرة الإمام أبي حنيفة محلة عرفت بمحلة أبي حنيفة، وذكر ابن الأثير: أنه في سنة ٤٥٩هـ قام شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان السلجوقي ببناء مدرسة بجوار قبر أبي حنيفة لأصحابه[(١)]، وجرت على المدرسة والجامع زيادات وإصلاحات عديدة عبر التاريخ، ولا يزال هذا الجامع قائمًا، ويُعد من مساجد بغداد الشهيرة والكبيرة، وله أهمية في خطط بغداد العباسية، وبمرور الزمن صار هذا الجامع وسط مدينة كبيرة تعرف بالأعظمية نسبة إلى الإمام الأعظم.

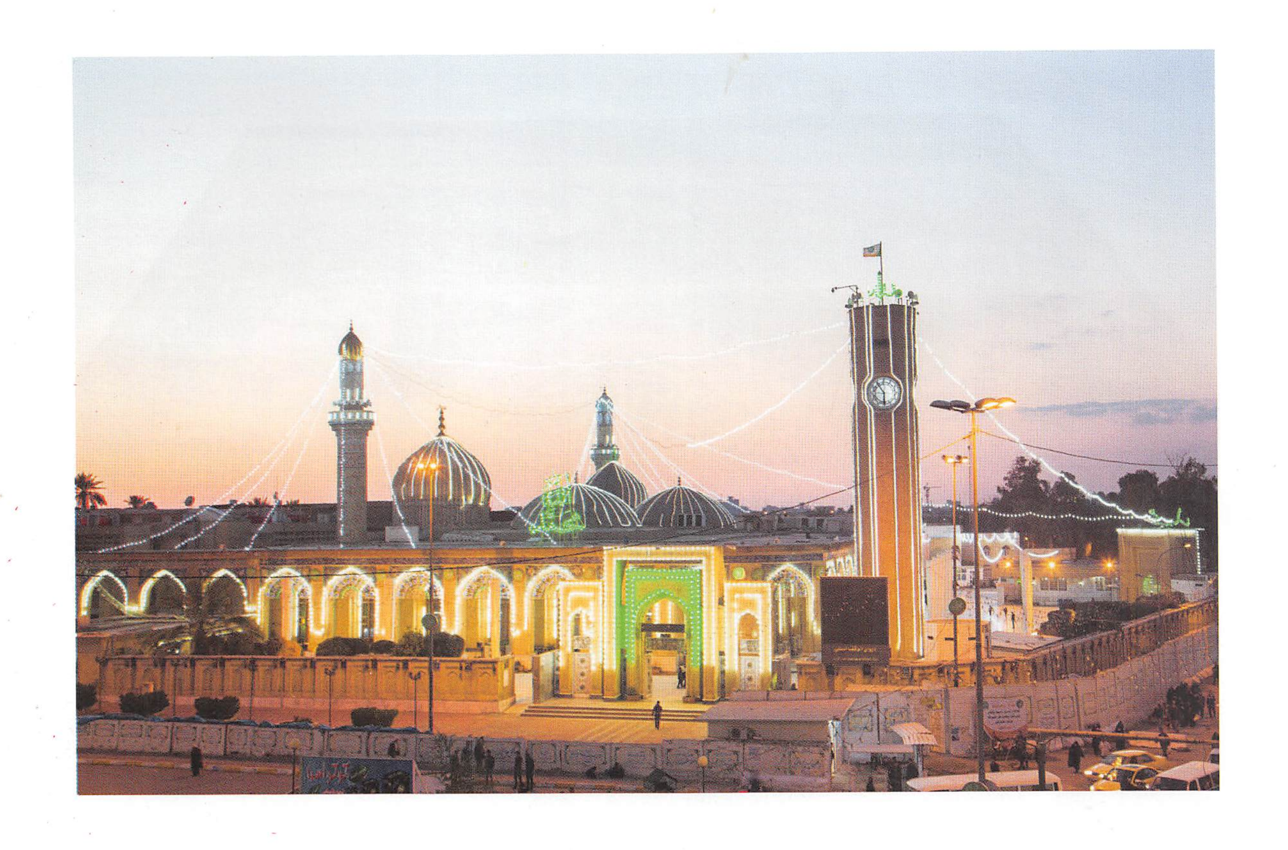
واتخذ المجمع الفقهي العراقي لكبار العلماء للدعوة والإفتاء من هذا الجامع مقرًّا له، وشهد بذلك حركة علمية أعادت لبغداد شيئًا من هويتها التي حاول الاحتلال ومن معه طمسها ومسخها، فضلاً عن مجاورة كلية الإمام الأعظم الجامعة له.

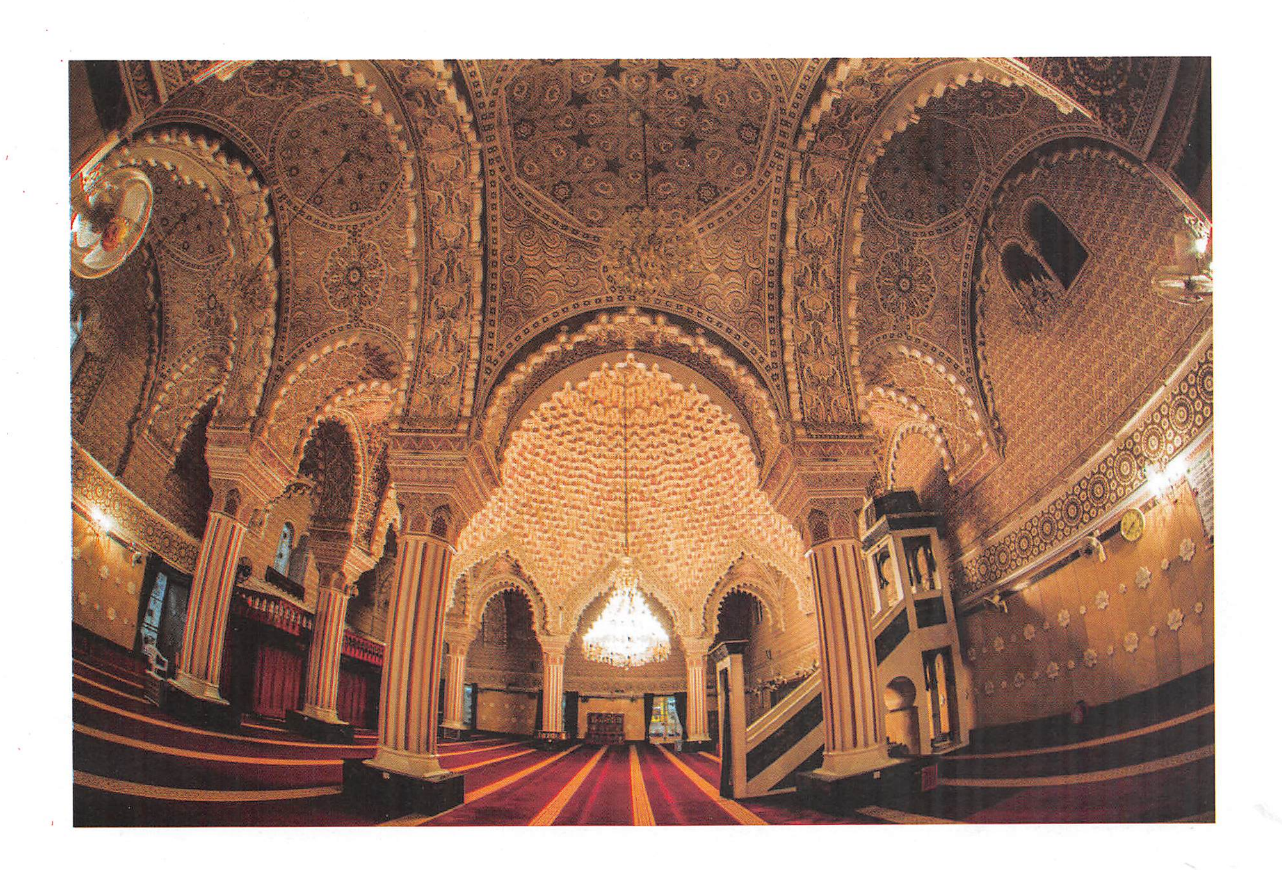


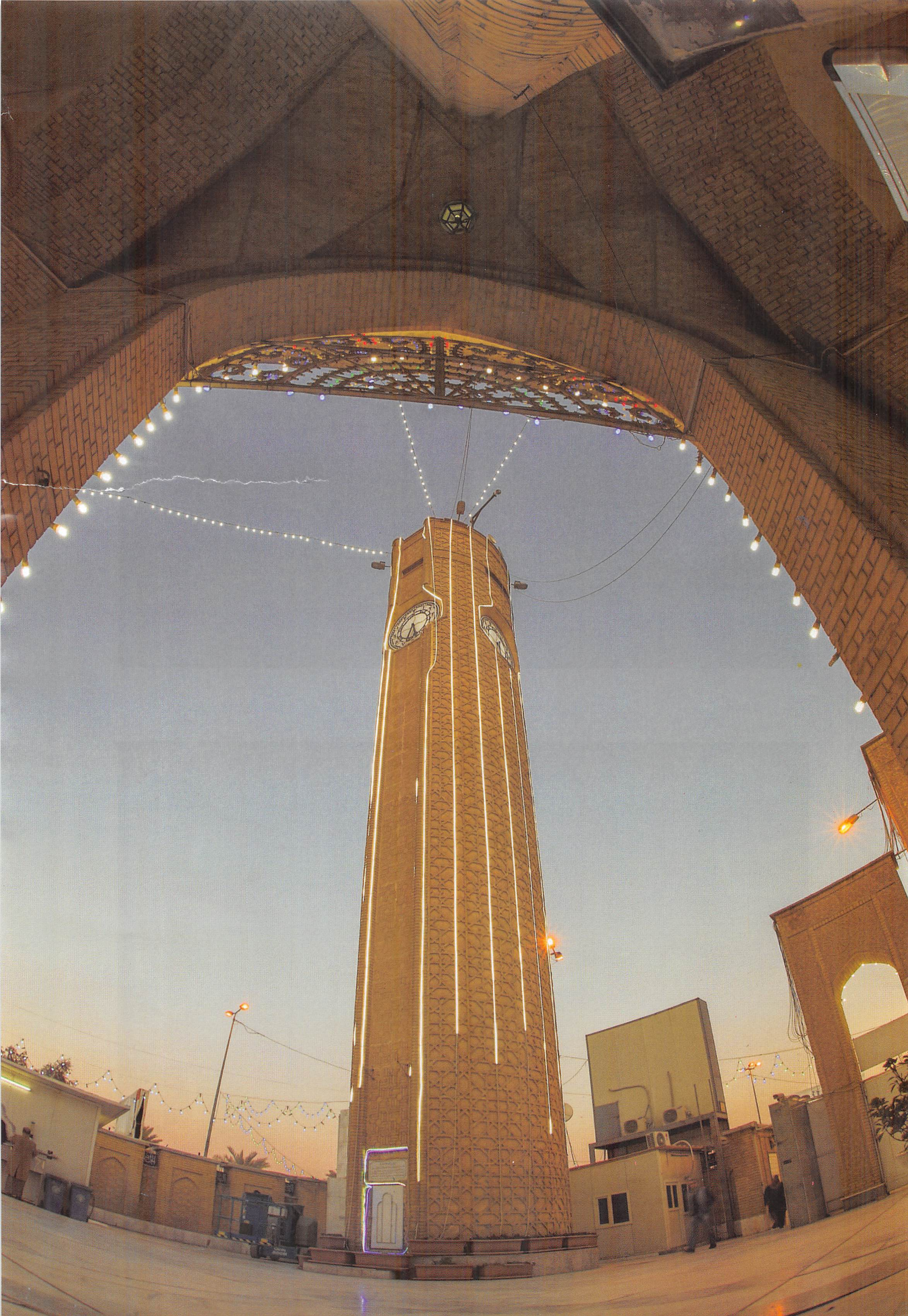
(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨ ص١٠٥.

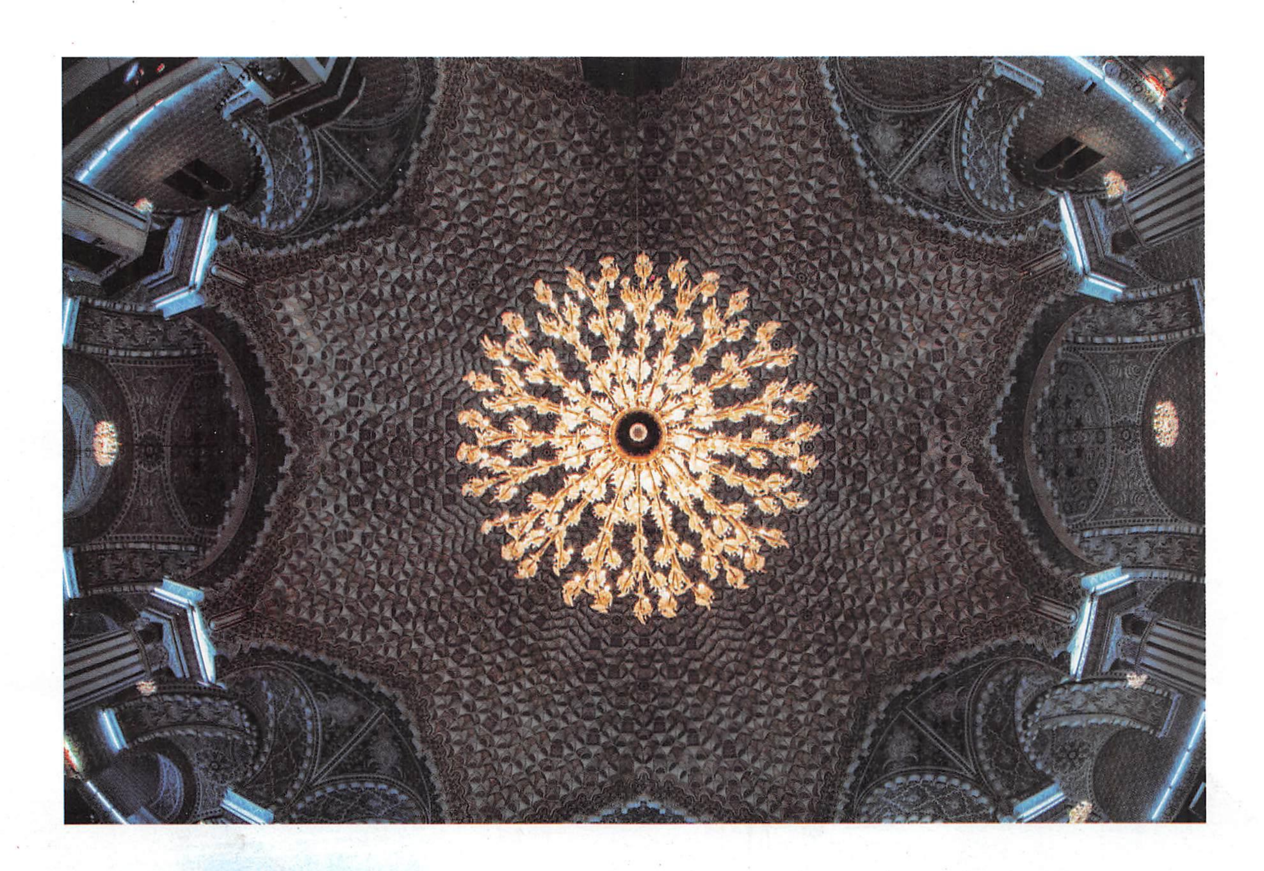




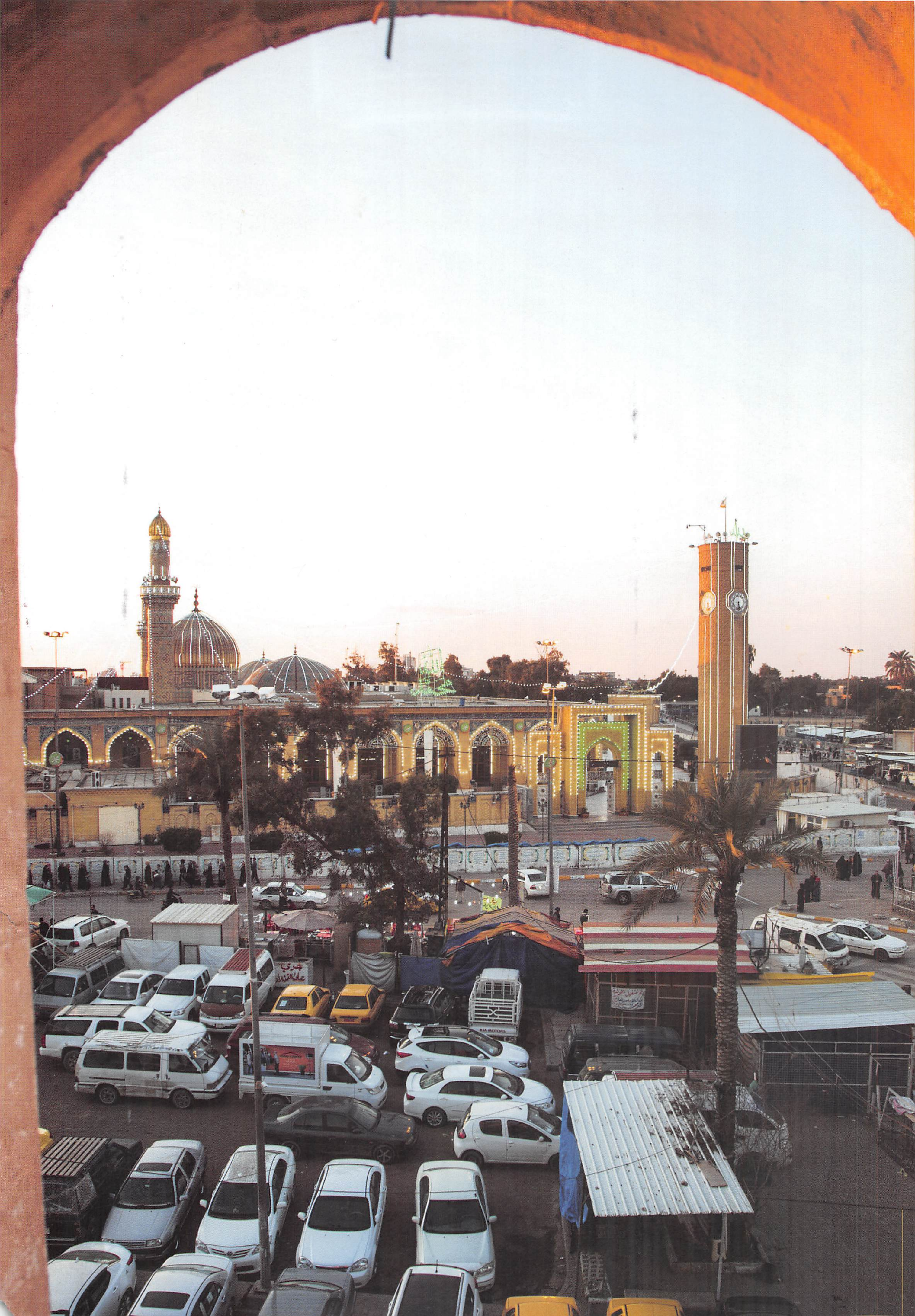


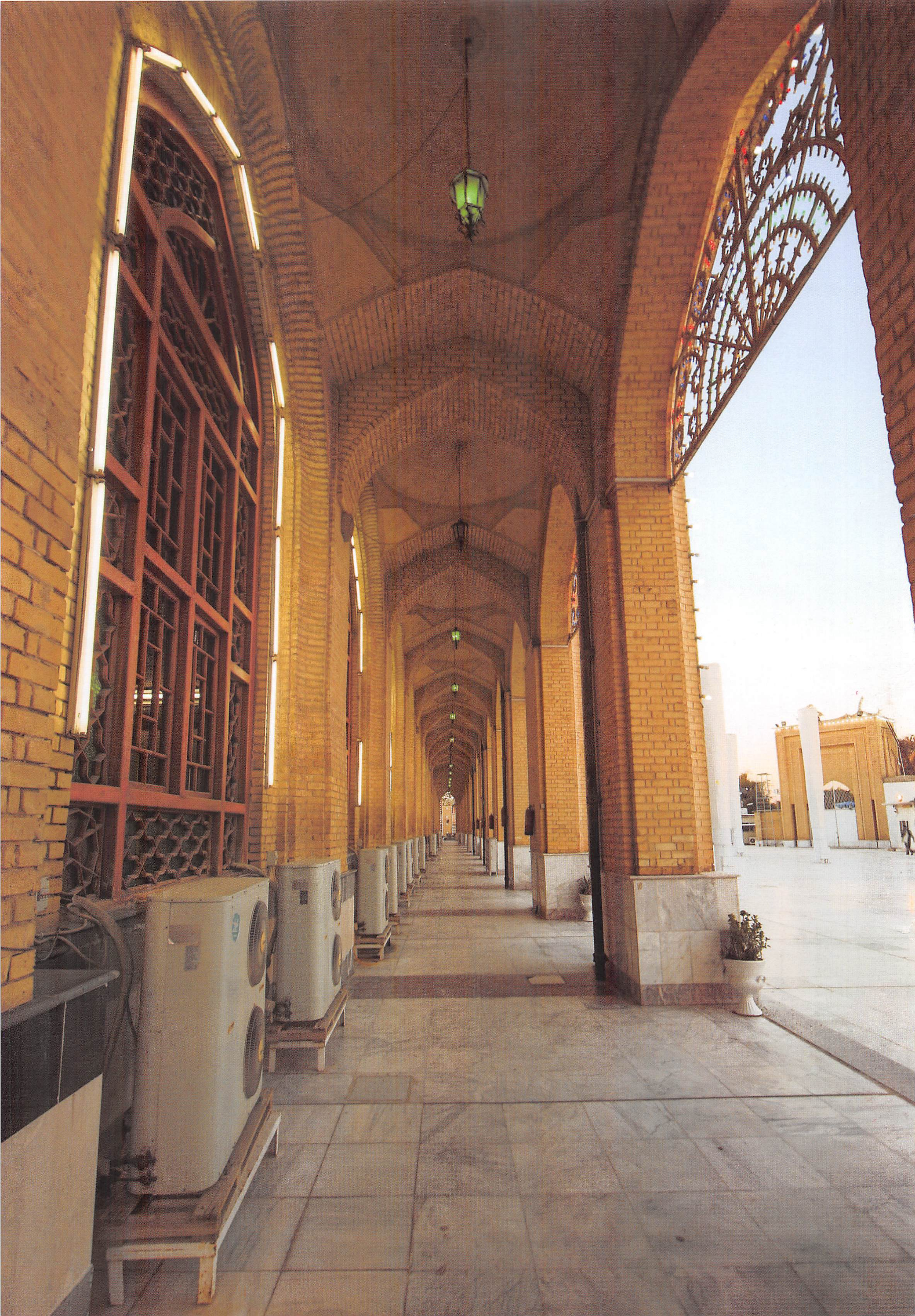




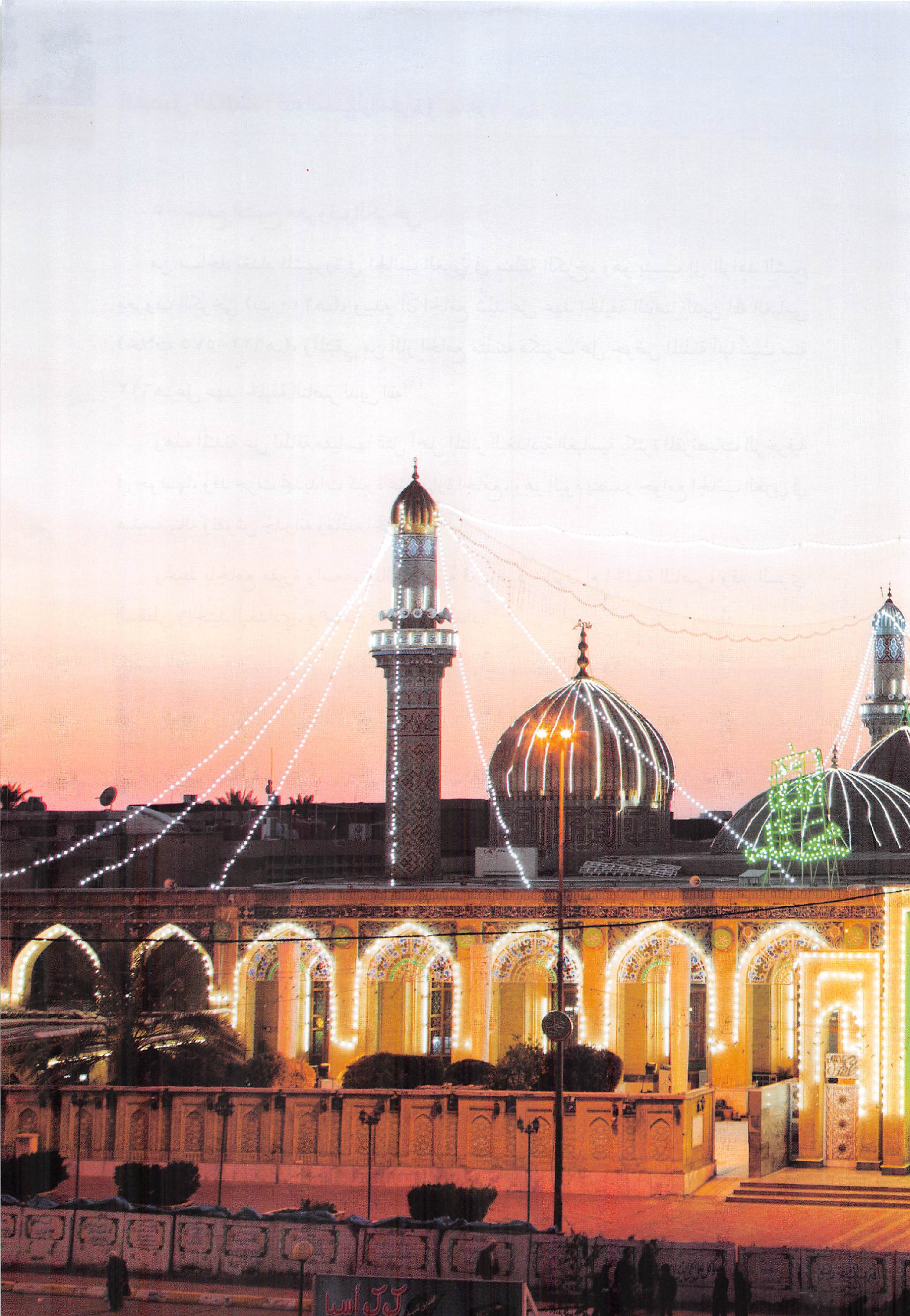









ديوان الوقف السني





٥- جامع الشيخ معروف الكرخي:

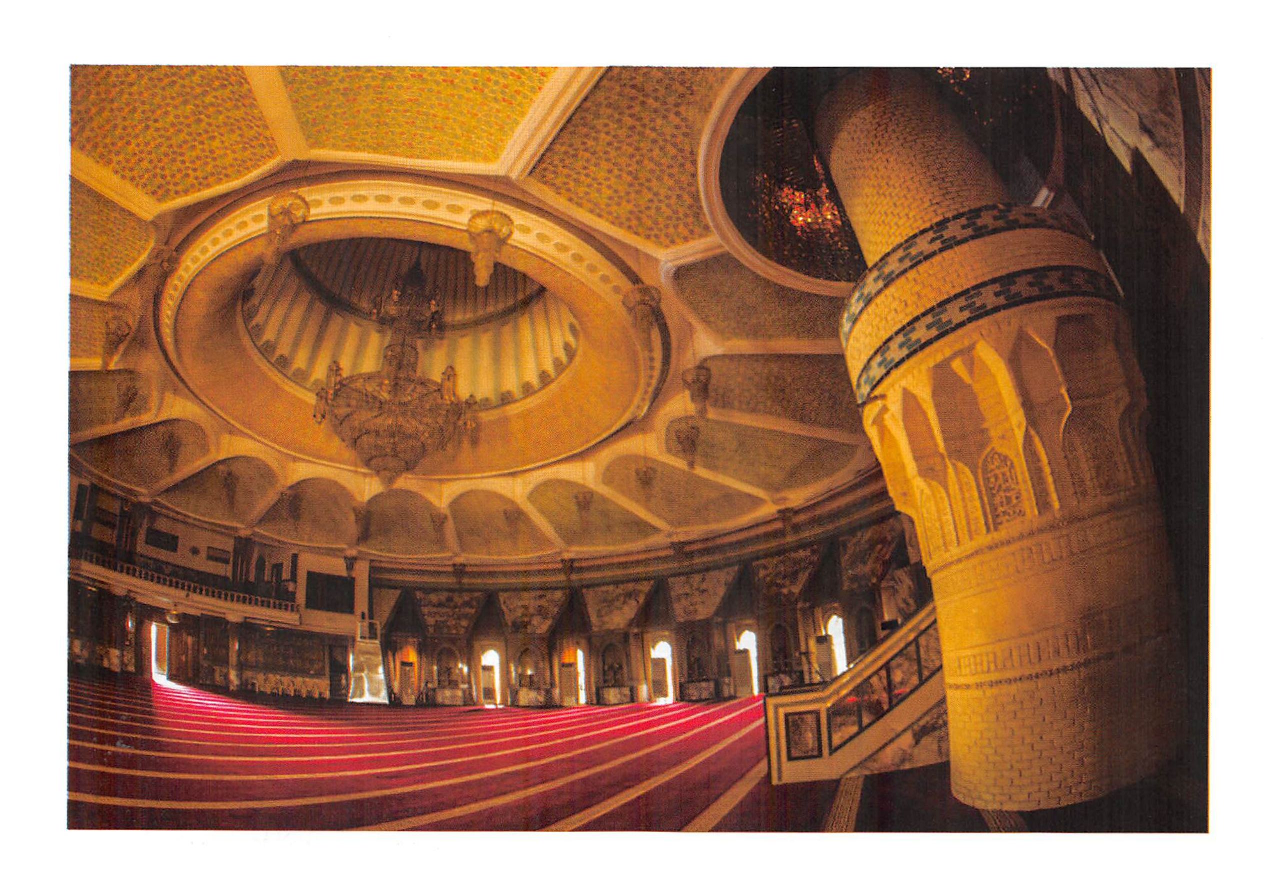
من مساجد بغداد المشهورة في الجانب الغربي في منطقة الكرخ، وهو ينسب إلى الزاهد الشيخ معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ)، ويبدو أنّ الجامع شُيِّد على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي (خلافته ٥٧٥-٦٢٢هـ)، والمتبقي من آثار الجامع مئذنته مكتوب على حوض المئذنة أنها بُنيت سنة ٦١٢هـ على عهد الخليفة الناصر لدين الله[(١)].

وهذه المئذنة على لطافة مقياسها تمثل أجمل المنائر البغدادية العباسية بكثرة المقرنصات الزخرفية في حوضها، وقد جرت تجديدات كبيرة على عمارة الجامع، وهو اليوم يتصدر جوامع الجانب الغربي في هندسة بنائه ونقوش جدرانه ومآذنه الحديثة.

وتحيط بالجامع مقبرة واسعة، وبالقرب منه قبر زمرد خاتون أم الخليفة الناصر، وقبر السري السقطي والجنيد البغدادي، وهما من كبار زهاد بغداد.

(١) كارستن نيبور، رحلة نيبور إلى العراق، ص٣٩.







٦- جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني:

إنَّ جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني رحمه الله (ت ٥٦١هـ) في الأصل مدرسة ابتناها للحنابلة أبو سعيد المبارك بن علي المخزومي الفقيه الحنبلي (ت ٥١٣هـ)، وقد جددها ووسعها تلميذه الشيخ عبدالقادر، وهو من كبار الزهاد والفقهاء، ولما دخل السلطان سليمان القانوني بغداد سنة ٩٤١هـ بني له قبة شاهقة، ومن ثم أسس الوالي العثماني سنان باشا في سنة ٩٥٥هـ بجوار القبة جامعًا أكمله من بعده والي بغداد علي باشا ٩٩٨-٩٩٩هـ، وقبة هذا الجامع من القباب الواسعة وعلى مقربة من رواقه منارة ضخمة مكتوب عليها أنها بنيت سنة ٩٤١هـ، وهي من آثار السلطان سليمان العثماني[١]، وفي عام ١٠٤٨هـ قام السلطان مراد الرابع العثماني باستعادة بغداد من أيدي الفرس الصفويين، فأمر بتعمير مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني بنظارة شيخ الإسلام يحيى أفندي، وقد شرع هذا بتعمير القبة وزينها بقناديل من ذهب وفضة، وكتب بخط صالح المولوي ما يشير إلى ذلك التعمير مؤرخًا سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م، وفي سنة ١٨٣٤م زار الرحالة فريزر جامع الشيخ عبدالقادر، وقال: «إنّ جامعه من أفخم الجوامع الموجودة في هذه الجهات، ويتقاطر الزوار عليه من الهند وأفغانستان وبخارى وبلاد التركستان»[٢].

وجرت على هذا الجامع الذي يقع في الجانب الشرقي من بغداد زيادات وتعميرات كثيرة كان آخرها التجديدات الواسعة في العهد الجمهوري، فأصبح هذا المعلم التراثي آية من آيات الفن والتقدم في الهندسة والريادة، وهو بحق مفخرة من مفاخر الأبنية التراثية ببغداد.

يقول الدكتور حسين أمين: «وأبرز ما في هذا المعلم التراثي: المكتبة التي تشغل موضعًا مهمًّا من الجامع، والتي تضم كتبًا مخطوطة، تجمعت من عهد الشيخ عبدالقادر الكيلاني، وما أضاف إليها أولاده وأحفاده وأبناء ذريته إلى عهد السيد عبدالرحمن الكيلاني نقيب الأشراف، والذي كان أول رئيس للوزراء في العراق بعد دخول الإنجليز للعراق سنة ١٩١٧م والذي تبرع بجميع ما يملك من الكتب إلى مكتبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني[٣]، والتي تعد اليوم كما يقول الدكتور عماد عبدالسلام

---

(١) العزاوي، عباس، العراق بين احتلالين ج٤ ص٢٣٤.

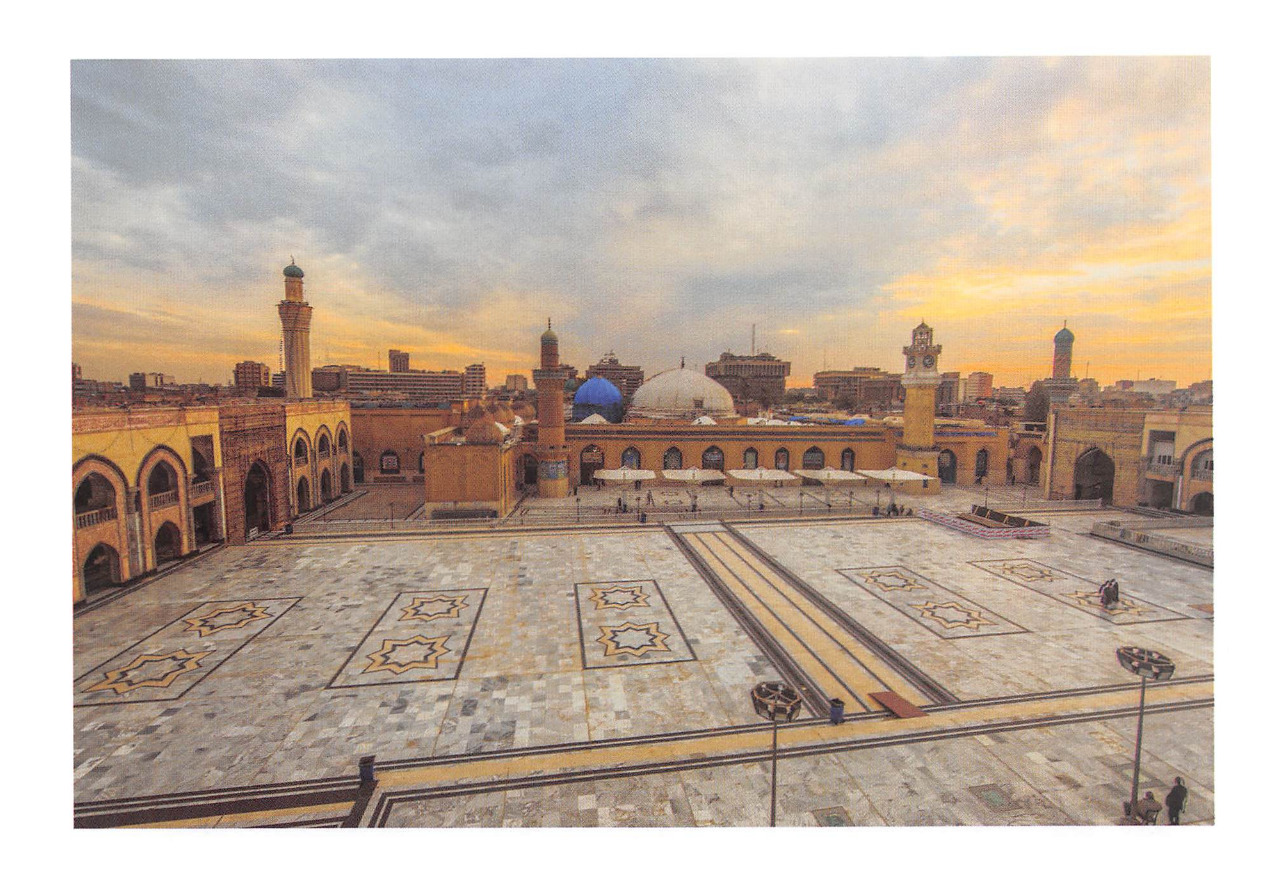
(٢) فريزر، جيمس بيلي، رحلة فريزر، ص١٦٦.

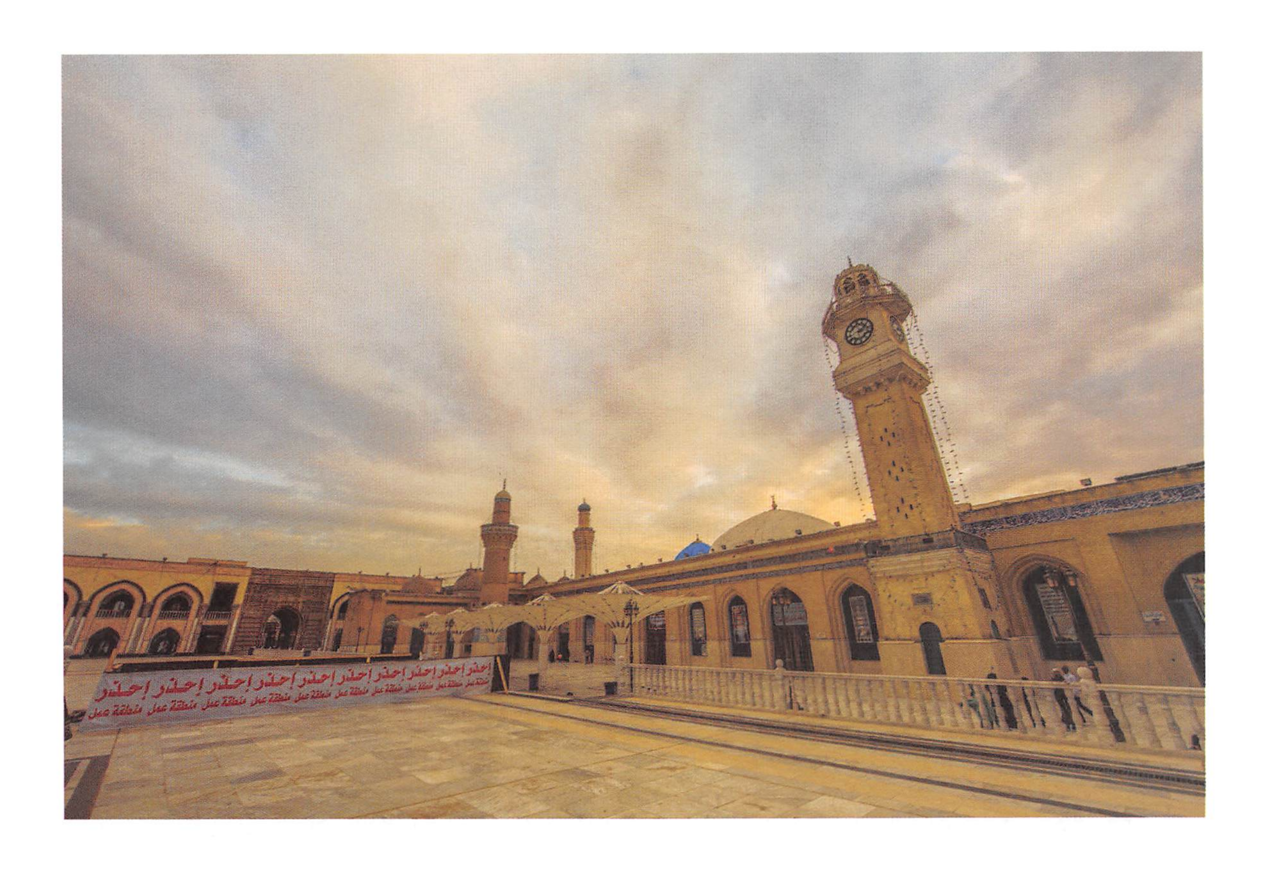
(٣) أمين، حسين، بغداد تاريخ وحضارة، ص٤٦.

رءوف: «من المكتبات المهمة التي تحوي نفائس الكتب العربية والإسلامية في مختلف صنوف العلم والمعرفة، ويبلغ عددها زهاء ثلاثين ألف كتاب ويؤمها سنويًا ما يزيد على العشرة آلاف مُطالع؛ من طلاب العلم وأهل البحث»[١].

---

(١) رءوف، عماد عبد السلام، الآثار الخطية في المكتبة القادرية في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، ج١ ص٢٥ و٢٦.

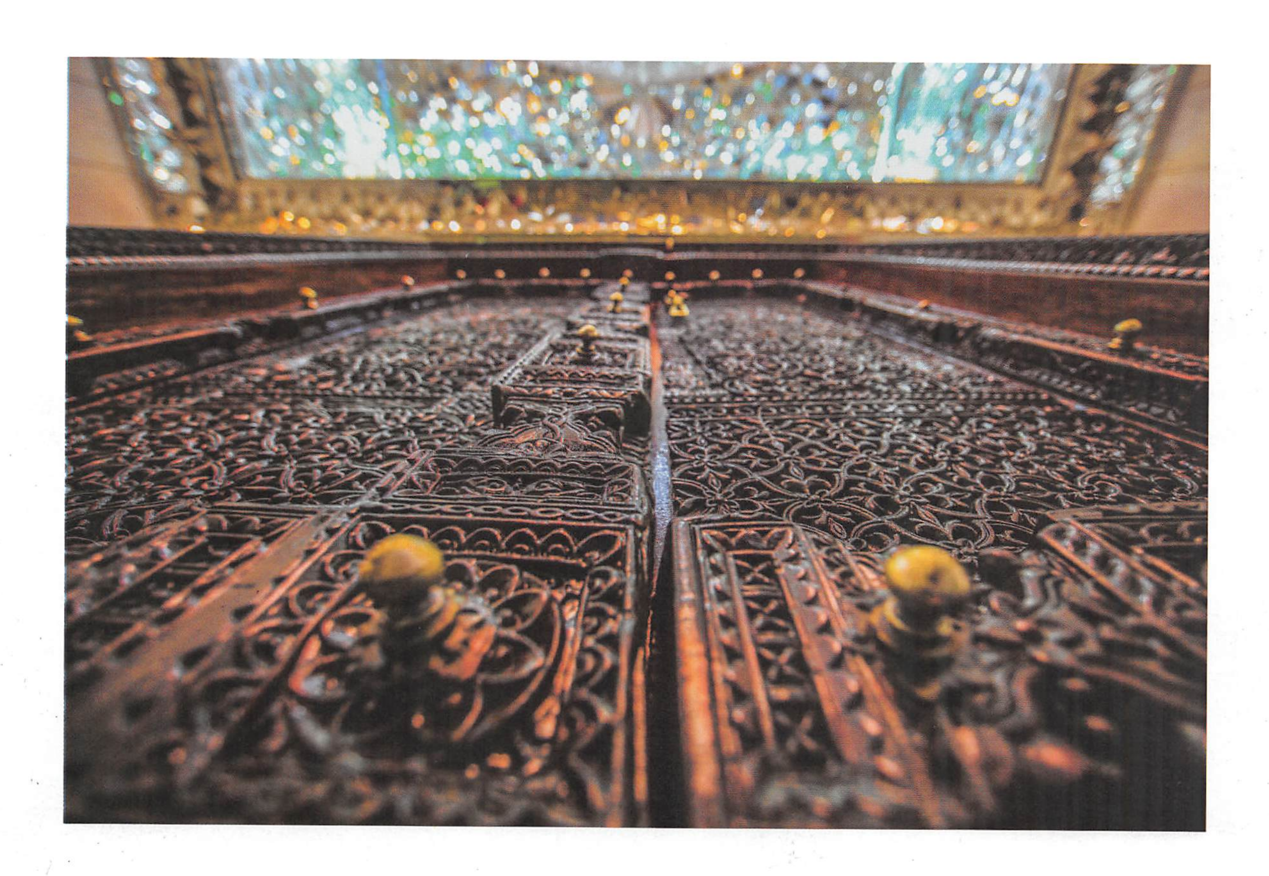


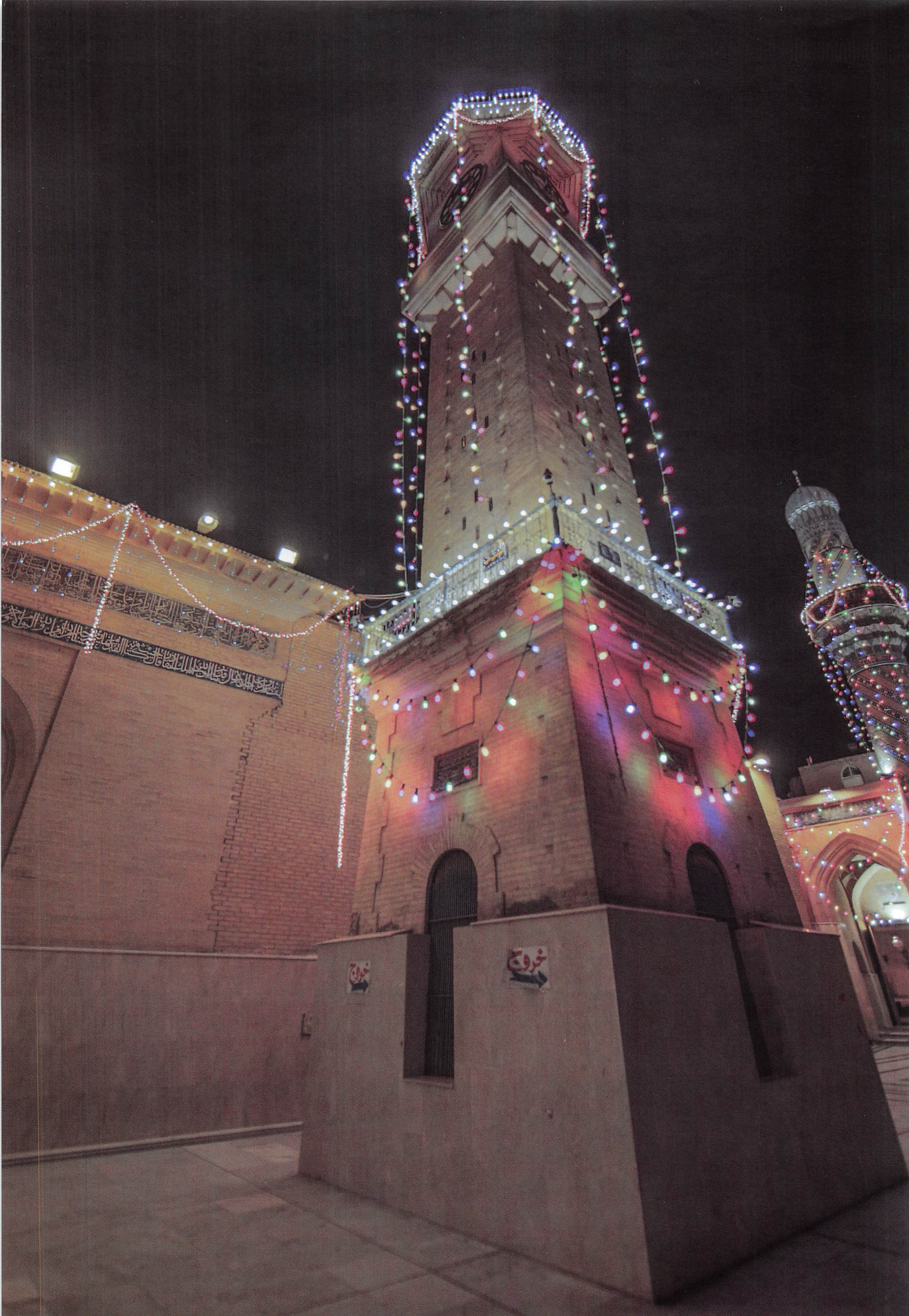

احذر احذر احذر احذر احذر احذر احذر احذر احذر احذر
منطقة عمل منطقة عمل منطقة عمل منطقة عمل منطقة عمل منطقة عمل منطقة عمل منطقة عمل منطقة عمل





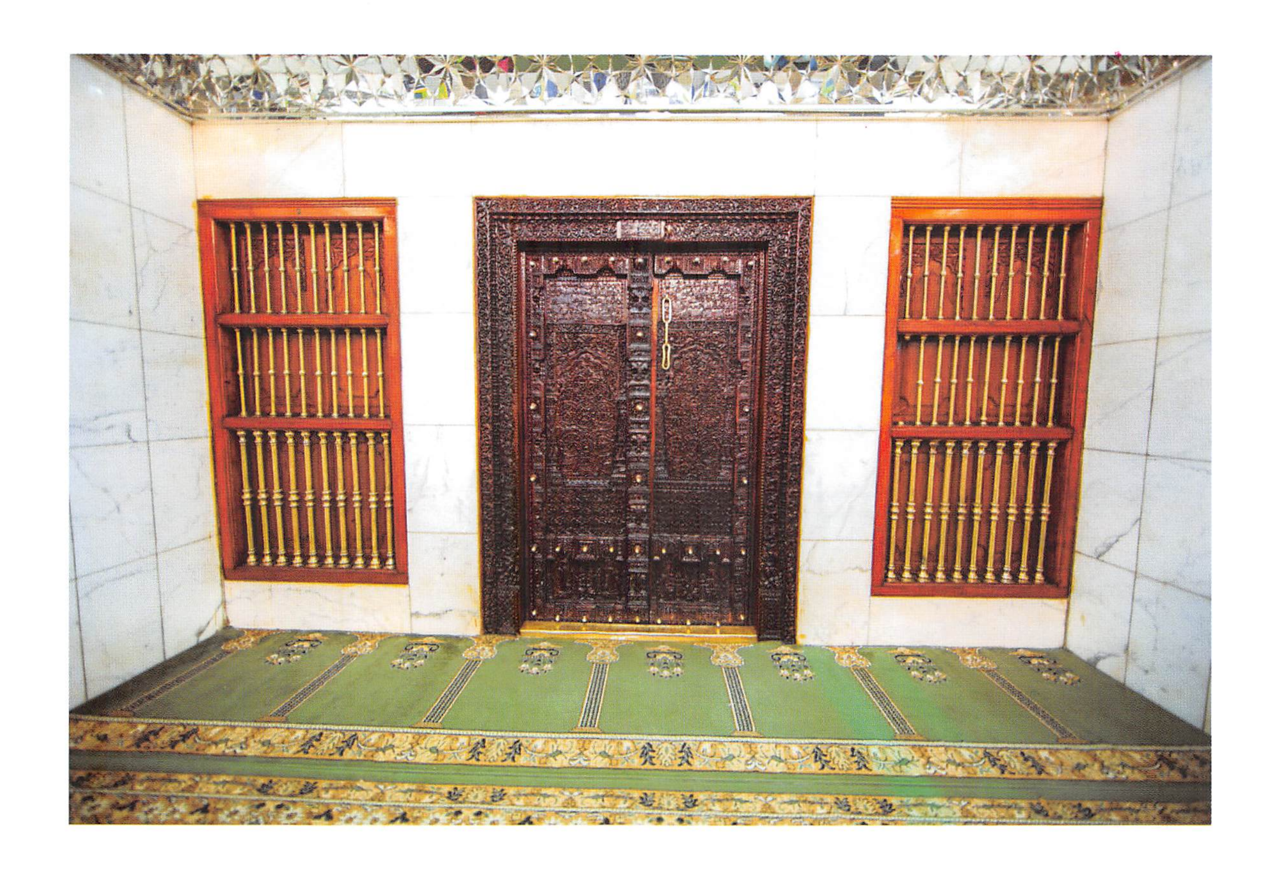


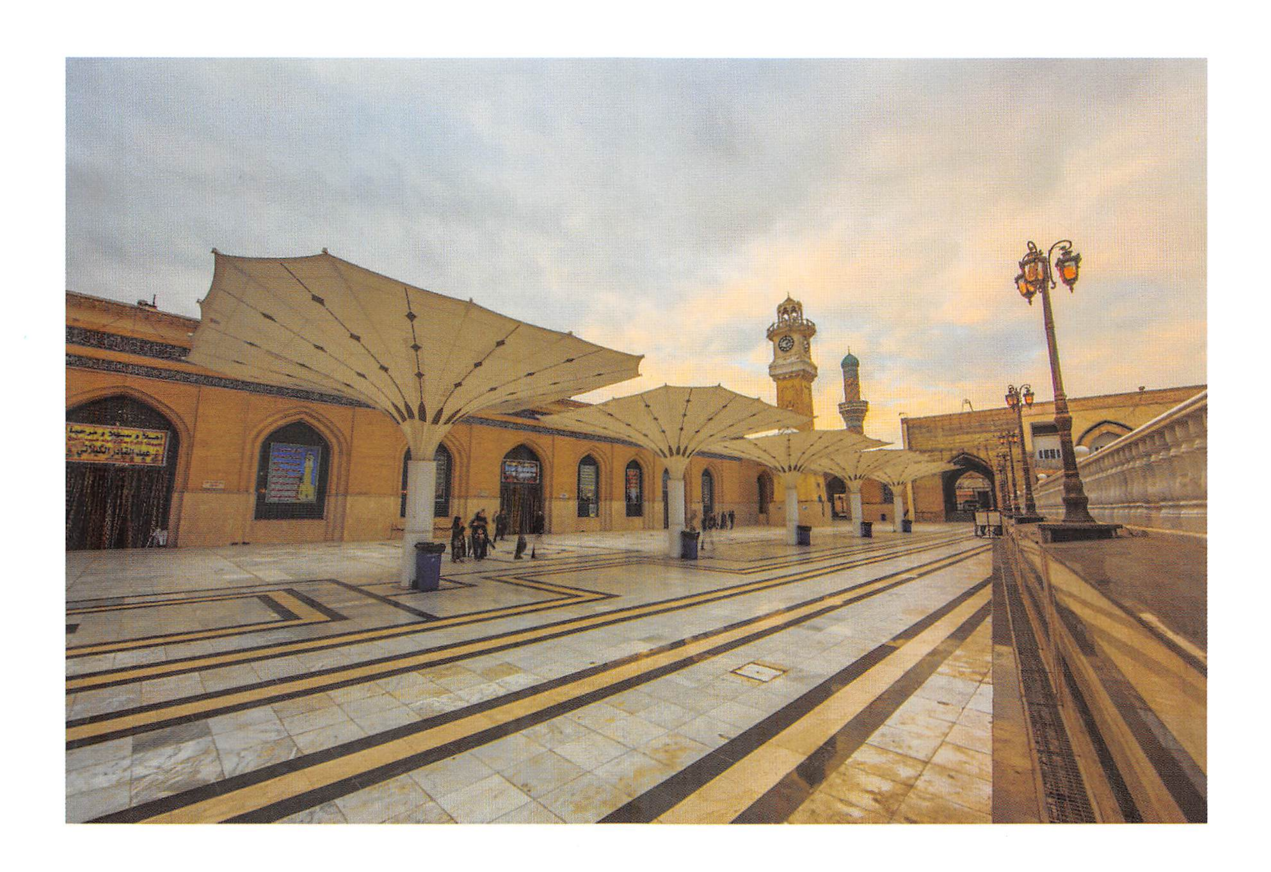



خروج



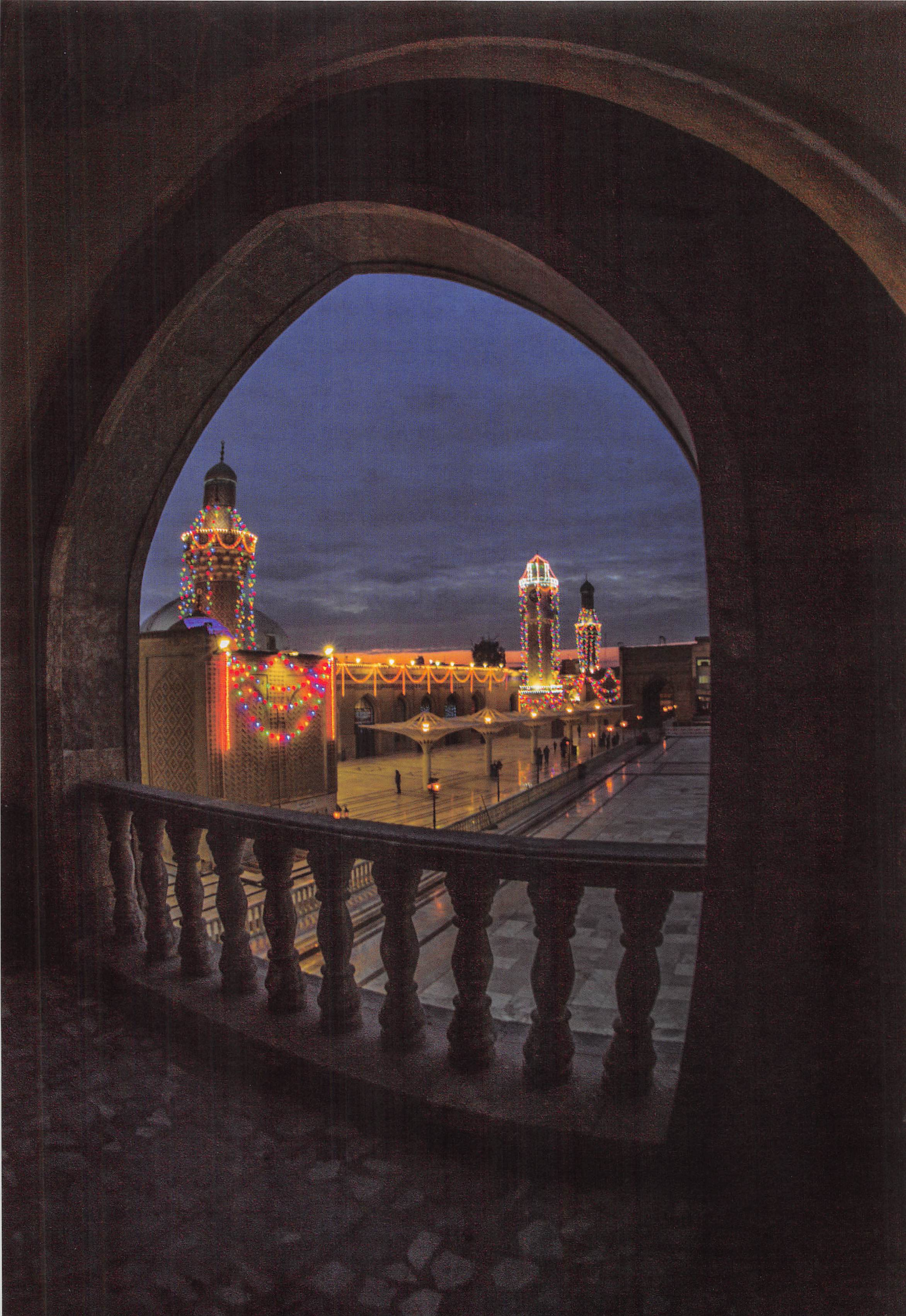














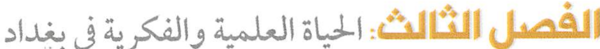
٧- جامع الشيخ عمر السهروردي:

الشيخ عمر السهروردي هو شهاب الدين عمر بن محمد البكري (ت ٦٣٢هـ)، من كبار الزهاد ببغداد، وفي الجامع قبة على الطراز السلجوقي، قائمة على أربعة أضلاع وهي من بناء القرن السابع الهجري، ويبدو أن الذي شيَّد جامع الشيخ عمر السهروردي الوزير المشهور غياث الدين محمد بن رشيد الدين بحدود سنة ٧٣٥هـ[١] في منطقة تعرف بالظفيرية شرقي مدينة بغداد وهو قريب من أحد أبواب بغداد العباسية، والذي لا يزال قائمًا منذ عهد الخليفة المسترشد العباسي (خلافته ٥١٢-٥٢٨هـ)، وبمرور الزمن تكونت حول الجامع الذي بجواره قبر الشيخ عمر السهروردي مقبرة كبيرة تكاد تكون من أكبر المقابر في بغداد وزار هذه المقبرة العديد من الرحالة، منهم الرحالة مدام ديولافوا سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م، وقالت عن المقبرة: «إنها مقبرة كبيرة كما ذكرت قبة جامع الشيخ عمر السهروردي المخروطية الشكل وذكرت أنها مزينة ببعض المقرنصات الجميلة من الخارج التي تترك آثارًا جميلة أخرى في الداخل[٢]، ولا يزال جامع الشيخ عمر السهروردي قائمًا وتقام فيه الصلوات الخمس والجُمَع والعيدين.

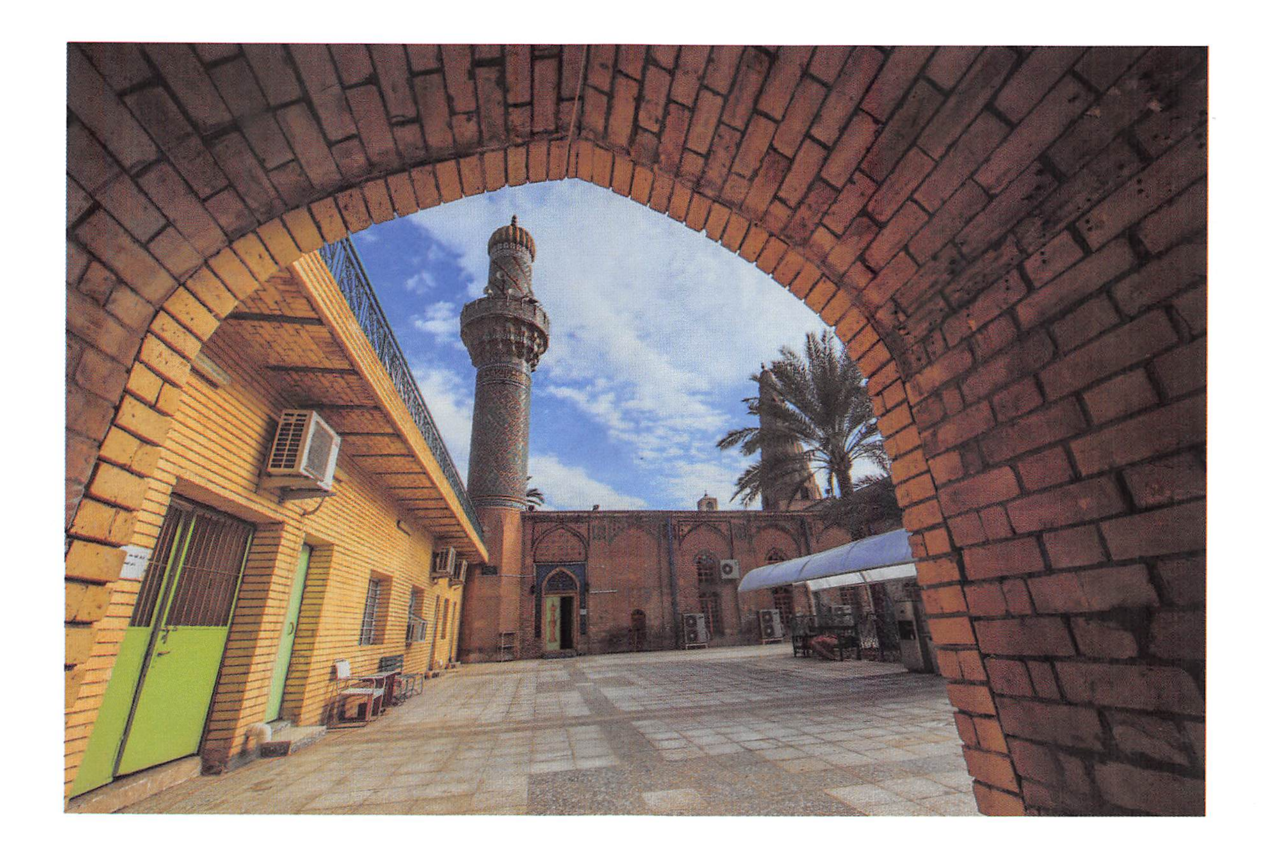
(١) مصطفى جواد، دليل خارطة بغداد، ص٢٣٦.

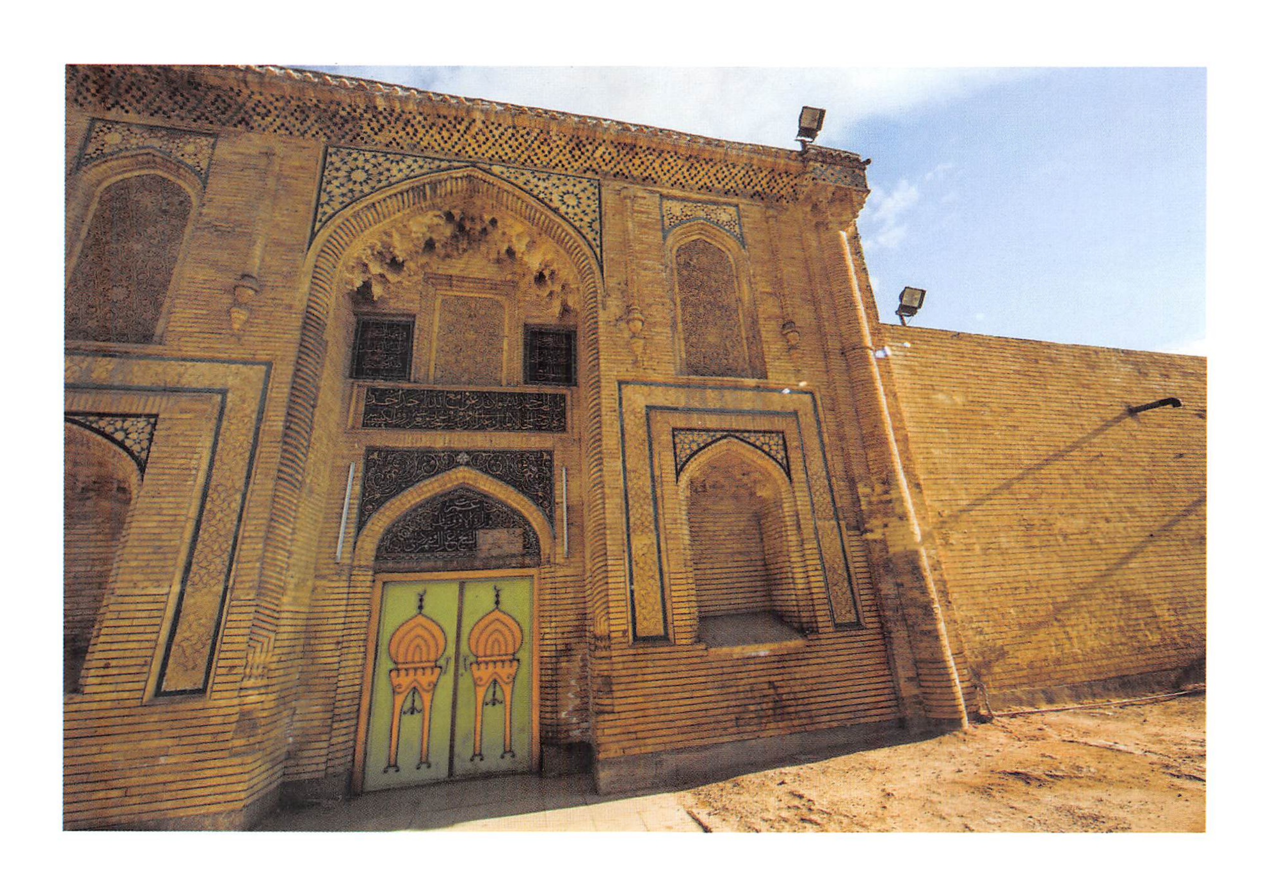
(٢) مدام ديولافوا، رحلة مداو ديولافوا، ص٦٨.

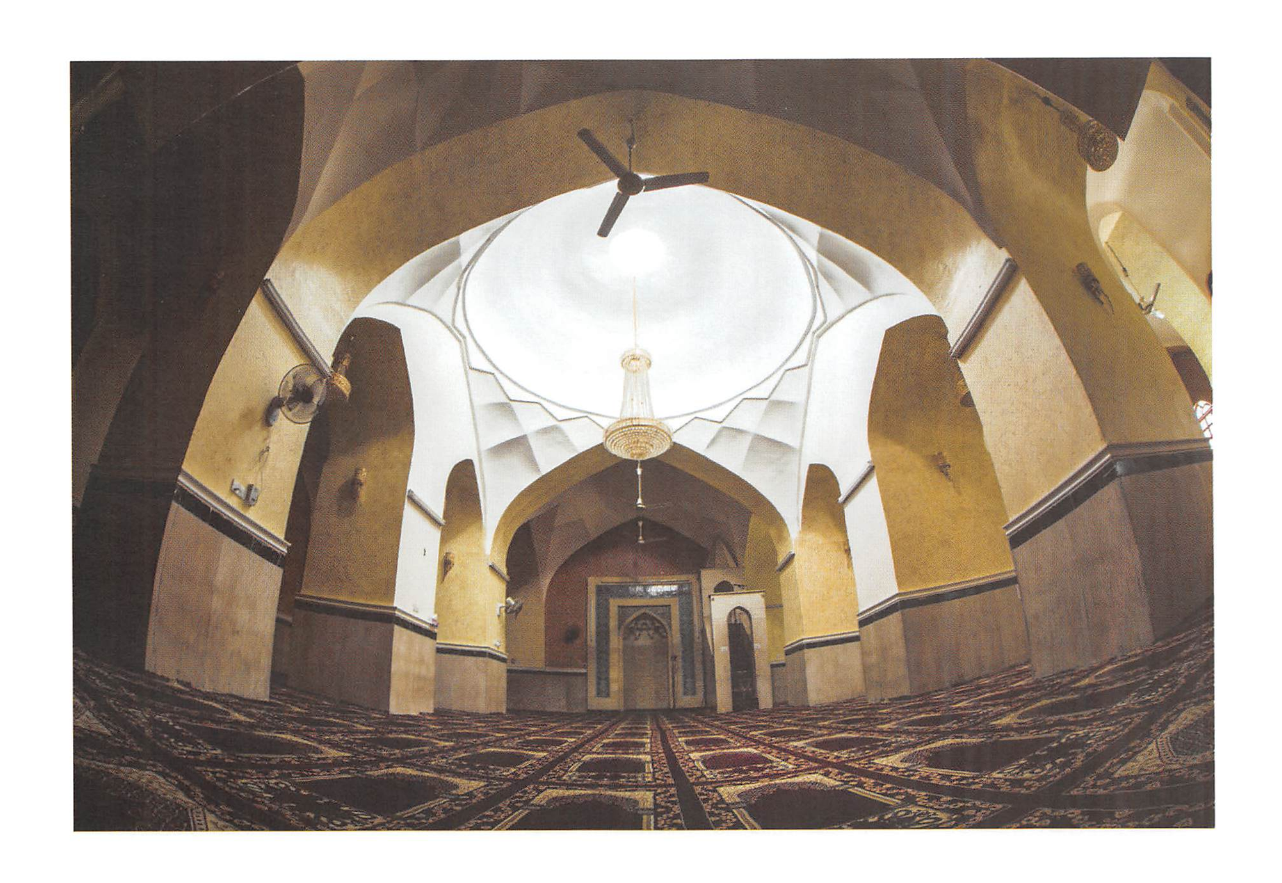


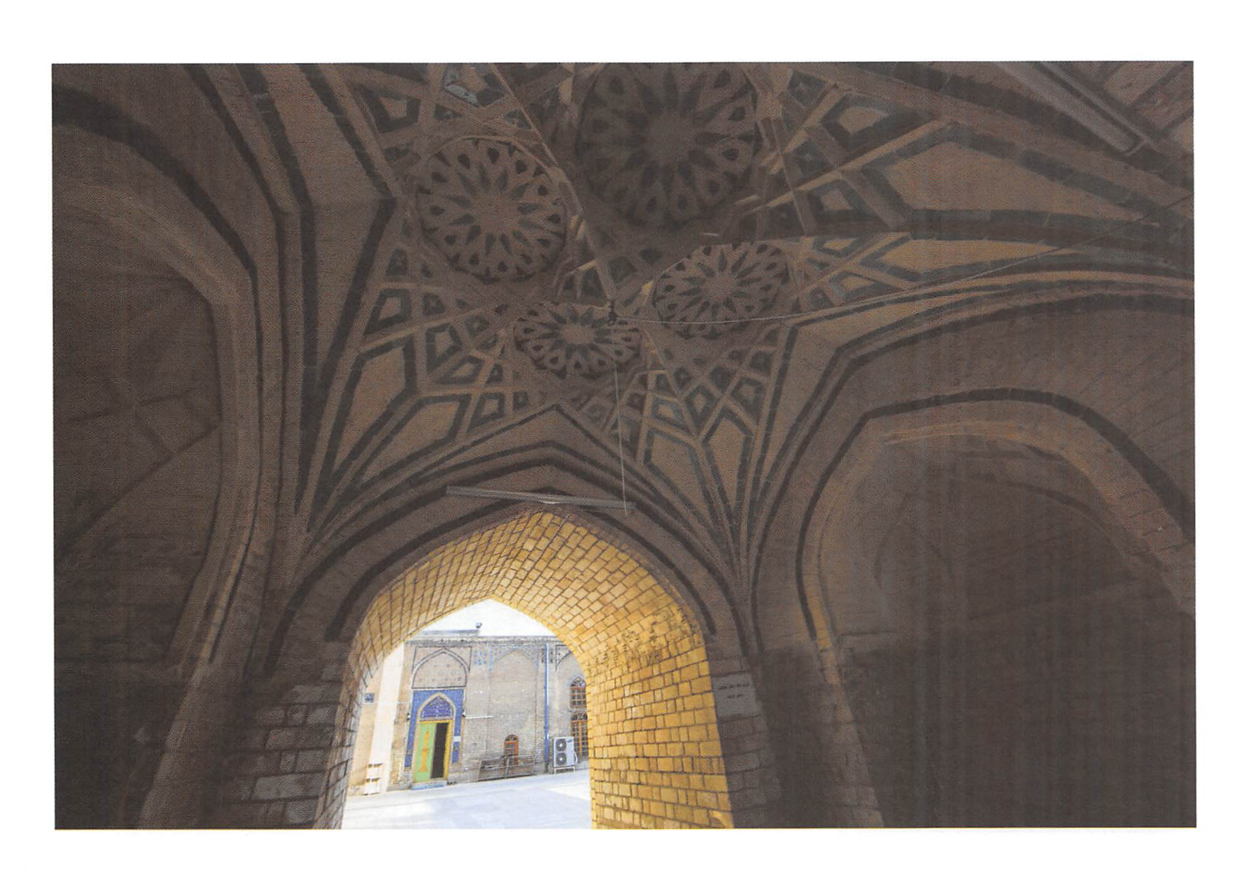























٨- جامع قمرية:

هذا الجامع قائم في منطقة الكرخ، وهي قرية كبيرة كانت أيام تأسيس بغداد ١٤٥هـ، وأدخلها الخليفة العباسي المنصور ضمن مدينته بغداد، وجامع قمرية شيَّده الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٢٦هـ على ضفة دجلة الغربية[١]، وجدِّد هذا الجامع أيام الأتراك العثمانيين، ولم يبقَ من بناء الجامع العتيق إلا المئذنة قليلة الزخارف الساذجة البناء، وفي حوضها آثار ردم وإصلاح، وهذا الجامع لا يزال قائماً ببغداد.

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٤.

٩- جامع الحظائر:

وهو من الجوامع القائمة ببغداد، والتي شُيِّدت في العصر العباسي، وقد أنشأت هذا الجامع السيدة زمرد خاتون (ت ٥٩٩هـ)، وهي أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي، وأنشأت مدرسة للشافعية بجوار جامع الشيخ معروف الكرخي، ورباطًا ومدفنًا لها، وجرى احتفال فتح المدرسة سنة ٥٨٩هـ، وحضره أرباب الدولة، وعمل سماط عظيم، وسُلم التدريس فيها إلى الفقيه محمد بن أبي نصر الشافعي، الذي كان معاصرًا للسيدة زمرد خاتون، ومن كبار فقهاء الشافعية في بغداد (ت ٥٩٢هـ)[١].

وجامع الحظائر يُعرف اليوم ببغداد بجامع الخفافين جنوب المدرسة المستنصرية، ولم يبقَ من بنائه الأول إلا المئذنة، وهي أقدم المآذن في بغداد؛ لأنها بُنيت قبل انتهاء القرن السادس الهجري، وعلى طرازها بُنيت كل مآذن بغداد، وقد رُمِّمت هذه المئذنة وخصوصًا في أعالي حوضها، وجرى ترميمها سنة ١٩٥٠م، وهذه المئذنة فيها من الفن البنائي ما يجعلها نموذجًا للفن الإسلامي الراقي، ففي رأسها أشكال هندسية من النقوش، وقد زُخرف الرأس بالكاشي وغيره وفي حوضها قسم من العقود التي تشبه الأواوين الصغيرة، وقد ذكر العلامة محمود شكري الآلوسي قوله: «وفيه خزانة كتب تشتمل على مخطوطات قديمة العهد، وكثير منها تلف بتداول الأيدي عليها»[٢].

---

(١) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص١٩٨.
(٢) الآلوسي، محمود شكري، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، ص٤٢.



١٠- جامع الإمام موسى الكاظم:

إن موقع الجامع في الأصل مقبرة عباسية أمر بإقامتها الخليفة أبو جعفر المنصور لتكون خاصة بالقريشيين؛ لذا عُرفت بمقبرة قريش، وأول دفين فيها هو جعفر ابن الخليفة المنصور الذي توفي سنة ١٥٠هـ، ولما توفي الإمام موسى بن جعفر المعروف بالكاظم -رحمه الله- سنة ١٨٣هـ، دفن في مقابر قريش[١].

وبمرور الزمن صار الناس يسكنون حول مقابر قريش، وينزلها على العموم العلويون، وأخذت المدينة في النمو والاتساع.

وعندما دخل البويهيون بغداد سنة ٣٣٤هـ، بذلوا عناية كبيرة في بناء جامع الإمام موسى الكاظم، كما دفن في بناية المشهد عدد من أمراء البويهيين؛ ففي سنة ٤٥٦هـ توفي معز الدولة أحمد بن بويه، ونُقل جثمانه إلى مقابر قريش بعد سنتين، كما تم دفن عضد الدولة البويهي ٣٦٧-٣٧٣هـ، في مقابر قريش، وفي سنة ٤٣٦هـ نُقل تابوت جلال الدولة الأمير البويهي وابنته الكبرى من دار المملكة إلى مقابر قريش[٢].

ودفن في مقابر قريش العديد من الأمراء والوزراء والوجهاء والعلماء، كما زار المقبرة والجامع الرحالة العربي ابن بطوطة، وذكر أنه في الجانب الغربي من بغداد.

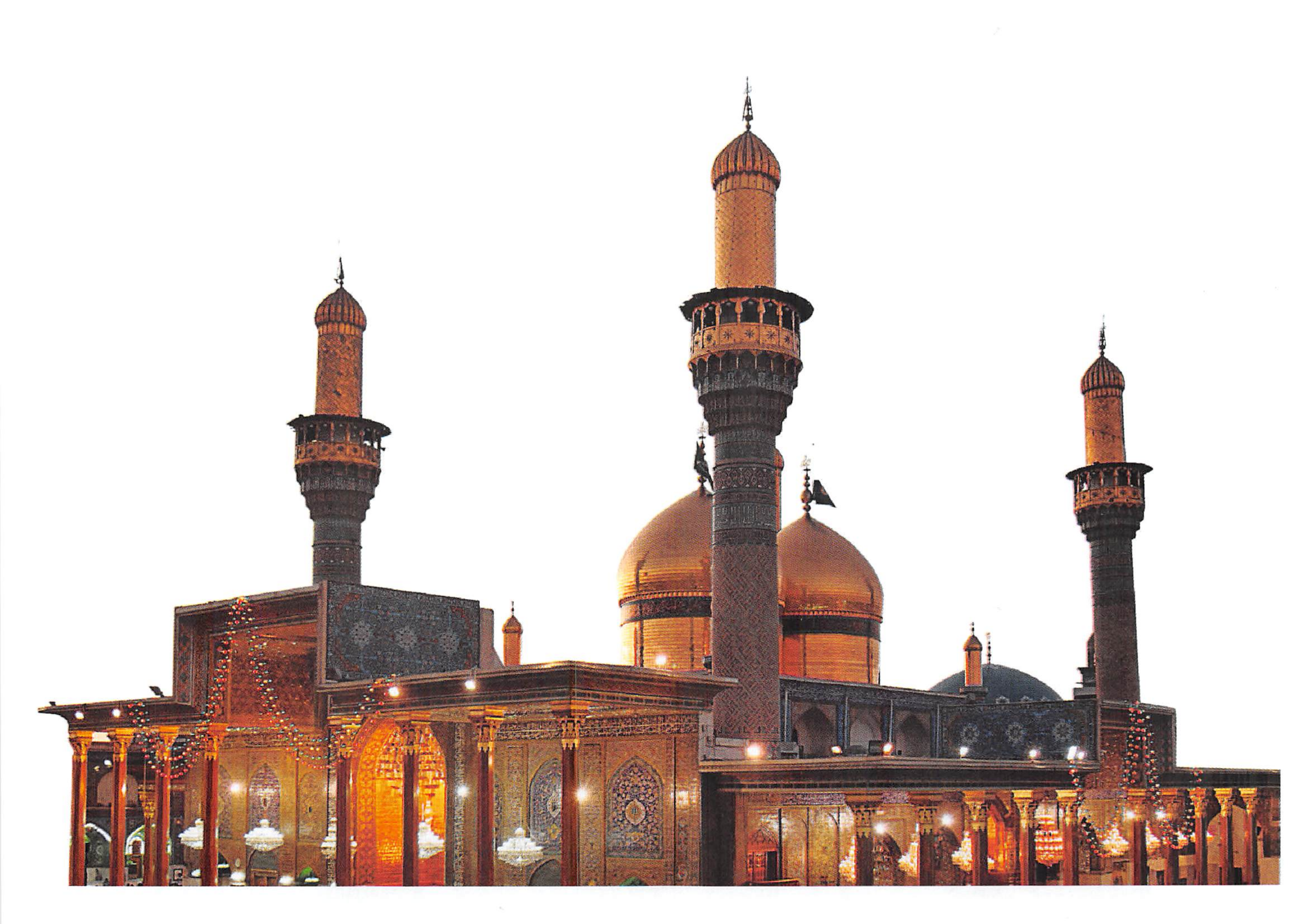
ولما دخل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد في سنة ٩١٤هـ، أمر بتشييد بناية الجامع تشييدًا رائعًا فخمًا، وتعيين الرواتب لخُدَّامه والمسئولين عنه، كما أن السلطان سليمان القانوني عند دخوله بغداد سنة ٩٤١هـ أمر بإكمال بعض ما لم يتم من عمارة الجامع، ويؤيد المستر لونكريك عناية السلطان سليمان بالجوامع والمراقد السنية والشيعية معًا[٣].

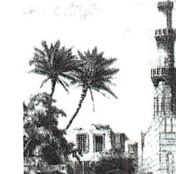
طول صحن الجامع ٣٧٠م وله أروقة تحيط به من جهاته الأربع، وسور الصحن مكون من أواوين مزخرفة بالقاشاني، وهناك غُرف خاصة داخل كل إيوان كانت تُستعمل للدرس والتحصيل، أو للخزن أو السكن، ويلاحظ أن معظم جدران الأروقة والقاعة جميعها مغطى بالمرايا ذات الأشكال الهندسية

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١ ص١٢٠.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٧ ص١٢٠.
(٣) لونكريك، ستيفن همسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٣٩.

المختلفة، وتحلي الجدران زخارف إسلامية جميلة وبآيات قرآنية كريمة، كما تُشاهد الأبواب الذهبية، وتعلو الجامع قبتان كبيرتان مكسوتان بالذهب الخالص، وأربع منائر شاهقة مكسوة بالذهب، وذلك ما أثار إعجاب العديد من الرحالة لهذا المَعْلَم، فقد ذكر دونالدسون أن «من يصل إلى بغداد من الشمال أو الغرب لا بد أن يجتذبه منظر المآذن المذهبة الأربع في الكاظمية».





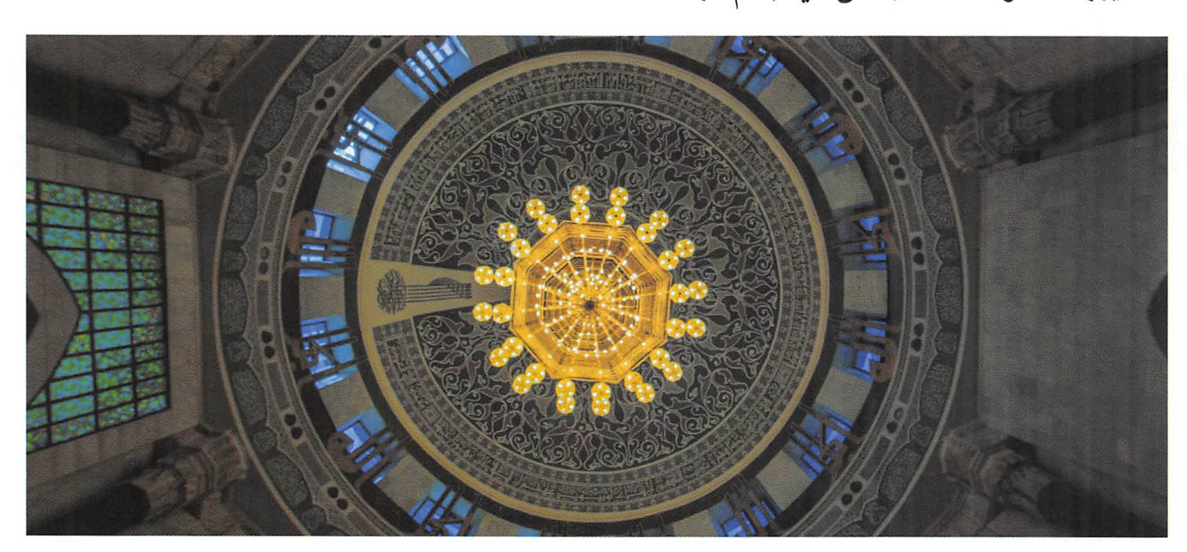
١١- جامع براثا:

ذكر ياقوت الحموي أن براثا كانت قبل بناء بغداد قرية[١]، وذكر الخطيب البغدادي أنه كان في الموضع المعروف بـ«براثا» مسجد يجتمع فيه قوم ممن ينسبون إلى التشيع، ويقصدونه للصلاة والجلوس فيه، وفي عصر المقتدر العباسي هُدم المسجد وأعيد بناؤه على عهد الراضي العباسي، وأكد البغدادي أن هذا الجامع صار أحد مساجد بغداد الكبيرة، وتوالت فيه صلاة الجمعة[٢]، وهذا الجامع لا يزال قائماً ببغداد في الجانب الغربي، وتُقام فيه الفرائض الدينية بشكل منتظم، وجرت على الجامع إصلاحات وإضافات عديدة، وهو اليوم مقر ديوان الوقف الشيعي.

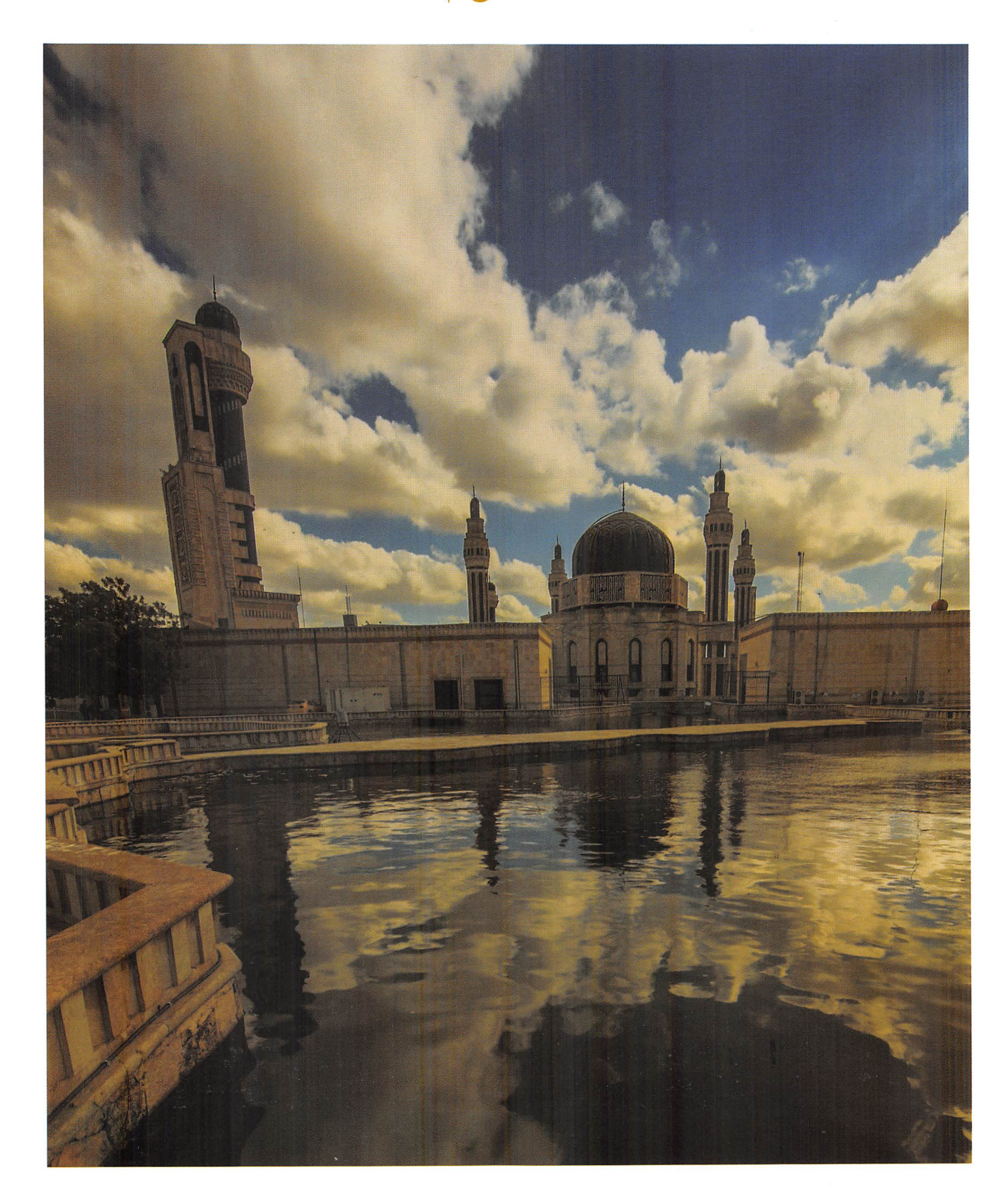
١٢- جوامع رئاسية:

وشهد عقد التسعينيات من القرن الماضي في ظل الجمهورية الثالثة حركة واسعة في تشييد المساجد الرئاسية، أي: التي يتولى بناءها والإشراف عليها ديوانُ رئاسة الجمهورية وليس وزارة الأوقاف، وكان نصيب بغداد موفورًا؛ إذ شُيِّد فيها جامعان هما جامع أم القرى في منطقة الغزالية- غربي بغداد، واتخذته هيئة علماء المسلمين في العراق مقرًّا عامًّا لها، ثم أصبح مقرًّا لرئاسة ديوان الوقف السني، وجامع نداء الإسلام في منطقة الأعظمية في جانب الرصافة، وقد اتخذته الأمانة العامة للإفتاء والتدريس والتصوف مقرًّا لها.

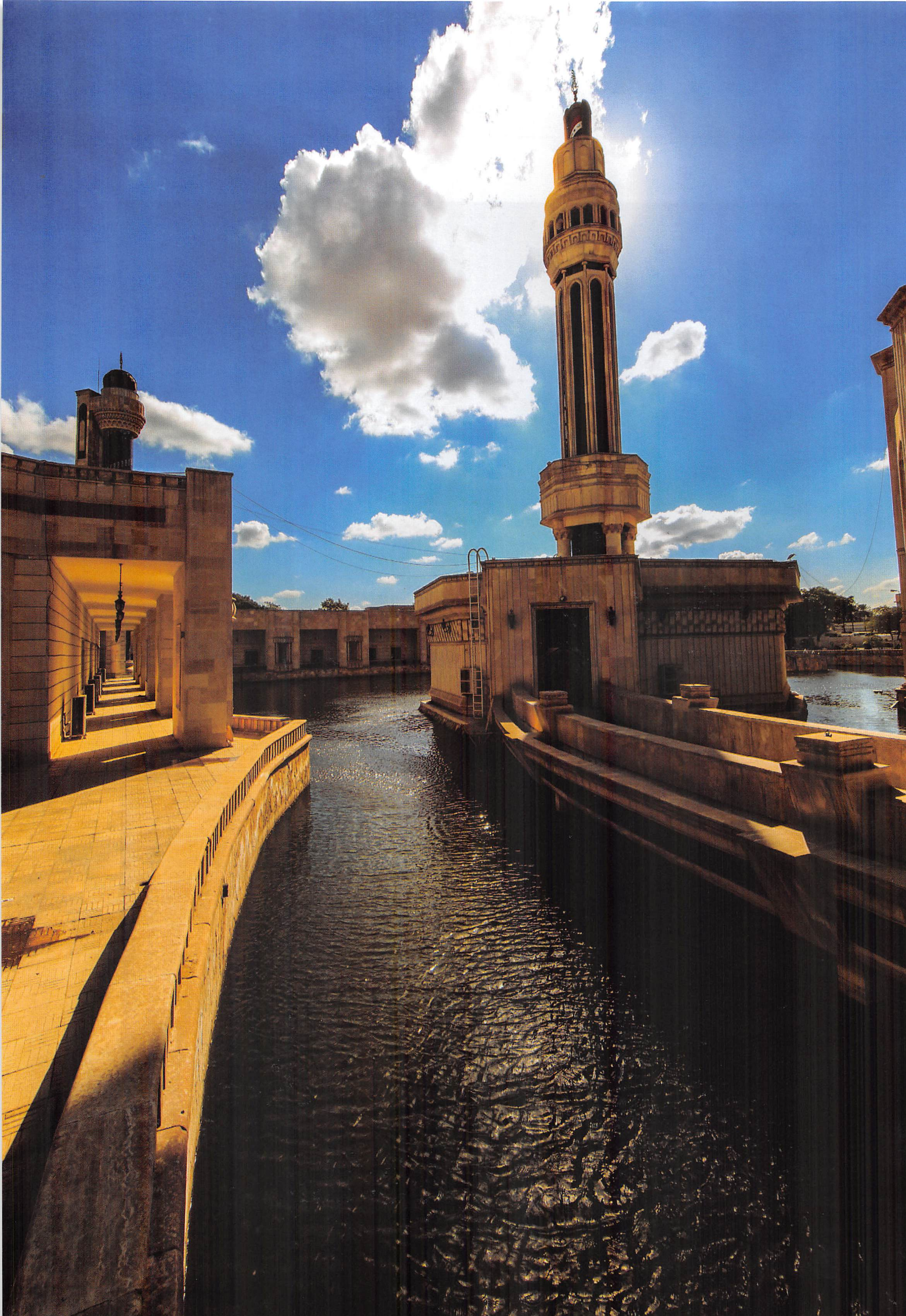
كما شرعت في بناء جامعين كبيرين؛ الأول هو جامع الرحمن في منطقة المنصور، والجامع الكبير في منطقة العلاوي على ساحة مطار المثنى، إلا أن الاحتلال الأمريكي لبغداد حال دون إتمامها، فاستولت عليهما الحكومة الطائفية من غير إتمام لهما.



صور جامع أم القرى















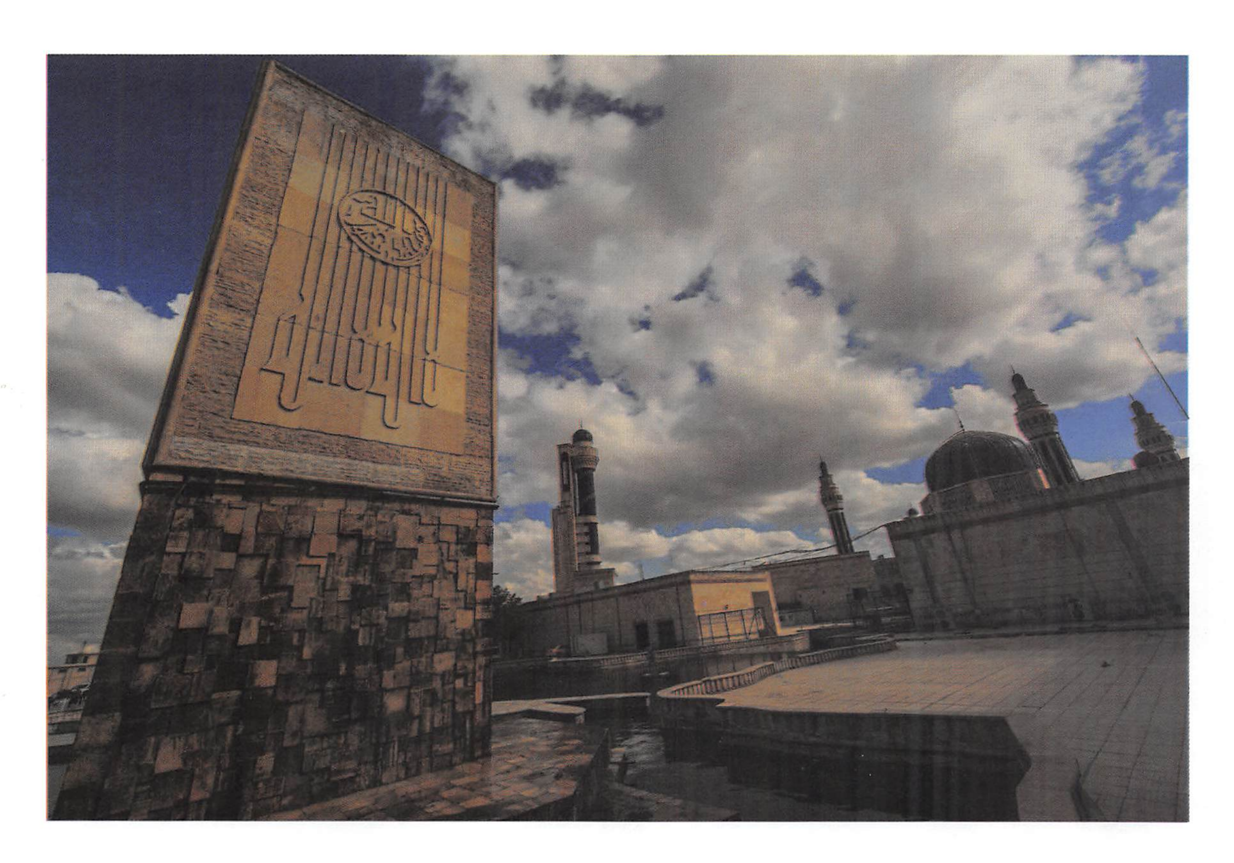


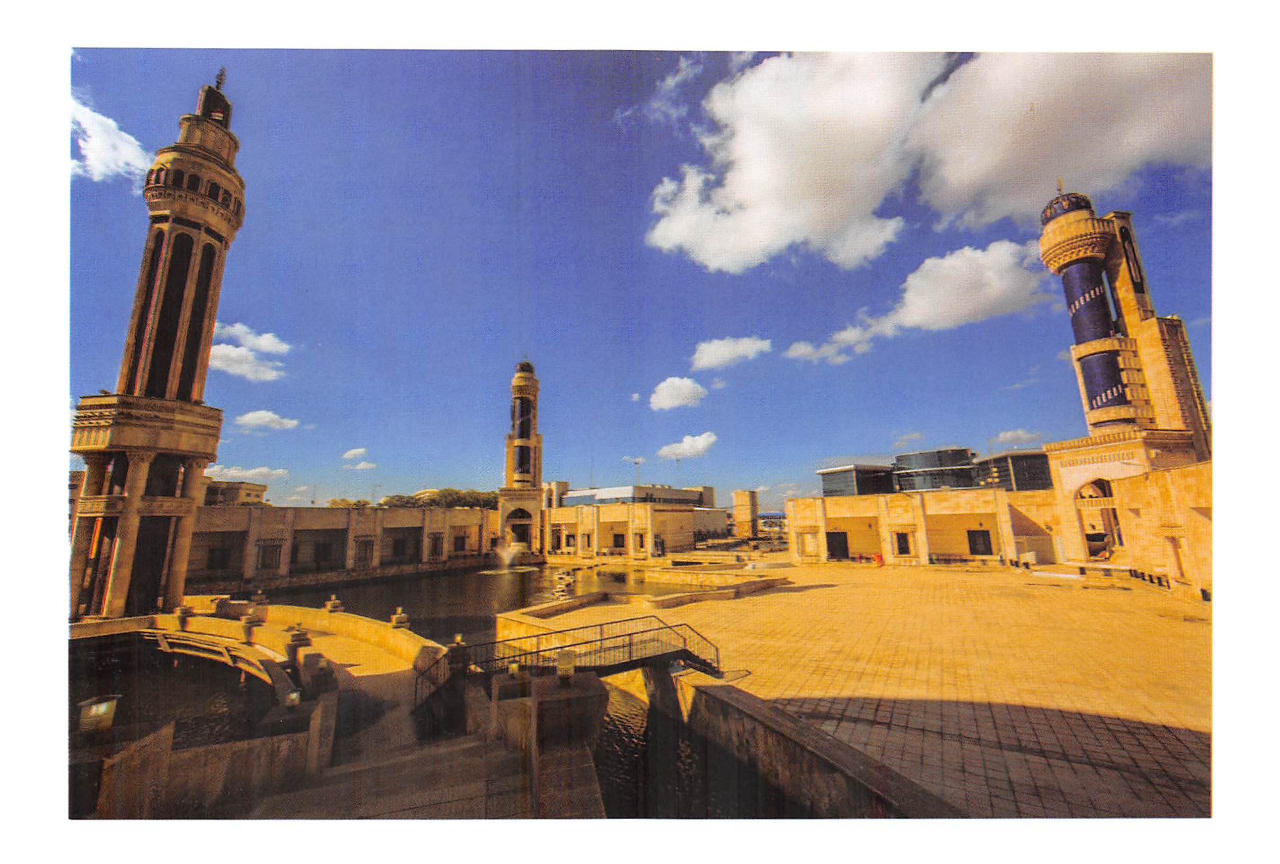


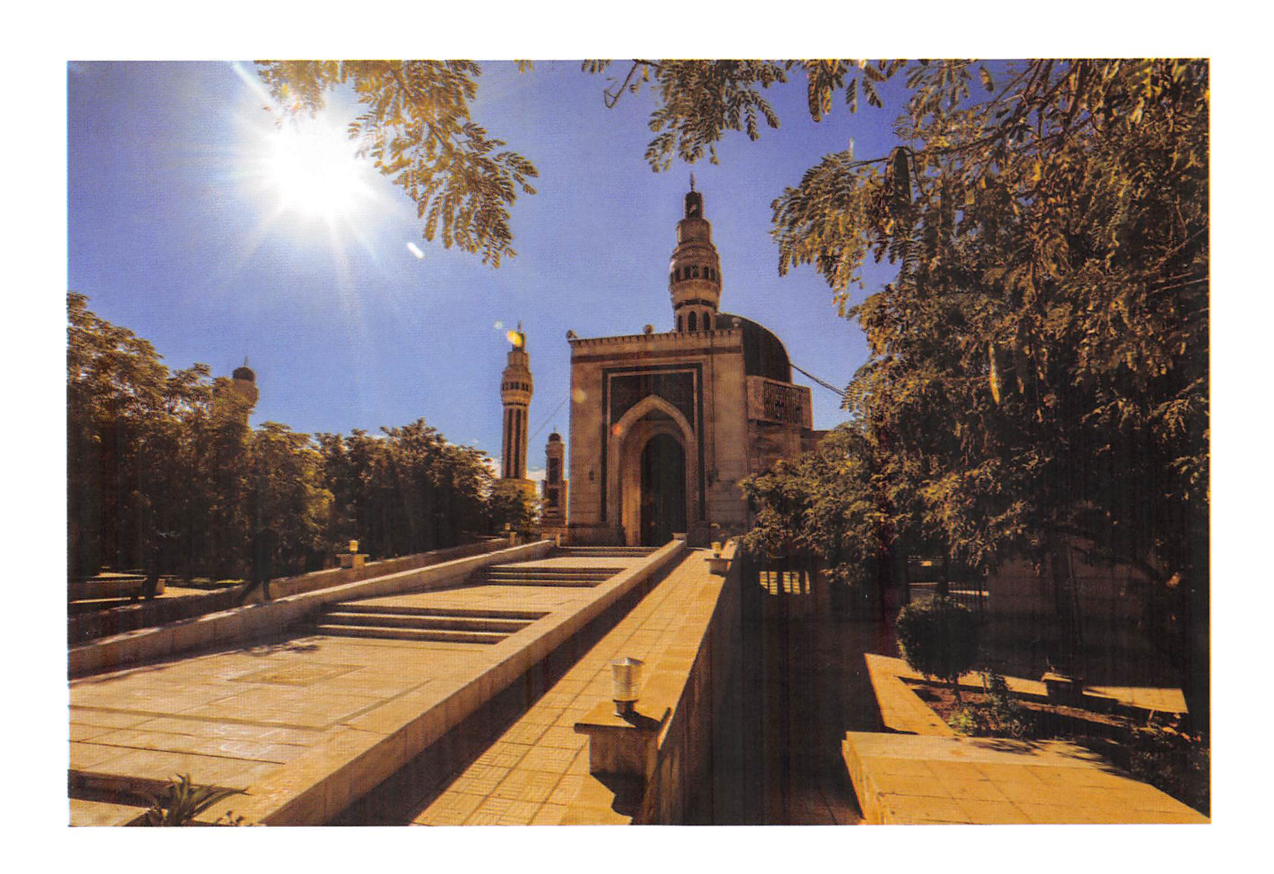






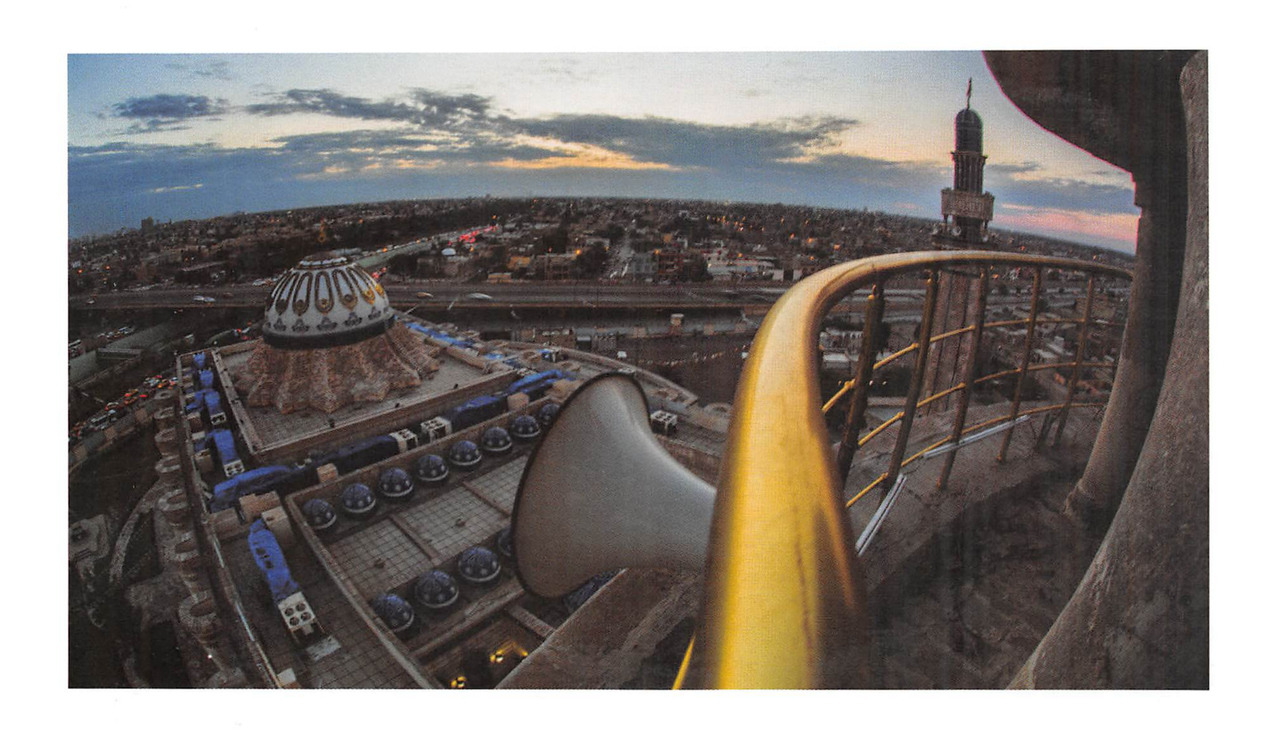


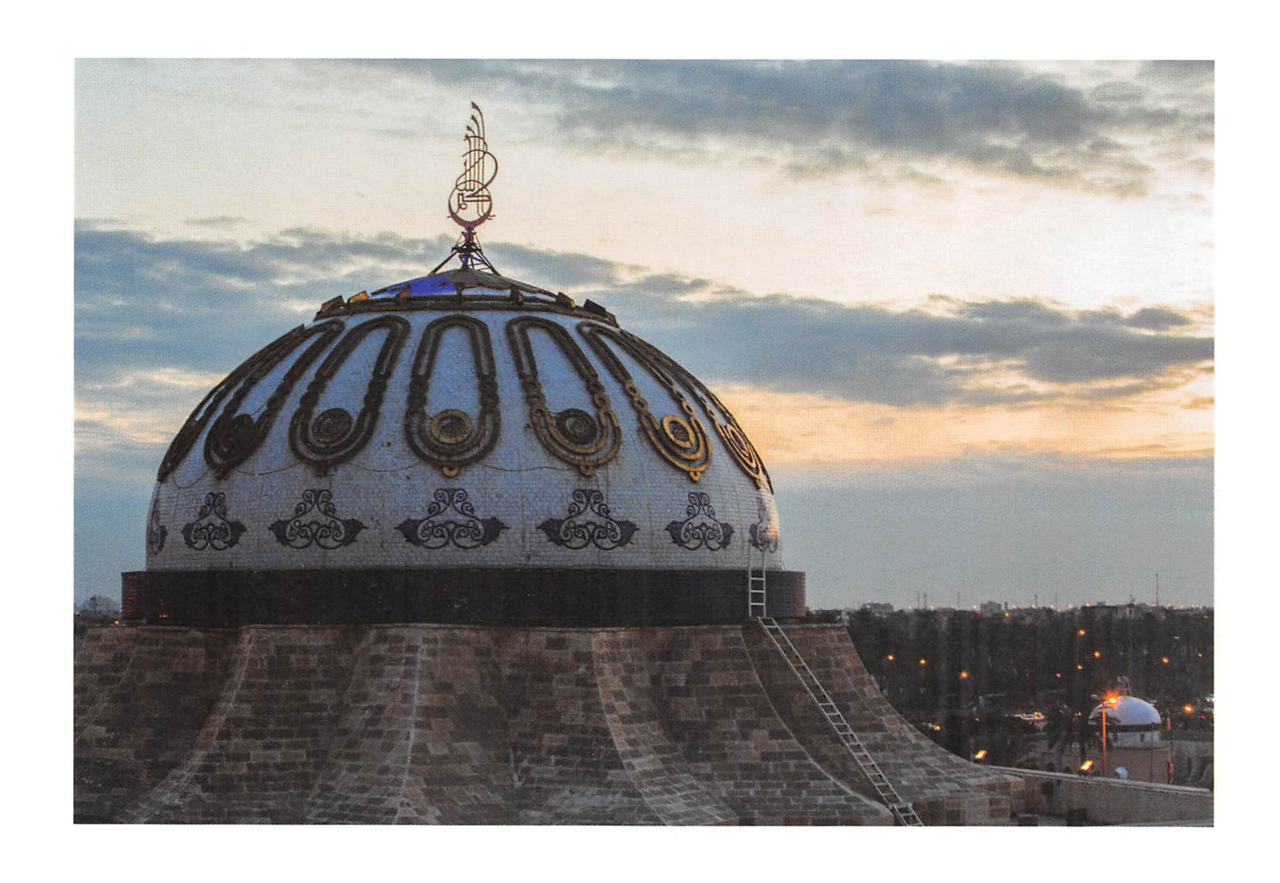






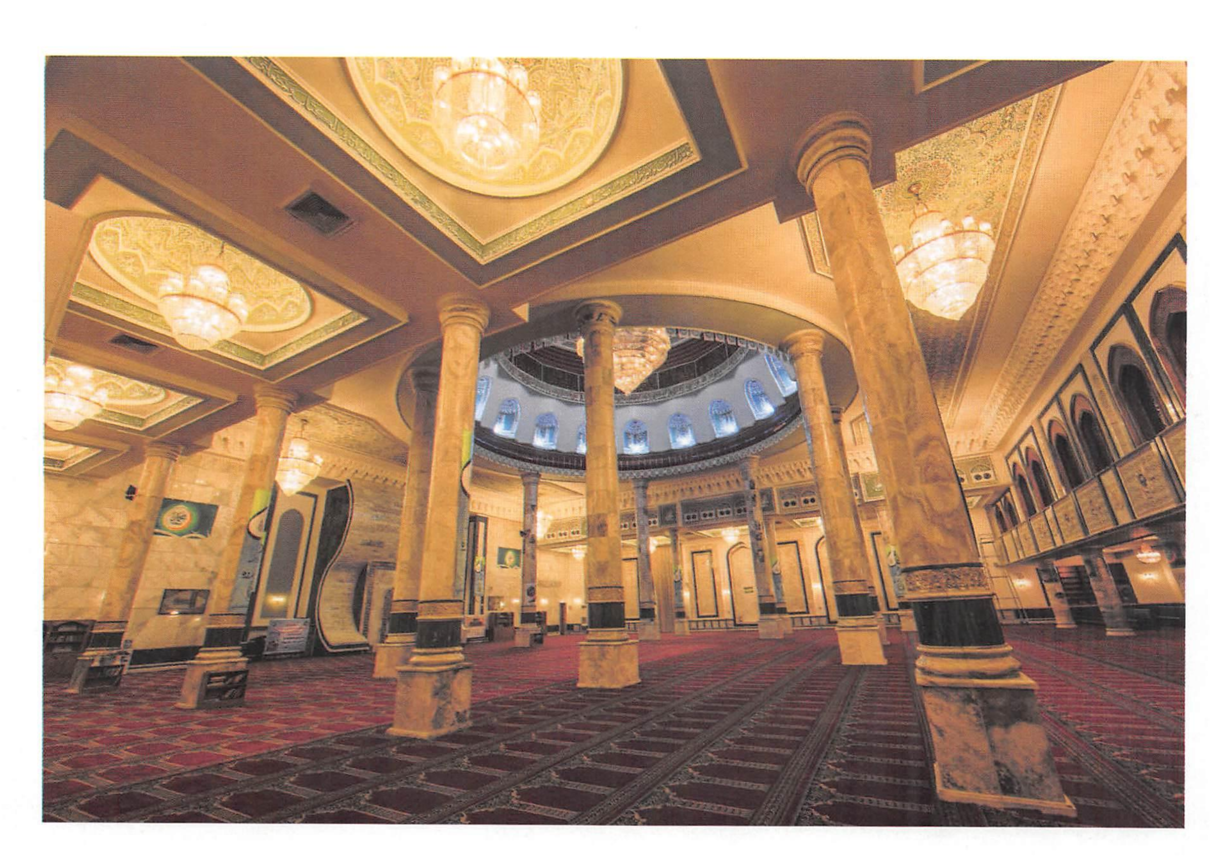
صور جامع النداء



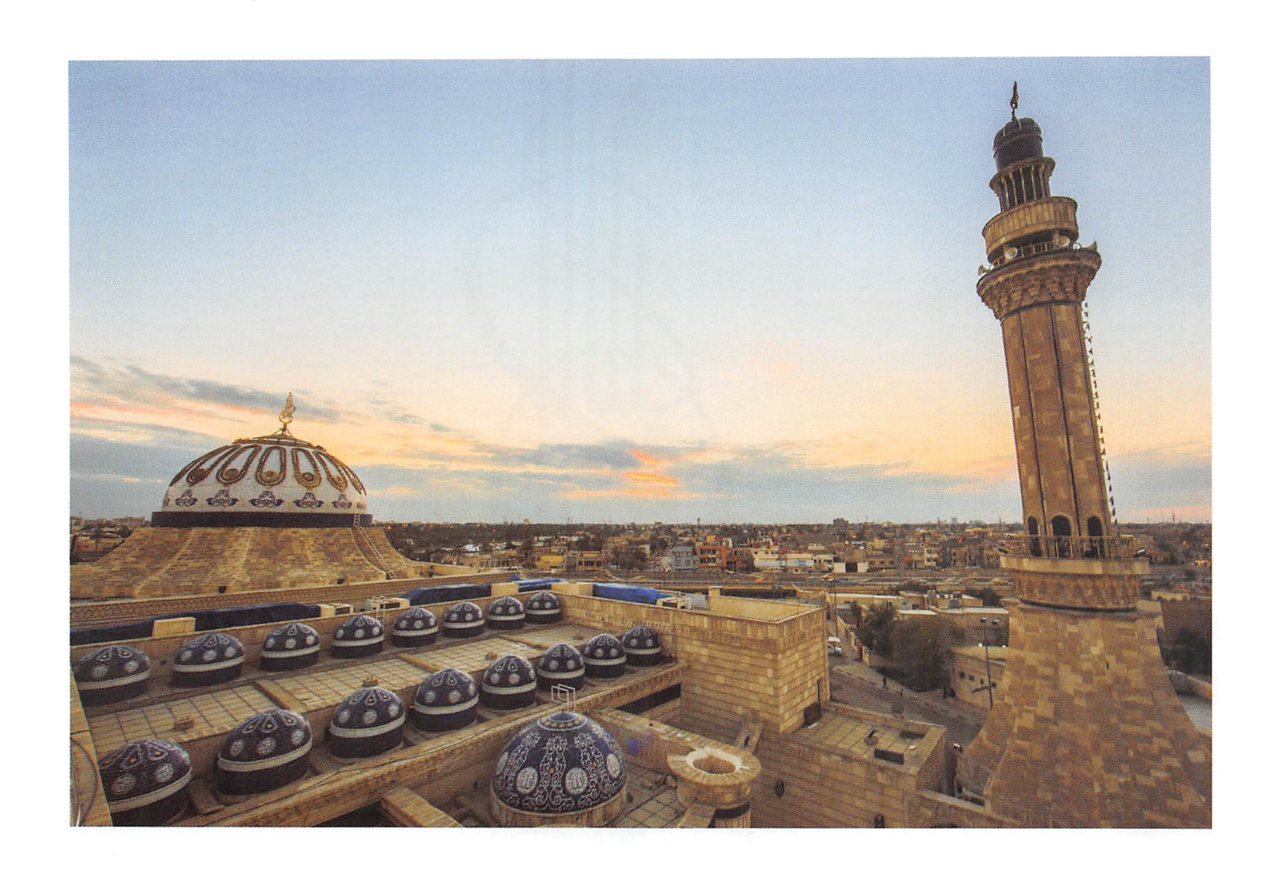




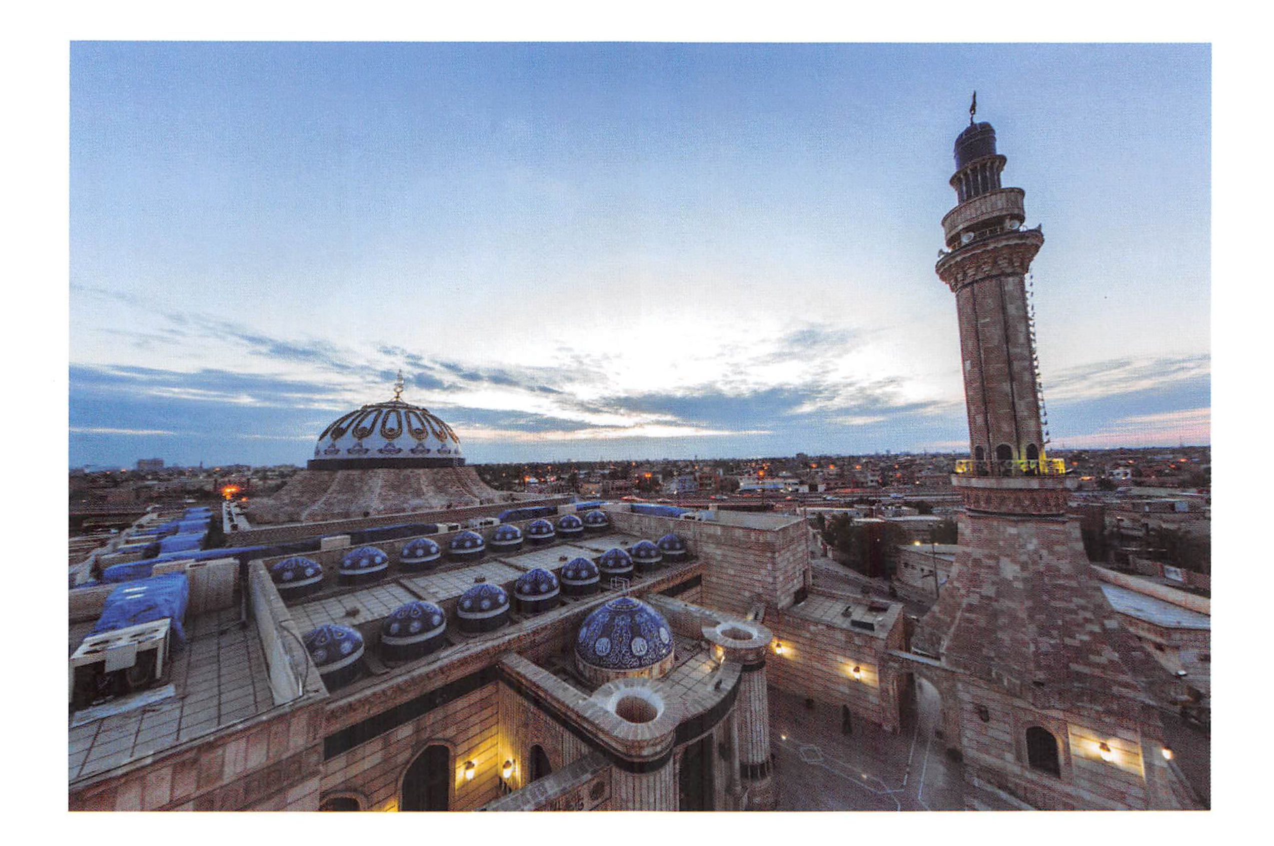


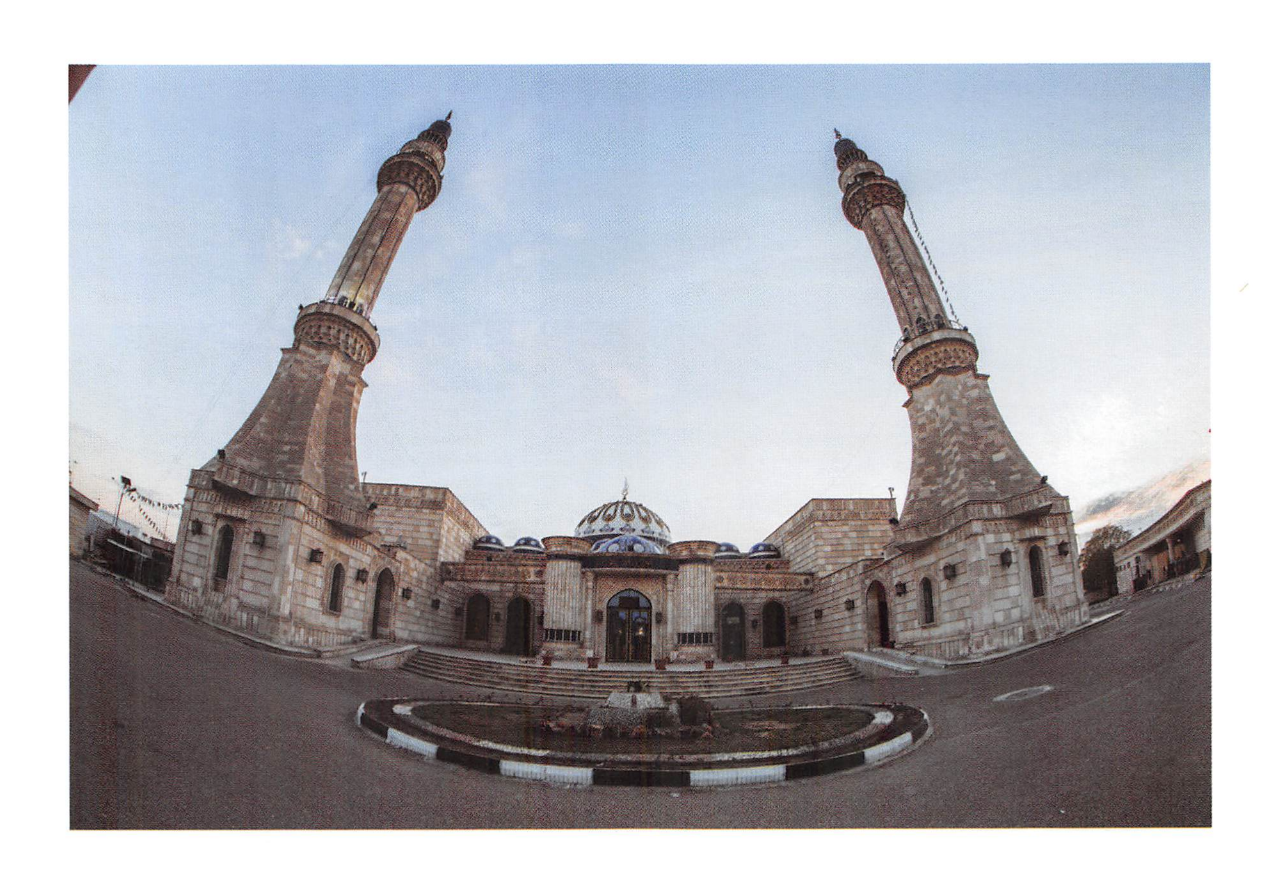










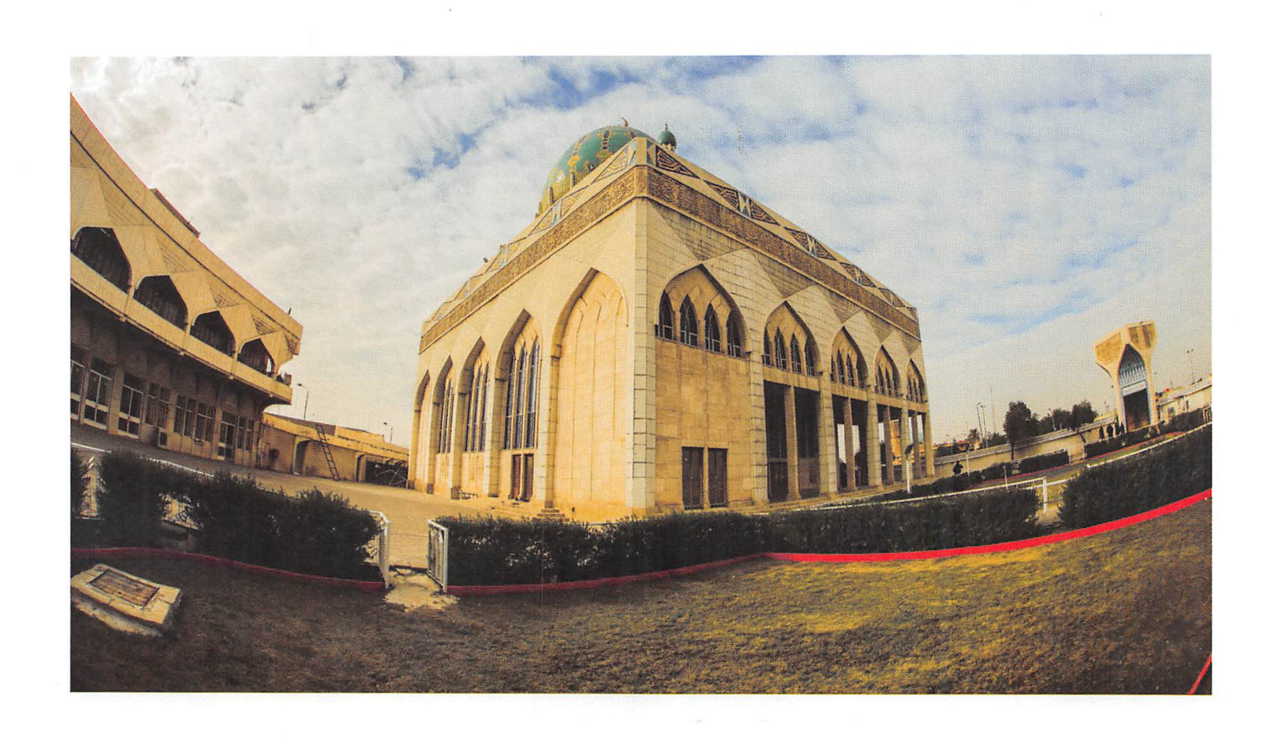


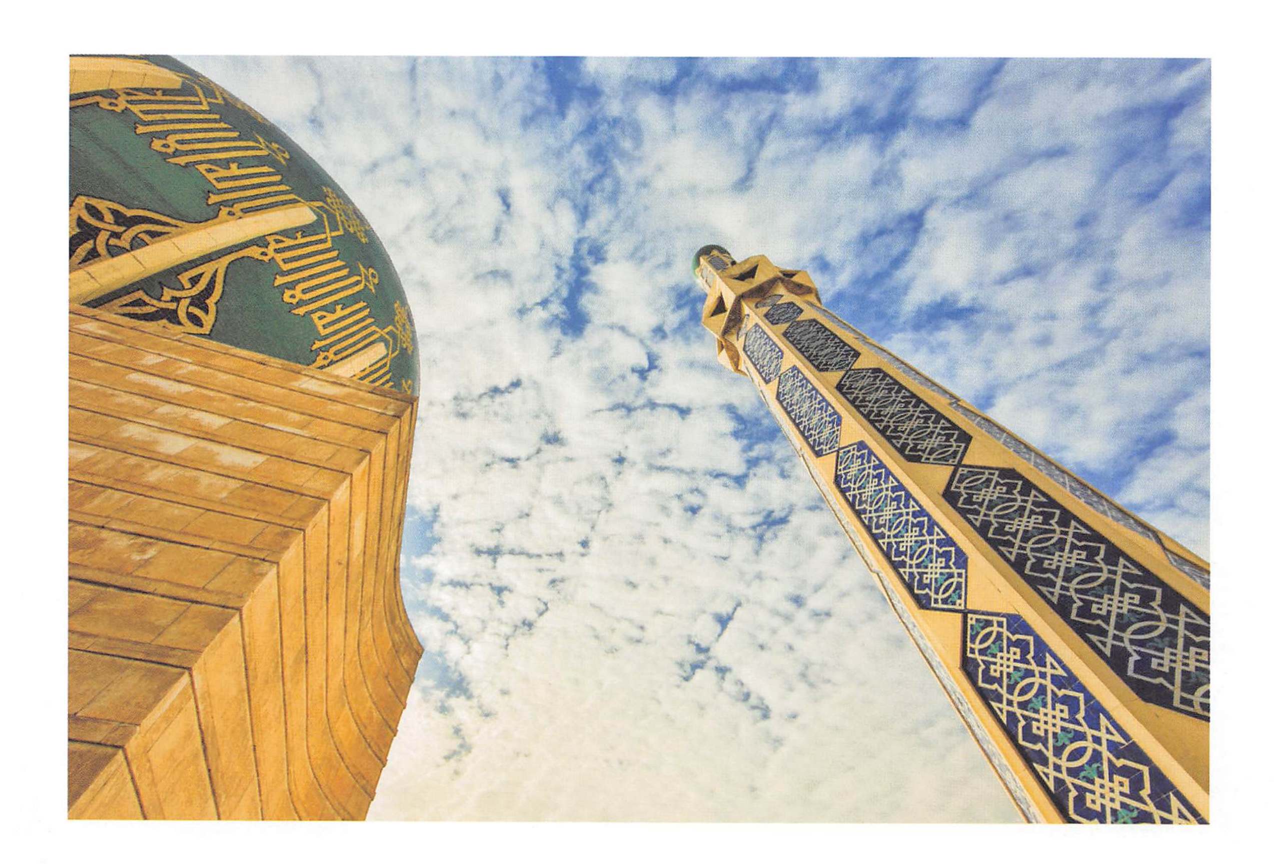






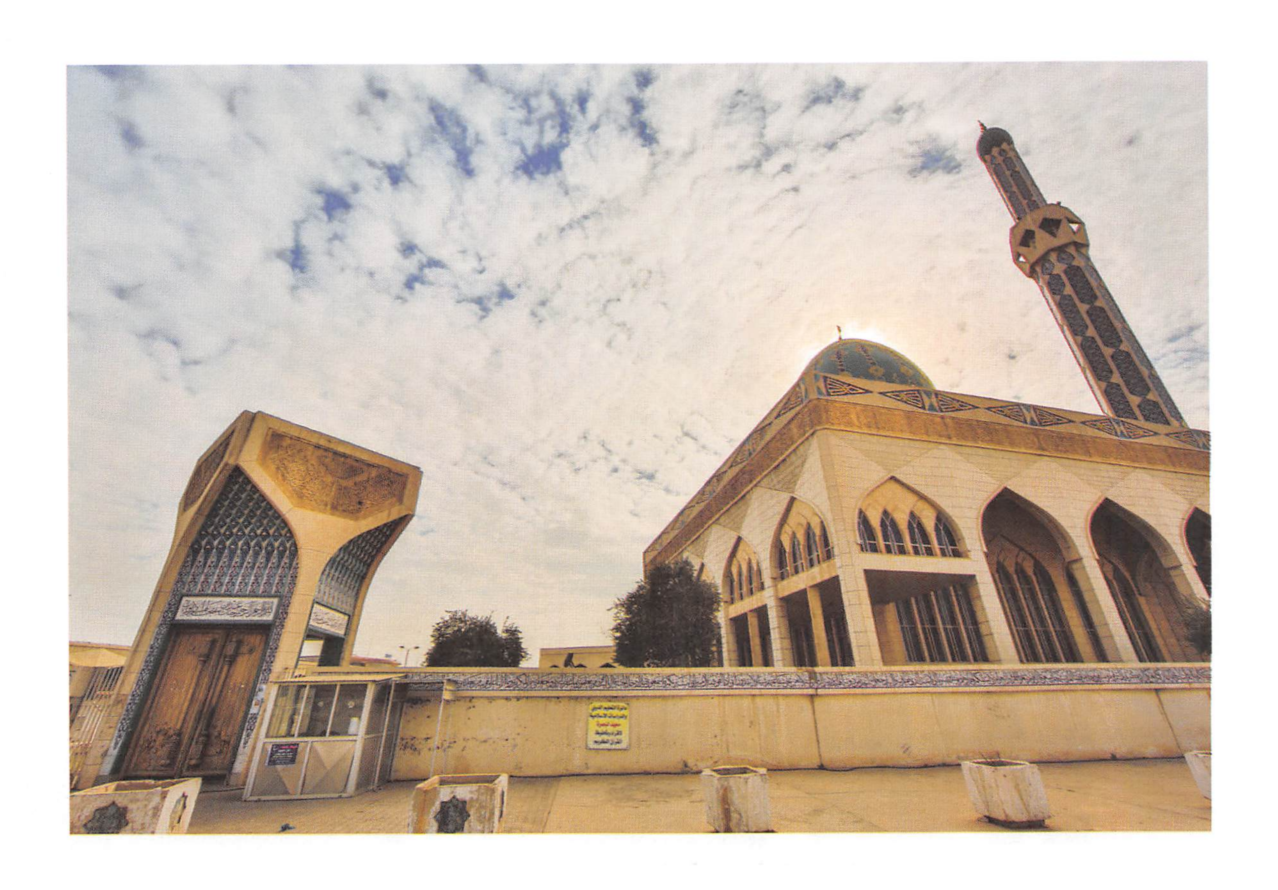
صور جامع بنية

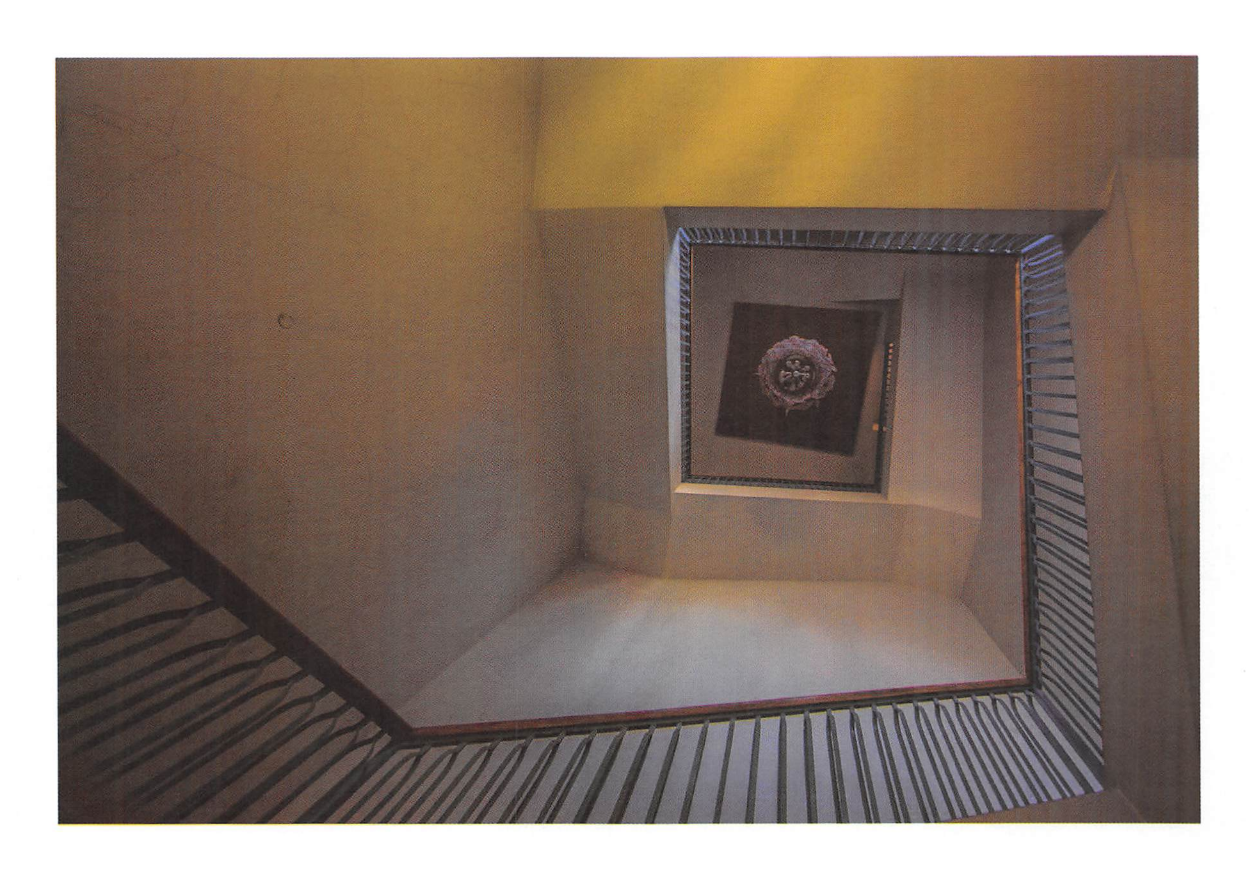





وان تصوموا خير لكم

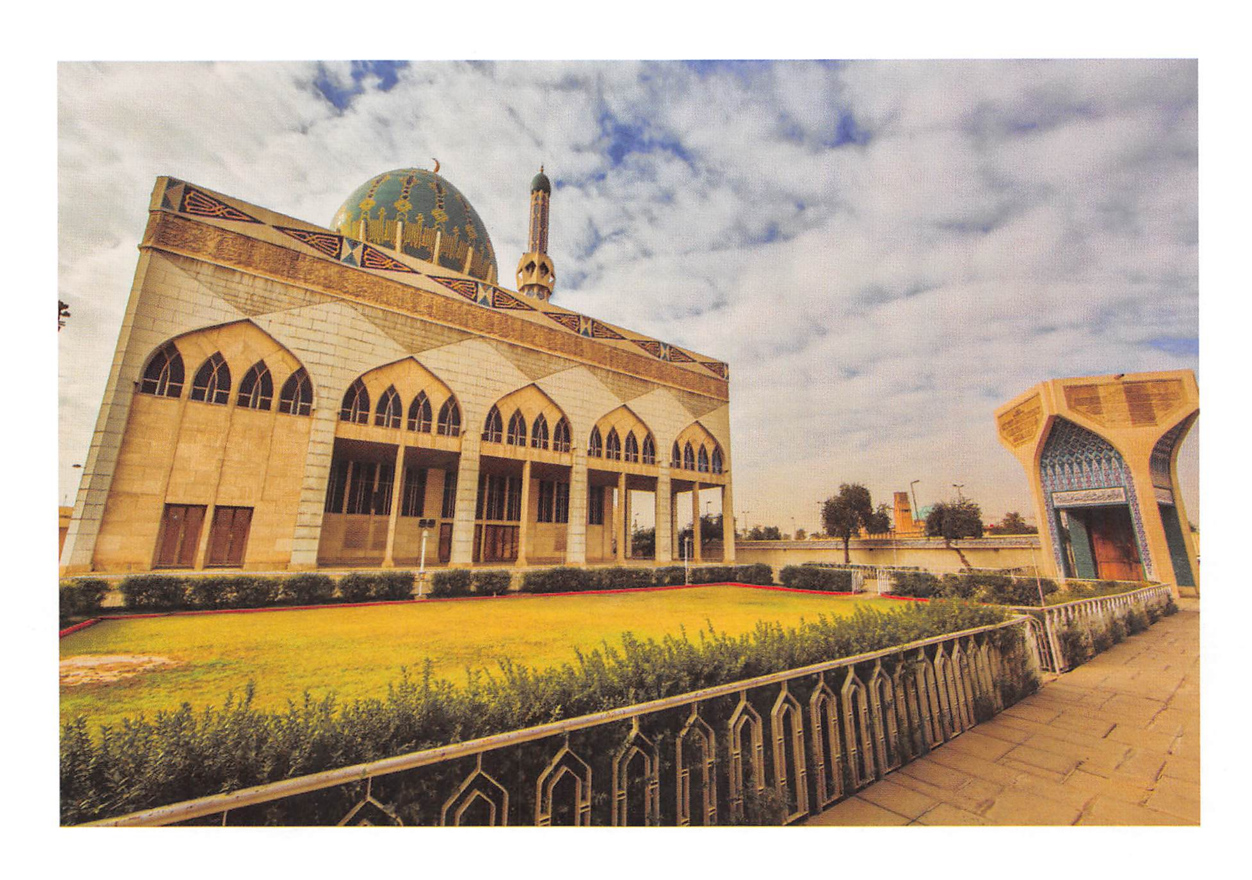


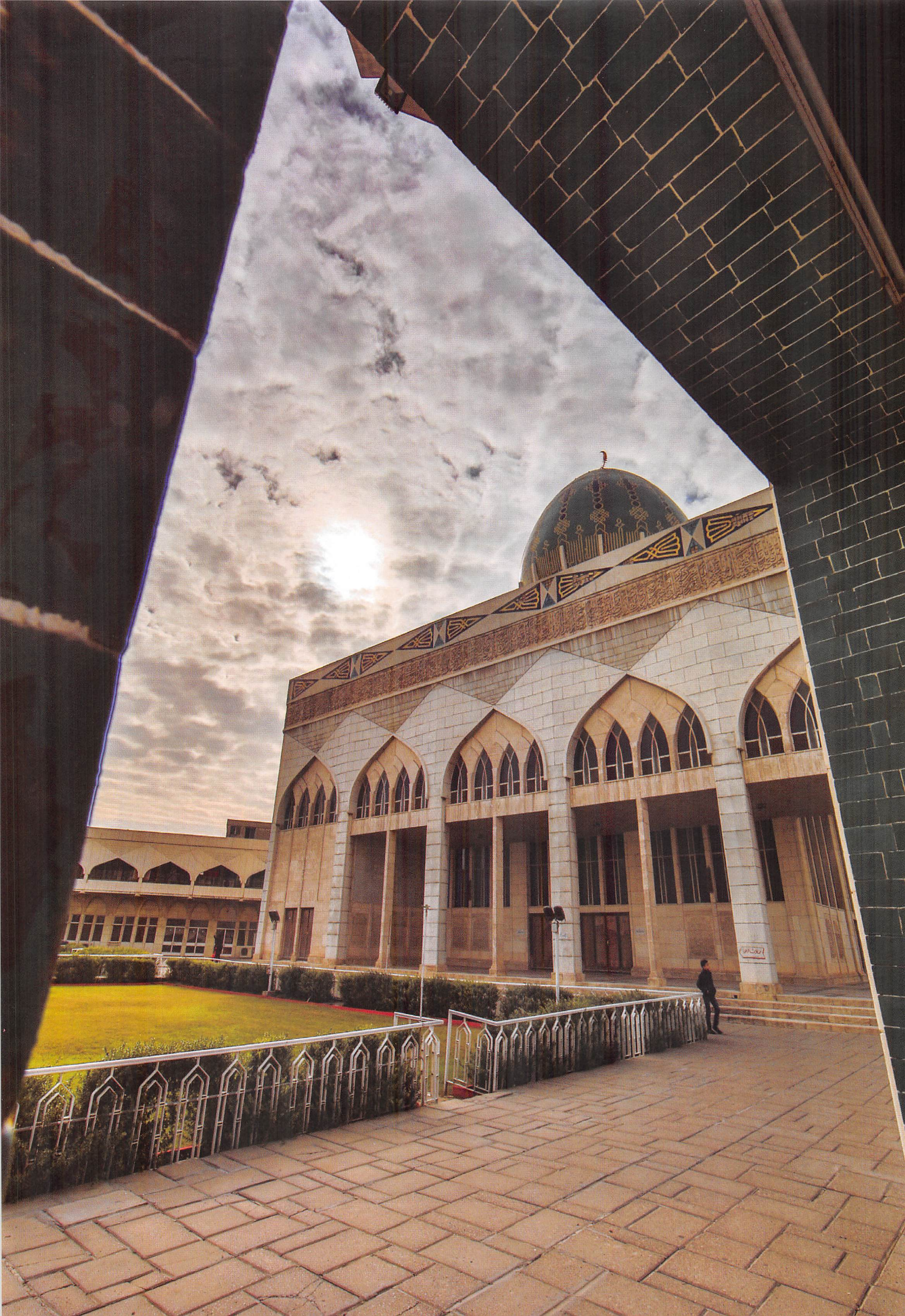




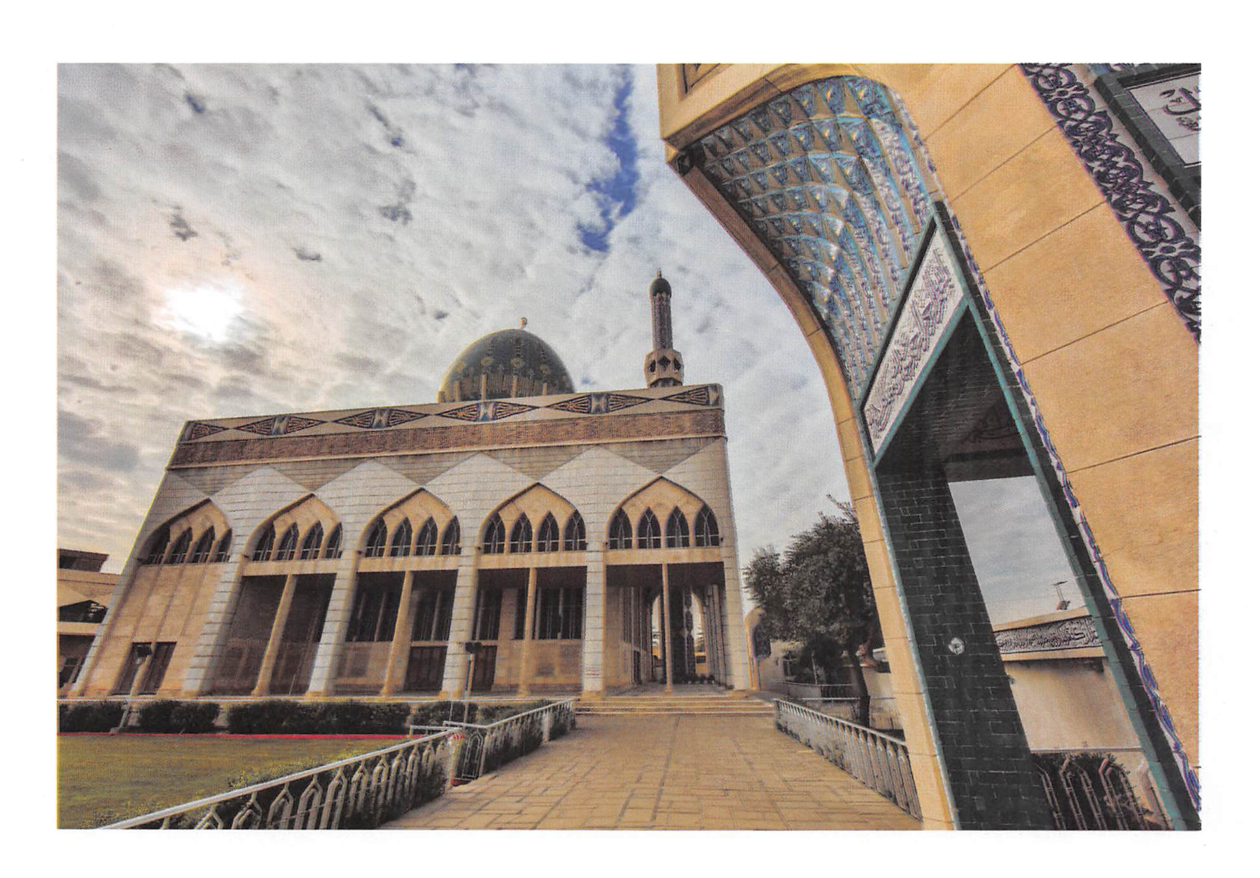
















ثانيًا: دور العلم وبيوته:

١ - بيت الحكمة:

كان إنشاء بيت الحكمة فتحًا كبيرًا للعرب والمسلمين في ميادين العلم والحضارة الفكرية، يضاهي فتوحاتهم الكبرى في الميادين السياسية والعسكرية، بل ومكملاً لها، ويرى فيليب حتي أن بيت الحكمة كان يمثل أهم مجمع علمي تم تشييده منذ أن أنشئت مدرسة الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، ومن أهم خزائن الكتب في الإسلام على اختلاف دوله وعصوره، وهو من أعظم دور العلم في الأرض بلا أدنى مبالغة، ومن كنوز الفكر الإسلامي في مجالات العلوم شتى، بناه الخليفة هارون الرشيد[١]، ووضع فيه الكتب التي جمعها الخليفة المنصور ومن خلفه، وكان مفتوحًا أمام العلماء وطلاب العلم، وفي زمن المأمون زادت البعثات العلمية لجلب الكتب في شتى العلوم بهدف سمّاه المستشرقون الأوروبيون «حماية الخليفة المسلم للعلوم الإنسانية من الاندثار والتلف».

ومن أقسام بيت الحكمة:

أ- المكتبة: وهي بناية ضخمة رحبة تحتوي على الكتب القيمة في رفوف، وبمتناول كل دارس، وملحق بها قسم النسخ والتجليد، وكانت موارد المكتبة تأتي عن طريق الشراء أو الهدايا أو النسخ، أو التأليف، بل كانت تقبل الكتب عمن تجب عليهم الجزية، فيدفعونها كتبًا، ومن مواردها أيضًا رحلات التنقيب عن الكتب، ومن ذلك ما حكي أن إحدى البعثات وجدت تحت حصن قديم صناديق بها كتب كثيرة قد كُفِّنت حتى فاحت منها رائحة نتنة فحملوها إلى بغداد، وبقيت حولاً كاملاً إلى أن جففت وتغيرت، ثم أقبلوا بعد ذلك على دراسة ما فيها، ولم تقتصر مكتبة بيت الحكمة على المترجَم منها، بل كان من نفائس ما حوت كتاب على جلد أدم بخط عبدالمطلب بن هاشم[٢].

ب- قسم الترجمة: على الرغم من الجهود المبذولة في ترجمة العلوم غير العربية بشكل لافت للنظر، لكنها نشطت وتوسعت في العصر العباسي بسبب رصد الخلفاء للأموال الطائلة لذلك، وإذا كان الأمر في طوره البدائي زمن الخليفة المنصور ومن تلاه، إلا أنها أصبحت هيئة مستقلة من المترجمين

---

(١) الدينوري، المعارف، ص٣٤.

(٢) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٢٢٧.

المهرة زمن الرشيد والمأمون، وعُيِّن عليها مسئولٌ لكل لغة يشرف على مَن يترجمون تراثها، وأُجريت لهم الرواتب وصل بعضها إلى خمسمائة دينار ذهب في الشهر، أي: ما يساوي كيلوين جرام ذهبًا، ومن الجدير ذكره أن الترجمة التي كانت تقوم بها أقسام الترجمة في بيت الحكمة لم تشمل اللغة العربية فحسب، بل شملت جميع اللغات الحية للشعوب التي خضعت للخلافة الإسلامية، وكان المترجمون غير المنضوين تحت مظلة بيت الحكمة، يجزيهم الخليفة المأمون وزن الكتاب المترجم ذهبًا[١].

ووفرت هذه الخطوة خدمة كبيرة للبشرية بكل قومياتها، وكان بعض المترجمين يشتغلون بوضع تحقيقاتهم على الكتب المترجمة، حتى وُصفت الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد على لسان علماء الأندلس (بدولة الحكمة)، ولم يقتصر تشجيع حركة الترجمة على الخليفة العباسي فحسب، بل شاركهم في ذلك وزراؤهم ورجال دولتهم والعلماء[٢]، منهم مثلاً الوزير محمد بن عبدالملك الزيات؛ فقد كان ينفق على المترجمين ألفي دينار ذهب في الشهر، وعلي بن يحيى المعروف بالمفنجم، وإبراهيم بن محمد بن موسى، وعيسى بن يوسف الكاتب.

وكان من أشهر مترجمي بيت الحكمة في عهد الخليفة هارون الرشيد: سعيد بن هارون، وحنين بن إسحاق العبادي، ويحيى بن أبي منصور المنجم، وثابت بن قرة، والحجاج بن مطر، وعمر بن الفرخان الطبري، وأبو نوح بن الصلت، ويحيى بن عدي التكريتي، وغيرهم كثير، ومن أشهر الكتب التي تُرجمت آنذاك (السند هند، وشارك سهيتا، من الكتب الهندية الطبية، وكتاب شاناف وارباهيت عن السموم، وكتاب روسا في أمراض النساء وعلاجها، وكتاب اشودار في الأعمار، فضلاً عن مؤلفات أرسطو وأفلاطون وأبقراط، وجالينوس وبطليموس وإقليدس، ومنها كتاب (المجسطي)، وغيرها[٣].

جـ- قسم البحوث والتأليف: انضم المؤلفون والعلماء في أقسام خاصة للتأليف في بيت الحكمة، ووفرت لهم القراطيس والأموال اللازمة لذلك، أما مَن كان يؤلف خارج مؤسسة بيت الحكمة فكان الخليفة يجزل له العطاء.

---

(١) المورد، ص١٩٩.
(٢) سليمان، الفوز بالمراد، ص١٤٨.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٢ص٤١٨؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٨٢، ١٣٦؛ الدينوري، المعارف، ص٥٤؛ ديورانت، قصة الحضارة، ج١٣ص١٩١.

د- المرصد الفلكي: بنى المأمون مرصدًا تابعًا لبيت الحكمة، لتعليم علم الفلك بأسلوب علمي عملي، ومن كبار أساتذة هذا المرصد: العلامة البيروني، ذو العقل الموسوعي الذي اعتبره العالم الألماني البارز سخاو: «أعظم عقلية عرفها التاريخ».

ومما حواه بيت الحكمة أيضًا دار إقامة للطلاب والمدرسين على حد سواء مجهَّزة بكل وسائل الراحة، فضلاً عن وجبات الطعام والرواتب الشهرية التي كانت تُصرف للعالم والمتعلم.

أما مناهج التدريس في بيت الحكمة، فكان يتم من خلال نظامين؛ الأول نظام المحاضرات، والثاني نظام الحوار والمناظرات والمناقشات، وكان المدرس يحاضر في قاعات كبيرة يساعده المعيد، ويشرح للطلاب ما استغلق عليهم من المحاضرة، ويشمل ذلك علوم الطب والفلك والرياضيات واللغات.. إلخ، ولا يتخرج الطالب من بيت الحكمة إلا باجتيازه امتحانًا يعده أستاذه المباشر، وفي حال نجاحه يستحق الإجازة العلمية.

أما عن الوصف المعماري لبيت الحكمة فهو مقسم إلى قاعات وغرف، فهناك غرف كثيرة يحضرها الطلاب للدراسة من مختلف أنحاء العالم، وتلقي العلوم على أيدي أساتذة مختصين، أما المكتبة فكانت تحوي كتبًا عدة، مصنَّفة ومزودة برفوف تُصَفّ عليها الكتب، فضلاً عن القاعات الواسعة المتخصصة لإلقاء المحاضرات، وعقد المناظرات العلمية، وهناك أيضًا غُرف خاصة مُعَدَّة للاستراحة يقصدها الدارسون والمدرسون والمطالعون والعاملون في المكتبة، ليستريحوا فيها من عناء العمل.

ومن قاعات بيت الحكمة أيضًا: قاعات وغرف للترجمة، وأخرى للذين يقومون بمراجعة تلك الترجمات وتنقيتها، وكذلك غرف للنساخين لنسخ الكتب إما لأنفسهم أو لحساب غيرهم، كذلك غرف للمجلِّدين لتجليد الكتب، وغرف للوراقين ولخازن الكتب وللمناولين الذين ينقلون الكتب من الرفوف إلى المطالعين والنساخين والمجلدين، وما سواهم.

ولا يفوتنا أن نذكر أنّ بيت الحكمة لم يكن حكرًا على طائفة أو لغة معينة، بل كان بمقدور الجميع من مترجمين ومؤلفين ومدرسين ونساخين.. إلخ أن يقصدوا أحد تلك الأقسام ليقدموا خدماتهم.

ومن خدمات بيت الحكمة المقدمة للمفكرين والعلماء والمطالعين أيضًا: حق أي شخص في استعارة كتابٍ ما لمدة شهرين.



٢- دور القرآن الكريم ودور الحديث النبوي الشريف:

للقرآن الكريم والحديث النبوي منزلة عظيمة في نفوس المسلمين، ولاسيما الولاة والعلماء، ونال الاهتمام بتدريسهما وتعليمهما عناية خاصة من قِبل هؤلاء، فأنشئت دورٌ خاصة بالقرآن وأخرى بالحديث، أو بهما معًا، وفي بغداد كانت هذه الدور إما ملحقة بالمساجد ولاسيما الجوامع الكبيرة، أو ملحقة بالمدارس، كما في المدرسة المستنصرية؛ إذ ألحقت بالمدرسة دار القرآن، وشرط أن يكون فيها ثلاثون صبيًّا أيتامًا، ولهم شيخ يلقِّنهم القرآن الكريم ومعيد يشرف على تحفيظهم(١)، ودار الحديث النبوي، ويكون عدد طلابها عشرة يقوم على تعليمهم شيخ عالي الإسناد ويعاونه قارئان.

وهناك دور مستقلة، مثل دار القرآن التي بباب الأزج بالجانب الشرقي من بغداد، ودار القرآن الجوزية والبشيرية بالجانب الغربي من بغداد، ودار القرآن الدنبلية التي أنشأها بهاء الدين الدنبلي بدار الخلافة ببغداد، ودار القرآن الجمالية التي أنشأها جمال الدين العاقولي.

وأما دار الحديث التي تُعدُّ من مبتكرات السلطان نور الدين محمود بن زنكي، فقد ذكر ابن الأثير والمقريزي، أنه أول من بنى دارًا للحديث في دمشق، وأوقف عليها وقوفًا كثيرة(٢)، وفي بغداد أُسست دارٌ للحديث في جامع قمرية بالجانب الغربي منها.

واليوم تنتشر في بغداد مراكز إقراء القرآن الكريم في أغلب مساجد بغداد، ولا سيما الكبيرة منها، كما أُسست في بغداد جمعية علوم الحديث العلمية التي تُعنَى بتدريس الحديث النبوي ونشره، وإعداد الدراسات المتعلقة بالسنة النبوية، ومؤخرًا أَسس ديوان الوقف السني مركز الشيخ المحدث صبحي السامرائي لعلوم الحديث، ويضم نخبة من طلابه النجباء.

ثالثًا: المكتبات وخزائن كتب:

من أشهر المكتبات البغدادية: مكتبة الخليفة المنصور، ومكتبة الخليفة المستنصر، ومكتبة الفتح بن خاقان، ومكتبة ابن العميد، ناهيك عن مكتبات المدارس والمساجد.

وكان خلفاء بني العباس من أكبر المشجعين على ارتياد مناهل العلم، والإقبال عليه، وقد بذلوا في

---

(١) ينظر، الحوادث الجامعة، ص٣٢- ٣٥.

(٢) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج١ ص٤٧.

سبيل ذلك الأموال الطائلة، فأسسوا المدارس، وأعمروا الخزائن بالأسفار النفيسة، ووصلوا العلماء والأدباء والشعراء بالصلات السنية، ومن أعظم الأدلة على الرغبة في العلم، إنشاؤهم خزائن كتب دار الخلافة، وهي المحل الذي تجمع فيه الكتب وتنضد وتصنف بنظام معلوم ليطالع فيها، ويُستفاد من علومها، وتُمارس الترجمة في أغلبها.

وما من شك في أن الخلفاء كانوا يتوارثون الكتب، على الرغم مما كان يصيبها من رزايا بسبب الفتن والأحداث السياسية، فخزائن الخلفاء كانت تجمع أنفس الكتب وأثمنها، ولم يكن كتاب يعزّ عليهم إحرازه.

١- خزانة كتب المنصور:

كانت لأبي جعفر المنصور خزانة كتب، وقد ذكرها الخطيب البغدادي في تاريخه، وعندما أشار المنصور على محمد بن إسحاق بتصنيف كتاب منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومه هذا، فذهب ابن إسحاق فصنَّف له هذا الكتاب، فقال له: لقد طولته يا ابن إسحاق، اذهب فاختصره! قال: فذهب فاختصره فهو هذا الكتاب المختصر، وألقي الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين.(١)

وقرر الدينوري عند ذكره لجورجيس بن بختيشوع (ت١٥٢هـ) أنه نقل للمنصور كتبًا كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربي، وأشار إلى أن البطريق كان أحد التراجمة في أيام المنصور، فقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة، وله نقل كثير جيد، إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق(٢).

٢- الرشيد والمأمون وخزانة بيت الحكمة:

لا شك أن خزانة الحكمة ببغداد، كانت من أعظم خزائن الكتب في الإسلام، على اختلاف عصوره ودوله؛ لأنها حوت من الأسفار العتيقة كل جليل ونفيس، ولم تكن كتبها إلا نتاج ثقافات شرقية وغربية مختلفة: العربية والفارسية، والسريانية واليونانية، وغيرها بعضها ببعض، بواسطة النقل والتعريب في صدر الدولة العباسية، ولهذه الخزانة ذِكْر مشتَّت في كثير من المراجع العربية، قديمها وحديثها.

---

(١) عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص٤٢.
(٢) المعارف، ص٥٤.



كان البدء بتأسيس هذه الخزانة، في عهد هارون الرشيد (ملكه ١٧٠ - ١٩٣هـ)، ذكر ابن العبري في ترجمة يوحنا بن ماسويه أن الرشيد قلده ترجمة الكتب القديمة، مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين فتحها المسلمون، ووضعه أمينًا على الترجمة، وخدم هارون والأمين والمأمون، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل[١]، وفي ترجمة أبي سهل الفضل بن نوبخت، أنه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد، وأشار في ترجمة علان إلى أنه كان منقطعًا إلى البرامكة، وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون[٢].

وعلا شأن هذه الخزانة الحافلة، وبلغت أوج عزها وازدهارها في خلافة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ)، وقد امتاز المأمون بثقافته الواسعة، وبمحبته العظيمة للعلم وذويه، وبميله الظاهر للفلسفة، فلا غرو أنه سعى لتوطيد أركان هذه الخزانة، وتوسيعها وإغنائها بما استطاع جمعه من الكتب المختلفة من شتى البلدان.

ومن أخبارها ما ذكره ابن نباته: أن المأمون لما هادن صاحب جزيرة قبرص، أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد أبدًا، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة، إلا مطرانًا واحدًا، فإنه قال: «الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها»، فأرسلها إليه، واغتبط بها المأمون، وجعل سهل بن هارون خازنًا لها.

وذكر أن إحدى بعثات المأمون لهذا الغرض؛ فقد كان بين المأمون وملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم: الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلما (أو سليمان) أصحاب بيت الحكمة، وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه، أمرهم بنقله، فنُقل وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم، وأحضر المأمون أيضًا حنين بن إسحاق، وكان فتي السن، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربي وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل لأمره[٣].

---

(١) ابن العبري، مختصر الدول، ص١٣١.

(٢) الدينوري، المعارف، ص٥٤.

(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٦.



وكان في هذه الخزانة طائفة من أكابر العلماء في ذلك العصر، لاسيما من كان ذا حظ وافر من معرفة لغة أو لغات أجنبية، وكان عملهم في خزانة الحكمة: خزن الكتب، أو استنساخها، أو نقلها من لغة إلى لغة أخرى.

٣- خزائن أخرى للخلفاء[١]:

كانت للمعتضد بالله الخليفة العباسي السادس عشر، خزانة كتب، جاءت عنها الأخبار، في كتب التراجم والفهارس، كفهرست ابن النديم، فقد ألف الزجاج النحوي (ت٣١٠هـ) كتابًا فسر فيه كتاب جامع المنطق، وحمل إلى المعتضد فاستحسنه، وأمر له بثلاثمائة دينار، كما تقدم إليه بتفسيره كله، ولم يخرج الزجاج نسخة إلى أحد إلا إلى خزانة المعتضد، كما ذكر ابن أبي أصيبعة أن أحمد بن الطيب السرخسي، صنَّف جملة كتب للمعتضد وُضعت في خزانته.

ومن خزائن الخلفاء التي نالت شهرة خزانة الراضي بالله (خلافته من سنة ٣٢٢هـ إلى ٣٢٩هـ)، فهو أحد الخلفاء الأدباء، قال عنه الصولي: إنه «كان أعلم الناس بالشعر، فكنت أتنخل له الألفاظ، وأختار علوي الكلام، وبدأ اهتمامه به منذ شبابه قبل توليه الخلافة؛ إذ كان يتنافس وأخاه هارون في جمع الكتب، وكانت لكل واحد خزانة، ولا شك أنه أغناها عند توليه الخلافة، وكان لخزانته ورَّاقون ومجلِّدون، مما يدل على الرغبة في تكثير كتبها بالنسخ، والعناية بها بالتجليد.

ومن خزائن الكتب التي ذاع صيتها، خزانة المقتدي بأمر الله (خلافته من سنة ٤٦٧ إلى ٤٨٧هـ)، تميزت هذه الخزانة بأن خصها بعض العلماء بتصنيف كتب برسمها، وباهتمام الخليفة بكتب الطب، من ذلك كتاب «تقويم الأبدان في تدبير الإنسان» لأبي علي يحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي (ت٤٩٣هـ)، جاء في مقدمة كتابه، أنه: أحب أن يخدم خزائن الحكمة المولوية المقتدية، أعلى الله شأنها، بالقدر الضروري من علم الطب، يستغني به عن كثير من إطالة الأطباء، وعن كتبهم المدوَّنة فيه، ولابن جزلة كتاب آخر نفيس في المواد الطبية، عنوانه «منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان»، وقد ألفه كما جاء في مقدمته لخزانة المقتدي بأمر الله كما ذكر ابن أبي أصيبعة، وذكر أن الطبيب أبا الحسن سعيد بن هبة الله (ت٤٩٥هـ) ألف لخزانة المقتدي بأمر الله كتاب «المغني في الطب».

---

(١) ممن تتبع أخبار هذه المكاتب الأستاذ كوركيس عواد في كتابه «خزانة الكتب القديمة في العراق» دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.



وتأتي شهرة خزانة الناصر لدين الله من شهرته إذ يعد من أعظم خلفاء بني العباس؛ إذ أعاد للخلافة هيبتها ورونقها، ودامت خلافته مدة طويلة (من سنة ٥٧٥ إلى ٦٢٢هـ) لم يتفق لخليفة عباسي آخر أن حكم مثله، وخزانة كتبه كانت جليلة القدر، حافلة بالأسفار والتصانيف المعتبرة، ويستدل على ذلك بأن الخليفة الناصر نقل منها جانبًا، فقام مما نقله ثلاث خزائن، هي: خزانة دار المسناة ببغداد، وخزانة الرباط الخاتوني السلجوقي ببغداد، وخزانة المدرسة النظامية ببغداد، فقد ذكر القفطي في ترجمة الحاسب مبشر بن أحمد البغدادي الملقب بالبرهان (ت٥٨٩هـ) أنه: تميز في أيام الناصر لدين الله، وقرب منه، واعتمد في اختبار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي، وبالمدرسة النظامية، وبداره المسناة، فإنه أدخله إلى خزائن الكتب بدار الخليفة، وأفرده لاختيارها.

وفي أيام المستنصر بالله (ت٦٤٠هـ) بيعت الكتب بأغلى الأثمان لرغبته فيها ولوقفها، وكانت له خزانة كتب خاصة به غير التي أنشأها في المدرسة المستنصرية، ومما يدل على سعة خزانته الخاصة أنه بعد فراغه من بناء المدرسة المستنصرية، نقل إليها في يوم افتتاحها جملة صالحة من الكتب، قال ابن الفوطي في الحوادث أنه: نقل إليها في هذا اليوم من الربعات الشريفة، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية، ما حمله مائة وستون حمالاً، وجعلت في خزانة الكتب[(١)].

وممن عني بهذه الخزائن الشيخ عبدالعزيز بن دلف الخازن، ووكل إليه إثبات الكتب واعتبارها، وضياء الدين أحمد (ت٦٤٠هـ) الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره، فحضر إلى المدرسة واعتبرها ورتَّبها أحسن ترتيب، مفصلاً لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها، ومنهم القاضي أبو محمد عبدالله البادرائي؛ إذ رتب مدرسًا بالمدرسة النظامية وخلع عليه، وأقر على خزن الكتب بخزانة الخليفة، وأذن له أن يدخل المدرسة بطرحة أسوة بالمدرسين[(٢)].

وأما خزانة كتب آخر خلفاء بني العباس المستعصم بالله، فقد قسمها إلى خزانتين القديمة والجديدة، جمع فيهما ما اشتهر ذكره في بطون التاريخ، وكانت الخزانتان متقابلتين، وعين لهما كاتبان يكتبان ما يختاره، ونقل إليها نفائس الكتب، وسلم مفتاحها إلى عبدالمؤمن الأرموي (ت٦٩٣هـ)

---

(١) الحوادث الجامعة، لابن الفوطي، ص ١٤٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦ص٩١.

فصار عبدالمؤمن يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد[١]، وإذا خطر للخليفة الجلوس في خزانة الكتب، جاء إليها وعدل عن الخزانة الأولى (القديمة) التي كانت مسلمة إلى الشيخ صدر الدين علي بن النيار، وذكر الشعراء هذه الخزانة منهم صفي الدين عبدالله بن جميل، إذ نظم قائلاً:

أنشأ الخليفة للعلوم خزانة
سارت بسيرة فضله أخبارها
تجلو عروسًا من غرائب حسنها
در الفضائل والعلوم نثارها
أهدى مناقبه لها مستعصم
بالله من لآلائه أنوارها

٤- مكتبات غير الخلفاء:

في عام ٣٨٣هـ اشترى الوزير أبو نصر دارًا بالكرخ، وجدد عمارتها، ونقل إليها الكتب الكثيرة والنفيسة مخطوطة بأيدي الأئمة، ووقفها على الفقهاء وسماها (دار العلم)، ويرى ابن كثير[٢] أنها من أوائل المدارس التي وقفت على الفقهاء، وأحرقت عام ٤٤٧هـ بسبب حرب السلاجقة والبويهيين في بغداد، ومن الملاحظ أن المكتبات البغدادية الشهيرة والتي كانت في الواقع نواة لمدارس فقهائها كانت في مجملها تحمل اسم (دار العلم)، ومنها أيضًا تلك التي بناها عضد الدولة البويهي ملاصقة لسور بغداد، وشجّع العلماء والفقهاء وطلبتهم ورغبهم في ارتيادها، لكنها دمرت أيضًا بسبب الحروب وبسبب ملاصقتها لجدار السور.

ولا تخفي المستشرقة هونكه انبهارها بالمكتبات البغدادية بعد مقارنتها بمثيلاتها الأوروبية في ذات الزمن المقصود من دراستها، فقالت: «وكما يقاس اليوم ثراء الناس بما يملكونه من عربات فاخرة مثلاً، قدر الناس - في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادي- الثراء بمدى ما يُقتنى من كتب أو مخطوطات.. ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب في الأرض الطيبة

(١) تاريخ بغداد وذيوله، ج١٧ ص٦٦.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١ ص٣١٢.



ففي عام ٨٩١م يحصي مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد بأكثر من مئة.. يستطيع عمر أو زيد من الناس استعارة ما يشاء منها، وأن يجلس في قاعة المطالعة ليقرأ ما يريد.. بينما لم تحوِ أديرة الغرب سوى اثني عشر كتابًا، رُبطت بالسلاسل خشية ضياعها.. وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة.. ولقد جمع نصير الدين الطوسي لمرصده في مراغة (٤٠٠٠٠٠) مخطوطة -مجملها من بغداد-.. وبلغت مكتبة أمير عربي (١٠٠٠٠٠) مجلد»[١].

ويقول غوته: «إن العرب علمونا صنع الكتاب وصنع البارود وعمل إبرة السفينة، فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدنية العربية»[٢].

ويجري آدم متز مقارنة بين مكتبات بغداد ومكتبات الغرب الأوروبي أيضًا فيقول: « كان بمكتبة الكاتدرائية في مدين كنستانز في القرن التاسع الميلادي ثلاث مائة وستة وخمسون كتابًا، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢م ما يزيد على المائة بقليل»، وبمقابل ذلك من الزمان «عمل علي بن يحيى المنجم.. خزانة كتب عظيمة في ضيعته، وسماها خزانة الحكمة، وكان يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى، فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج.. فوُصفت له الخزانة، فمضى وراءها وهاله أمرها، فأقام فيها وأضرب عن الحج».

ويرى روجيه غارودي أنه «بين عامي ٨١٣-٨٣٣م وبينما كانت أوروبا تجهل القراءة، كان الخليفة المأمون يؤسِّس في بغداد بيت الحكمة الذي اشتمل على مكتبة وجامعة ومكتب ترجمة.. وبعد زمن قليل كان الخليفة الحَكم الثاني في قرطبة يملك (٦٠٠) ألف مجلد، بينما لم يستطع ملك فرنسا شارل الحكيم أن يجمع بعد ذلك بأربعمائة سنة أكثر من (٩٠٠) مجلد»[٣].

رابعًا: المدارس البغدادية:

بُنيت في بغداد العديد من المدارس التي تُعنَى بتعليم العلوم الشرعية والعلوم النافعة، ولعل أبرزها:

---

(١) هونكه، شمس العرب، ص٣٨٥.
(٢) علي، الإسلام والحضارة العربية، ص٢١٥.
(٣) مجلة المورد، ص٢٦٤، وص٢٨٩، و٢٩٦.

١ - المدرسة النظامية:

بنى الوزير نظام الملك الطوسي وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان المدرسة النظامية في بغداد[١]؛ حيث بدأ بناؤها عام ٤٥٩هـ، وبنى بعد ذلك في كل مدن العراق وخراسان مدرسة لكل مدينة، وكان التلاميذ تُجرَى لهم الرواتب والطعام داخل المدرسة، فضلاً عن وقف المكتبات التخصصية لهم، وبرز دورها الكبير في حماية العقيدة الإسلامية من الانحرافات الباطنية والفلسفية.

ولما استثقل السلطان السلجوقي ملكشاه صرف وزيره نظام الملك سنويًّا مبلغًا قدره (٣٠٠) ألف دينار ذهبًا على المدارس والفقهاء، أجابه الوزير «قد أعطاك الله سبحانه وتعالى، وأعطاني بك ما لم يعطه أحدًا من خلقه، أفلا نعوض في ذلك عن حَمَلة دينه وحَفَظة كتابه ثلاث مائة ألف دينار؟!»[٢].

وبذلك سبقت الحضارة الإسلامية في إشراك طبقات المجتمع عامة في طلب العلم، ولم يعد حكرًا كما كان في الحضارات السابقة على ذوي النفوذ والسلطان وأبناء الأمراء، أو طلاسم مبهمة كما سماها المستشرقون في محض حديثهم عن العلوم اليونانية، والتي أصبحت علومًا نافعة على يد الحضارة الإسلامية.

واحتفل بافتتاح المدرسة النظامية احتفالاً كبيرًا، وكانت هذه المدرسة خاصة بالشافعية، وكان من شروطها أن يكون المدرس بها والواعظ ومتولي الكتب من الشافعية أصلاً وفرعًا[٣]، ودرس في هذه المدرسة كبار العلماء والفقهاء مثل أبي إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في وقته ببغداد، وأبي نصر بن الصباغ، وأبي حامد الغزالي، وأبي بكر الشاشي، وغيرهم من كبار فقهاء الشافعية في العالم الإسلامي، ومن النحويين والأدباء الذين درسوا في هذه المدرسة العتيدة أبو زكريا الخطيب التبريزي، وعلي بن محمد الفصيحي[٤].

ويذكر ابن الأثير في الكامل أن تعيين المدرسين في النظامية من صلاحية الوزير، وكان هذا

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦ ص٩١.
(٢) السرجاني، ماذا قدم السلمون، ص٢١١.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٩ ص٦٦.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٣ ص٢٤، ج٥ ص٢٣٩.



واضحًا عند تعيين المدرس الأول أبي إسحاق الشيرازي في النظامية بأمر الوزير نظام الملك[(١)]، وفي تعيين الغزالي مدرسًا في نظامية بغداد، فضلاً عن المدرسين فكان هناك عدد من المعيدين والمعيد هو الذي يساعد المدرس، وبإمكان المعيد أن يترقى إلى مرتبة مدرس، فالمعيد أبو الحسن علي بن علي بن سعادة الفارقي (ت: ٦٠٢هـ) كان معيدًا بالنظامية ثم صار مدرسًا، وهناك عدد من الطلبة النابهين عُيِّنوا معيدين في النظامية، ومن ثَم ترقوا إلى درجة مدرس، فالطالب علاء الدين أرسلان قدم بغداد وسكن النظامية، واشتغل ودأب في علوم الفقه، ورُتِّب معيدًا بها، ثم عُين مدرسًا للنحو.

وذكر ابن الجوزي: أن للمدرسة مكتبة فخمة فيها من الكتب النفيسة، وكان للمكتبة خازن ومشرف ومناولون للكتب[(٢)]، وذكر ابن الأثير أن نظام الملك الوزير ورد بغداد صحبة السلطان ملكشاه سنة ٤٧٩هـ، ودخل المدرسة النظامية وجلس في خزانة الكتب وطالع فيها كتبًا، وكانت ترد للمكتبة عن طريق الإهداء، وذكر أن الخليفة الناصر لدين الله العباسي جدد خزانة كتب المدرسة النظامية، ونقل إليها ألوفًا من الكتب الحسنة[(٣)].

وللأسف فإن هذه الخزانة العظيمة اندثرت، وانمحت من الوجود، وضاع جميع كتبها، كما انمحت آثار هذه المدرسة العظيمة التي هي أول المدارس في الإسلام، والتي قال عنها أرسنت دايز: «إن أهمية عمل نظام الملك ترجع إلى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة؛ إذ أصبح السلطان ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس، كما أن تكوين المدرسة كما أنشأها نظام الملك، وما جعله بها من أقسام داخلية للطلاب، أصبح فيما بعد نموذجًا يُحتذَى به في سائر المدارس التي أنشئت في الأزمان التالية.

وممن زار المدرسة النظامية الرحالة العربي ابن جبير، وقال: «والمدارس ببغداد نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، كما حضر الرحالة ابن جبير درسًا من دروس المدرسة النظامية، ووصف كيفية الدرس وإلقاء المدرس لمحاضرته، والأسئلة التي يوجهها الطلبة، وقال عن ذلك: فكان مجلسه أي: درس الشيخ رضي الدين القزويني

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨ ص١٠٥.
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٩ ص٦٦.
(٣) الكامل في التاريخ، ج٨ ص١٤٣.



مدرس النظامية الذي حضر درسه مجلس علم ووعظ ووقورًا هينًا ظهرت فيه البركة والسكينة[١].

وذكر ابن بطوطة (ت: ٧٧٩هـ)، والذي زار المدرسة النظامية، قال: «بغداد حافلة بالأسواق عظيمة الترتيب، وأعظم أسواقها سوق يُعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيها على حدة، وفي وسط السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تُضرَب بحسنها»[٢].

من أشهر طلاب المدرسة النظامية من خارج بغداد:

- علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي (ت: ٥٧١هـ) مؤلف كتاب تاريخ دمشق، دخل بغداد ولزم التفقه وسماع الدروس بالمدرسة النظامية[٣].

- والعماد الأصفهاني: أبو عبدالله محمد بن صفي الدين الكاتب (ت٥٧١هـ)، تعلم بالنظامية على يد الشيخ سعيد بن منصور مدرس النظامية، وسمع بها الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبدالسلام وغيره من أعلام المدرسين في النظامية، ومن أشهر كتبه: خريدة القصر وجريدة العصر، وكتاب الفيح في الفتح القدسي، وكانت له منزلة رفيعة عند السلطان نور الدين زنكي، وصار صاحب سرّه، وكان من أبرز كُتاب صلاح الدين الأيوبي، وأصبح من جملة الصدور المعدودين والأماثل المشهورين يضاهي الوزراء.

- ومن طلاب المدرسة النابهين: بهاء الدين بن شداد (ت: ٦٣٢هـ)، تتلمذ على الشيخ رضي الدين القزويني شيخ الشافعية ببغداد، ومن ثَم صار من رجالات السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعينه السلطان قاضيًا على حلب، ومن كتبه سيرة صلاح الدين بن أيوب، واشتغل معيدًا بالمدرسة النظامية[٤].

وبمرور الأيام وتوالي الأعوام اندرست آثارها، وطُمست أخبارها، وانمحى ذلك المكان الذي كان يشع بأنوار العلم والمعرفة، وكان ينبوعًا من ينابيع الثقافة التي كانت في خدمة المجتمع الإنساني.

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص١٤١.

(٣) طبقات الشافعية ج٤ ص٢٧٣-٢٧٤.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤ ص٢٣٣، ج٦ ص٨٤.



٢- مدرسة الإمام أبي حنيفة:

مدرسة الإمام أبي حنيفة -رحمه الله- والتي أسسها للفقهاء الحنفية أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي المملكة السلجوقية سنة ٤٥٩هـ، في دولة السلطان ألب أرسلان ودولة ولده ملكشاه الكبير، وكانت المدرسة بجوار جامع الإمام أبي حنيفة، ورتَّب مدرسًا يدرس طلاب الفقه هو أبو طاهر إلياس بن ناصر الحنفي، وأوقف على المدرسة ضيعة تصرف غلتها إليها، وجرت على المدرسة إصلاحات متعددة[١].

واليوم أُقيم مكانها كلية الإمام الأعظم الجامعة التي تدرس علوم الشريعة الإسلامية على مستوى الدراسات الأولية، والدراسات العليا، وهي ملاصقة لجامع الإمام الأعظم في منطقة الأعظمية، وسط بغداد.

٣- المدرسة المستنصرية:

بنى الخليفة العباسي المستنصر بالله في بغداد مدرسته المعروف بالمستنصرية عام ٦٣١هـ، فكانت آية معمارية فنية ليس على وجه الأرض مدرسة أحسن منها[٢]، وطاول بناؤها الزمن والذي لا يزال عظيمًا باقيًا، ويعد بحق أثرًا من آثار تلك الحضارة الزاهية، ولا تزال المستنصرية من أجمل مباني بغداد وأعظمها أثرًا على مر الزمن، وتقع المستنصرية في الجانب الشرقي من بغداد على نهر دجلة، ووصفها المؤرخون بصفات ممتازة قال عنها الإربلي: «وصفها غريب، وحسن ترتيبها عجيب، شامخة إلى عنان السماء، وأنها جاءت في نهاية الحسن، وهي أعظم من أن تُوصف، وشهرتها تغني عن وصفها».

وجعل الخليفة المستنصر مدرسته مدرسة ذات نظام داخلي أي: أن الطالب كان يدرس ويعيش في المدرسة، وكانت إدارة المدرسة تنفق عليه الطعام والملابس، وفي كل شهر يتم منح كل طالب دينارين، غير الحلوى والفاكهة، والصابون والزيت، وجعل المدرسة للمذاهب الأربعة وحُدِّد عدد الطلبة، فطلبة الفقه الحنفي كان عددهم ٦٢ طالبًا، ومثلهم طلبة الفقه الشافعي، وكذا الحنبلي والمالكي، وجُعل لكل طائفة مدرسٌ وأربعة معيدين، ولكل مذهب شيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين وشيخ طب، وأنشئت معاهد ملحقة بالمدرسة مثل دار القرآن، وشرط أن يكون فيها ثلاثون صبيًّا أيتامًا،

(١) حسين أمين، بغداد تاريخ وحضارة، ص ٥٩.

(٢) أحمد جلبي بن يوسف القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص١٨٠.

ولهم شيخ يلقِّنهم القرآن الكريم ومعيد يشرف على تحفيظهم، وهناك دار الحديث النبوي، ويكون عدد طلابها عشرة يقوم على تعليمهم شيخ عالي الإسناد، ويعاونه قارئان، كما ألحق المؤسس بالمدرسة مدرسة للطب، وجعل فيها طبيبًا حاذقًا ماهرًا، وأثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه في علم الطب، وألحق بمدرسة الطب صيدلية لصرف الدواء للمرضى، وأشار ابن العبري إلى وجود مخزن في المستنصرية به أنواع الأشربة والأدوية[(١)].

ووُقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها من كثرتها، وحسن نسخها، وجودة تجليدها[(٢)]، يقول الدكتور ناجي معروف: «يمكننا أن نطلق لفظ الجامعة على المدرسة المستنصرية، وهي أول جامعة عربية إسلامية، وقد أضاف المستنصر دراسة علوم القرآن الكريم والسنة النبوية إلى جانب الفقه والطب، وفي بنايات متلاصقة كالجامعات الحديثة، وهو أول خليفة يجعل من دراسة العلوم التطبيقية والنقلية في بناية واحدة، ومما وضع فيها الحمام يدخل إليه العاملون في المدرسة متى شاءوا، وفيه من يقوم بالخدمة، وهو ما لم يُسبق إليه أحد»[(٣)].

وعدّ الدكتور حسين أمين المدرسة المستنصرية حدثًا كبيرًا في القرن السابع الهجري؛ لأنها كانت خطوة كبيرة في سبيل التعليم ورقيه كما يعد نظام المدرسة من أحسن النظم المتبعة في مدارس ذلك العصر، بل لقد غدا ذلك النظام مثلاً يُحتذى به في العراق وخارجه، فقد اهتم الخليفة والمشرفون على المدرسة باختيار المدرسين الذين يجب أن تتوافر فيهم شروط عديدة، منها الأخلاق الحسنة، والسمعة الطيبة، والعلم الوافر، والصحة في المذهب والاعتقاد، وخصَّص المؤسِّس لكل مدرس في المدرسة راتبًا قدره اثنا عشر دينارًا، وأن يصرف له حاجته من الطعام، وقدرها في كل يوم عشرون رطلاً من الخبز، وخمسة أرطال من اللحم بخضرها وحوائجها وحطبها، وكان لكل مدرس أربعة من المعيدين، وخصَّص الواقف في شروط المدرسة لكل معيد في كل يوم سبعة أرطال خبزًا وغرفان طبيخًا، وفي كل شهر ثلاثة دنانير، وكان المدرس في المستنصرية يجلس على كرسي عند التدريس، ويلبس ثياب السواد معتمًّا، وعلى يمينه ويساره معيدان[(٤)].

---

(١) ابن العبري أبو الفرج بن هارون، تاريخ مختصر الدول، ص٤٢٥.

(٢) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٢١٣.

(٣) مجلة المورد، ص٢٦٥.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج١ ص١٤٠.



ولم يكن هناك على ما يبدو نظام الإحالة على المعاش في العصر العباسي، فقد ذكر ابن الفوطي أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بن عبداللطيف المعروف بابن وريدة البغدادي كان يطيل الجلوس مع طلاب العلم، ولا يضجر، وأنه نيّف على التسعين، وكان بدار الحديث المستنصرية[١].

كما أن نظام المدرسة كان يسمح للضرير أن يتولى التدريس؛ فقد تولى الشيخ عبدالرحمن بن عمر الحنبلي الضرير تدريس المستنصرية، وكان طلبة المستنصرية ينقسمون إلى فئتين الطلاب الصغار، وهم طلبة دار القرآن، وهم من الصبيان فهم يعيشون في المدرسة في مكان مستقل كما أنهم يدرسون في مكان غير قريب من المكان الذي يدرس فيه الطلبة الكبار الذين هم الفئة الأخرى من طلبة المدرسة والذين يدرسون الفقه والنحو، والطب والحديث، وعدد الغرف في المدرسة ٧٨ غرفة، ٣٩ في الطابق الأرضي، ومثلها في الطابق العلوي، مخصصة لسكنى الطلبة، ويبدو أن كل غرفة تتسع لأكثر من أربعة من الطلبة، وهناك عدد من القاعات المخصصة للتدريس يتوسط بناء المدرسة صحن فسيح مستطيل الشكل طوله ٦٢، ٤٠م وعرضه ٢٧، ٤٠م فتكون المساحة ٧٦، ١٧٠م مربع، وقد روعي في التصميم أن تكون المرافق من الغرف والأواوين والأروقة والمسجد والحمام وخزانة الكتب كلها تحيط بالصحن، وفي الصحن في ناحيته الشمالية والجنوبية تجويفان كبيران يسميهما أهل الآثار بالإيوان الشمالي والإيوان الجنوبي، ويتوسط الضلع الغربي المطل على نهر دجلة مسجد المدرسة، وتبلغ مساحته ١٠٠ متر مربع، وكان للمدرسة مطبخ يُطبخ فيه للطلبة، وعندما زار نيبور الرحالة الألماني بغداد ١٧٥٠م وجد هذا المطبخ ظاهرًا إلا أنه كان قد اتخذ دارًا للكمرك[٢].

وكانت تزين المدرسة ساعة عجيبة قام بصنعها نور الدين علي بن تغلب الساعاتي الذي كان يتولى تدبير الساعات التي تجاه المستنصرية، وقد وصف هذه الساعة الإربلي وصفًا بديعًا، مما يدل على مهارة في صناعتها وتدبير نظام عملها[٣]، وزخارف المدرسة المستنصرية تمثل الإبداع الفني الذي وصل إليه الفن البغدادي في القرن السابع الهجري، وهي قِطَع من الآجر المهندسة بأشكال وحجوم مختلفة محفورة على شكل زخارف هندسية ونباتية وتتفاوت في الحجم والعمق، وقد أعيد الكثير من تلك الزخارف التي أصابها التلف بمرور الزمن وأحداثه.

(١) السلامي، محمد بن رافع، تاريخ علماء بغداد، ص١٦٤، وابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٤٤٥.
(٢) رحلة نيبور، ص٣٢.
(٣) مساجد بغداد وآثارها، ص٩٨.

وكان للمدرسة ناظر ومشرف وكاتب وخازن للكتب ومناولون وفراشون وبوابون وطباخون وغيرهم من العاملين في المدرسة.

ثم أخذت المدرسة المستنصرية بتوسيع دورها الاجتماعي، ومنها حماية العقيدة الإسلامية من الخطر الشيعي الباطني، وخطر الفلاسفة المتمنطقين، فضلاً عن دور علمائها في حل المشكلات الدينية والاجتماعية المستعصية التي تعتري المجتمع البغدادي والإسلامي.

وكذلك ألحقت بها مستشفى عامة لعلاج الناس بالمجان[١]، ويؤكد الدكتور أمين أسعد خيرالله أن بيمارستان المستنصرية تعتبر من أشهر بيمارستانات بغداد، وكان علم الطب من العلوم التي تدرس في المدرسة المستنصرية في بناية خاصة تقع تجاه المدرسة المستنصرية، ويذكر ابن العبري أن أطباء المستنصرية كانوا يترددون على المرضى صبيحة كل يوم، ويذكر ابن واصل الحموي أن المدرسة المستنصرية كانت تحوي على مخازن للأدوية والعقاقير الطبية بمثابة المذخر الطبي للبيمارستان، ومن أشهر أطبائها: شمس الدين ابن الصباغ، وسنجر الطبيب، وعلاء الدين الإربلي، وابن الكتبي الشافعي، وغيرهم.

ويشير ابن جبير في حديثه عن مدارس بغداد فيقول: «والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية -جانب المدينة الشرقي- وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها.. ولهذه المدرسة أوقاف عظيمة وعقارات مُحَبَّسَة»[٢].

ولقد كان لعلماء المدرسة المستنصرية الدور البارز في نشر وحفظ الدين والعلم في بغداد والعالم الإسلامي منذ سقوط الخلافة العباسية إلى الغزو التيموري، وكذلك كان لكثير من النساء العالمات فضل كبير على رجال المدرسة المستنصرية، فقد درسوا عليهن وحصلوا على الإجازات العلمية منهن، كما كان لمدرسيها فضل عليهن؛ إذ درسن عليهم ونلن الإجازات العلمية منهم.

واستمرت المدرسة المستنصرية في أداء مهمتها الثقافية، رغم النكبات التي وقعت عليها من الغزو المغولي سنة ٦٥٦هـ، وسيطرة الجلائريين وهم من العنصر المغولي سنة ٧٣٨هـ، ثم قيام دول أجنبية غربية مثل دولة الخروف الأسود سنة ٨١٤- ٨٦٩هـ، ودولة الخروف الأبيض سنة ٨٦٩-٩١٣هـ، ثم أصبحت بغداد تحت السيطرة الصفوية، ثم سيطرة العثمانيين حتى سنة ١٩١٧م.

(١) السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، ص١٠١.
(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٠٥.



وتركت هذه الدول العناية بالمدرسة، وانقطعت أخبارها بحدود سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م؛ حيث لم نسمع من أخبار المدرسة سوى ترجمة لمدرس في المستنصرية، وهو المحب بن نصر الله البغدادي (ت:٨٤٤هـ)، وبدأ الاقتطاع من المدرسة المستنصرية على عهد محمد جلبي كاتب الديوان وكاتم الأسرار عند محمد بن أحمد الطويل والي بغداد سنة ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م، فقد بنى هذا زاوية للدراويش المولوية سميت هذه الزاوية بالمولاخانة، وهي جزء من المدرسة المستنصرية، وذكرها أوليا جلبي عند قدومه بغداد.

وبلغ التحدي بأبي سعيد سليمان باشا الكبير والي بغداد (١١٩٣-١٢١٧هـ/ ١٧٧٩-١٨٠٢م) بأن جعل المدرسة خانًا، وجعلها وقفًا على المدرسة التي أنشأها ببغداد والتي سميت بالمدرسة السليمانية، وفي سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م زار مينان مدينة بغداد، وقال عند ذكره المدرسة المستنصرية: إنه رآها خانًا، ومطبخها دار للمكوس، وفي سنة ١٨٥٣م دخل فليكس جونز بغداد، وزار المستنصرية فشاهد بقايا متداعية[١].

وهكذا نرى أن المدرسة المستنصرية أسيء استعمالها، واقتُطعت أجزاؤها، وانتُهكت حرمتها، واستحوذ الطامعون على أوقافها، وأصبحت دارًا للمكس (الضرائب)، ومكانًا للعمال والحمالين والجهلاء، بعد أن كانت للطلاب والعلماء والأساتذة الذين يُشار إليهم بالبنان.

ولما قامت الحكومة العراقية سنة ١٩٢١م بدأ العراقيون يطالبون بإعادة حقوق هذه المدرسة التاريخية، فأخذت يد الإصلاح تعمل عملها في إعادة وجه هذه المدرسة إلى سابق عهد فترات وزارة الأوقاف، ومن ثَم دائرة الآثار والتراث العراقية العناية بها، ولعل أبرز إصلاح لها في العهد الجمهوري.

وفي تموز ١٩٦٠م حضر عبدالكريم قاسم افتتاح هذه المدرسة بعد ترميمها، وألقى فيها الخطباء والشعراء كلماتهم وقصائدهم، ومن أبرز الشعراء الذين أنشدوا بحق هذه المدرسة شاعر العراق محمد الجواهري، ومما جاء في قصيدته:

فمن مخبر المستنصرية أننا

نعود إليها من جديد وندأبُ

---

(١) د. حسين أمين، بغداد تاريخ وحضارة، ص ٦٨.

حنانيك إن الدهر يطفو ويرسب
وإلمامة الدنيا تجيء وتذهبُ

واليوم تقف المدرسة المستنصرية في أبهى حُلة بجمال بنائها، وحسن زخارفها، وكمال مرافقها؛ شاهدًا على أصالة حضارة بغداد في الفكر والثقافة والعمران.

٤- مدارس أخرى جامعة:

ويرى الدكتور ناجي معروف أن المدارس في بغداد بمثابة الجامعات، ومن تلكم المدارس الجامعة: المدرسة البشيرية التي استقت اسمها من باب بشير زوجة الخليفة المستعصم، والجامعة العصمتية التي شُيدت بعد الغزو المغولي لبغداد بخمس عشرة سنة (٦٧١هـ)، وأمرت بإنشائها في ظاهر بغداد بجوار مشهد عبيد الله بن عمر السيدة (شمس الضحى) شاه لبنى بنت عبدالخالق بن ملكشاه ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهي أم رابعة العباسية حفيدة المستعصم، وقد وقفتها على المذاهب الأربعة.

وأما الجامعة المسعودية، فتُنسب إلى خواجة مسعود بن سديد الدولة، وهو من أكابر بغداد جعلها على المذاهب الأربعة على صفة المستنصرية، وأوقف عليها أوقافًا كثيرة[١].

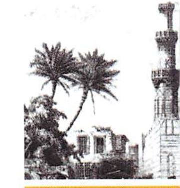
والمدرسة الموفقة: بناها موفق الخادم في أواخر القرن السادس الهجري، وكان قد أوقف جميع ما لديه من مال وأملاك على هذه المدرسة، وتقع شرق مدينة بغداد، في شارع المتنبي حاليًا في مبنى القشلة الحالية، والتي كانت معروفة سابقًا بدرب زاخي، والموفق هو مملوك الخاتون الملكشاهية زوج الخليفة المستظهر بالله[٢].

ومنها مدرسة الشيخ عبدالقادر الكيلاني، ومدرسة ابن الجوزي، والمدرسة الغياثية، ومدرسة فخر الإسلام الشاشي، ومدرسة الخاتون المستظهرية.

ومنها المدرسة المرجانية المنسوبة إلى أمين الدين مرجان بن عبدالله من المماليك، وأُسست لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي، واتخذ فيها موضعًا لفصل القضايا الشرعية الإسلامية، وأوقف عليها مرجان كثيرًا من الضياع والعقار والبساتين، ومنها خان مرجان الذي وقفه عليها أيضًا، وهو من معالم بغداد، ولكثرة المصلين في مصلاها أطلق عليها الناس جامع مرجان، وهي تُعرف اليوم بهذا الاسم.

---

(١) مجلة المورد، ص٢٦٥.
(٢) إبراهيم، حسن، تاريخ الإسلام، ج٢ ص٣٤٣.



الخانات (الفنادق) لطلاب العلم:

كان الخلفاء العباسيون ينشئون الخانات المجانية، وينفقون عليها للفقراء وطلاب العلم والمسافرين، واشتهر الخليفة المستنصر بذلك؛ لإيواء الفقراء وأبناء السبيل، وطلبة العلم، ولأنها مجلبة للأمان، وقد خُصصت فيها أماكن لحفظ الأمانات أشبه بالبنوك اليوم، وكان التجار يحفظون فيها أموالهم، ومما ذكر عن دور الخانات لطلبة العلم، لما قدم بقية بن مخلد بغداد زمن الفتنة التي امتحن بها الإمام أحمد بن حنبل في قضية خلق القرآن، وكان الإمام تحت الإقامة الجبرية، وكان بقية يأتي إلى الإمام بهيئة مسكين ثم يأخذ الحديث والحديثين ثم ينصرف إلى غرفته في الفندق -الخان-»[١].

المراصد الفلكية:

من المؤسسات التعليمية التي بُنيت إضافة لكونها ذات وظائف كمراصد فلكية، فهي كانت مدارس لعلم الفلك والرياضيات والفيزياء، ومن أهم المراصد البغدادية مرصد الشماسية بناه المنصور عند محلة الصليخ اليوم من محلات الأعظمية، وبنى بنو موسى مرصدًا عند الجسر، واستخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر[٢]، ومرصد بني الأعلم، والمرصد الشرفي والمنسوب إلى شرف الدولة الذي بناه في بستان دار المملكة، ويرجح أنه في أعلى محلة العيواضية اليوم، ورصد فيه الكواكب السبعة[٣].

المستشفيات (كليات للطب والصيدلة):

يؤكد الدكتور أمين أسعد خيرالله أنّ البغداديين كانوا أول من بدأ التدريس في المستشفيات بطريقة علمية، وأول من أقام العيادات الخارجية، وأول من اهتم بإدارة المستشفيات وضبط حساباتها، وأول من أوجب فحص الأطباء قبل الترخيص لهم بمعاطاة الطب، وأول من ألحق الصيدليات القانونية بالمستشفيات، فقد شكلت تلك المستشفيات مدارس وكليات للطب عريقة، فبالإضافة للوظائف التي تؤديها كمشفى للناس، حوت على صالات للمحاضرات اليومية وللمناقشات الطبية الكبيرة التي جُعلت أساسًا في تأليف الكتب الطبية المتخصصة والمرشدة لعقل الطبيب المسلم آنذاك، وكانت

---

(١) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٥٨٧-٥٨٩.
(٢) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص٧٥.
(٣) الأعظمي، الدول الفارسية، ص٧٩.

المستشفيات في بغداد على نوعين منها عامة، ومنها خاصة لأمراض معينة، ومنها للنساء ومنها للرجال، ومنها المستشفيات المتنقلة وفقًا للحاجات والظروف وانتشار الأوبئة[(١)].

وأنشئت حوانيت الأدوية (الصيدلية) بعد تطور العرب في تحضير الأدوية، واهتم الكيميائيون البغداديون بتحضير العقاقير، وكانت طرقهم في ذلك علمية متقدمة؛ كالتكليس والتشميع، والتحليل والتصعيد، والتقطير والتنقية، والاستنزال، وأدخلت الحسبة لمراقب الأدوية، وأمر المأمون بامتحان أمانة الصيادلة، ثم أمر المعتصم أن يُمنح الصيدلي الذي ثبتت أمانته شهادة تجيز له العمل، ولا تزال كلمة محتسب تُستخدم باللغة الإسبانية بلفظها العربي حتى الوقت الحاضر[(٢)].

يقول ماكس مايرهوف: «كانت الرسائل المؤلفة في علم الصيدلة خلال هذا العصر لا تُحصى، وهي إما للأدوية المفردة، وأشهر من كتب فيها بلا منازع هو ابن البيطار، وإما في الأدوية المركبة.. وألف ابن البيطار كتابه (جامع مفردات الأدوية)، وكان يجلب أنواع النبات والأدوية من ساحل البحر المتوسط وإسبانيا وسوريا ويدرسها، ووصف في كتابه ١٤٠٠ عقار طبي، وقارنها بأوصاف أكثر من ١٥٠ عالمًا عربيًا، فكان ثمرة ناضجة لعمق الدراسة ودقة الملاحظة، وسعة الاطلاع، ويعد أعظم من ألف بالعربية عن النبات».

وتطورت الخدمات الصحية في مدينة بغداد حتى خصصت مستشفيات لعلاج مكفوفي البصر، ومصحة لأصحاب الأمراض العقلية، ومستشفيات للأسنان[(٣)]، وقد بدأ الاهتمام بالطب منذ بواكير الخلافة العباسية فقد شيد هارون الرشيد بيمارستان في بغداد، وسماه باسمه وعهد لماسويه برئاسته، وبنى البرامكة بيمارستانهم، وعهدوا به إلى ابن دهني، وبنى الوزير علي بن عيسى بيمارستان، وبنى كذلك الخليفة المقتدر بيمارستان، وبيمارستان ابن الفرات وزير المقتدر، وبيمارستان بدر غلمان بني طلب سنان بن ثابت، وبيمارستان بناه سنان بن ثابت، ومن أشهرها أيضًا البيمارستان العضدي نظرًا لضخامة بنائه كما وصف، وفي زمن المأمون كانت قد بنيت المستشفيات المتخصصة كبيمارستان الجذام، وبيمارستان المجانين، وللعميان بيمارستانهم[(٤)]، ومنها أيضًا البيمارستانات المحمولة المتنقلة، منها البيمارستانات

(١) هدى، قصة الحضارة، ج٩-١٠ ص٨٦.
(٢) المورد، ص٢٨١.
(٣) سليمان، الفوز بالمراد ص١٦٧.
(٤) الطبري، تاريخ، ج٤ ص٢٩.

الحربية وبيمارستانات السجون، فضلاً عن محطات الإسعاف قرب المساجد، وبيمارستان الطب العدلي لكشف أسباب الوفيات إذا لزم الأمر، وكان أثاث البيمارستانات يضاهي أثاث القصور[١].

ومن أعاجيب ما وصلت إليه الخدمات الصحية العباسية، أن العيادات الاستشارية للبيمارستانات البغدادية تقوم بفحص المريض فإذا كان مرضه خفيفًا أعطي الدواء وخرج من المستشفى بالمجان، وإن كانت حالته تستوجب العناية يدخل البيمارستان، ويُقيد اسمه، ويُعطَى ثيابًا نظيفة، ويدخل لحمام المستشفى، وترسل ثيابه القديمة إلى المخزن، وتُفحص حالته وبشكل مستمر مدونة على الطبلة، ليعرف الطبيب الآخر ما قام به السابق، ومدى تحسن حالة المريض، ولا يُسمح له الاختلاط بالمرضى الذين يعانون من أمراض تختلف عما يعانيه الشخص المعين خشية العدوى، ويبقى المريض في المستشفى حتى الشفاء التام، وعند خروجه من المستشفى يُعطى بدلة من الثياب الجديدة، ومبلغًا من المال يكفيه العوز إلى أن يصبح قادرًا على العمل.

وكان الأطباء يجتمعون يوميًا في القاعة الكبيرة في المستشفى، ويعرضون الحالات، ويتناقشون في المستعصية منها، ويتبادلون الخبرة ومدى جدوى الأدوية في حضور كوكبة من الطلبة الذين يشاركون في تلك الحوارات حتى تنتهي مدة دراستهم، ولا يسمح لهم بمزاولة الطب إلا بعد اجتياز الامتحانات الضرورية لإثبات كفاءتهم.[٢]

وكان الرازي يؤلف مع طلبته فريقًا علميًا دائم المنافسة في حل المسائل الطبية، وكان هو يسمع منهم ويصوبهم[٣]، ومن أقواله المشهورة في عالم الطب: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظرية السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية السائدة تأييدًا لمشاهير العلماء». أي: أنه من الواجب الأخذ بالتجربة ونتائجها إذا ما تعارضت مع النظرية.

في الوقت الذي وصف المستشرقون مستشفياتهم في نفس المرحلة الزمنية المقصودة فيقول ماكس نوردو عن (أوتيل ديو) والذي كان معاصرًا للفترة العباسية، وكان يُعتبر من أحسن مستشفيات أوروبا آنذاك، «في الفراش الواحد من الحجم المتوسط كان يرقد أربعة إلى ستة أشخاص الواحد جنب الآخر،

(١) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٥٨٣.
(٢) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٥٧٥.
(٣) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص١٨٤.

وأرجل أحدهم فوق رأس الآخر، وكان الأطفال يرقدون بجانب الرجال المسنين، والنساء والرجال معًا.. وفي الفراش الواحد امرأة في دور المخاض، وبجانبها طفل بحالة التشنج ومصاب بالتيفود في حالة الهذيان من ارتفاع الحرارة، ومريض بالسل يسعل سعالاً متواصلاً، وبجانب كل هؤلاء شخص مصاب بمرض جلدي يحك جلده حكًّا شديدًا بأظفاره الطويلة..

أما الأكل فكان من أردأ الأصناف وقليل الكمية، ويعطى بأوقات غير منتظمة.. والبناية نفسها تعج بالحشرات الدنيئة، وكان هواء قاعات المرضى فاسدًا كريهًا لا يجرؤ الخدم أن يدخلوها إلا إذا سدوا أنوفهم بالقطن المبلول بالخل.. وكانت جثث الموتى تُترك أحيانًا (٢٤) ساعة أو أكثر قبل أن تُرفع من فراش المرضى، وكانت تتصاعد منها الروائح الكريهة، ويحوم فوقها الذباب»[(١)].

ويورد المستشرق درابر «أن الفلاح الأوروبي إذا أصابته حادثة، وفاجأته الحمى يسرع إلى ضريح قرب قديس؛ انتظارًا لحدوث معجزة تشفيه، أما العربي فكان يعتمد على تعليمات طبية»[(٢)].

ويحصي آدم متز أطباء بغداد في العصر العباسي الأول بثمان مائة ونيف وستين طبيبًا سوى أطباء الخلفاء والأمراء، وتقول هونكه الألمانية: «إن كل حبة من حبوب الدواء.. تذكار صغير ظاهر، يذكرنا باثنين من أعظم أطباء العرب ومعلمي بلاد العرب، وهما ابن سينا والرازي».

وقد هُدمت تلك الصروح الطبية ودرست معالمها بالكامل؛ بسبب الاحتلال المغولي، وما تلاه عبر مختلف العصور، ونخص بالذكر منها الاحتلال التيموري الباطني الذي عمد إلى تهديم أغلب المعالم البغدادية القديمة، حتى صارت لا أثر لها بعد عين.

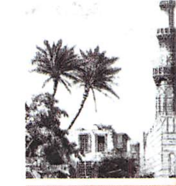
ولكن وعلى الرغم من ذلك كله بقي الطبيب البغدادي يحتل المرتبة الأولى في التصنيف العالمي حتى ما بعد سقوط الخلافة العباسية بمائتي عام، ويخص بالذكر منهم الدكتور خليل قداوي المتخصص في الحقبة المغولية، وما تلاها في محض حديثه عن احتلالات القبائل التركمانية للعراق الطبيب أبو علي الذي كان يمتهن حرفة الجراحة في بغداد، وكانت له بسطة فيها، ثم انتقل إلى الأنبار، ومنها إلى الحلة، حيث أصبح حاكمًا عليها مدة ثلاثة أشهر وعشرين يومًا في سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م[(٣)].

---

(١) السباعي، من روائع حضارتنا، ص١١٦-١١٧.

(٢) المورد، ص٢٨٥.

(٣) الغياثي، تاريخ، ص١٣٨-١٣٩.



وقد أورد الغياثي ذكرًا لعملية جراحية أُجريت في عهد أسبان لشخص يدعى خواجه ولي الذي تعرض لضربة نافذة في عنقه فنُقل إلى بغداد وخُيِّط جرحه، وعاش بعد ذلك أربعين سنة، وكان لأسبان عدد من الأطباء يعالجونه من مرض القولنج المزمن الذي كان قد ألَمَّ به.[١]

وقد ذاعت شهرة الطبيب العراقي محمد بن عمر بن أبي بكر البغدادي في القاهرة بعد أن هاجر إليها عقب احتلال القره قوينلو لبغداد[٢]، وفيها عالج السلطان المصري المؤيد من مرض أصابه.

وممن هاجر عن بغداد وتولى مناصب عليا في البلدان المجاورة من الأطباء يحيى بن محمد بن يحيى ابن يوسف البغدادي المتوفى سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٥م الذي تولى البيمارستان المنصوري في القاهرة، وكان قبل هجرته قد ألَّف في بغداد كتابًا في الطب، وتتلمذ على الموفق الهمداني في المعرفة الطبية[٣].

ومنهم أيضًا عفيف الدين أبو المعالي علي بن عبدالمحسن البغدادي المتوفى سنة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، ووضع حسن بن نوح القمري البرواري المتوفى سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م كتابًا في مصطلحات الطب، وكذلك فضل الله بن نصر الله بن أحمد البغدادي (توفي سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م)، وكان قد ترك بغداد وطاف في بلدان عدة كالهند والحبشة ومكة، ثم استقر مقامه في القاهرة، وتولى مشيخة المدرسة الخروبية[٤].

ونختم حديثنا عن الفقرة الصحية باعترافات لمستشرقة ألمانية زيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) تلخص به وبجمل بسيطة الحضارة الطبية البغدادية عما سواها من العالم فتقول: «قبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم، لا تحتوي إلا على كتاب واحد، وهذا المؤلَّف كان لعربي كبير، وكان هذا الأثر العظيم ذا قيمة كبيرة، بدليل أن ملك المسيحية الشهير لويس الحادي عشر اضطر إلى دفع اثني عشر ماركًا فضيًّا ومائة تالر من الذهب الخالص لقاء استعارة هذا الكنز الغالي؛ رغبةً منه في أن يَنسخ أطباؤه له نسخة يرجعون إليها إذا ما هدَّد مرض أو داء صحته وصحة عائلته..

---

(١) الغياثي، تاريخ، ص٢٧٩.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٢٤٢.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٢٥٦.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٧، ص٢٩٣؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٣٥٩.

وظل -كتاب الرازي - المرجع الأساس للطب في أوروبا لمدة تزيد على الأربعمائة عام بعد ذلك التاريخ دون أن يزاحمه مزاحم، فأقاموا له نُصُبًا في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة كبيرة أخرى تقع في شارع سان جرمان»، وفي وصفها لبغداد تقول: «مدينة الشفاء، ومدينة السلام، عاصمة الدنيا قاطبة، وقبلة كل ذي قلب كبير يبغي الرفعة والسمو»[(١)].

وكما أسلفنا؛ فإن التعليم في بغداد بدأ بالانحطاط ابتداء من دخول الاحتلال المغولي لبغداد، ثم تعاقب الاحتلالات الهمجية على المدينة، وحصر التعليم في المساجد والكتاتيب كما بدأ؛ لكثرة الخراب الذي أصاب المؤسسات التعليمية، وإهمالها تمامًا، واندرست المدارس وتشرد العلماء بسبب تعرضهم للقتل لأسباب عدة، ونُهبت الكتب وأُحرقت بعضها الآخر.

ويرى الرحالة نيبور أن من أسباب انحطاط التعليم في بغداد ما بعد الخلافة العباسية هو أن (العلوم والقراءة في بغداد ليست محط اهتمام الدولة لذلك انتشر الجهل)[(٢)].

ويؤيد الأستاذ سعيد الديوه جي ما سبق ذكره مع أنه كان يرى أن مشكلة التعليم في العهد العثماني لها طابع مختلف (فقد كانت المدارس الدينية في العهد العثماني تحظَى بتأييد السلطة الحاكمة؛ لأنها تربي النشء على الولاء للخليفة، كما أنها كانت تدرس علوم اللغة والشريعة فحسب)[(٣)]، مع إهمال كبير للعلوم التطبيقية، علمًا بأن السلطات العثمانية الحاكمة لم تكن لتنفق شيئًا على تلك المدارس الابتدائية طوال قرونها الأولى من تسلطها على بغداد، بل جعلت بناء المساجد وإلحاق المدارس بها، وإيقاف الأوقاف لديمومتها وإنشاء مكتباتها من اختصاصات التاجر البغدادي حصرًا، بعد أن تحولت المدرسة المستنصرية إلى دائرة للكمرك، وخان للتجار المواصلة، ثم تحولت إلى مطبخ للجيش العثماني، ثم تحولت إلى مخزن للأسلحة، كذلك الإهمال الذي لم تفلت منه المدرسة المرجانية بعد تحولها إلى مقهى قبيح حسب وصف الرحالة بكنغهام لها[(٤)]، وتحول خانها الذي وُقف عليها (خان مرجان) إلى دوائر رسمية.

---

(١) هونكه، شمس العرب، ص٢٤٣ وما تلاها.

(٢) بغداد بأقلام رحالة أوربيون، ص٣٤.

(٣) الديوه جي، مدارس الموصل، ص٢.

(٤) نيبور، الرحلة، ص٢٣٨.



لكن وعلى الرغم من كل منغِّصات الحياة التعليمية في بغداد في أعقاب سقوط الخلافة العباسية، إلا أن البغداديين عمدوا إلى إلحاق كل مسجد من مساجد المدينة بمدرسة دينية ومكتبة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الصبية، وحتى كبار السن لطلب العلم، وخصوصًا الشرعي منه، حتى عدت مدارس بغداد بعدد مساجدها، إلا أنها في غالب الأحوال لم تتجاوز في مستواها الدراسات الأولية أو المتوسطة لا أكثر، ومن أشهرها المدرسة العمرية التابعة لجامع قمرية، ومدرسة الفضل التابعة لجامع الفضل في عهد العلامة عبدالله السويدي من القرن الثامن عشر الميلادي.

مدارس بغداد النظامية بعد الاحتلال المغول:

وبالعودة للحديث عن مدارس بغداد النظامية فترة ما بعد الاحتلال المغولي فأشهرها المدرسة المرجانية التي بُنيت في العهد الجلائري، وكانت وقفًا على المذاهب الإسلامية الحنفية والشافعية، ومن أوقافها الكبيرة خان الجواري، وخان الزاوية، وخان الاورتمة، ودار الشفاء بباب الغربة[١].

- **مدرسة زمرد خاتون:** التي تحولت في القرن الثامن عشر إلى تكية على يد الانكشارية الباطنية، وانتشرت فيها الصوفية الجوفاء، بعد أن كانت دارًا للعلوم الشرعية البغدادية بعدما صُودرت أوقافها، وطُرد أساتذتها.

- **مدرسة وجامع الحيدر خانه:** تسلم داود باشا ولاية بغداد عام ١٨١٧م، ومن أعماله أن شجَّع إقامة الدروس الدينية، وبناء جامع الحيدر خانه، ومدرسته الشهيرة، وأوقف لها الأوقاف لتكون سدًّا عقائديًّا بوجه الباطنية، ولكسب تأييد الشارع البغدادي.

- **مسجد ومدرسة العمار:** بُنِيَا على يد نعمان جلبي في منطقة سبع أبكار، وهي ما تعرف اليوم بمنطقة حافظ القاضي، ومن أوائل أساتذة هذه المدرسة العلامة أبو الثناء الآلوسي.

ولم يسبق تولي الوالي مدحت باشا لبغداد تأسيس مدرسة حكومية ابتدائية سوى واحدة، لكنها لم تشهد الإقبال الشديد من قِبل السكان البغداديين؛ لضعف الثقافة التركية ولغتها في الوسط البغدادي بشكل كبير[٢]، يقابله العدد الكبير للكتاتيب التي قُدِّرت بالمئات، وهذا بدوره أيضًا يعكس حجم الإقبال الشديد لسكان بغداد على طلب العلم، رغم انعدام المساعدات العينية من القراطيس،

(١) سليمان، الفوز بالمراد، ص٢٣٧-٢٤٠.

(٢) العزاوي، بين احتلالين، ج٧ص١٠.

واعتمادهم على التلقي الشفوي الذي غلب آنذاك على طبيعة التدريس في الكتاتيب.

المدارس ما بعد مدحت باشا ١٨٦٩م:

شهدت فترة حكم الوالي مدحت باشا تغيرًا ملحوظًا في إدخال المدارس المهنية إلى جانب المدارس الإسلامية التي كانت تملأ مدينة بغداد، ولقلة التخصيصات المالية للمدينة، ونقل معظم ثرواتها إلى خزينة السلطان العثماني في استنبول، عمد مدحت باشا إلى تحويل إحدى المدارس الإسلامية الكبيرة إلى مدرسة صنائع عرفت باسم (مكتب النسبية)[١]، ضمت كلاً من أقسام الحدادة والنسيج وصناعة الأحذية.. إلخ، وجهزت بالآلات ودفعت القروض المالية لخريجيها من أجل شراء الأدوات اللازمة للمتخرج لمزاولة عمله في الأسواق البغدادية، وبلغ عدد طلابها في بادئ الأمر ١٤٤ طالبًا، عُيِّن بعضهم في المعامل العثمانية البغدادية، وكانت الأولوية للدارسين في هذه المدرسة تُمنَح للأيتام والمحتاجين للنهوض بواقعهم، وبمستواهم المعيشي، ومما أسهم به تلامذة هذه المدرسة الصناعية هو إصلاح الجسر القديم بعد تعرُّضه للدمار بسبب صعود منسوب نهر دجلة عام ١٩٠٢م، فضلاً عن مساهمتهم في إصلاح البواخر والمكائن العثمانية والأسلحة، وكانت سببًا في تأسيس المعامل العسكرية، وبناء دار الحدادة في بغداد[٢].

وفي عام ١٨٧٠م أسس مدحت باشا أول مدرسة رشدية عسكرية في بغداد، مما ساعد أبناء بغداد والعراق في الالتحاق بالمدرسة العسكرية في استنبول وتبوئهم مناصب عليا في الحكومة، ومدة الدراسة في المدرسة الرشدية أربع سنوات، ويقبل فيها الطلبة الذين أكملوا الدراسة الأولية، إضافة إلى أنها كانت تقبل من يجيد قراءة القرآن وله إلمام باللغة التركية والحساب، وتضمنت مناهجها اللغة التركية والعربية والفارسية والفرنسية.

وفي عام ١٩٠٥م زادت المدارس الرشدية في بغداد فبلغت إحدى عشرة مدرسة في بغداد وأقضيتها ونواحيها كافة.

وفي عام ١٨٧٣م في عهد الوالي رديف باشا أُسست أول مدرسة إعدادية في بغداد والعراق، وكانت تحتوي على (١٠٧) طلاب في عام ١٨٩٩م.

---

(١) عيادة، العقد اللامع، ص١٤٢؛ البزاز، العراق، ص٣٥؛ الحيالي، التعليم الصناعي، ص٦.

(٢) لونكريك، أربعة قرون ص٣٢٢، وفيضي، في عمدة النضال، ص٥٨.



وفي عام ١٨٧٨م أنشئت أول إعدادية عسكرية في بغداد أيام الوالي عبدالرحمن باشا، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، وكان الإقبال الكبير على المدارس العسكرية يؤيده الأحوال العامة اقتصاديًّا واجتماعيًّا في بغداد.

وفي عام ١٨٩٩م في عهد الوالي نامق باشا الصغير بُنيت أول مدرسة إعدادية للبنات[١].

وكان قبل هذا العام تُدرس الفتيات في مدارس البنين، وبلغ عدد الطالبات عند الافتتاح (٩٥) طالبة يدرسن الدين والقرآن الكريم، والحساب والتاريخ، والجغرافية العثمانية، واللغات التركية والفرنسية، والعربية والفارسية، والنقش والتطريز وحسن الخط.

ثم أتبع الوالي نامق باشا إعدادية البنات بمدارس عدة في بغداد، وكذلك توسيع مدرسة المهن في بغداد وبلغ تلامذتها (١٣٠) بعد أن كانوا (٤٠) طالبًا فقط، بعد أن استحدث فيها النجارة والموسيقى، وبسبب توسع التعليم وقلة الكادر التدريسي فقد كان يشارك الضباط وموظفو الحكومة وزوجات الجالية الأجنبية وكبار الموظفين الأتراك في سد الشاغر لهذه المدارس التي بلغت (٢٦) مدرسة ابتدائية في بغداد وأقضيتها ونواحيها، واحدة منها للبنات، مما دفع بالسلطة عام ١٩٠٠م لافتتاح أول دار للمعلمين في بغداد لسد شواغر الكودار، وهي أربع سنوات بعد المدرسة الرشدية، مع توفير السكن لطلابها القادمين من خارج مدينة بغداد، وعلى الرغم من زيادة إنشاء المدارس إلا أنها لم تدرس باللغة العربية إلا بعد عام ١٩١٢م، وذلك في المدارس الابتدائية فقط باستثناء مادتي التاريخ والجغرافية بقيت باللغة التركية، وفي عام ١٩١٣م عُرِّب التعليم باستثناء التاريخ والجغرافية في الإعداديات ودار المعلمين[٢].

ومن المشاكل الأخرى التي كانت تعاني منها المدارس العثمانية البغدادية -فضلاً عن قلة المدرسين، ولغة التدريس التركية في البيئة العربية-: ضعف إمكانياتهم المادية، وعجز دائرة المعارف عن دفع الرواتب للمعلمين، وتغيب الطلبة، عكس المدارس الأهلية، وكانت الدولة العثمانية لا تهتم بالمدارس الملكية أي: المَدَنية، قياسًا بالعسكرية كونها كانت دولة عسكرية، وبسبب تعريب التعليم زاد

(١) العزاوي، بين احتلالين ج٨ص٢١، وفيضي، في عمدة النضال، ص٩.

(٢) عيسى، مشكلات إدارة المدارس، ص٩، وص٣٥، وحازم، تطور التعليم، ص١٢.

العدد لطلاب المدارس والذي بدوره زاد من احتياج السلطة العثمانية لبناء المدارس الملكية حتى بلغت في مجملها ببغداد فقط (٧٨) مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية واحدة في بغداد وضواحيها، فضلاً عن مدرسة للحقوق ودار للمعلمين.

وفي عام ١٨٨١م تخرجت أول دفعة من الإعدادية العسكرية وسُفِّروا إلى استنبول، والتحقوا بـ(مكتب الحربية) ليتخرجوا ضباطًا في الجيش العثماني، وبعد تولي الوالي ناظم باشا ولاية بغداد عام ١٩٠٩م، فُتحت مدرسة (كوجك ضابطان) أي: صغار الضباط على نهر دجلة من جانب الكرخ، ومن معلميها جودت الأيوبي، وجعفر العسكري، ونوري السعيد[١].

ثم تلاها في عام ١٩١١م افتتاح كلية الإمام الأعظم التي حُوربت من قِبل الاتحاد والترقي، بسبب تصدرها للمواقف الإسلامية البغدادية، وتأثيرها الرافض لسياسة التتريك وسياسة الاتحاديين تجاه القضايا الإسلامية في بغداد خصوصًا، والعالم الإسلامي عامة[٢].

المدارس البغدادية الخاصة (الأهلية):

أما في حديثنا عن المدارس البغدادية الخاصة (الأهلية) فقد كانت في طبيعتها تحمل سياسة جهة التمويل، وغالبًا ما كانت من خارج العراق، ومنها:

أ- مدرسة الآباء الكرمليين (مدرسة اللاتين): افتتحت عام (١٨٢٨م) على يد عمانؤيل يابه الكرملي القنصل الفرنسي في بغداد، وبلغ عدد طلابها عام ١٨٩٣م (٣٠٠) طالب، ويدرس فيها حتى من غير النصارى، ومنهم المسلمون، واستمرت حتى عام ١٩١٤م، وكان يدرس فيها المرحلة الابتدائية والرشدية والإعدادية[٣].

ب- مدرسة الاتفاق الشرقي الكاثوليكي: أُسست عام ١٨٧٨م من قِبل الطوائف الكاثوليكية والكلدانية والسريان والأرمن في بغداد، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات، وكان معظم مدرسي المدارس النصرانية من الراهبات، وأغلب طلابها من البنات.

---

(١) الوردي، لمحات ج٣، ص١٧٥.
(٢) العمري، تاريخ مقدرات العراق، ج١ ص١٨٨.
(٣) بيير دي فوسيل، الحياة في العراق، ص١٤٦.



جـ- **وفي عام ١٨٦٥م فتح اليهود أول مدرسة لهم في بغداد**، وهي مدرسة (الإليانس) الفرنسية اليهودية، وكان الاتحاد الفرنسي الإسرائيلي من يتولى الإشراف عليها بمعاونة الجمعية اليهودية في لندن واللجنة في بغداد التي تميزت بالدعم اليهودي، وشيد (ألبرت داود ساسون) بناية ضخمة لها عُرفت باسمه (السير ساسون)[1].

د- **ومن المدارس الخاصة أيضًا: المدارس الفارسية** التي كان لها أبرز الدور الخياني في الحرب العالمية الأولى؛ لتثقيف الفرس على ممارسة الأساليب العدائية للعراق، ومساعدة الإنجليز على احتلال البلاد؛ لضمان إرجاعه إلى الإدارة الفارسية كما وعدت بريطانيا سابقًا[2].

العلوم التطبيقية البغدادية بعد سقوط الخلافة العباسية:

وفي العودة بحديثنا عن العلوم التطبيقية البغدادية ما بعد سقوط الخلافة العباسية، وكما بينا سابقًا؛ فقد كانت ضعيفة الاهتمام قياسًا بالعلوم النقلية، ولم تعد في بغداد المستشفيات التعليمية كما كان الأمر زمن الخلافة العباسية، ولم يشهد العراق منذ التسلط الجلائري وحتى نهاية التسلط العثماني ذكرًا لمستشفى عامرة قائمة على غرار المستشفيات العباسية، فلم تحفظ لنا المصادر التاريخية سوى ذكر عابر للمستشفى القائم في باب الغربة، والتي كانت وقفًا على المدرسة المرجانية في حدود القرن الرابع عشر الميلادي.

الأمر الذي دفع بالدكتور الوردي أن يعتبر المستشفى التي بناها الوالي مدحت باشا أول مستشفى في بغداد والعراق الحديث (بنى مدحت باشا على نهر دجلة في الكرخ أول مستشفى في العراق، وقد استقدم طابوق بنائها من سور بغداد كغيرها من مشاريع بغداد، وافتتحت عام ١٨٧٢م باسم خسته خانه الغرباء أي مستشفى الغرباء).

وأعيد تأهيلها بعد إهمالها زمن الوالي عبدالرحمن باشا عام ١٨٧٩م، ثم تحولت عام ١٨٩٦م إلى مدرسة إعدادية.

ثم تلا ذلك مستشفى نامق باشا في منطقة باب المعظم، وهي ثاني مستشفى في العراق، وغرس

(١) الهلالي، تاريخ التعليم، ص٢٤٥.
(٢) البراك، المدارس، ص١٠٦.

أمام المستشفى الحدائق، وجُلبت أدواتها من أوروبا، وافتُتحت عام ١٩٠١م وقد سُمِّيت أيضًا (مستشفى الغرباء).

وفي عام ١٩٠٨م أي: ما بعد إعلان الدستور العثماني، أعيدت هذه المستشفى إلى مكانها الأول في بناية مدحت باشا، وعينت النساء لأول مرة في التمريض، وكانت الممرضات من الراهبات الفرنسيات.

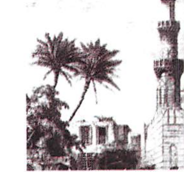
ومن الأسباب التي تكمن وراء تسمية المستشفى (بمستشفى الغرباء)، أنّ أهل بغداد كانوا لا يرسلون مرضاهم إلى المستشفى في الغالب، بل كانوا يطبِّبون مرضاهم في البيوت، وكان الأطباء أو المرضون (الحكماء) يزورون مرضاهم في المنازل، ومن لا يمتلك عائلة تشرف على علاجه في منزله يرسل إلى المستشفى، ويوصف بالغريب الذي لا عائلة له في المدينة ترعاه.

وفي عام ١٨٩٧م بنيت وللمرة الثالثة مستشفى وُضعت في القصر الذي بُني لاستقبال شاه إيران ناصر الدين بعد أن أضيفت له غرف واسعة، وجُعل مستشفى عسكري سميت (مستشفى المجيدية)؛ نسبة للسلطان عبدالمجيد، وأقيم محلها اليوم أكبر مجمع طبي في العراق باسم (مجمع مدينة الطب) على نهر دجلة في جانبها الشرقي قبالة وزارة الدفاع حاليًا، أو الباب المعظم في ما مضى من الزمان.

وفي عام ١٩١٠م افتتح الوالي ناظم باشا مستشفى يهوديًّا خارج باب المعظم، سميت باسم مؤسسها (مئير إلياس)[١]، وكان مستشفى فخمًا وحديثًا فاق المستشفيات الحكومية، وقد اشتهر اليهود بالطبابة، وعُرفوا في بغداد بالموسوية، أو بيت الحكيم، أي الأطباء باللهجة البغدادية القديمة، وكان بيت الحكيم من اليهود هم أول من أرسل أبنائهم لدراسة الطب الحديث، وأول من زاوله في بغداد، وممن اشتهر في القرن العشرين الحكيم اليهودي (جاك عبود) الذي كان يجعل ثلاثة أيام من الأسبوع مجانية لطبابة الفقراء، وعلى الرغم من الإهمال الذي أصاب العلوم البغدادية الناتج عن إهمال السلطة الحاكمة إلا أنها لم تكن لتتخلف عن مدن المنطقة الكبيرة من جميع النواحي، فقد بقيت بغداد -وبالرغم مما سبق- بيت العلوم الإسلامية ومحط أنظار الطالبين.

---

(١) الوردي، لمحات، ج٣ص٢٥٠.



العلماء والمدارس العلمية في بغداد:

ما إن بنيت بغداد في عام ١٤٥ هـ، حتى انتقل إليها كثير من العلماء؛ بسبب رعاية الخلفاء والأمراء للعلم وأهله، واستقدم المنصور إليها العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء، لا سيما من الكوفة والبصرة وحتى المدينة ومكة، كما أخذ أهل العلم وطلابه يتوافدون إليها من أرجاء العالم الإسلامي، فشهدت بغداد حركة علمية متنوعة وواسعة الآفاق وعميقة الأفكار.

بل تنقل لنا كتب التراجم والتاريخ عن رغبة بعض الخلفاء العباسيين بجمع رءوس العلم في كل فنّ، ومنها محاولة الخليفة المعتضد بالله الذي بنى قصرًا له في الشماسية ببغداد، واستزاد في الذرع، وبعد الفراغ منه، سئل عن تلك الاستزادة، فذكر أنه يريد أن يبني فيها دورًا ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع منها رؤساء كل صناعة، ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية، ويجري عليهم الأرزاق السخية ليقصد كل من اختار علمًا أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه.

ولذلك نشط التعليم في بغداد نشاطًا واسعًا، وكثُرت حلقات الدرس في كلّ فرع من فروع العلم والمعرفة، وأصبحت المساجد آنذاك أشبه بالجامعات الحرّة، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه من العلماء بدون شرط، منهم من يدرس الفقه، أو الحديث النبوي، أو الكلام، أو اللغة والنحو، أو الشعر، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ، ثم يتحول إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى.

وقد شجَّع الخلفاء على ترجمة العلوم الأخرى، وليس ببعيد ما ذكرنا من عمل الخليفة العباسي المأمون الذي كان معروفًا بنزوعه إلى العلم، واحتفائه بأصحابه، وتوسيعه حركة الترجمة؛ مما جعل العلماء والدارسين على علم بثقافة الآخرين.

يقول الدكتور شوقي ضيف: «إنّ هذه السيول الثقافية والعلمية التي دخلت العربية مكّنت العرب من أن يتحوّلوا إلى أمّة علمية بكل جوانب العلم والمعرفة التي كانت معروفة عند الأمم القديمة، ولاسيما الفرس والهنود، والسريان واليونان، وتشارك فيه مشاركة منقطعة النظير، وتضيف إليه علومًا جديدة تتصل بالقرآن، والحديث النبوي، والشعر، واللغة والنحو، وغيرها من علوم العربية»[١].

---

(١) ينظر، العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، ص١١٥.

لقد غَدت بغداد من الشهرة في مكان الصدارة في العالم الإسلامي، وكان طلبة العلم يقصدونها من مختلف بلدان العالم الإسلامي للدراسة فيها والتخرّج بشيوخها، فضلاً عن كونها مقصد العلماء ومبتغى الشعراء، ومجتمع التجار[(١)]، وقد بلغت المعرفة والعلم والثقافة في بغداد درجة من التقدم والانتشار بين مختلف الطبقات، ولم تقتصر على الخاصة وعلية القوم، بل تعدتهم حتى انتشرت وذاعت بين الإماء من النساء والبوابين ومناولي الكتب في دور العلم وغيرهم ممن يُحسبون على العامة من أهل بغداد.

أولاً: العلوم الشرعية وعلماؤها:

قبيل تأسيس مدينة بغداد ظهرت مدارس ومذاهب في شتى مجالات العلوم والمعرفة، والمدرسة هي أستاذ مؤثر، وتلاميذ متأثرون، وقد اجتمعوا على تحقيق غرض واحد، ونهجوا للوصول إليه منهجًا واحدًا.[(٢)]

أو اتجاه علمي له خصائص مميزة ينادي بها فرد، أو جماعة من الناس، ثم يعتنقها آخرون[(٣)]، ومن هذا التحديد نجد أنّ المدرسة يجب أن يكون لها خصائص معينة، ومميزات خاصة بها، وقوام المدرسة شيخ يحيط به تلاميذ يؤثر فيهم، ويتأثروا يتأثرون به، وهدفهم تحقيق غرض واحد هو تطوير المنهج وتنميته، وتعليمه للدارسين.

١ - المدارس العقدية في بغداد:

منذ أن أُسست بغداد وليس فيها إلا عقيدة سلف الأمة من الصحابة والتابعين، والتي حملها أئمة المذاهب كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وقد نال هؤلاء مكانة متميزة عند الخلفاء العباسيين.

ولكنَّ ظهور بعض الفرق الكلامية في البصرة، وانتقال بعض دعاتها إلى بغداد، وترجمة بعض الكتب اليونانية في بيت الحكمة، ومن ثَم اعتناق بعض الوزراء والخلفاء لمعتقدات هذه الفِرَق، جعلها تنتشر في بغداد، ويعلو شأن رؤوسها، لاسيما بعد المناظرات التي جرت في مجالس الخلفاء والأمراء، وما تلاها من اضطهاد لزعماء مذهب أهل السنة والجماعة الذين أنكروا ما أُدخل في الدين ما ليس منه من معتقدات وأفكار.

---

(١) المخزومي، مهدي، أعلام في النحو العربي، ص٦٣، ٦٤.
(٢) المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة ص١٢٩.
(٣) الأنصاري، أحمد مكي، أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، ص٣٥٢.



ومع تعدد الفِرَق في بغداد إلا أننا سنقف عند أبرز ثلاث فرق كان لها شأن في بغداد، وهي:

أ- أهل السنة والجماعة[1]:

هم أهل الأثر، وأهل الحديث، والطائفة المنصورة، الذين أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عنهم بأنهم يسيرون على طريقته وأصحابه الكرام دون انحراف؛ فهم أهل الإسلام المتبعون للكتاب والسنة، المجانبون لطرق أهل الضلال، وقد سموا «أهل السنة»؛ لتمسكهم واتباعهم لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسموا بالجماعة؛ لأنهم جماعة الإسلام الذي اجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا في الدين، وتابعوا منهج أئمة الحق ولم يخرجوا عليه في أي أمر من أمور العقيدة، كما أطلق عليهم السلفية.

والإيمان عندهم قول، وعمل، يزيد، وينقص، فهو: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فقول القلب: اعتقاده وتصديقه، وقول اللسان: إقراره. وعمل القلب: تسليمه وإخلاصه، وإذعانه، وحبُّه وإرادته للأعمال الصالحة، وعمل الجوارح: فعل المأمورات، وترك المنهيات.

وكما أن لهم منهجًا اعتقاديًّا فإن لهم أيضًا منهجهم وطريقهم الشامل الذي ينتظم فيه كل أمر يحتاجه كل مسلم؛ لأن منهجهم هو الإسلام الشامل الذي شرعه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحمل لواء هذه العقيدة أئمة المذاهب والمحدثون، وبرز منهم الإمام أحمد بن حنبل الذي اجتمعت فيه الإمامة في الحديث والفقه، وإمامة عقيدة أهل السنة والجماعة، وتصدى لفتنة خلق القرآن، وعُذِّب بسبب ثباته على ذلك، حتى كشف الله على يديه هذه الفتنة.

ثم ترسخت العقيدة السلفية على يد شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، وعرض العقيدة في كثير من رسائله، كما تصدَّى للعقائد الأخرى مفندًا إياها بالنقل والعقل.

ولا تزال هذه العقيدة تحظى بقبول عند جماهير واسعة في البلدان الإسلامية، ومنها بغداد، إذ حمل لواءها العلامة الآلوسي وبيت السويدي والشيخ أبو الصاعقة.

---

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على المصادر الآتية، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي قاسم اللالكائي، مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة، للدكتور ناصر العقل، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، من إصدارات الندوة العالمية للشباب المسلم.

ب- الأشاعرة[1]:

وإمامهم أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، من ذرية أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-، ولد بالبصرة سنة ٢٧٠هـ، وانتقل إلى بغداد، ومرت حياته الفكرية بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: عاش فيها في كنَف أبي عليّ الجبائي شيخ المعتزلة في عصره، وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته، ولم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة أربعين سنة.

المرحلة الثانية: ثار فيه على مذهب الاعتزال الذي كان ينافح عنه، بعد أن اعتكف في بيته خمسة عشر يومًا، يفكر ويدرس ويستخير الله تعالى حتى اطمأنت نفسه، وأعلن البراءة من الاعتزال، وخط لنفسه منهجًا جديدًا يلجأ فيه إلى تأويل النصوص بما ظن أنه يتفق مع أحكام العقل، وفيها اتبع طريقة عبدالله بن سعيد بن كلاب في إثبات الصفات السبع عن طريق العقل: الحياة والعلم، والإرادة والقدرة، والسمع، والبصر والكلام، أما الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق، فتأولها على ما ظن أنها تتفق مع أحكام العقل، وهذه هي المرحلة التي ما زال الأشاعرة عليها.

المرحلة الثالثة: إثبات الصفات جميعها لله تعالى من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف، ولا تبديل ولا تمثيل، وفي هذه المرحلة كتب كتاب (الإبانة عن أصول الديانة) الذي عبّر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف ومنهجهم، الذي كان حامل لوائه الإمام أحمد بن حنبل، ولم يقتصر على ذلك بل خلّف مكتبة كبيرة في الدفاع عن السنة وشرح العقيدة تقدّر بثمانية وستين مؤلفًا، توفي سنة ٣٢٤هـ، ودفن ببغداد ونودي على جنازته: «اليوم مات ناصر السنة».

ومن علمائهم الكبار القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: (٣٢٨-٤٠٢هـ) ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها، هذَّب بحوث الأشعري، وتكلَّم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد، وغالى فيها كثيرًا؛ إذ لم ترد هذه المقدمات في كتاب ولا سنة، ثم انتهى إلى مذهب السلف، وأثبت جميع الصفات كالوجه واليدين على الحقيقة، وأبطل أصناف التأويلات التي يستعملها المؤولة، وذلك في

---

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على المصادر الآتية، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين الجويني، شرح الباجوري على الجوهرة، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، منهج الأشاعرة في العقيدة للدكتور سفر الحوالي، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، من إصدارات الندوة العالمية للشباب المسلم.



كتابه: «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل»، وجَّهه عضد الدولة سفيرًا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي: (٣٩٣- ٤٧٦هـ)، العلامة المناظر، ولد في فيروز أباد بفارس وانتقل إلى شيراز، ثم البصرة، ومنها إلى بغداد سنة (٤١٥هـ)، وظهر نبوغه في الفقه الشافعي وعلم الكلام، فكان مرجعًا للطلاب ومفتيًا للأمة في عصره، وقد اشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة، بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية على شاطئ دجلة، فكان يدرس فيها ويديرها.

انتشر مذهب الأشاعرة في عهد وزارة نظام الملك الذي كان أشعريَّ العقيدة، وصاحب الكلمة النافذة في الإمبراطورية السلجوقية، ولذلك أصبحت العقيدة الأشعرية عقيدة شبه رسمية تتمتع بحماية الدولة، ومما زاد في انتشارها وقوتها مدرسة بغداد النظامية، وكان يقوم عليها روَّاد المذهب الأشعري، وكانت المدرسة النظامية في بغداد أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي وقتها، كما تبنَّى المذهب وعمل على نشره المهدي بن تومرت مهدي الموحدين، ونور الدين محمود زنكي، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، فضلاً عن اعتماد جمهرة من العلماء عليه، وبخاصة فقهاء الشافعية والمالكية المتأخرين، ولذلك انتشر المذهب في العالم الإسلامي كله، ولا يزال المذهب الأشعري سائدًا في أكثر البلاد الإسلامية وله جامعاته ومعاهده المتعددة.

إنّ الأشاعرة وبخاصة أشاعرة بغداد الأوائل أمثال أبي الحسن الأشعري، والباهلي، وابن مجاهد، والباقلاني وغيرهم، أقرب إلى السنة والحق من الفلاسفة والمعتزلة بل ومن أشاعرة خراسان كأبي بكر بن فورك وغيره، وإنهم ليُحمدوا على مواقفهم في الدفاع عن السنة والحق في وجه الباطنية والشيعة والفلاسفة، فكان لهم جهدهم المحمود في هتك أستار الباطنية، وكشف أسرارهم، بل وكان لهم جهادهم المشكور في كسر سَوْرَة المعتزلة والجهمية.

ولا تزال مدرسة الأشاعرة الفكرية مهيمنة على الحياة الدينية في العالم الإسلامي، ولكنها كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: «فقدت حيويتها ونشاطها الفكري، وضعُف إنتاجها في الزمن الأخير ضعفًا شديدًا، وبدت فيها آثار الهرم والإعياء»؛ بسبب: التقليد الذي طغى على تلاميذ هذه المدرسة، وأصبح علم الكلام لديهم علمًا متناقلاً بدون تجديد في الأسلوب، ولإدخال مصطلحات الفلسفة وأسلوبها في الاستدلال في علم الكلام.. فكان لهذا أثر سيئ في الفكر الإسلامي؛ لأن هذا الأسلوب لا يفيد العلم القطعي.

جـ- المعتزلة:[١]

فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية؛ لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة، مما أدّى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أطلق عليها أسماء مختلفة، منها: المعتزلة، والقدرية، والعدلية، وأهل العدل والتوحيد.

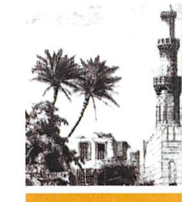
برزت المعتزلة كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء الغزال (٨٠ -١٣١هـ) الذي كان تلميذًا للحسن البصري، ثم اعتزل حلقة الحسن بعد قوله بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين (أي: ليس مؤمنًا ولا كافرًا)، وأنه مخلّد في النار إذا لم يتب قبل الموت، وقد عاش في أيام عبدالملك بن مروان وإلى أيام هشام بن عبدالملك.

وفي العهد العباسي برز المعتزلة في عهد المأمون؛ حيث اعتنق الاعتزال عن طريق بشر المريسي، وثمامة بن أشرس، وأحمد بن أبي دؤاد، وهو أحد رءوس بدعة الاعتزال في عصره ورأس فتنة خلق القرآن، وكان قاضيًا للقضاة في عهد المعتصم، يقول المقريزي: «إن مذهب الاعتزال فشا تحت ظل الدولة البويهية في العراق وخراسان وما وراء النهر».

إن حركة المعتزلة كانت نتيجة لتفاعل بعض المفكرين المسلمين في العصور الإسلامية مع الفلسفات السائدة في المجتمعات التي اتصل بها المسلمون، وكانت هذه الحركة نوعًا من ردة الفعل التي حاولت أن تعرض الإسلام، وتصوغ مقولاته العقائدية والفكرية بنفس الأفكار والمناهج الوافدة، وذلك دفاعًا عن الإسلام ضد ملاحدة تلك الحضارات بالأسلوب الذي يفهمونه، ولكن هذا التوجه قاد إلى مخالفات كثيرة وتجاوزات مرفوضة؛ كما فعل المعتزلة في إنكار الصفات الإلهية تنزيهًا لله سبحانه عن مشابهة المخلوقين.

وقد فنّد جمعٌ من علماء الإسلام آراء المعتزلة في عصرهم، فمنهم أبو الحسن الأشعري الذي كان منهم، ثُمَّ خرج من فرقتهم ورد عليهم متبعًا أسلوبهم في الجدال والحوار.. وقبله الإمام أحمد بن حنبل

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على المصادر الآتية، الملل والنحل للشهرستاني، المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ودراسات في الفرق والعقائد، لعرفان عبد الحميد، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي قاسم اللالكائي، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، من إصدارات الندوة العالمية للشباب المسلم.



الذي اكتوى بنار فتنتهم المتعلقة بخلق القرآن، ووقف في وجه هذه الفتنة بحزمٍ وشجاعة نادرتين.

وعاد فكر الاعتزال من جديد في الوقت الحاضر، على يد بعض الكتاب والمفكرين، الذين يمثلون المدرسة العقلانية الجديدة أو العصرانيين.

ومن الواضح أيضًا أن أتباع المعتزلة الجدد وقعوا فيما وقع فيه أسلافهم، وذلك أن ما يعرضون الآن من اجتهادات إنما الهدف منها أن يظهر الإسلام بالمظهر المقبول عند أتباع الحضارة الغربية والدفاع عن نظامه العام قولاً بأنه إنْ لم يكن أحسن من معطيات الحضارة الغربية فهو ليس بأقل منها.

٢- مدرسة بغداد في التفسير[١]:

تعد مدرسة بغداد في التفسير هي امتداد لمدرسة التفسير في العراق التي انطلقت منذ عصر الصحابة؛ إذ قامت مدرسة التفسير بالعراق على علم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبدالله بن مسعود كان يُعدُّ الأستاذ الأول لهذه المدرسة؛ نظرًا لشهرته في التفسير وكثرة المروي عنه في ذلك، ولأن عمر -رضي الله عنه- لما ولَّى عمار بن ياسر -رضي الله عنه- على الكوفة، سير بعث عبدالله بن مسعود معلمًا ووزيرًا، فكونه معلم أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر، جعل الكوفيين يجلسون إليه، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة.

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي، وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في مسائل الخلاف، وذهب جمهور العلماء إلى: أنّ ابن مسعود -رضي الله عنه- هو الذي وضَع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فيكثر تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد؛ لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج إعمال الرأي في فهم نصوص القرآن والسنة.

ومن أشهر رجالها ممن قد عُرف بالتفسير من أهل العراق كثيرٌ من التابعين، اشتهر من بينهم علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على، كتاب التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي، وكتاب مدرسة التفسير في بغداد في القرن الرابع الهجري.

وعندما بُنيت بغداد استقطبت إليها علماء التفسير، يقول أبو بكر بن عياش: «الإسلام ببغداد، وإنها لصيَّادةٌ تصيد الرجال، ومن لم يرها لم يرَ الدنيا».

وقد برز في بغداد خلال العصر العباسي كثير من العلماء الذين خدموا القرآن الكريم وعلومه وتفسيره، منهم: حجاج بن محمد المصيصي (ت٢٠٦هـ) أحد العلماء الثقات الذين روى عنه الإمام أحمد، له كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ) العالم اللغوي الكبير كانت له حلقات علمية كبيرة، وله مؤلفات كثيرة، أبرزها: كتاب معاني القرآن، وكتاب المصادر في القرآن، ومنهم عبدالعزيز بن عمر الدوري (ت٢٤٦هـ) إمام القراءة في زمنه، له كتاب ما اتفقت ألفاظه ومعانيه في القرآن، وأحكام القرآن، وفضائل القرآن، ومنهم عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) كان عالمًا فاضلاً ثقة، سكن بغداد، وله مصنَّفات كثيرة، منها: غريب القرآن، ومشكل القرآن، ومنهم محمد بن عثمان الجعد (ت٢٨٨هـ) كان عالمًا بالتفسير والقراءات، ومن مصنفاته: الناسخ والمنسوخ، ومعاني القرآن، والقراءات.

ومن علماء بغداد الذين خدموا القرآن، شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) صاحب التصانيف المشهورة، استوطن بغداد، وتوفي فيها، له كتاب التفسير الذي لم يصنَّف أحد مثله، وله كتاب القراءات سماه الجامع، وغيرها، ومنهم الإمام إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ) صاحب كتاب معاني القرآن، ومنهم الإمام الحافظ أبو القاسم البغوي (ت٣١٧هـ) وُلد ببغداد ومات فيها، كان محدِّث العراق في عصره له كتاب معالم التنزيل في تفسير القرآن.

ومنهم الإمام أحمد بن محمد النحاس (ت٣٣٤هـ) المفسر الأديب له: تفسير القرآن، وإعراب القرآن، وناسخ القرآن ومنسوخه، ومعاني القرآن، ومنهم محمد بن الحسن النقاش (ت٣٥١هـ) عالم القرآن ومفسره، له: شفاء الصدور في التفسير، والإشارة من غريب القرآن، والموضِّح في القرآن وغريبه، والمعجم الكبير في أسماء القراء وقراءاتهم، ومنهم الإمام الجصاص أحمد بن علي الرازي الحنفي (ت٣٧٠هـ) سكن بغداد وكان إمام المذهب الحنفي في زمانه، له أحكام القرآن.

لقد تميزت مدرسة بغداد في التفسير أنها جمعت بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي، كما في تفسير الطبري، وزاد المسير لابن الجوزي البغدادي.



كما ظهرت مناهج أخرى كما في تفسير آيات الأحكام، ويأتي كتاب آيات الأحكام، للجصاص الحنفي، الذي دخل بغداد سنة ٣٢٥هـ، وسافر وعاد إليها مرة أخرى سنة ٣٤٤هـ بعد أن مات شيخه الكرخي، ويُعدُّ كتابه من أجمع الكتب التي تناولت أحكام القرآن بصورة مفصلة أفاد منها غيره ممن جاء بعده، وكتب في هذه الأحكام من أمثال الكيا الهراسى وابن العربي والقرطبي صاحب التفسير المشهور «الجامع لأحكام القرآن».

والكتاب يجمع هذه الأحكام في أبواب مرتبة تجمع شمل الآيات التي تتناول قضية أو حكمًا عامًّا يفصل الكلام عليها تفصيلاً مشفوعًا بأقوال العلماء وقرائهم واستنكاراتهم.

ومنه آيات الأحكام، لأبي الحسن على بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (ت٥٠٤هـ) تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، واستمر مدرسًا بها إلى أن تُوفي في أول شهر المحرم سنة أربع وخمسمائة للهجرة، ويُعدُّ كتاب أحكام القرآن الذي ألفه الهراسي واحدًا من أشهر التآليف التي تُعنَى بآيات الأحكام فهمًا واستنباطًا واستخراجًا للأصول منها؛ حيث تظهر الثروة الكبيرة في مجال الفقه والتشريع الإسلامي.

وقد راعَى مؤلفه فيه الإيجاز والاختصار والاقتصار على اللباب، فجاء كتابه وافيًا في بابه نافعًا لقارئه، وألَّفه على مذهب الإمام الشافعي؛ حيث استخدم منهجه، وسلك مسلكه، وسار على طريقته، فضم بذلك -إلى جانب ما ألفه غيره من أتباع أبي حنيفة ومالك رحمهما الله- نظرة تكاد تكون متكاملة على الجانب التشريعي للقرآن الكريم.

ومن المناهج التفسيرية التي ظهرت في بغداد: التفسير الإشاري مثل تفسير روح المعاني للآلوسي، شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي مفتي بغداد (١٢٠٧ - ١٢٧٠هـ).

واليوم تفتخر بغداد بالعلامة الدكتور فاضل السامرائي الذي اعتنى بالتعبير البياني للقرآن، وله دراسات من أشهرها في هذا المجال: التفسير البياني، والتعبير القرآني، ولمسات بيانية، وبلاغة الجملة في القرآن ومعاني النحو، وله برنامج تلفزيوني استقطب المشاهدين بعنوان «لمسات بيانية».

٣- مدرسة الحديث في بغداد:[(١)]

على الرغم من شهرة مدرسة الرأي في العراق وبغداد، إلا أن بغداد شهدت حركة علمية في الحديث النبوي روايةً ودرايةً، وعقدت مجالس للإملاء والاستملاء في مساجد بغداد، وكان الناس يفدون إلى علماء بغداد من أقصى البلدان الإسلامية، وكانت حلقات العلم والتحديث تتسع بشكل كبير، وبلغت بعضها عشرات الآلاف من الطلاب، مما دفع بعض المحدثين إلى أن يستعينوا بالمبلِّغين عنهم.

وقد نقلت كتب التراجم روايات عدة تحدثت عن كثرة حلقات العلم والتحديث، فقد ذكر السمعاني أن طلاب مجلس يزيد بن هارون كانوا سبعين ألفًا، وأن المعتصم وجَّه مَن يعدُّ مجلس عاصم ابن علي بن عاصم في رحبة النخل في جامع الرصافة بعد أن بلغه أن عاصمًا كان يجلس على سطح المسقفات، فعدوا المجلس فكانوا مائة وعشرين ألفًا.

وقال صالح بن محمد البغدادي: كان البخاري يجلس في بغداد، وكنت أستملي له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفًا، وربما بلغ عدد المستملين المئات.

كما تصدَّى علماء الحديث في بغداد لحركة الوضع، ونخلوا الأحاديث ونقَّحوا الأسانيد، وبيَّنوا العلل، فكان علي بن المديني والإمام أحمد بن حنبل والدارقطني، ويشهد على تقدم علماء بغداد في الحديث، أنّ الإمام البخاري (ت٢٥٦هـ) لما صنَّف صحيحه عرَضه على بعض أئمة عصره من علماء بغداد كالإمام أحمد وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، فوافقوه على تلك الأحاديث سوى أربعة أحاديث خالفوه فيها.

كما كان لبغداد إسهامات في تدوين علوم الحديث، حتى كان العلماء عيالاً على كتب الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) الذي لم يترك نوعًا من الحديث إلا وألَّف فيه.

وبعد احتلال بغداد من قِبل التتار، أصاب الحالةَ العلمية شيءٌ من الضعف، وانتقلت الجهود العلمية في الحديث إلى ثلاثة أمصار، دمشق ومصر والهند[(٢)].

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب الحديث والمحدثون لمحمد محمد أبو زهو، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، محمد ابن محمد أبو شهبة.

(٢) أبو زهو، محمد محمد، الحديث والمحدثون، ص ٤٣٨.



ومع ذلك تميزت بغداد بوجود دور الحديث ومدارسه، التي تصدَّى للتدريس فيها جهابذة العلماء والمحدثين، وقد مر بنا ذكر هذه المدارس والدور.

وفي هذا العصر برزت مدرسة بغداد في علوم الحديث روايةً ودرايةً على يد العلامة محدِّث العراق الشيخ عبدالكريم بن السيد عباس الأزجي الشيخلي المعروف بالصاعقة، وتلميذه العلامة الشيخ صبحي السامرائي، والعلامة حمدي عبدالمجيد السلفي تلميذ الشيخ الألباني، والأستاذ الدكتور بشار عواد، ومؤخرًا أسس في بغداد مركز الشيخ صبحي السامرائي للحديث النبوي، وقبله أسست جمعية أهل الحديث وجمعية علوم الحديث العلمية، التي لها إسهامات علمية من مؤتمرات وندوات فضلاً عن بعض الإصدارات العلمية.

٤- المذاهب الفقهية في بغداد:[١]

يقول الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: «الفقه في العراق انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود -رضي الله عنه-»[٢]، ويبدو أن بناء بغداد عاصمة للخلافة الإسلامية في العصر العباسي كان له تأثير إيجابي على نشوء المدارس والمذاهب الفقهية، لتكون أكثرها أتباعًا في العالم الإسلامي.

والمذاهب التي انتشرت في الأمة الإسلامية؛ بسبب ما كان لأئمتها من قوة وبراعة في التأصيل الفقهي مع وجود تلاميذ نجباء نشطين، سجَّلوا آراءهم فخلدت مذاهبهم، وخُدمت بالشرح والتخريج والتفريع على أصول كل مذهب في كل عصر، ولتولي بعض علماء المذهب القضاء أو التدريس في المدارس التي بناها الخلفاء أو الوزراء أو الأمراء فذاع صيتهم، وانتشر فقههم.

فقد تبلور فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ) -رحمه الله- في بغداد حتى حمل علماؤها لواء فقهاء أهل الرأي، الذي انطلق من الكوفة ليستقر في العاصمة بغداد، ثم يصبح المذهب الرسمي للخلافة بعد أن تولى أبو يوسف القضاء، ثم المذهب الرسمي للدولة العثمانية، ولا يزال معتمدًا في قوانين أكثر الدول الإسلامية، ومنها العراق.

---

(١) للمزيد ينظر، تاريخ المذاهب الإسلامية، لمحمد أبي زهرة، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، وتاريخ الفقه، لمحمد علي السايس.

(٢) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج١ ص١٧.

والإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ) -رحمه الله- وضع أصول مذهبه ودوَّن أقواله على أبواب الفقه وهو نزيل بغداد، وحتى بعد مفارقته بغداد إلى مصر، ظل مذهبه راسخًا في بغداد، وإن أُطلق عليه المذهب القديم، ولم يتميز الجديد إلا بمسائل معدودات، وقد جمع الإمام الشافعي بين فقه الرأي وفقه الحديث، ويُعدُّ مذهبه إلى أهل الحديث أقرب، حتى أُطلق عليه لقب «ناصر السنة».

ولرسوخ هذا المذهب في بغداد فإن أول مدرسة بُنيت في بغداد وهي «النظامية» التزمت في منهجها الدراسي المذهب الشافعي.

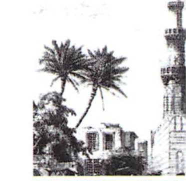
وأما مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت١٢٤١هـ) -رحمه الله- فقد كان بغداديًّا خالصًا، وحمل لواء فقه أهل الحديث، وبرع فيه واشتهر، ولذا كان مذهبه أكثر اصطباغًا بالحديث.

وكان الإمام أحمد -رحمه الله- ينهى عن تدوين كلامه في حياته، وكان أتباعه يعرفون مكانة الإمام أحمد -رحمه الله- بين العلماء، ويعرفون قدره، وقد ذاع صيته في البلدان، وبلغت شهرته الآفاق، ولكنهم التزموا بأمر الإمام أحمد بعدم التدوين في حياته، وبعد وفاته شرعوا بالتدوين، وبرع علماء حنابلة كان لهم دور في تأسيس المذهب الحنبلي، مثل الإمام الخلال أحمد بن محمد بن يزيد أبي بكر الخلال (ت٣١١هـ)؛ إذ إنه انبرى لجمع كل ما ذكره الإمام أحمد في مسائل الشريعة، فأفنى عمره في الجمع، وألف كتابه الجامع نحوًا من مائتي جزء في عشرين سِفْرًا في مسائل الإمام أحمد.

وكان الإمام الخلال شديد الاتباع للإمام أحمد -رحمه الله تعالى- إذ ورد عنه (لو تدبر الناس كلام أحمد بن حنبل -رحمه الله- في كل شيء، وعقلوا معاني ما يتكلم به، وأخذوه بفهم وتواضع؛ لعلموا أنه لم يكن في الدنيا مثله في زمانه أتبع منه للحديث، ولا أعلم منه بمعانيه، وبكل شيء، والحمد لله)[(١)]، ولذلك قيل في الإمام الخلال: إنه لم يكن قبله للإمام أحمد مذهب مستقل، حتى تتبع هو نصوص أحمد ودوَّنها وبرهنها بعد الثلاث مائة.

ثم حمل لواء المذهب الإمام عمر بن الحسين أبو القاسم الخرقي (ت ٣٣٤هـ)؛ إذ اختصر ما جُمع من المسائل عن الإمام أحمد، وجعلها في كتاب عُرف بمختصر الخرقي، واشتهر هذا المختصر اشتهارًا واسعًا، وحصل على عناية الحنابلة لقرون عدة، ولم يحصل أيُّ كتاب في الفقه على ما حصل عليه الخرقي من العناية.

(١) الخلال، أبو بكر، السنة ج٢ ص٤٢٩.



ولم يخرج من العلماء الحنابلة خارج بغداد، إلا ما كان من الإمام الخرقي؛ إذ خرج إلى الشام بعد سيطرة البويهيين على بغداد، فانتشر خارجها، وبذلك يكون الفقه الحنبلي بغدادي النشأة والتكوين.

ثم جاءت مرحلة الانتشار والتوسع للمذهب الحنبلي، فقد انتشر المذهب الحنبلي انتشارًا واسعًا في بغداد، وامتد إلى بلاد الشام، ومن ثَم امتد إلى مصر، وظهر في هذه المرحلة علماء حنابلة كبار، كان لهم الأثر الكبير في نشر وتوسيع المذهب الحنبلي، ومنهم: الإمام القاضي أبو يعلى الفراء محمد بن الحسين ابن محمد بن خلف، (ت٤٥٨هـ)، كان عالم زمانه وفريد عصره، صاحب المؤلفات النفيسة، شغل منصب القضاء، وكان جليل القدر عند الخاصة والعامة، والشيخ عبدالقادر الكيلاني الذي اعتمد المذهب الحنبلي مع الشافعي في مدرسته، وظهر في هذه المرحلة المقادسة الذين كان لهم الأثر الكبير والواضح في تطور الفقه الحنبلي وانتشاره، وكان من أبرزهم: موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي أبو محمد (ت٦٢٠هـ)، ألف العمدة في الفقه للمبتدئين، وألف المقنع للمتوسطين، وألف الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-، وشرح مختصر الخرقي في المغني، الذي أثنى عليه القاصي والداني وهو من أفضل الشروحات على الخرقي، كما ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ).

وأما المذهب المالكي فبعد شيوعه في بغداد في زمن المنصور عند لقائه بالإمام مالك بن أنس -رحمه الله-، ورغب إليه أن يعتمد كتابه في الأمصار فأبى، إلا أنه تضاءل في عصر الرشيد لاتخاذه المذهب الحنفي مذهبًا رسميًّا بعد تقليده القضاء لأبي يوسف -رحمه الله-، ثم نهض المذهب المالكي مرة أخرى على يد القاضي عبدالوهاب البغدادي (٣٦٢- ٤٢٢هـ)، الذي خرج منها في آخر عمره إلى مصر لضائقةٍ ألمت به، وقال فيها:

سلام على بغداد في كل موطن
وحُقَّ لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلًى لها
وإني بشطي جانبيها لعارف



ولكنها ضاقت عليّ بأسرها
ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

إلا أنّ بروز المذهب الحنبلي في بغداد أضعفه مرة أخرى، ولاسيما أن الخلفاء العباسيين اعتنقوا المذهبين الشافعي والحنبلي، ثم تمسكوا بالمذهب الشافعي منذ أواخر القرن الخامس وحتى سقوط بغداد بيد التتار على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ.

وتميزت مدرسة بغداد الفقهية على تنوع المذاهب فيها، بكثرة التدوين الفقهي، وبالمناظرات المذهبية التي تجري في مدارسها وفي دور الخلافة والإمارة، وفي بناء المدارس التي تُدرس فيها المذاهب، وقد جمعت مدرسة المستنصرية تدريس المذاهب الأربعة في أروقتها.

وفي عصرنا ظهرت مؤسسات علمية في بغداد يأتي في مقدمتها: هيئة علماء المسلمين لتحمل لواء الممانعة ضد الاحتلال الأمريكي لبغداد، والأمانة العامة للإفتاء والتدريس والتصوف، والأمانة العليا للإفتاء والدعوة، والآن يعد المجمع الفقهي العراقي الذي يتخذ من جامع الإمام أبي حنيفة مقرًّا له، منارة من منارات العلم الشرعي في بغداد، ويمثل مرجعية شرعية لأهل السنة في العراق، يضم نخبة من علماء الشريعة في العراق، وله نشاطات علمية متميزة، أعادت إلى بغداد شيئًا من هويتها الإسلامية التي يسعى الاحتلال بصورتيه الغربية والصفوية إلى طمسها ومسخها.

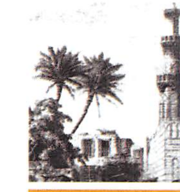
٥- مدرسة بغداد النحوية:[١]

يرى بعض الباحثين أن مصطلح المدرسة النحوية يعني وجود جماعة من النحاة يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو، وأن يكون هناك رائد يرسم الخطة والمنهج، ويكون له تابعون يقتفون خطاه، ويتبنّون منهجه، ويعملون على تطويره والدفاع عنه.

وقبل بناء بغداد وجدت (مدرستان نحويتان)، هما مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة التي نشأت بعد مدرسة البصرة واستمدّت نحوها منها؛ إذ أخذ العلماء الكوفيين نحوهم عن البصريين وتتلمذ شيوخ الكوفيين لشيوخ البصريين.

---

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على الكتب الآتية، الدرس النحوي في بغداد، د. مهدي المخزومي، والمدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، وصور من النشاط النّحوي في بغداد، د. خليل السامرائي، وغيرها.



وبعد بناء بغداد، ظهرت مدرسة نحوية هي مدرسة بغداد، وقد انتهجت نهجًا جديدًا جمعت أو مزجت بين المدرستين، أي: البصري، والكوفي، ذكر ذلك ابن النديم في كتابه (الفهرست) وسماهم (جماعة من علماء النحويين واللغويين ممّن خلطوا المذهبين)،

ويقول الدكتور شوقي ضيف: «اتّبع نحاة بغداد في القرن الرابع الهجري نهجًا جديدًا في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعًا، وكان من أهم ما هَيَّأ لهذا الاتجاه الجديد أنَّ أوائل هؤلاء النحاة يحمل آراء مدرستيهما، وَيُعنى بالتعمق في مصنفات أصحابهما، والنفوذ من خلال ذلك إلى الآراء النحوية الجديدة»[(١)].

يقول الدكتور مهدي المخزومي: «فليس المذهب البغدادي إذن إلا مذهبًا انتخابيًّا، فيه الخصائص المنهجية للمدرستين جميعًا، على نحو ما فعل ابن مالك في محاولة الجمع بين المذهبين، وانتهاجه منهجًا وسطًا بينهما»[(٢)].

ويؤكد ذلك الدكتور أحمد مكي الأنصاري الذي قال عن خصائص المدرسة البغدادية: «ما هي إلا امتزاج خصائص المدرستين البصرية والكوفية معًا، وظهور أثر المدرستين في هذا المذهب الجديد الذي عُدَّ الفرّاء مؤسسه لِما يقوم عليه مذهبه من تحرّر، ومزج، وتجديد»[(٣)].

ويرى جمهرة من كتب عن المدارس النحوية كمهدي المخزومي ود. خديجة الحديثي ود. خليل السامرائي[(٤)]: أنّ النحو انتقل من الكوفة إلى بغداد لعدة أسباب، أهمها: قرب الكوفة من بغداد من الناحيتين الجغرافية والسياسية، والحظوة لعلماء الكوفة عند الخلفاء والأمراء أكثر ممّا كان للبصريين، فكان للكسائي حظوة كبيرة عند المهدي، ثم عند الرشيد الذي لازمه حتى وفاته سنة (١٨٩هـ)، وكان تلميذه الفراء مصاحبًا له، واتصل بالوزراء والأمراء، وأصبح معلمًا لأولاد المأمون، وصنّف له كتاب الحدود، وابن السِّكيت تلميذ الفرّاء كان معلم أولاد المتوكل قبل المبرد.

---

(١) ضيف، شوقي، المدارس النحوية، ص٢٤٥.

(٢) مدرسة الكوفة، ص٧٠، ١٠٩.

(٣) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو، ص٣٩٧.

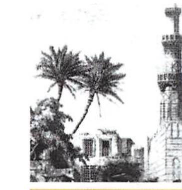
(٤) المخزومي، مهدي، الدرس النحوي في بغداد، ص٨٥، الحديثي، خديجة، المدارس النحوية، ص٢٧٥، السامرائي، خليل، صور من النشاط النّحوي في بغداد، ص ٢٦.

ويمكن القول: إن استدعاء بعض الخلفاء والأمراء نحاة البصرة إلى تعليم أولادهم، أو إلى حلِّ مسألة نحوية استعصت عليهم، كما استدعى الواثق المازني إلى بغداد، وجمع بينه وبين الكوفيين، وتغلب على ابن السكيت، واستدعاء المتوكل للمبرد للإجابة في مسألة نحوية اختلف فيها هو ووزيره الفتح بن خاقان، ثم استدعاء المبرد إلى بغداد من قبل صاحب شرطتها بعد مقتل المتوكل كانت البداية الحقيقية للركون إلى النحو البصري، ومن ثم غلبته على النحو الكوفي في بغداد، واستطاع المبرد بقوة بيانه، وحذقه أساليب الجدل أن يستأثر بإعجاب الأمراء، ويجتذب إليه أنبه الدارسين واستطاع تلاميذه بحذقهم أسلوب الجدل، وقدرتهم على استخراج القياس والعلل أن يفرضوا مذهبهم الجديد الذي أخذوه عن المبرد على مجالس الدرس، وبسطوا سلطان المذهب البصري عليها بالنابهين من تلاميذهم، الذين آلَت إليهم الرئاسة في النحو، كأبي بكر بن السراج، وأبي القاسم الزجاجي، وأبي سعيد السيرافي، وأبي الحسن الرماني، وأبي علي الفارسي، وغيرهم، فقد كان هؤلاء يدعون إلى هذا المذهب ويتعصبون له. وربّما حاولوا النيل من مذهب البغداديين الذين لزموا أسلوب أشياخهم، فتأثّر بهم الدارسون على تعاقب العصور، وتابعوهم فيما تعصبوا، وفيما أَمْلوا وفيما ناظروا.

ثانيًا: العلوم الطبيعية والتطبيقية وعلماؤها:

يرى روجيه غارودي « أنّ أحد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي يتبعها المستعمرون هي إنكارهم الدور الذي لعبته الحضارة العربية في تكوين العالم الحديث.. فمؤامرة الصمت والتشنيع المنظَّم على هذه الحضارة إنما تهدف إلى تجاهل هذه الحقيقة الواقعية، وهي أن الأمة العربية ساهمت في ظروف تاريخية معينة بين العصر القديم وعصر النهضة مساهمةً غنية في التقدم الإنساني في كل ميادين الفكر والفن».

ثم يعزز ذلك بالأدلة، فيقول: «بين عامي ٨١٣-٨٣٣م وبينما كانت أوروبا تجهل القراءة، كان الخليفة المأمون يؤسِّس في بغداد بيت الحكمة الذي اشتمل على مكتبة وجامعة ومكتب ترجمة.. وبعد زمن قليل كان الخليفة الحكم الثاني في قرطبة يملك (٦٠٠) ألف مجلد بينما لم يستطع ملك فرنسا شارل الحكيم أن يجمع بعد ذلك بأربعمائة سنة أكثر من (٩٠٠) مجلد، لقد ظل إنتاج الكندي (٨٥٠م) والذي ترجمه جيرار دي كريمون إلى اللاتينية يثقف الغرب خلال قرون عدة.. -وبينما كان العرب -



يحافظون على جوهر الفكرة القائلة بكروية الأرض، -ظلت- هذه الفكرة ينكرها رجال اللاهوت المسيحيون». [(١)]

١ - الفلك:

إنّ أول من عُني بعلم الفلك من العباسيين الخليفةُ المنصور، فقد قرَّب العلماء وشجَّع المترجمين وأغدق عليهم العطايا، واقتدى بالمنصور من جاء بعده من الخلفاء وتُرجمت الكتب وصُحِّحت الكثير من الأخطاء الشائعة المتعلقة به، وجُرد علم الفلك من الشعوذة والدجل وأصبح علمًا قائمًا بأصوله، وأنشئت الأرصاد، وتنوعت آلات الرصد، وقد كان محمد بن إبراهيم الفزاري أول فلكي في بغداد، بعد الاستفادة من علوم الهنود مضافة إلى علوم العرب الأوائل، وهو أول من عمل الإسطرلاب في الإسلام.

واستنادًا إلى مصنَّف الفزاري وضع الخوارزمي قوائمه الفلكية المعروفة بالزيج، وهي جداول زمنية تتضمن قوانين رياضية فيما يختص بكل كوكب عن طريقة حركته، ومن أشهرها زيج الخوارزمي وزيج البلخي[(٢)].

وقد اعتمدت دار الرصد المغولية في مراغا على علماء فلكيين بغداديين، وعلى الكتب التي أُلفت في بغداد والعراق والتي نافت على (٤٠٠) ألف كتاب، وقد وثَّق البغداديون الصلة بين علم الفلك والرياضيات، ومن اكتشافاتهم تعيين بعض الخلل في حركة القمر على يد العالم الفلكي محمد بن محمد أبو الوفاء البوزجاني، لا كما يدعي الغرب أنه اكتُشف على يد تيخوراهي الدنمركي، فضلاً عن أن البوزجاني أحد مكتشفي المعادلات لتقويم مواقع القمر سُمِّيت بمعادلات السرعة[(٣)].

كما أن آلة الإسطرلاب المشهورة، والربع ذا الثقب هي مبتكرات عربية صرفة، وأصاب الفلكيون العرب ومنهم (البتاني) في حساب ميل فلك البروج على فلك معدل النهار، وتدقيقهم في حساب طول السنة الشمسية، وتحقيقهم في مواقع كثير من النجوم ورصد الاعتدال الربيعي والخريفي، وإشاراتهم إلى كلف الشمس، ووضعهم الجداول الدقيقة إلى بعض النجوم الثوابت، وإتقانهم بناء

---

(١) مجلة المورد، ص٢٦٤، وص٢٨٩، و٢٩٦.

(٢) سليمان، الفوز بالمراد، ص١٥٨.

(٣) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٣٠٠.



المراصد الفلكية، وصنع آلاتها التي منها اللبنة والحلقة الاعتدالية، وذات الأوتار، وذات الحلق، وذات السمت والارتفاع، والآلة الشاملة وذات الشعبتين، وذات الجيب، وذات المشتبهة بالناطق، والإسطرلاب وأنواعه المختلفة.

ومن أشهر المراصد الفلكية التي بُنيت في بغداد: مرصد (بني موسى)[١] الذي صنعه أولاد موسى، وهو عبارة عن آلة رصد فلكية ضخمة تعمل وتُدَار بقوة دفع مائية، وهي تبين كل النجوم في السماء، وتعكسها على مرآة كبيرة، وإذا ظهر نجمٌ رُصِد في الآلة، وإذا اختفى نجم أو شهاب رُصِد في الحال وسُجِّل».

يقول ناجي معروف: «لقد ازدهرت بغداد فلكيًّا سبعة قرون، فقد عين العرب فيه مدة السنة بالضبط، وقاسوا خط نصف النهار الذي لم يوفَّق له الأوروبيون إلا بعد مرور ألف سنة؛ كما يقول غوستاف لوبون.

وإن عطاء المدرسة البغدادية الفلكي دام حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وإن العرب هم الذين نشروا هذا العلم في العالم كله، وما مدرسة مراغا ومدرسة سمرقند الفلكية إلا امتداد للمدرسة البغدادية، فقد أجلى هولاكو وتيمور لنك علماء بغداد الفلكيين إلى عاصمتيهما ليبنوا لهم مراصدهم الفلكية.

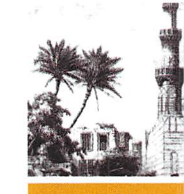
ومن مآثر المدرسة البغدادية معرفتها باستدارة الأرض ودورانها حول نفسها الذي لم يكتشفه الغرب إلا في عام ١٥٢٣م، ويعتبر محمد بن جابر البتاني أحد علماء المسلمين المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الأفلاك وحساب النجوم، ولا يُعلم أحد أعلم منه في الإسلام في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركتها، وقد عدَّه الفلكي الفرنسي لالاند واحدًا من العشرين فلكيًّا المشهورين في العالم، وقالت المستشرقة الألمانية هونكه: «لقد كان تأثير هذا العربي النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن، فسيطرت نظرياته في علم الفيزياء والبصريات على العلوم الأوروبية حتى أيامنا هذه»[٢].

أما العالم الكندي، الذي برَع في الفلسفة والطب، والحساب والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم، فقد وضع عددًا كبيرًا من الكتب، بلغ منها في النجوم تسعة عشر كتابًا، وفي الفلك ستة

---

(١) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص٧٥.

(٢) هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص١٥٠.



عشر كتابًا، وثمانية كتب في الكريات، كما وضع رسائل في بعض الآلات الفلكية، حتى قيل: إن دولة المعتصم كانت تتجمل بالكندي وبمصنَّفاته، فقد لاحظ أوضاع الشمس والنجوم والكواكب والقمر بالنسبة للأرض، وما ينشأ عنها من ظواهر يمكن تقديرها من حيث الكم والكيف، والزمان والمكان، وربط بين ذلك ونشأة الإنسان على الأرض، وله كتاب في البصريات، ورسالة في زرقة السماء، وله رسالة في المد والجزر وضعها على أساس تجريبي وزادت مؤلفاته في شتى العلوم على (٢٠٠) مجلد.

ومن رُصَّاد بغداد أيضًا أحمد بن محمد الصاغاني، وأبو الوفاء البوزجاني، وعبدالرحمن الصوفي، وجابر بن حيان، الذي درس اختلاف الحرارة على الكواكب السبعة وفق بُعدها وقربها من الشمس، ومن خلال اختلاف ظواهرها كما هي بائنة.

ومن المنجزات الفلكية أيضًا: مخالفة الفلكيين البغداديين لفلكيي اليونان في قولهم بأن الأرض مركز الكون. وإنما هي قائمة في الفضاء، كما قاسوا أجرام الشمس والقمر والنجوم بطريقة هندسية حسابية بما يقرب من الحقيقة، وقاسوا أبعادها من الأرض.

أما عن المنجزات الجغرافية الموصولة بعلماء الفلك البغداديين، فقد وضعت خارطة للعالم كانت دقيقة وأفضل مما قدَّمه بطليموس سميت (المأمونية)؛ لأن الخليفة المأمون هو من أمر برسمها، ووضع سبعون عالمًا من علماء الجغرافية شرحًا للعالم، وللطرق التجارية، ووزعه المأمون على أمراء الأقاليم الإسلامية لمعرفة مختلف البلاد والأمم المحيطة بهم، ومما حوته هذه الخريطة أماكن أعاجيب العالم وما حوته من الأعاجيب، من مباني مشهورة وأقطار ومنها سور الصين، ومما حوته أيضًا ذكر أكثر من (٥٣٠) مدينة و(٥) أبحر، و(٢٩٠) نهرًا، و(٢٠٠) جبل، ومقدار ما فيها من معادن والمجوهرات، وكلامها عن كروية الأرض الأمر الذي كان محرمًا في العصور الوسطى الأوروبية.

يضاف إلى ذلك قيام علماء بغداد بوضع قياس محيط الأرض، وعلموا أن كل درجة من درجات الفلك يقابلها ٦٦/٥ ميل، وخلص العلماء إلى أن الأرض مستديرة، وكلف الخليفة المأمون فريقين من الرياضيين والفلكيين لقياس قُطر الأرض، ومنهم أولاد موسى بن شاكر وأبو الطيب سند بن علي المنجم الفلكي الرياضي، وكذلك علي بن عيسى الإسطرلابي رياضي وفلكي، فكانت النتائج متقاربة جدًّا حيث بلغ قطر الأرض ما يقارب (٤١٢٤٨ كم)، وبمقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست



بالأقمار الصناعية وهي (٤٠٠٧٠كم) أي بنسبة خطأ لفريق المأمون بـ٣٪ فقط، فهي جديرة بالتقدير، ووضع نظريات خاصة بالرياح وأنواعها واتجاهاتها والحرارة والبرودة، وتأثرهما بالتضاريس من حيث الارتفاع والانخفاض، والقرب والبعد من البحر، وفصول السنة[١].

٢- الرياضيات:

أخذ العرب عن الهنود الأرقام، وكانوا العرب يكثرون من الأمثلة في المسائل الرياضية، ويهتمون بالمسائل ذات المنافع المعاصرة في معاملاتهم المالية والتجارية، وكانوا أول من ألف في علم الجبر[٢]، وواضعي أُسسه زمن الخليفة المأمون؛ لصلته المباشرة بمسائل المواريث الإسلامية، وقد اهتم العرب بالهندسة منذ زمن الخليفة المنصور، كدراسة السطوح والمجسمات وأشكالها، وكان للبغداديين الفضل في وضع أسس علم الهندسة التحليلية، ومهَّدوا لعلم التفاضل والتكامل، فضلاً عن أبحاثهم في الميكانيكا، كما ألفوا في النقل، وكتبوا في الآلات.

ومثَّل الكندي أبو يعقوب بن إسحاق من ملوك كندة أحد قامات عصره الموسوعيين، ويعتبر ثابت بن قرة بن مردان من مشاهير علماء الرياضيات والفلك، الذي تمكن من تقسيم الزاوية إلى ثلاث أقسام متساوية بطريقة مخالفة للطرق اليونانية، وأوجد الحلول لبعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية، ويعتبر ثابت هو واضع أسس التفاضل والتكامل، واشتغل بالهندسة التحليلية، ووضع كتابًا في الجبر بيَّن فيه علاقة الجبر بالهندسة، وكيفية الجمع بينهما[٣].

ومن أدب الخلفاء مع العلماء أن الخليفة المعتضد كان قد اعتذر لثابت، وقال له: «سهرت ووضعت يدي على يدك، واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون؛ فإن العلماء يَعلون ولا يُعلون».

ويقول غوستاف لوبون: «كان حب العرب للعلم عظيمًا، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقًا لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوه، ومن ذلك أن شهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين للتدريس في بغداد»[٤].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ ص١٦٢؛ السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٢٨٧.

(٢) ابن خلدون، المقدمة ص٤٨.

(٣) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٢٧٨.

(٤) حضارة العرب، ص١٧٤، ومجلة المورد، ص٢٧١.



ويرى علماء الرياضيات الغربيون أن علم الجبر لم يصبح علمًا إلا على يد العرب، يقول المستشرق كاجوري: «إنّ حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب.. قبل غيرهم من علماء الغرب».

وتقول الألمانية هونكه: «إن العرب برهنوا على أنهم كانوا يتمتعون بفهم عميق، وإدراك واسع عندما اكتشفوا فوائد هذه الشخوص الصغيرة.. ألم تكن هذه الأرقام معروفة في الإسكندرية وفي حواضر العالم؟ ولكنها ما كانت لتشتعل نورًا وهّاجًا إلا حين وصلت إلى العرب».

ويرى البارون الفرنسي كارا دي فو أن العرب «علمونا استعمال الصفر»، وهكذا أمكن حساب العمليات الكبيرة والمطولة، وهو ما كان يستحيل مع الأرقام اللاتينية وقتها»، ولولا تعليم العرب للعالم استعمالات الصفر؛ لما عرفت الكمية الموجبة والسالبة في علم الكهرباء مثلاً أو علم الجبر(١).

يقول المستشرق بريفو في حديثه عن التأثر الأوروبي بالعلوم العربية: «إن العلم الغربي.. يدين بوجوده للحضارة العربية»، ويقرر روجر بيكون في جامعة أكسفورد بأن وجود الفكر الأوروبي، والعلم الأوروبي كان «مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية، لقد دُعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون وهي مدينة بكل مقوماتها إلى العالم الإسلامي».(٢)

٣- الكيمياء:

وكان من أشهر العلماء البغداديين جابر بن حيان، الذي يُعدُّ بحق مؤسس علم الكيمياء وواضع أسسه وأصوله، حتى عُرف هذا العلم في أوروبا وإلى سنين قريبة من تاريخنا المعاصر (بصنعة جابر)(٣).

ومن أشهر أبحاثه كانت في تكوين الزئبق والكبريت، وله أبحاث في التفاعلات الكيميائية والمعادلات، ومنها تحديد العناصر التي يتكون منها الذهب، وعرف الكثير من النظريات الكيميائية؛ كالتبخير والتقطير، والترشيح والتبلور، والتصعيد والإذابة، مع تحضير العديد من المواد الكيميائية الأخرى(٤).

---

(١) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٢٧٩- ٢٨٠.
(٢) الشوباشي، العرب والحضارة الأوروبية، ص٣٩-٤٠، ومجلة المورد ص ٢٤، وص٢٧١.
(٣) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٣٠٥.
(٤) سليمان، الفوز بالمراد، ص١٦٧.

وهو أول من لاحظ أن محلول نترات الفضة يكوّن مع محلول ملح الطعام راسبًا أبيض، وأن النحاس أكسب اللهب لونًا أخضر، ولقد ميز بين التقطير والترشيح.

وتوصل جابر بن حيان إلى نظريته التي تقول بأن الاتحاد الكيميائي يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة ببعضها، وهي ذاتها النظرية الذرية التي وُضعت بعده بألف سنة، وفي دراساته عن طبيعة المعادن فقد توصل إلى أن جميع المعادن عبارة عن دخان أرضي وبخار مائي، وتكثيف هذه الأبخرة في جوف الأرض ينتج الكبريت والزئبق وباجتماع هذين المعدنين ينتج المعادن الأخرى، والفرق بين المعادن الأساسية يرجع إلى الفرق بين النِّسب التي يدخل فيها الكبريت والزئبق في تكوينها ففي الذهب تكون النسب متعادلة، وفي الفضة يكون العنصران متساويين في الوزن.

أما النحاس ففيه من العنصر الأرضي أكثر مما في الفضة، والحديد والرصاص، والقصدير فيه من ذلك العنصر أقل مما في الفضة، وبما أن المعادن مكوَّنة من عناصر مشتركة؛ فإن تحويل بعضها إلى بعض يصبح أمرًا مستطاعًا، وعندما يقوم الكيميائي بهذا التحويل فإنه يؤدي في وقت قصير ما تؤديه الطبيعة بفترة أطول، وبلغ العلماء البغداديون الكيميائيون من الرقي ما دفع بالغرب اليوم إلى التشكيك في صحة التقدم الذي بلغته الخلافة العباسية بالإمكانيات البسيطة آنذاك.

وعن الروح التجريبية العلمية للعالم جابر بن حيان يقول المستشرق هولميارد: «إن التأمل غير المفيد والبعيد عن الملاحظة لم نشهده في عبقرية جابر بن حيان، الذي كان يفضل العمل داخل المعمل، تاركًا مجال الخيال، ولقد كانت وجهات نظره واضحة ومتقنة، وبسبب أبحاثه الدقيقة الشاملة استحق لقب (المؤسس الأول للكيمياء)، وعلى قواعد سليمة وأسس راسخة».

ويقول بول كراوس: «إن جابر بن حيان قد سار بالتراث الشرقي في الكيمياء في اتجاه أكثر تجريبيًا وتنظيمًا، وبعد به عن السرية والرموز -الذي صبغ به العلم لدى العلماء اليونان-».

وهذا ما كان يؤكد عليه جابر بن حيان في كتابه (التجريد) بقوله: «إن مِلاك كمالِ هذه الصنعة -الكيمياء- العملُ والتجربة، فمن لم يعمل ولم يجِّرب، لم يظفر بشيء أبدًا، ولأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل حتى إلى أدنى مراتب الإتقان، فعليك يا بني بالتجربة لتحصل على المعرفة»(١)، أي: التجربة من أجل المعرفة.

(١) لبيب، الكيمياء عند العرب، ص ٥٩، وص٨٣.



٤ - الفيزياء:

يقول برنارد لويس: «إن أوروبا تحمل دَيْنًا مزدوجًا للعرب أولاً: فقد حافظ العرب على التراث الفكري العلمي الذي خلفه اليونان، وتوسعوا فيه، ونقلوه إلى أوربا. وثانيًا: في تعليم أوروبا طريقة جديدة للبحث بوضع العقل فوق السلطة»[(١)].

ومن أولئك العالم الفيزيائي الكبير أبو الريحان البيروني، وُلد في خوارزم، وقدم بغداد، وكان من العلماء الموسوعيين، ومن اكتشافاته الفيزيائية تعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعًا من أنواع الحجارة الكريمة، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيحه، وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرقة، فضلاً عن برهنته لبعض المسائل الهندسية، ووضع قاعدة حسابية لتسطيح الكرة الأرضية[(٢)]، أي: نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس، وبهذا سهَّل رسم الخرائط الجغرافية، وهو أول من أشار إلى وجود الأمريكيتين بقوله: «ليس من المعقول أن تكون الأرض كروية وأحد جوانبها يابسة والآخر ماء لأنه يساعد على اختلال التوازن والدوران».

وكان سخاو العالم الألماني البارز يعتبر البيروني «أعظم عقلية عرفها التاريخ»، ويقول جورج سارتون: «إن البيروني من أعظم عظماء الإسلام ومن أكابر علماء العالم».

ومما قال البيروني نفسه في مدح العربية والعلوم والإسلام: «كل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم في علم أو عمل، اليونانيون قبل النصرانية موصوفون بفضل العناية في المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها.. وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتز لعلم غير الهند، ولكنَّ هذه الفنون خاصة عندهم مؤسَّسة على أصول مخالفة لما اعتدناه.. فديننا والدول عربيان وتوأمان... وكم احتشد طوائف من التوابع في إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم ينفق لهم من المراد سوق، وإلى لسان العرب نُقلت العلوم من أقطار العالم وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة.. ثم تنقل إلى العربية والفارسية، فأنا في كل واحدة دخيل، ولها متكلف، والهجو بالعربية

---

(١) أمين، مواقف فكرية، ص١١٢.

(٢) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٢٧٨.

أحب إليَّ من المدح بالفارسية».[١]

ويرى شاخت «أن شجاعة البيروني الفكرية وحبه للاطلاع العلمي، وبُعده عن التوهم، وحبه للحقيقة، وتسامحه وإخلاصه -كل هذه الخصال- كانت عديمة النظر في القرون الوسطى، فقد كان البيروني في الواقع عبقريًّا مبدعًا ذا بصيرة شاملة نافذة»[٢].

ومن العلماء البغداديين الفيزيائيين هبة الله بن ملكا البغدادي؛ حيث صحح الخطأ الذي وقع فيه أرسطو بسقوط الأجسام الثقيلة أسرع من الأجسام الخفيفة، وسبق جاليلو في إثبات الحقيقة العلمية التي تُفضي بأن سرعة الجسم الساقط سقوطًا حرًّا تحت تأثير الجاذبية الأرضية لا تتوقف إطلاقًا على كتلته، وذلك عندما تخلو الحركة من أيِّ معوقات خارجية، ودرس ونظر لحركة المقذوفات إلى الأعلى وعلاقتها بالجاذبية.

ومن أشهر كتبه (المعتبر في الحكمة) الذي قال فيه: «تزداد السرعة عند اشتداد القوة، فكلما زادة قوة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرك، وقصر الزمن لقطع المسافة المحددة»، وهو بالضبط ما نسقه نيوتن في قالبه الرياضي، وأسماه القانون الثاني للحركة.

أما قانون الحركة الثالثة لنيوتن «لكل فعل ردة فعل مساوية له في المقدار ومضادة له في الاتجاه»، فهو ما برهنه ابن ملكا والفخر الرازي وابن الهيثم قبل ذلك بقرون[٣].

ويُعدّ أبو يوسف يعقوب الكندي من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا علم الطبيعة وعلم البصريات، ومن كتبه (علم المناظر)، ومما تناول فيه الظواهر الضوئية وعالجها، وأضاف على نظرية الانبعاث وصفًا دقيقًا وطوّرها، فضلاً عن اشتغاله بالترجمة، وكان له تلاميذ يترجمون تحت إشرافه في قصر الخلافة في بغداد، يقول المستشرق كاردافو عن الكندي: إنه « أحد الاثني عشر عبقريًّا الذين هم في الطراز الأول من الذكاء»، ويرى باكون: «أن الحسن بن الهيثم مع الكندي في الصف الأول مع بطليموس»[٤].

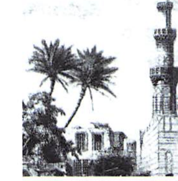
---

(١) المورد، ص٢٥٣.

(٢) طوقان، العلوم عند العرب، ص١٦٦.

(٣) السرجاني، ماذا قدم المسلمون ص١٨٧، ٢٦٤-٢٦٩.

(٤) طوقان، العلوم عند العرب، ص١٠٤.



٥- الحيل أو الهندسة الحركية:

يقول المستشرق غوستاف لوبون: «إن بغداد بلغت ذروة الرخاء في عهد الرشيد والمأمون، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً إلى بلاطها، وأرسل عاهل الغرب الحقيقي الإمبراطور شارلمان الذي لم يملك غير أناس من الهمج في أوروبا وفدًا ليلتمس الحماية لحجيج القدس من الرشيد، فأجابه الرشيد ورد إليه وفده مع هدايا عظيمة، ومن بينها ساعة دقاقة تدل على الوقت، وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها»[١].

وقد وصف مؤرخ قصر شارلمان (اليارد) وكذلك بعض المصادر العربية ساعة الرشيد فيقولون: إنها «ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة، تتحرك بواسطة قوة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد معين من الكرات المعدنية بعضها إثر بعض، بعدد الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة، فيسمع لها رنين موسيقي، يُسمع دويه في أنحاء القصر، وفي نفس الوقت يفتح باب من الأبواب الاثني عشر المؤدية إلى داخل الساعة، ويخرج منها فارس يدور حول الساعة، ثم يعود إلى حيث خرج، فإذا حانت الساعة الثانية عشر يخرج من الأبواب اثنا عشر فارسًا مرة واحدة، ويدورون دورة كاملة، ثم يعودون فيدخلون من الأبواب فتغلق خلفهم».

وظن رهبان القصر أن في هذه الساعة شياطين تحركها فانهالوا عليها بالبلاط حتى تحطمت ولم يجدوا فيها شيء مما قالوا، إلا أنه في عهد الخليفة المأمون أهدى إلى ملك فرنسا ساعة أكثر تطورًا تُدار بالقوة الميكانيكية بواسطة أثقال حديدية معلقة بسلاسل بدل القوة المائية»[٢].

ومن أمهر أولئك المهندسين العباسيين أولاد موسى بن شاكر وهم (محمد وأحمد والحسن) الذين قدموا اختراعاتهم لآلات الري وآلات رفع الماء إلى أعالي الجبال، واختراع الساعات الدقيقة، وقد ألفوا فريقًا علميًّا جماعيًّا، وألفوا كتاب الحيل وهو يتحدث بصيغة الجماعة، فقد كان محمد عالمًا في الهندسة، وأحمد عالمًا في الفلك، والحسن عالمًا في الميكانيك، وكانوا دائمًا ما يتحدثون بصيغة الفريق

(١) لوبون، حضارة العرب، ص١٧٢.

(٢) هونكه، شمس العرب، ص١٤٢؛ علي، الإسلام والحضارة العربية ج١ ص٢٢٦؛ السرجاني، ماذا قدم المسلمون ص٦١٥.

«نريد أن نبين كيف نعمل جرة لها بزال مفتوح، إذا صبَّ فيها الماء لم يخرج من البزال شيء، فإذا انقطع الصبُّ خرج الماء من البزال، فإذا أعيد الصب انقطع أيضًا، وإن قُطع الصب خرج الماء، وهكذا»[١]، وهذا يدل على نضج فكرة العمل الجماعي المتناسق عند العالم البغدادي.

ومما يجدر ذكره أن عالم الحيل -الميكانيك- المسلم بديع الزمان أبا العز إسماعيل بن الرزاز الجزري[٢]، من علماء القرن السادس الهجري، يُعدُّ أول من أدخل (الرجل الآلي) إلى الخدمة المنزلية، فقد صنع لأحد الخلفاء آلة على هيئة غلام منتصب القامة، وفي يده إبريق ماء وفي اليد الأخرى منشفة، وعلى عمامته يقف عصفور، فإذا حان وقت الصلاة يصفر الطائر، ثم يتقدم الخادم نحو سيده، ويصب الماء من الإبريق بمقدار معين، فإذا انتهى من وضوئه يقدم له المنشفة، ثم يعود إلى مكانه والعصفور يغرد، حتى كان أعجوبة زمانه، كما صنع مكاتب تعمل بالرقم السري[٣].

ومن الساعات البغدادية أيضًا ما صُنع على هيئة الدُّمَى لتشير إلى مرور الوقت، مثل طيور تقذف من مناقيرها كرات صغيرة فوق صنوج أو أبواب تفتح ليخرج منها أشخاص، أو دوائر بروج تدور، أو موسيقيين يقرعون الطبول وينفخون الأبواق، فضلاً عن صناعة المكابس الأسطوانية لرفع المياه وهي المرحلة الأولى للآلات البخارية التي صنعت فيما بعد[٤].

يقول لوبون: «إن الفنون الصناعية شائعة بين العرب في كل مكان، وإن الأشياء التي صنعها العرب صنعوها بروعة تدل على اتصاف أحقر صناعتهم بالذوق الفني»[٥].

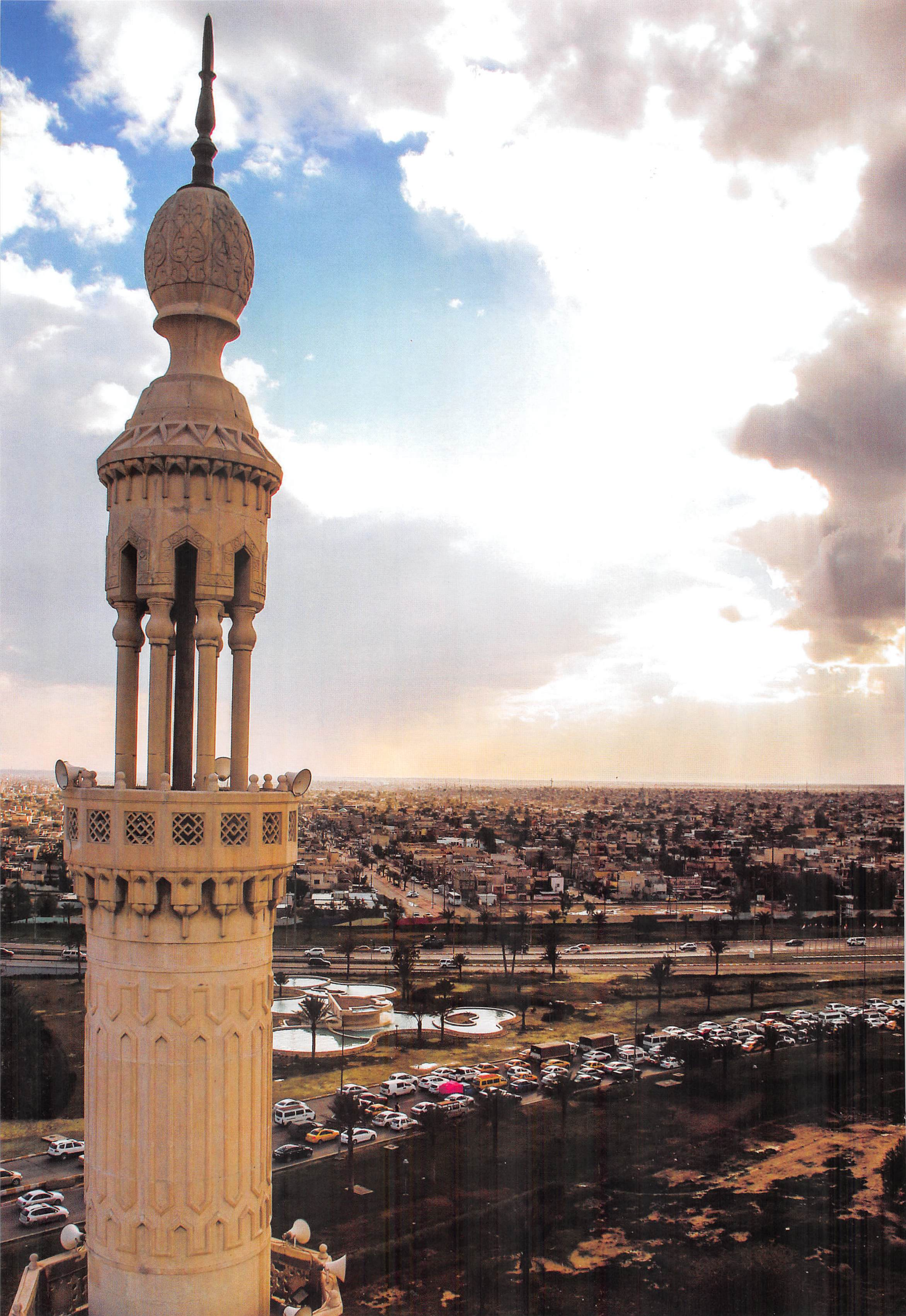
ويقول جوناثان ليونز: «أدى الفتح الإسلامي وبناء الإمبراطورية إلى استعادة الروابط القديمة بين المراكز التاريخية للحضارة على رقعة واسعة جدًّا من الأرض، فأوجد هذا بوتقة نفيسة لصهر

(١) بنو موسى، كتاب الحيل ص٥٧.
(٢) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٦١٥.
(٣) عن كتاب الجزري، الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، وقد ترجم دونالد هيل هذا الكتاب إلى الإنجليزية عام ١٩٧٤م، ووصفه مؤرخ العلم المعاصر جورج سارتون بأنه أكثر الكتب من نوعه وضوحًا، ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من الإنجازات التقنية للمسلمين، ينظر، أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي الإسلامي، ص٣١.
(٤) السرجاني، ماذا قدم المسلمون، ص٣٣٠.
(٥) لوبون، حضارة العرب، ص٥٠٧.



التقاليد التي كانت قد أجبرتها الانقسامات السياسية على التباعد لقرون.. فكان -في بغداد- المسلمون والنصارى، واليهود والمجوس، والصابئة عبدة النجوم، ووثنيون آخرون من فئات مختلفة قادرين على تبادل الأفكار والتثقيف».

اللهم احرس بغداد وأهلها، وأبقها أم الدنيا وسيدة البلاد.




بسم الله الرحمن الرحيم
﴿هو الذي ارسل رسوله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون﴾



الحيدر خانة من المساجد الأثرية في بغداد



الفصل الرابع

بغداد بعد عام ٢٠٠٣م



تعرضت بغداد لغزو وعدوان واحتلال من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها ، واتخذت من العامل الديني غطاء لشرعنة قوانين الاحتلال.





هل التاريخ يعيد نفسه؟ أم أن لحركة التاريخ سننًا وقوانين من أدركها ملك أدوات التحكم والتغيير، وإلا فإن المشهد التاريخي سيعود عليه من جديد، وهذا في المفهوم الإسلامي هو الخذلان المبين، فالمؤمن «لا يُلدَغ من جُحْر واحد مرتين»؛ كما يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فالسنن الكونية وقوانين حركة الجماعات والأمم تخضع لنظام رباني دقيق لا يعتريه التبديل والتحويل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً. فهل من معتبر؟!

وها هي بغداد في عام ٢٠٠٣م تخضع لقوانين الاحتلال بخطواته نفسها التي مرت عليها في الحقب الماضية؛ إذ تعرضت بغداد إلى غزو وعدوان واحتلال من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، واتخذت من العامل الديني غطاءً لشرعنة قوانين الاحتلال، ولعب دورًا مهمًّا وبارزًا منذ أن أعلن الرئيس الأمريكي بوش الابن الحرب على العراق، وأعلنها صراحة أنها حرب صليبية.

وفعلاً كانت كذلك ليس فيما يخص قوات التحالف الغربي الصليبي بقيادة أمريكا فحسب، وإنما الأمر سار على حلفائها من الشيعة ممن ساندوا الاحتلال، وأغروه بدخول بغداد متقمصين شخصية الوزير ابن العلقمي، ومنعوا مقاومته متقمصين شخصية المرجع الشيعي نصير الدين الطوسي الذي عرف آنذاك بباب المذهب الشيعي، وذلك بفتوى من المرجع الشيعي الأعلى السيد السيستاني، والتي جاء تأكيدها فيما كشفت عنه وثائق ويكليلكس، من أن رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي الأسبق إبان الاحتلال قد دفع للسيستاني مبلغ ٢٠٠ مليون دولار لإصداره هذه الفتوى[١].

وبالمقابل نجد أن الدين الإسلامي كان الدافع الأكبر لأهل السنة في التصدِّي للاحتلال، ومن جاء معه، كما كان العامل الديني والطائفي سمة من سمات الحكومات المتلاحقة من مرحلة الترشيح والدعاية الانتخابية إلى تشكيل الحكومات وفق نفَس طائفي، والتي أخذ البعد الطائفي فيها صورة للتمييز بين العراقيين؛ حيث إن «ازدواجية التعامل» هو سمة من سمات حكومات الاحتلال الخمسة على الرغم من كل ما أشيع عن حكومة وحدة وطنية، أو شراكة وطنية وغيرها من هذه التسميات، إلا أن الواقع يتحدث عن حكومات طائفية، وتعتبر الطائفية هي هدفها الرئيس والمهم لتحقق رضا من انتخبها، وبخاصة المليشيات التي لولاها لما استطاعت حكومة المالكي والعبادي الحصول على الثقة، وهو ما تصرح به المليشيات ليلاً ونهارًا.

(١) وهذه الصورة تكررت في الحملات الصليبية الأولى، وكيف تعاون قادة الدولة الفاطمية الشيعية مع الصليبيين لتمكينهم من احتلال بيت المقدس.


برج القشلة: مقر الحكومة العراقية في العهد الملكي

بهذه العقيدة التي جاءت بها الحكومة كان يتم التعامل مع السنة في بغداد وغيرها، باعتبارهم الأعداء التاريخيين للشيعة والصفويين، واتخذ الصراع في العراق والمنطقة الشكل الديني- الطائفي، وذلك منذ وقت مبكر، «وتجلى مع بدء ظهور الدولة الحديثة، فقبل هذا الوقت كان الصراع بين الدولة الفارسية والعرب، ثم مع المسلمين في عصر الخلافة الراشدة، ومن بعدها مع الدولة العثمانية، وإن أخذ بُعدًا قوميًا في ظاهره أو على الأقل من طرف السُّنة، وحتى عندما تشكلت الدولة العراقية الحديثة وإلى وقت قريب كان الأمر بهذا الشكل، ولكنه بعد أن استلم الملالي الحكم في إيران بدأت معه فكرة المظلومية، واغتصاب الخلافة، وهي من الأكاذيب التي استطاعت الدولة الفارسية توظيفها في تقوية سلطانها، وتغذية أذرعها في دول المنطقة حتى أصبحت دولاً داخل الدول.

واتخذ البُعد الطائفي الذي يستظل بحراب قوات الاحتلال الغربية الصليبية شكلاً بشعًا، ليس فقط على مستوى إدارة الدولة وتقديم الخدمات، وإنما بما يتعلق بحياة الناس ووجودهم، من خلال القيام بعمليات عسكرية وصفت في أكثرها بالإبادة، وبعمليات تغيير ديمغرافي تقوم على القتل الجماعي، والاعتقالات الممنهجة والعشوائية، والتهجير المدروس، والاستنزاف الاقتصادي، لأبناء السنة في بغداد وسائر المحافظات السنية، فضلاً عن ذات الأغلبية الشيعية.

بغداد والعمليات العسكرية:(١)

إن الحفاظ على الهوية السنية لبغداد لم يكن بالمهمة اليسيرة؛ إذ إنها محفوفةٌ بالمخاطر والتداعيات الدموية، ويمكن أن نجمل التحديات التي واجهتها بالآتي:

١- المنهجية الفوضوية التي جاءت بها قوات الاحتلال.

٢- تحالف الأكراد والشيعة مع القوات الأمريكية المحتلة، مما جعل أهل بغداد بين كماشتين ومطرقة.

٣- حرص الميليشيات الشيعية ذات الأجندة الإيرانية على اغتنام الفرصة في تصفية حساباتهم مع أهل السنة في بغداد، عن الماضي والحاضر والمستقبل الذي حدَّدته لطموحاتها.

---

(١) سنعتمد في مادة هذه الفقرة على كتاب العرب السنة في العراق لمجموعة باحثين، الفصل الثاني، ص١٣٦-١٨٠، وكتاب المقاومة الإعلامية للرواشدي، ص ١٤٣- ١٩٢.

٤- النفوذ الأجنبي الذي وجد في بغداد ساحةً مستباحة، فعمل على الانتقام والتغلغل، وكان جلّ هدفهم سُنَّة بغداد الذين يرونهم أزلام النظام السابق، ولا سيما ما قامت به إيران وحتى إسرائيل.

٥- تحدِّي القوات المسلحة العراقية التي بنيت على المحاصصة الطائفية، وغلَّبت مصالح الفئات التي تنتمي إليها، ولاسيما الشيعة والأكراد على مصالح الوطن الواحد.

وعلى ضوء ذلك أصبح السنة في بغداد وغيرها من المحافظات ذات الأغلبية السنية هدفًا عسكريًّا لأغراض شتى: لهويتهم ولعقيدتهم، ولكفاءتهم، ولحرصهم على وحدة العراق وهويته.

ومع ذلك فقد انطلقت المقاومة السنية ضد الاحتلال الأمريكي لبغداد منذ أيامه الأولى، وتشير المصادر الإعلامية أن أولى العمليات بعد احتلال بغداد في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣م، كانت في قلب العاصمة بغداد، وتحديدًا في مدينة الأعظمية.

وتواصلت المقاومة طوال سنوات الاحتلال (٢٠٠٣- ٢٠١١م)، على الرغم من التحديات التي واجهتها، والمخاطر التي أحاطت بها، وقلة الدعم المقدم لها، وتعرضت القوات الأمريكية خلالها كما تشير بعض الدراسات إلى أكثر من (١٨٨٦٠٠) عملية عسكرية.

وتم إلحاق الهزيمة بالقوات الأمريكية؛ مما دفعها إلى الانسحاب من العراق نهاية عام ٢٠١١م، وبعد الخسائر الكبيرة التي تكبدتها هذه القوات المحتلة، وإذا كانت بعض المصادر المختصة أو المتابعة (ومنها جمعية المحاربين الأمريكيين القدامى) تشير إلى أن عدد قتلى قوات الاحتلال تجاوز ٤٠ ألف قتيل وتسعة أضعاف هذا العدد من الجرحى، و٥٠٠٠ حالة انتحار و٨٠٪ من الجنود يعانون أمراضًا نفسية أدناها الكآبة، فإنه وفي دراسة استقصائية تؤكد أنه بحلول تشرين الأول ٢٠٠٧م، كان قد نُشر (٥٦٤٧٦٩) من أصل (١٦٤١٨٩٤) عسكريًّا مرتين أو أكثر للقتال في حربي العراق وأفغانستان، وخرج (٧٥٠٠٠٠) جندي من الحرب بين جريح ومعوق وقتيل ومسرَّح من الخدمة لأسباب صحية ونفسية.

وإذا أضفنا إلى هذه الأرقام إحصائيات الأعوام ٢٠٠٨م و٢٠٠٩م و٢٠١٠م و٢٠١١م؛ فإن عدد القوات المشاركة في هاتين الحربين تجاوزت مليوني مقاتل، ونتائجها البشرية أكثر من مليون بين قتيل ومصاب (وقد توقع جوزيف ستيلغتز في دراسته «حرب ٣ تريليونات» أن يصل عدد الجنود



المشاركين إلى مليونين و١٠٠ ألف جندي، وعدد المعاقين إلى ٨٥٠ ألف معاق ومصاب في حين تتوقع مصلحة شؤون الجنود المسرحين تسلم مليون و٦٠٠ ألف دعوى جراء هذه الحرب).

وإذا كان مقررًا لدى الطبابة العسكرية أن نسبة الإصابات في الحروب ١/ ٣ أي كل قتيل يقابله ٣ جرحى؛ فإن إحصائيات حديثة اعتمدها جوزيف ستيلغتز تشير إلى أن الإصابات في العراق وأفغانستان كانت نسبة القتلى ١/ ٧ جرحى في العمليات القتالية، ومع ما تسميهم القتل والإصابة خارج العمليات بحوادث غير قتالية يصل إلى نسبة القتلى ١/ ١٥ جريحًا، وهم ممن أصيبوا بجروح وأضرار بدنية وذهنية وأمراض في العراق وأفغانستان إثر تحطم المركبات والطائرات وغيرها من الإصابات، وتشير التقارير نفسها إلى أن ٩٠٪ من القتلى والإصابات حدثت في العراق.

ومما سبق يمكن أن نصل إلى رقم تقريبي للخسائر البشرية للقوات الأمريكية في العراق، فإن مليون إصابة مع نسبة ١/ ١٥ يكون عدد القتلى ٦٦٦٦٦ قتيلاً، وإذا أخذنا نسبة ٩٠٪ من الإصابات في العراق فتكون خسائر القوات الأمريكية في العراق ٦٠ ألف قتيل، علمًا بأن المصادر المناهضة للاحتلال الأمريكي في أفغانستان تشير إلى أن عدد قتلى قوات الاحتلال في أفغانستان نحو ٢٠٠٠ قتيل، أدركنا شدة الجحيم الذي وقعت فيه أمريكا بالعراق.

وبذلك استنزفت المقاومة السنية الولايات المتحدة اقتصاديًّا؛ إذ يقدر خبير الاقتصاد الأمريكي جوزيف ستيلغتز تكلفة الحرب على العراق بما يقرب من ٣ تريليونات دولار على عاتق الولايات المتحدة وحدها، وربما يتضاعف هذا الرقم مرتين إذا ما حُسبت معها الكلفة التي سيتكبدها بقية العالم، وبلغت المديونية التي تعاني منها الميزانية الفيدرالية ١٠ ترليونات دولار حتى نهاية عام ٢٠٠٧م، مع ضرورة تسديد الفوائد المترتبة عليها، ناهيك عن الفوائد عن القروض المستقبلية التي يستوجب دفعها، وقد تضاعفت أسعار البترول ثلاث مرات مما يرفع مقدار العجز بمقدار ١٢ بليون دولار بالسنة الواحدة.

وأوقعت المقاومة السنية الإدارة الأمريكية في مأزق ستبقى تعاني منه طويلاً ليس على المستوى العسكري، وإنما على كافة المستويات السياسية والمالية والأخلاقية أيضًا، ولا سيما أنها عوَّلت على هذه المعركة كثيرًا، يقول هنري كيسنجر: «إن خسارة أمريكا في العراق معناها خسارة الغرب كله لكل ما حققه في الخمسة قرون الأخيرة».

وقريب من هذا ما صرح به توني بلير.

ويقول رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة: «إن انتصار أمريكا على المقاومة العراقية يساوي أو يزيد في أهميته عن الانتصار في الحرب العالمية».

ويقول أحد الباحثين: «أسقطت المقاومة (العراقية) هيبة أمريكا، واستنزفت قوتها العسكرية وأنهت حلمها الإمبراطوري».

أما السيناتور الأمريكي تشاك هاجيل فقد قال في كتابه: «أمريكا.. فصلنا القادم»: «إن حرب العراق ستظل واحدة من أكبر خمس حماقات في التاريخ البشري».

في حين صرح السّيناتور الديمقراطي جاك ريد بأن «الولايات المتحدة في حاجة ماسة إلى اعتبار خيار الخروج (الهروب) من العراق لا رجعة فيه».

وجاء في تقرير أعده المعهد القومي للدراسات الإستراتيجية في كلية الدفاع الوطني الأمريكية، أن الحرب في العراق كلَّفت الولايات المتحدة خسائر باهظة في الأرواح والأموال والسياسات أيضًا.

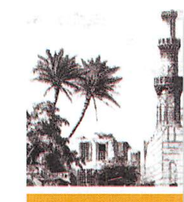
وإذا كان الاحتلال العسكري الأمريكي قد انتهى بانسحاب قواته من بغداد في عام ٢٠١١م، إلا أن تداعياته على بغداد لم تنته بعدُ، فالإدارة الأمريكية لم تُسقط بغداد من حساباتها وتكتيكاتها، كما أن التحديات الأخرى بلغت مرحلة من التحكم في إدارة بغداد والسيطرة على مفاصل الحكم فيها، مما جعلت المشهد الأمني لمدينة بغداد من أعقد المشاهد وأكثرها دموية، وأبعدها عن المعاني الإنسانية، وكان نصيب أهل السنة في ذلك كبيرًا جدًّا.

بغداد والطائفية الأمنية:

العراق في ظل الاحتلال يعد أخطر بلد في العالم لثلاث سنوات متوالية في تصنيف بلدان العالم من حيث استتباب الأمن والسلام فيه[(١)]، ويحتل من بين ١٨٠ دولة على مستوى العالم؛ المركز الثالث لأكثر الدول فسادًا في العالم، بعد الصومال وميانمار[(٢)]، وأما بغداد فتقع في أسفل قائمة مدن العالم؛

(١) تصريح لممثلة اتحاد الأسرى والسجناء السياسيين العراقيين المحامية سحر الياسري في حوار على هامش مؤتمر نظمته اللجنة العالمية لمناهضة العزل بالتعاون مع جامعة بروكسل الحرة بعنوان إرهاب الحرب الأمريكية على الإرهاب ٢٠٠٧م.

(٢) وفقًا لتقارير صادرة عن وزارتي التخطيط والعمل والشئون الاجتماعية الحكوميتين لسنة ٢٠٠٨م.



كأسوأ مدينة من حيث جودة ومستوى المعيشة عام ٢٠١٠ م[١].

وقد حاولنا جاهدين أن نحصل على إحصاءات خاصة ببغداد تتعلق بالجانب الأمني، ولكننا لم نفلح في ذلك إلا يسيرًا، فاعتمدنا الإحصاءات المتعلقة بالعراق، ثم إن هؤلاء الضحايا اختلط حالهم، فمنهم مهجَّرون من بعض أحياء بغداد، إلى المحافظات السنية، وبعضهم مهجَّر من المحافظات إلى بغداد، ولكن القاسم المشترك لأكثرهم أنهم من العرب السنة.

بلغ عدد ضحايا الغزو الأمريكي للعراق، سواء على يد قوات الاحتلال أو القوات الحكومية أو الجماعات المسلحة، حتى انسحاب القوات الأمريكية في عام ٢٠١١م، مليونين و٣٨٥ ألف عراقي[٢]، وبلغ عدد المهجرين في داخل البلد ٢،٧٧ مليون عراقي و٣ ملايين إلى خارجه، منهم ٢٠ ألف طبيب مما يشكِّل حوالي ثلث أطباء العراق[٣].

ويمثل العراقيون الجنسية الأكبر من حيث عدد طلبات اللجوء في دول العالم وقد وصلت إلى أكثر من ١٣ ألفًا خلال النصف الأول من هذا العام فقط[٤].

ودخل ظلم الطائفية في كل مجالات الحياة، وبلغت ذروتها في استهداف أبناء أهل السنة ببغداد وغيرها من المدن السنية، فتمت محاكمتهم ومصادرة حقوقهم في الدفاع عن أنفسهم، بل جرت عليهم الأحكام العرفية تحت قانون الإرهاب سيئ الصيت، فكان القتل على الهوية والاتهامات توجَّه لأهل مناطق محددة، والامتيازات مقتصرة على الفئات والأحزاب التي جاءت مع الاحتلال أو تبنت مشاريعه.

وإذا عدنا إلى لغة الأرقام لوجدنا آثار الاحتلال في نسف قيمة العدل وتبني الظلم مهولة، فإن

---

(١) منظمة أوكسفام الدولية في تقرير لها صدر في تموز/ يوليو ٢٠٠٧م.

(٢) رَصْد الدكتور جديون بلويا معتمدًا على رصد منظمة السياسة الخارجية المشتركة العادلة في إحصائية لها اعتمدت فيها على أرقام استقتها من المستشفيات وأقسام الشرطة والهيئات والمنظمات الإنسانية والصحية الدولية العاملة في العراق، وعبر مسح شامل لجميع الأراضي العراقية، إضافة إلى معهد UK ORB ومجلة لانست والقسم السكاني في الأمم المتحدة؛ صدرت في ٥/ ٣/ ٢٠٠٩م، وألحقنا بها إحصاءات جديدة لغاية ٢٠١١م.

(٣) منظمة الهجرة الدولية في تقرير لها صدر سنة ٢٠٠٨م.

(٤) دانييل أندرسون ممثل المفوضية العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة في العراق في تصريح لوكالة فرانس برس في ١١/ ٥/ ٢٠١٠م، ونشرته صحيفة القدس العربي في ١٢/ ٥/ ٢٠١٠م.

نسبة ٥٩٪ من المعتقلين دخلوا المعتقلات جراء خلافات شخصية ودعاوى كيدية[١]، أو نتيجة استمرار الاعتقالات العشوائية التي تنفذها قوات الاحتلال والقوات الحكومية يوميًا[٢].

وبلغت نسبة التعذيب في المعتقلات ١٠٠٪، كما يلي: جميع المعتقلين تعرضوا لنوع واحد أو أنواع عدة من التعذيب، ولم يُقدم أيٌّ منهم لمحكمة، وإن تم التحقيق مع البعض منهم، وإن ٨٧٪ منهم لا يعرفون سبب اعتقالهم، وإن مدة احتجازهم تراوحت بين ثلاثة أشهر و(عشر سنوات)، وإن ٨١٪ منهم لم يحظوا بأية زيارة من أقاربهم أو ذويهم[٣].

وخلال عام ٢٠٠٩م نفذت السلطات الحكومية حكم الإعدام بما لا يقل عن (١٢٠) عراقيًا جلهم من العرب السنة، فيما ينتظر (٩٠٠) آخرون المصير ذاته، ومن بينهم (١٧) امرأة، وإن العديد من المحكومين بالإعدام أُدينوا خلال محاكمات غير عادلة بناء على اعترافات انتُزعت بالقوة أو ممارسة التعذيب، وكانت قد صدرت أحكام بإعدام نحو (٢٨٥) شخصًا خلال عام ٢٠٠٨م، كما صدرت أحكام مماثلة عام ٢٠٠٧م بحق (١٩٩) شخصًا، في حين تم إعدام (٦٥) شخصًا عام ٢٠٠٦م[٤].

ولا يزال مسلسل الإعدام مستمرًا لاسيما في الولاية الثانية لنوري المالكي؛ إذ استغل نائب رئيس الجمهورية خضير الخزاعي انفراده بالرئاسة ليتولى التصديق على أحكام الإعدامات، وبتوجيه من المرشد خامنئي.

وامتدت الطائفية تحت ستار الاحتلال والنفوذ الإيراني والميليشيات إلى مصادرة الحريات وتكميم الأفواه بل تمزيقها، وتجاوزت مرحلة قمع الحرية الإنسانية والاجتماعية على حد سواء إلى إسكاتها بالنار والحديد، والنيل من الكرامة.

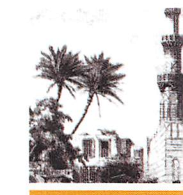
وإذا انتقلنا إلى لغة الأرقام وديوان الإحصاء لهالتنا ضخامتها، ففي العراق أكبر عدد سجون في العالم بلغت (٣٦) سجنًا، عدا سجن أبو غريب الذي يُعد الأرحم من بينها، رغم فضائحه الفظيعة،

(١) لجنة الأسرى والمعتقلين التابعة للمنظمة العراقية للمتابعة والرصد في إجابات حصلت عليها من عدد من كان معتقلاً، وأطلق سراحهم نشر على موقع المنظمة بتاريخ ٩/ ٥/ ٢٠٠٨م.

(٢) منظمة العفو الدولية في بيان لها عن حقوق الإنسان في العالم، بتاريخ السبت ٥/ ١٢/ ٢٠٠٩م.

(٣) حنين القدو عضو لجنة حقوق الإنسان في البرلمان الحكومي في مؤتمر صحفي عقد في قصر المؤتمرات بتاريخ ٢٥/ ١/ ٢٠١٠م.

(٤) «محمد الدايني» النائب في البرلمان الحكومي في شهادة أدلى بها في «جنيف ـ سويسرا» تؤكد بالإثباتات القطعية وجود سجون سرية في العراق، بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ٢٠٠٨م.



وتضم هذه السجون (٤٠٠ ألف) معتقل منهم (٦٥٠٠) حدث و(١٠ آلاف) امرأة[١]، وأكثر من (٤٢٠) مركز اعتقال سري في العراق تجري فيها انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان، من قِبل قوات الاحتلال، أو من قبل السلطات الحكومية بمختلف طوائفها[٢].

وتضم ما يزيد عن (٣٥٠٠) معتقل في أماكن سرية تابعة لوزارة الداخلية، يُمارَس ضدهم التعذيب اليومي المبرمَج، حتى أصبحوا مستعدين للاعتراف بأية جريمة خلاصًا من تعذيب لا يطاق[٣].

وإن آلاف العراقيين ما زالوا يُقتادون إلى أماكن غير معروفة، استنادًا إلى الشبهات وبغية الابتزاز من دون تُهَم أو أوامر إلقاء قبض[٤].

وإن أغلب المحتجزين تعرَّضوا للتعليق من أرجلهم، وحُرموا من الهواء، وتعرضوا للركل والضرب بالسياط والأيدي، والصعق بالكهرباء والاغتصاب، في إجراء منهجي متكرر على أيدي المحققين، وقال الكثيرون منهم: إنهم أُجبروا على التوقيع على اعترافات كاذبة[٥].

بغداد والطائفية السياسية:

إن تغليب أمريكا في ظل سياسة أحادية القطبية لمصالحها، والاستعلاء على الآخرين، وعدم مراعاتها لطبيعة المجتمعات العربية والإسلامية - جهلاً أو غرورًا- وتلقيها صفعة في عقر دارها متمثلة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر أيلول ٢٠٠١م، دفعها إلى تبنّي سياسة نسف الدول، وإنهاء سيادتها واستقلالها، ضمن مشاريع التجزئة التي أعدت مسبقًا في مؤسساتها الخاضعة للوبي الصهيوني، وعملت في ظل حربها العالمية على ما أسمته الإرهاب على تشجيع التجزؤ السياسي للدول المتعددة الأعراق والديانات والطوائف، ولاسيما في الدول التي شهدت تراجعًا في السلطة المركزية، وتململ الأقليات، واصطناع مظلومية «الخوف على الوجود»؛ مما دفع إلى إعادة تغذية صراع الهويات، بل

---

(١) دوغلاس ستون قائد المعتقلات الأمريكية في العراق في لقاء مع قناة CNN الإخبارية، في ٥/ ٥/ ٢٠٠٨م.

(٢) عدد من التقارير الدولية الرصينة، ومنها تقرير لـمنظمة «هيومن رايتس ووتش الأمريكية»، الصادر في ٢٠١٠م.

(٣) طارق الهاشمي نائب رئيس الجمهورية في تصريح رسمي له بتاريخ ١١ / ١ / ٢٠١٠م.

(٤) منظمة هيومن رايتس ووتش في مقابلة لها لـ ٤٢ سجينًا بمركز احتجاز الرصافة في ٢٦ أبريل/ نيسان ٢٠١٠م. وكانوا من بين ٣٠٠ محتجز نُقلوا من مركز احتجاز سري في مطار المثنى غربي بغداد.

(٥) منظمة العفو الدولية في تقرير لها نشر بتاريخ ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٨م.

تشكيل الدول على أساسها، وبناء النظام السياسي الحاكم عليها كما حدث في بغداد بعد عام ٢٠٠٣م.

لقد أصبح النظام السياسي في بغداد بعد الاحتلال تهيمن عليه سياسة الهوية الثانوية، وتجذرت فيه القوميات والانقياد للسلطة الدينية، والتمسك بالأصول العرقية، في ظل تغييب مدروس للهوية العراقية.

إن تغذية تسيس الأفكار المرتبطة بالانتماء العرقي أو الطائفي على نطاق واسع، وبصورة تقسيمية، أدى إلى تجزئة أجهزة الدولة على أساس عرقي وطائفي، كما أصبح الوضع في العراق يناقش ويبنى مع التركيز بصورة متزايدة على مسألتين أساسيتين: الأولى هي الدين والطائفة، والثانية هي العرق[1].

يقابل ذلك استهداف كل من يبحث، ويسعى إلى التأسيس على الهوية الجامعة، المتمثلة بالهوية العراقية، مما عقَّد المهمة الملقاة على أهل السنة في بغداد الذين عملوا على إعادة السيادة للعراق من أجل الحفاظ على وحدته، وتكامل نسيجه، وعلى هويته العربية والإسلامية، وفي الوقت نفسه مثلت الضريبة التي وجب على أبنائهم تحمل تبعاتها في ظل تنصل الآخرين عنها.

تدمير دولة لا نظام سياسي:

كان من أهداف قوات الاحتلال الأمريكي وحلفائهم ومؤيديهم من الأحزاب الشيعية هو تدمير الدولة العراقية في العاصمة بغداد، وليس فقط إزالة النظام السياسي والحكومة في العراق، ولذا صاحَب احتلال العراق: النهب والسلب، وتدمير مؤسسات الدولة بصورة شاملة وجذرية، ولم يسلم من ذلك إلا وزارة النفط.

ثم تبع ذلك حل المؤسسات العسكرية والأمنية والإعلامية، واستهداف الكفاءات العراقية العلمية تحت سياسة اجتثاث البعثيين، ففي ١٥/ ٥/ ٢٠٠٣م أصدر الحاكم المدني بول بريمر القرار رقم واحد لسلطة الائتلاف المؤقتة بمنع الأعضاء في المستويات الأربعة الأعلى لحزب البعث من تولي مناصب حكومية، بما يعني تطهير الإدارة الجديدة من نحو ٤٠٠ ألف عنصر، وفي ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٣م أصدرت سلطة الائتلاف القرار رقم ٢٢ القاضي بحل الجيش العراقي وملحقاته، والذي يعني تسريح ٣٥٠ ألف جندي مدرب ومسلَّح ليصبحوا عاطلين عن العمل، ثم قرار حل وزارة الإعلام وتسريح

---

(١) ستانسفيلد، جاريث، العراق، الشعب والتاريخ والسياسة، ٢٠٠٩م، ص ٥٩ بتصرف.



العاملين فيها، وقد جابَه أهل السنة في بغداد بالرفض الشعبي والجماهيري لهذين القرارين؛ لأنهما أزالا البنائين الوحيدين اللذين كانا بحق عراقيين وليسا طائفيين كما عبر بعض الباحثين[(١)].

ولأن ذلك سيؤجِّج الروح الانتقامية بين أبناء الشعب، ويحرم الدولة من كفاءات ليس لها ذنب سوى الانتماء إلى حزب فُرض عليهم بالقوة، وسيجعل بناء المؤسسات بالمستقبل مبنيًّا على الطائفة والعِرق وليس على الكفاءة والإخلاص للوطن.

ثم شكَّل الحاكم المدني بريمر مجلس الحكم في ١٣/ ٧/ ٢٠٠٣م، وعلى الرغم من رفض العرب السنة لتشكيل مجلس الحكم في ظل الاحتلال، إلا أن الحزب الإسلامي العراقي رضي لنفسه بدخوله ممثلاً برئيسه الدكتور محسن عبدالحميد وهو كردي القومية.

ويمكن أن نحدد الدوافع وراء رفض سنة بغداد لمجلس الحكم بالآتي:

١- إن المجلس شُكِّل بقرار من الحاكم المدني الأمريكي للعراق بول بريمر، وهو بلا شك سيخضع له ولسلطة الائتلاف المؤقتة، فهو ينفذ أجندات قوات الاحتلال، وكان الحاكم الأمريكي كثيرًا ما ينذر أعضاء المجلس، ويذكِّرهم بأن لا صلاحيات لهم، وعليهم الرجوع إليه قبل إصدار قرارات أو بيانات تندمون على نشرها؛ على حد تعبير بريمر[(٢)].

٢- إن هذا المجلس بصورته التي قام عليها لم يؤسِّس لثقافة الطائفية وتداعياتها الدموية على المشهد العراقي بكل تفاصيله فحسب، وإنما مرر كذبة روَّجت لها الولايات المتحدة الأمريكية وطبَّل لها الإعلام الشيعي، وهي مسألة الأغلبية الشيعية، فقد تألف المجلس من ٢٥ شخصية اختارها بريمر وهي كالآتي (١٣ شيعيًّا و٦ أكراد و٤ عرب سنة وآشوري وتركمانية)، وبسببه تحولت الحياة السياسية في العراق -كما يقول باحث بريطاني- إلى أساس مصلحي وطائفي[(٣)].

٣- لهشاشته وقيامه على أناس نفعيين لا يفكرون إلا بمصالحهم الشخصية أو الفئوية، ولا يراعون مصالح العراق، ولا يراعون تطلعات المجتمع، وهيمنت الأجندات الخارجية التي تمثل مصالح دول

(١) ستانسفيلد، لجاريث العراق، ص١٨٥.

(٢) الدفاعي، أحمد الحاج هاشم، العراق تحت الاحتلال، ص٩.

(٣) ستانسفيلد، لجاريث العراق، ص١٨٦.

بعينها على أعمال المجلس الذي شكلت الأحزاب الشيعية أبرز أعضائه، فيما عكف الأكراد على تقرير قضيتهم المتمثلة في تحقيق الحكم الذاتي لشمال البلاد، ولُوحظ غياب أيٍّ من الأعضاء العرب السنة الذين يحظون بقدر من التأييد الشعبي[(١)].

وفي مسرحية هزيلة أخرجتها القوات الأمريكية لإعطاء مسحة عراقية لإدارة شئون العراق، قامت بتشكيل حكومة انتقالية في بغداد في ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٤م، انتهت رئاستها إلى إياد علاوي، وأما عن موقف أهل السنة من تشكيل هذه الحكومة، فقد عبَّر عنه أحد المحللين السياسيين بعبارة موجزة: «وفي تلك الأثناء ظل العرب السنة بصورة لافتة غير ممثلين في المفاوضات التي سبقت تشكيلها».

وتولى إدارة ملفاتها صوريًّا بعض الوزراء العراقيين، وفعليًّا المستشارون الأمريكيون في كل وزارة، وكان أبرز مهام هذه الحكومة: الإعداد لإجراء انتخابات لتشكيل أول جمعية وطنية بعد الاحتلال، وكتابة الدستور، والاستفتاء عليه.

بغداد بين الانتخابات والدستور:

كان احتلال بغداد بكل تفاصيله ومفرداته مرحلة خطيرة جدًّا في تاريخ المنطقة، وشكَّل بداية غير معهودة من التعقيد الأمني والشحن الطائفي لم يتوقف عند حدود العراق، بل امتد بظلاله القاتمة إلى المحيط الإقليمي والدولي، وبدرجات متفاوتة، لذلك كان سعي الإدارة الأمريكية منصبًّا على كيفية تسويق احتلال العراق، ومحاولة فرضه كواقع حال لا يمكن التخلص منه، ومن ثَم التفكير في مرحلة لاحقة بتسويقه.

وكان من بين أهم أساسيات التسويق الأمريكي: إيهام الرأي العام داخليًّا وخارجيًّا لاسيما في منطقة (الشرق الأوسط) بأن ما يحصل في بغداد أمر لا بد منه لنشر الديمقراطية التي من أبرز أركانها: العملية الانتخابية التي تم تكرارها لثلاث مرات في العراق خلال سنوات الاحتلال، ورابعة بعد انسحاب قواته، ولم تستطع هذه الانتخابات أن تحقق للشعب العراقي (ولاسيما العرب السنة) ما يكفل له العيش الآمن، والحياة الكريمة، وإنما جاءت لتلبِّي طموحات الأحزاب السياسية دون الشعب الذي أصبح محرقة للصراعات الحزبية الداخلية والإقليمية الخارجية.

---

(١) الدفاعي، العراق تحت الاحتلال، ص ١٠، وستانسفيلد، لجاريث، العراق، ص١٨٧.

حكومة الجعفري ٢٠٠٥م:

في ظل نظام انتخابي جديد في العراق[١]، اعتمد نظام القائمة المغلقة، واعتبار العراق دائرة انتخابية واحدة، وتم التصويت فيها «على أساس طائفي، وليس على أساس التصويت السياسي، فقد بينت الانتخابات بجلاء أن مفهوم الديمقراطية الغريب والشاذ هذا كان يعني بوضوح تام تصويت المواطن العراقي لقوائم طائفية وعرقية لا يعرف أي شيء عن برامجها أو أسماء مرشحيها.

وكان للمرجعية الشيعية في النجف الأثر الكبير على الساحة السياسية والسياسيين بشكل خاص، وعلى التجاذبات التي كانت تحصل عبر وسائل الإعلام وبالنقل المباشر، وإن كان هذا الدور لم يظهر للعلن إلا أن موقف السيستاني من المشاركة في الانتخابات كان واضحًا وإن لم يعلن بشكل رسمي عبر وسائل الإعلام، و»إن فتوى المرجع الأعلى للشيعة (آية الله السيستاني) التي لم يطلع عليها أحد، ولكنها نُشرت على نطاق واسع بواسطة مريديه وأتباعه، وتوعد فيها كل من يمتنع عن المشاركة في التصويت بنار جهنم. وإنه لأمر مثير أن يتحول العقاب الجماعي للسكان إلى سياسة رسمية معلنة في ظل النموذج الديمقراطي!

ولم يكن الوعيد بنار جهنم فقط، فقد استخدم رجال الدين من الطائفيين الرجعيين فتوى شاذة تقول بأن الممتنع عن المشاركة ستحرم عليه زوجته دينيًّا، ويمنع عليه الاقتراب منها[٢]، وأُشيع في أكثر مناطق بغداد بأنهم سيفقدون بطاقاتهم التموينية، وسيخسرون حصصهم من الغذاء والدواء، وسيكون أبناؤهم عُرضة لفقدان حقوقهم في الوظيفة والتعليم إن هم لم يسارعوا في الاستجابة لنداء السيستاني الداعي إلى المشاركة.

ومن بغداد أعلن العرب السنة رفضهم المشاركة في انتخابات الجمعية الوطنية (٣٠/ ١/ ٢٠٠٥م) إثر تعرُّض مدنهم لحملات إبادة من قِبل القوات الأمريكية والعراقية المتجحفلة معها، ولاسيما ما

(١) استندت الانتخابات إلى قانون الانتخابات المتمثل بالأمر رقم ٩٢ بتاريخ ٣١/ ٥/ ٢٠٠٤م لإنشاء مفوضية الانتخابات العراقية المستقلة، والأمر رقم ٩٦ الصادر عن سلطة الائتلاف المؤقتة CPA سلطة الاحتلال بتاريخ ١٥/ ٦/ ٢٠٠٤م بتوقيع بول بريمر، الحاكم المدني الأمريكي في العراق، والأنظمة الأربعة الصادرة حولها. آدم روبرتوس، وآخرون. الاحتلال الأمريكي للعراق صورة ومصائر، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص٩٧، ٩٦.

(٢) آدم روبرتوس، وآخرون. الاحتلال الأمريكي للعراق صورة ومصائر، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص١٥٤، ٥٣ وص١٥٤.

تعرضت له مدينة الفلوجة في المعركة الثانية في تشرين الثاني ٢٠٠٤م، واجتمعت القوى السنية ومعهم الحزب الإسلامي في مقر هيئة علماء المسلمين في بغداد ليعلنوا قرارهم بعدم المشاركة في الانتخابات؛ لعدم استجابة حكومة إياد علاوي لوقف الهجوم على مدينة الفلوجة والمدن السنية الأخرى.

وفعلاً استجابت جماهير أهل السنة لهذا القرار، فكانت نسبة المشاركة في المناطق الشيعية ٨٠٪، وبلغت ٩٠٪ في المناطق الكردية، في حين لم تتجاوز ١٠٪ في الموصل (ضمنهم الكورد)، وبلغ عدد الناخبين في الأنبار ٣٠٠ ناخب فقط.

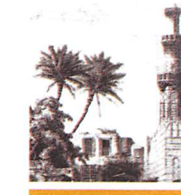
وشاركت في هذه الانتخابات قائمتان تمثل العرب السنة ظاهريًا، ولم يكن لبغداد نصيب فيهما، الأولى: قائمة عراقيون بزعامة غازي الياور(في محافظة نينوى)، وحصلت على ٥ مقاعد، والثانية: قائمة المصالحة والتحرير بزعامة مشعان الجبوري (في محافظة صلاح الدين) وحصلت على مقعد واحد، فكانت نسبة هذه النتائج ٦/ ٢٧٥.

وتولى على إثر نتائج هذه الانتخابات جلال الطالباني رئاسة الجمهورية، وإبراهيم الجعفري رئاسة الوزراء، وأنيطت رئاسة الجمعية الوطنية لحاجم الحسني الذي انسحب من الحزب الإسلامي، وتشكلت الحكومة من ١٧ وزارة شيعية و٧ للكورد، و٨ للعرب السنة، وعلى إثرها أصبحت الطائفية والعرقية التي تتسم بها الحياة السياسية العراقية مقنَّنة.

الاستفتاء على الدستور ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٥م:

كان أهل السنة في بغداد، وباقي المحافظات السنية، يرفضون تشريع دستور دائم للعراق في ظل الاحتلال؛ لأنه سيكون نسخة معدلة عن قانون إدارة الدولة الذي اعتمدته سلطة الاحتلال في عهد بريمر، وبعد مساجلات وجلسات غُيِّب فيها السنة أو هُمِّشُوا، قام الكورد والشيعة بإحالة مسودة الدستور إلى الجمعية الوطنية متجاوزين العرب السنة.

فاجتمعت القوى السنية في بغداد في مقر هيئة علماء المسلمين ليعلنوا رفضهم التصويت على الدستور أو التصويت بلا، وكان معهم الحزب الإسلامي، ولكن الحزب -كعادته في المواقف المفصلية- خرج ليلة الاستفتاء، وعلى إثر صفقة سياسية؛ ليدعو أنصاره إلى التصويت بنعم، لتكون مبررًا لإدارة الاحتلال والقوى الموالية لها في التلاعب بنتائج الاستفتاء، وهذا ما حصل بالفعل، فقد بلغت نسبة الذين رفضوا الدستور في محافظة صلاح الدين ٨٢٪، وتجاوزت النسبة في الأنبار ٩٧٪،



وبلغت في ديالى ٥٠٪، وفي كركوك ٣٧٪ وفي بغداد ٢٢٪، وتوقفت نتيجة الاستفتاء على محافظة نينوى والتي تأخر إعلان نتيجة التصويت فيها عشرة أيام، ثم أعلن أن ٥٥٪ يرفضون الدستور، وهي أقل من الثلثين المطلوبين فلم يكتمل نصاب المدن الثلاثة، وبذلك تم تمرير الدستور، يقول أحد الباحثين: «وهي نتيجة لطالما رفض العرب السنة القبول بشرعيتها، وبالفعل ربما لا تكون الاتهامات التي أُطلقت بحدوث تزوير نابعة فقط من انفعالات بسبب الخسارة»[1].

ومما ندركه على إثر هذا الاستفتاء: تعميق الخلافات الطائفية والعرقية، والتي بدت بوادر قيام حرب أهلية تلوح في الأفق، وعدم جدوى السعي للتأثير في التغيرات الحاصلة في العراق من خلال صناديق الاقتراع، وإنهم من خلال المشاركة أضفوا الشرعية على الاستفتاء بما لم تَحظَ به عملية من قبل، فأقر الدستور من قبل مجموعات تضع هويتها الطائفية في المقام الأول، ولا تعد مصالح العراق أولوية في مواقفها، وقد تضمن ثغرات وألغامًا ستنفجر بالوضع العراقي في المستقبل القريب، ولعل من أبرز ما خرج الاستفتاء على الدستور بالنسبة لأهل السنة في بغداد أنه آخر موقف يتحد عليه العرب السنة.

حكومة المالكي الأولى ٢٠٠٦م:

نظرًا لما شهدته الساحة العراقية من تصعيد طائفي أدخل العراق ولاسيما بغداد في حرب طائفية محدودة تولى كبرها إبراهيم الأشيقر الجعفري وحكومته، وباقر جبر صولاغ ووزارته الداخلية التي فسحت المجال أمام الميليشيات وفرق الموت لتعمل على تشييع بغداد بشكل كامل؛ من خلال القتل، والاعتقالات الجماعية، والتهجير القسري، وتدمير المساجد واغتصابها.

كل هذه الأحداث دفعت بعض القوى السياسية للعرب السنة كالحزب الإسلامي بزعامة طارق الهاشمي، ومؤتمر أهل العراق الذي شكّل في عام ٢٠٠٥م بزعامة الدكتور عدنان الدليمي، وجبهة الحوار بزعامة خلف العليان ود. صالح المطلك، على المشاركة في انتخابات ١٥/ ١٢/ ٢٠٠٥م، على الرغم من الحَيْف الذي لحق بالمحافظات السنية فيما يتعلق بالمقاعد.

ودخل العرب السنة في قائمتين رئيستين شملت بغداد، وأغلب المحافظات، هما جبهة التوافق العراقية بزعامة عدنان الدليمي، والجبهة العراقية للحوار الوطني بزعامة صالح المطلك، وقائمة ثانوية (مقتصرة على محافظة صلاح الدين)، وهي كتلة المصالحة والتحرير بزعامة مشعان الجبوري،

---

(١) ستانسفيلد، لجاريث العراق، ص٢٠٥.

وأسفرت نتائج الانتخابات عن حصول جبهة التوافق على ٤٤ مقعدًا، والجبهة العراقية للحوار على ١١ مقعدًا، وكتلة المصالحة والتحرير على ٣ مقاعد، فكان مجموع المقاعد ٥٨ مقعدًا من ٢٧٥ مقعدًا.

ويمكن أن نرصد موقفين مميزين حدثا في بغداد على ضوء نتائج الانتخابات:

الأول خروج مظاهرات حاشدة في بغداد لجبهة التوافق العراقية تندد بنتائج الانتخابات معلنة عدم نزاهة الانتخابات، وتم استرضاؤهم ببعض المقاعد التعويضية.

والثاني كان إصرار السياسيين السنة على رفض الجعفري تولي رئاسة الوزراء، فأعاد لهم شيئًا من المشاركة في صنع القرار السياسي، وكانت نتيجة هذا الرفض أن تأخر تشكيل الحكومة أكثر من أربعة أشهر؛ إذ أعلن عن تولي نوري المالكي رئاسة الوزراء في يوم ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٦م.

وقد سبق إعلان تشكيل الحكومة تفجير القبتين في سامراء في ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٦م مما عرَّض البلاد إلى حرب طائفية حصدت عشرات الآلاف، ونظرًا لعدم سيطرة المالكي على الأوضاع واستمرار العنف الطائفي لا سيما من قبل الميليشيات، وعدم استجابته لمطالب السياسيين دفع العرب السنة إلى الانسحاب من الحكومة.

حكومة المالكي الثانية ٢٠١٠م:

لقد حظيت الانتخابات التي جرت في ٣١/ ١/ ٢٠١٠م، باهتمام إعلامي وسياسي عالمي وإقليمي، وسنحاول أن نعالج الثوابت والمتغيرات في انتخابات ٢٠١٠م، مقارنة بالانتخابات السابقة، ودور العرب السنة في بغداد وبقية المحافظات.

مواقف القوى السياسية:

لقد حافظت القوى السياسية والعشائرية للعرب السنة على موقفها من المشاركة في الانتخابات، إلا أنها انقسمت ضمن القوائم الانتخابية؛ أغلبها باستثناء قائمة التحالف الكردستاني، كما تمسكت القوى المناهضة للاحتلال، ولاسيما هيئة علماء المسلمين، بعدم المشاركة في جميع الانتخابات ما دامت في ظل الاحتلال، ورفض نتائجها، واعتبارها ناقصة الشرعية. وكذلك أعلنت فصائل المقاومة العراقية موقفها الثابت من رفض العملية السياسية برمتها، وعدم الاعتراف بها، ومن باب أولى عدم المشاركة فيها، أو دعم أية جهة سياسية.

ومن الثوابت التي واكبت العملية السياسية في بغداد: شدة النفوذ الإيراني وتغلغله في الشأن العراقي، وعلى الأصعدة كافة أمنيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وحتى ثقافيًّا، ولم تخلُ مرحلة سياسية في العراق من دعم إيراني للمشروع الشيعي في العراق، والحفاظ على وجود حكومة شيعية- كردية موالية لإيران، وقد استغلت إيران ذلك لتجعل من العراق جسرًا ومنطلقًا للمشروع الإيراني في المنطقة.

وفي هذه الانتخابات صرح نائب الرئيس الأمريكي جون بايدن بأن إيران أنفقت ١٠٠ مليون دولار للتأثير على نتائج الانتخابات، ولإقصاء القائمة العراقية.

في المقابل نجد أن جميع مراحل العملية السياسية شهدت فتورًا وانحسارًا إلى حد العدم للدول العربية، سواء أكان سببه حرص الدول العربية على عدم التورط في المستنقع العراقي، أو إصرار القوى السياسية النافذة على عزل العراق عن محيطه العربي، وإن اتُّهِمَت القائمة العراقية بوجود دعم عربي وإقليمي لها، مع أنها لم تكن سُنِّية خالصة.

جدول (١)

يبين المقارنة بين عدد المقاعد المستحقة والمقررة لبغداد في انتخابات ٢٠٠٥م و٢٠١٠م و٢٠١٤م.

المحافظة	المقاعد المستحقة وفق عدد سكان المحافظة لعام ٢٠٠٥م	المقاعد المقررة لانتخابات ٢٠٠٥م	المقاعد المقررة لانتخابات ٢٠١٠م	المقاعد المقررة لانتخابات ٢٠١٤م
بغداد	٥٧	٥٩	٦٨	٦٩
المجموع	٢٣٠	٢٧٥	٣٢٥	٣٢٥

ومع ذلك فقد شهدت مسألة الاستحقاق للمقاعد البرلمانية إجراءات سياسية خبيثة للحيلولة دون حصول العرب السنة على نسبة عالية، فقد تم زيادة عدد المقاعد الكلية ٥٠ مقعدًا، ليصبح العدد الكلي ٣٢٥، وتم استرضاء المحافظات الكردية بمقاعد لا تستحقها على وفق نسبتها السكانية، كما تم تعقيد مسألة المهجرين خارج العراق وداخله.



تعرضت جميع الكيانات الكبيرة إلى انقسامات حادة وكبيرة في صفوفها[١]، وفيما يتعلق بالعرب السنة فلم تكن لهم قائمة خالصة سوى جبهة التوافق العراقية التي تشظَّت بدورها، وخرجت منها قيادات كبيرة لتكوِّن كيانات جديدة كـ«حركة تجديد» بزعامة طارق الهاشمي، و«تجمع المستقبل» بزعامة رافع العيساوي وظافر العاني، وتحالف هذان التياران مع القائمة العراقية التي اتحد معها مسبقًا «الجبهة العراقية للحوار الوطني» بزعامة صالح المطلك.

في حين شهدت الساحة السياسية وجود حركات وتيارات جديدة لعل أبرزها: تجمعات الصحوة والإسناد التي يتزعمها أبو ريشة وأحمد عبدالغفور وحميد الهايس، وعلي حاتم سليمان.

أما الأولان فقد تحالفا مع الحزب الدستوري بزعامة جواد البولاني ضمن تكتل وحدة العراق، وقد تحالف هذا التكتل بعد الانتخابات مع جبهة التوافق العراقي ضمن مسمى جديد هو تيار الوسط، والثالث تحالف مع الائتلاف الوطني، والرابع مع دولة القانون.

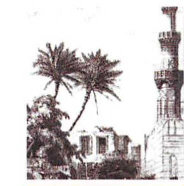
جدول (٢)

يبين عدد المقاعد لكل كيان في العاصمة بغداد

بحسب أرقام المفوضية العليا المستقلة للانتخابات لعام ٢٠١٠م

الكيان السياسي	عدد المقاعد
ائتلاف دولة القانون	٢٦
القائمة العراقية	٢٤
الائتلاف الوطني	١٧
التوافق العراقي	١
الأقليات	٢
المجموع	٦٨+ ٢ (أقليات)

(١) فالائتلاف الوطني الموحَّد أصبح ائتلافين كبيرين؛ هما الائتلاف الوطني العراقي، وائتلاف دولة القانون، وانسلخ من التحالف الكردستاني حركة التغيير بزعامة نيشروان مصطفى، والاتحاد الإسلامي سابقًا، والجماعة الإسلامية لاحقًا.



دلالات نتائج الانتخابات السياسية:

- تقدُّم القائمة العراقية بزعامة إياد علاوي العربية، وذات الأغلبية السنية، على بقية القوائم، وحصلت على ٩١ مقعدًا، ونالت قائمة ائتلاف دولة القانون المركز الثاني بـ٨٩ مقعدًا، في حين حل الائتلاف الوطني العراقي ثالثًا بعد حصوله على ٧٠ مقعدًا، وحصل الاتحاد الكردستاني على ٤٣ مقعدًا ليحل بالمركز الرابع، ومُنيت القوائم التي لم تواكب تطلعات جماهير العرب السنة، سواء في شعاراتها أو شخصياتها بهزائم انتخابية، وفي مقدمتهم قائمة التوافق العراقي.

- مثَّلت نتائج الانتخابات اختبارًا حقيقيًّا لاحترام إرادة الشعب في التغيير، وكشفت عن ديكتاتورية المالكي وحزب الدعوة الذي يتزعمه؛ برفضهم الهزيمة السياسية، ولولا وجود القوات الأمريكية لجنح المالكي إلى الانقلاب والعنف، وقد أشار إلى ذلك، فكان الرد الأمريكي سريعًا وحاسمًا بأن منع ذلك لن يستغرق أكثر من ٣ دقائق، ومع ذلك فقد اتفقت الإدارة الأمريكية والنظام الإيراني على إعادة انتخاب المالكي رئيسًا للوزراء، متجاوزين الاستحقاق الدستوري، وكان للأكراد دور في ذلك، وخُدع علاوي ومعه العرب السنة مرة أخرى.

- إن النجاح المحدود الذي حققه العرب السنة جعل الأحزاب الشيعية تعود إلى الاصطفاف الطائفي لتشكيل الحكومة؛ لتؤكد مرة أخرى فشل صناديق الاقتراع في أن ينال العرب السنة حقوقهم، وأن تدفع الظلم عنهم وعن الشعب العراقي أجمع، ولذا فإن على العرب السنة التفكير الجاد في طبيعة العملية السياسية أو صورة المشاركة فيها، وفي احترام القوى المقاومة والمناهضة التي لم تضع بصمتها بعدُ في العمل السياسي.

بغداد وانتخابات ٢٠١٤م:

شهدت انتخابات ٢٠١٤م، انقسامًا أكبر في الكيانات السياسية، وجاءت في ظل مرحلة عصيبة، فأهل السنة في بغداد والمحافظات السنية انطلقوا في حراك شعبي وانتفاضة جماهيرية، ضد الممارسات الطائفية لحكومة نوري المالكي الثانية، التي واجهت هذا الحراك بكل أساليب القمع والتصفية والإبادة العسكرية، كما في الحويجة والفلوجة والرمادي وديالى، والموصل وكركوك، وسامراء، وكذلك حزام بغداد.

وعلى الرغم من الفوز الذي حققه المالكي؛ من خلال التزوير، وشراء صناديق الاقتراع، إلا أن أبرز ما في نتائج هذه الانتخابات هو رفض جميع الكيانات ترشيح المالكي لولاية ثالثة، فتم الاتفاق

على حيدر العبادي، لتبدأ مرحلة جديدة من الطائفية متمثلة بنزوح العوائل السنية من جميع المحافظات السنية نحو بغداد وكركوك وإقليم كردستان بمحافظاته الثلاث، مما جعل بغداد تتمتع باستقرار نسبي مقارنة ببقية المحافظات.

جدول (٣)

يبين عدد المقاعد لكل كيان في العاصمة بغداد

بحسب أرقام المفوضية العليا المستقلة للانتخابات لعام ٢٠١٤م

الكيان السياسي	عدد المقاعد
ائتلاف دولة القانون	٣٠
القائمة الوطنية	١٠
ائتلاف الأحرار (صدري)	٦
قائمة المواطن	٥
متحدون للإصلاح	٤
التحالف المدني الديمقراطي	٣
تيار النخب	٣
تجمع الشراكة الوطنية	٢
ائتلاف العراق	٢
ائتلاف العربية	١
الصادقون	١
تحالف الفضيلة	١
تحالف الإصلاح الوطني	١
الأقليات (المكون المسيحي والمكون الصابئي)	٢
المجموع	٦٩+ ٢ (أقليات)



المجتمع البغدادي بعد ٢٠٠٣م

في قراءة تحليلية للمجتمع البغدادي بعد عام ٢٠٠٣م، وبدراسة شبه مقارنة مع بغداد عام ١٢٥٨م أيام الاحتلال المغولي؛ يتضح لنا أن الانتكاسة التي أصابت المجتمع البغدادي بعد عام ٢٠٠٣م لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

كان الغزو المغولي عبارة عن هجمات قامت بها قبائل بدوية شرسة بهدف إنشاء إمبراطورية بعيدة الأطراف، ولا يختلف اثنان في الحديث عن المجازر التي أصابت مدينة بغداد إبان الاجتياح المغولي؛ إلا أن الفارق أن الدولة المغولية عمدت إلى تولية الرجال الأكفاء لإدارة أمور المدينة، مما خفَّف من الفاجعة، واستعاد المجتمع البغدادي بعض عافيته؛ لأنه لم يُصَب بجرح في نسيجه الاجتماعي، واستعادت المدينة بعض عافيتها، وقادت بغداد انتفاضات وتمردات وعصيان رضخ لها الحكام المغول وباستمرار.

وبالعودة إلى عام ٢٠٠٣م فقد كان المحتل الأمريكي - الصفوي، يبيت نية التدمير الشامل للنسيج الاجتماعي للمدينة، مسخرًا لذلك ماكينته الإعلامية منذ قرابة مائة عام، مروِّجًا لعدة أفكار لا صحة لها على أرض الواقع منها مظلومية الشيعة، أو ما يعرف بحكم الأقلية السنية للأغلبية الشيعية! وغطرسة الحاكم السني في الاستعلاء على الفرد الشيعي!

مما دقَّ جدران الفُرقة بين أبناء المجتمع البغدادي بأيدي أبي رغال والطوسي والعلقمي، وبما أننا نتحدث عن مدينة بغداد بصورة خاصة، فنختصر المشكلة الاجتماعية ما بعد عام ٢٠٠٣م في محور واحد، وهو ما ينادي به الشيعة بأحقية الأغلبية كما يدَّعون في حكم المدينة، والتي تحت عنوانها جرت عمليات التهجير القسري والقتل والتشريد لأهل السنة والجماعة، وتدمير مساجدهم بمباركة دولية وبغطاء شرعي حكومي فكانت القصة منذ البداية:

أولاً: بيان الأغلبية السكانية لأهل السنة في بغداد:

على الرغم من ظهور جداول للتعداد السكاني في الكثير من مواقع الإنترنت المعروفة لمدينة بغداد بين عامي ١٨٠٠-٢٠١٥م، وقد سبق أن نقلنا بعضها، إلا أنه وبالمقابل ظهرت آراء لبعض الباحثين تنتقد وتشكك في الجهة التي روَّجت لهذه الأرقام لمخالفتها للكثير من النصوص التاريخية المعتمدة

آنذاك، ولصعوبة إجراء مثل هكذا تعداد حتى عام ١٩٤٧م، الذي يُعدُّ أول تعداد سكاني بأسلوبه العلمي الحديث[١]، والذي نراه أن الاختلاف الحاصل فيما ذكرت النصوص التاريخية عن تعداد سكاني لمدينة بغداد أو فيما ذكر في الجدول المعني هو عبارة عن خلط لدى الباحثين المعنيين بالموضوع، مرده في بيان حدود العاصمة بغداد، فقد تذكر بغداد تارة على أنها الرقعة الجغرافية الممتدة من محافظة بابل جنوبًا إلى قضاء سامراء شمالاً، إلى بعقوبة شرقًا وحدود الفلوجة غربًا، وتارة أخرى تُختزل ببغداد المركز، وهي باب المعظم شمالاً وباب الشرقي جنوبًا على ضفتي النهر فضلاً عن منطقتي الأعظمية والكاظمية، وعلى الرغم مما سبق من اختلافات في جداول التعداد السكاني للمدينة إلا أن الباحثين اتفقوا وباختلاف مشاربهم على الآتي:

١- يذكر الرحالة نيبور أن الشيعة البغداديين يتركزون في الكاظمية، و«أن الكاظمية كانت قرية يغلب عليها الطابع الفارسي.. وهم أقلية في بغداد.. يسيئون للبغداديين -أهل السنة- أيام حكمهم لبغداد ويكرهونهم»[٢].

٢- يشير فريزر في رحلته إلى بغداد بكثرة العرب المتواجدين في بغداد مع حُسن أخلاقهم قياسًا بالآخرين[٣].

٣- يذكر حنا بطاطو -الذي عدَّه بعض الباحثين يهوديًا، وآخرون عدوه من المسيحيين المتصهينين، وهو أول من نادى بأغلبية الشيعة في العراق- في كتابه العراق الذي اعترف في مقدمته بدور أحمد الجلبي الكبير عراب المحتل الأمريكي في مساعدته على إظهاره للعلن بعد مده بالمعلومات والإحصاءات التي تؤيد فكرته، ثم طُبع بطبعته الفارسية والأمريكية، والذي قال فيه: «إن أهل السنة هم الأغلبية في بغداد»[٤]، وهو يقصد بذلك بعد إتمام قراءة كتابه بأجزائه الثلاثة، أن أغلبية أهل السنة في بغداد كانت منذ تأسيس المدينة زمن الخليفة أبي جعفر المنصور إلى ما بعد عام ١٩٥٨م، أي: ما بعد تسلم عبدالكريم قاسم الحكم في العراق.

---

(١) موقع الأرشيف العراقي the Iraq Archive.
(٢) نيبور، الرحلة، ج٢ص٢٤٣؛ بغداد بأقلام رحالة، ص٢٧-٢٩
(٣) رحلة فريزر إلى بغداد، ص١٣٠؛ رحالة أوربيون في العراق، رحلة تايلر ١٧٨٩م/ ص١١١
(٤) بطاطو، العراق، ج١ص٣٧



ويؤكد بطاطو أيضًا مقولته تلك عن أغلبية أهل السنة في بغداد في مقالة له نشرتها مجلة الثقافة الجديدة التي قال فيها: «إن السنة كانوا الأهم من الناحية السياسية، وكانوا يشكلون العمود الفقري لطبقة مُلاك الأرض، ويؤلفون الأغلبية في الإدارة الحكومية، أما الشيعة فلم يزيدوا عن خُمس سكان بغداد، وكانوا ينتمون، على العموم، إلى أفقر فقرائها، وكانوا يسكنون في أحياء منفصلة، ويعيشون حياة مستقلة خاصة بهم، ونادرًا ما يختلطون بالسنة أو يتزاوجون معهم».

٤- وفي إحصاء أجرته سلطة الانتداب البريطاني لمدينة بغداد في شهر نيسان من عام ١٩٢٠م يظهر التفوق السكاني للسنة في بغداد.

جدول (٤)

يبين التوزيع السكاني في بغداد بحسب المجموعات الدينية لعام ١٩٢٠م (أجرته سلطات الانتداب البريطاني)، وهو الوحيد الذي اعتمد ذكر المذهب للمسلمين.

المجموعة	عدد النسمات	النسبة المئوية
المسلمون السنة	١٣٠٠٠٠	٪٥٢
الشيعة	٥٤٠٠٠	٪٢١,٦
اليهود	٥٠٠٠٠	٪٢٠
النصارى	١٥٠٠٠	٪٦
ديانات أخرى	١٠٠٠	٪٠,٤
المجموع	٢٥٠٠٠٠	٪١٠٠

٥- ويشكل العرب السنة أغلبية سكان شمال بابل، وتعتبر منطقة شمال بابل وجنوب بغداد التي تضم: (قضاء المحمودية، وجرف الصخر، والإسكندرية، والحصوة، واللطيفية، واليوسفية، والرشيد، وهور رجب، وعرب الدليم، والرضوانية، وعرب الجبور، والمدائن) منطقة ذات أغلبية سُنِّية مطلقة، يقطن بها نحو مليون مواطن سُنِّي، بحسب إحصاءات الأمم المتحدة في الاعتماد على نتائج الانتخابات

الأخيرة[١]، كما يؤكد ذلك الكثير من الرحالة أن شيعة الجنوب كانوا لا يجرءون على السكن في بغداد أو الصعود شمالها؛ كونها مناطق خاضعة لأهل السنة المعروفون بشدة المراس في المعارك[٢].

٦- ومن أوراق كامل الجادرجي، الشخصية الوطنية العراقية بعد الاحتلال الإنجليزي للعراق جاء فيها قوله: «بدأت المشكلة تظهر في الواقع بعدما تكونت الحكومة الأهلية تحت الانتداب الإنجليزي، فقد ظهرت الحاجة آنذاك ماسة بصورة جلية إلى إيجاد إداريين وقضاة ووزراء من الشيعة، وقد أدخل الإنجليز في روع الشيعة أن اعتبارهم أقلية أمرٌ يخالف الحقيقة، وذلك فإن من حق أبنائها أن يشاركوا مشاركة فعلية في جميع نواحي الإدارة»، ثم يقول: «إن تشجيع الإنجليز للشيعة كان يجري بمختلف الأشكال، ومن أمثلة ذلك: تحريض الشيعة على جعل الطائفية مثلهم الأعلى»[٣].

٧- ويؤكد مازن الرمضاني: أن «سكان بغداد عام ١٩٤٧م بلغ (٨١٧,٢٠٥) نسمة، وكانت نسبة أهل السنة يومها ٧٠٪»[٤].

٨- وفي مقال لإياد محمود حسين (هل حقيقة الشيعة هم الأكثرية في العراق؟) جاء فيه أن الأستاذ محمد جواد علي رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة بغداد، وهو شيعي شكَّك في كون الشيعة يمثلون الأكثرية في العراق، وقال: «إن نسبتهم تتراوح بين ٤٠ إلى ٤٥٪، وأن نسبة أهل السنة تبلغ ٥٣٪.

فكيف يكون الشيعة هم الأكثرية؟ اللهم إلا في حالة واحدة وهي تجري الآن على أرض الواقع من تكاثر الإيرانيين الذين يدخلون الأراضي العراقية، وحصولهم على الجنسية العراقية بكل بساطة، بعد أن أصبحت وزارة الداخلية في أيديهم، في الحكومات الأربعة، التي قامت على المحاصصة الطائفية المكذوبة، لكي يضمنوا للشيعة الأغلبية في أي انتخابات قادمة.

التغيير الديموغرافي لمدينة بغداد:

يعدّ الحديث عن ديموغرافية بغداد من الأمور التي لا تحظى بأهمية بالنسبة للدراسات الاستراتيجية أو السياسية لدول الخليج العربي، وهو في الوقت نفسه من الأهمية بمكان لدى الأنظمة الحاكمة في إيران على مر الحقب التاريخية المتتالية، ابتداءً من السلالات الساسانية المجوسية، وإلى يومنا الحاضر.

(١) موقع ويكبيديا.
(٢) بكنغهام، جيمس، رحلتي إلى العراق، ج٢ص٢٦٦.
(٣) الجادرجي، كامل، أوراق كامل الجادرجي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧١م ص ٦٤، ٦٥.
(٤) في تصريح لموقع إسلام أون لاين.



وبنظرة سريعة لهذا الموضوع يمكن أن نلاحظ أن سُنية وعروبة هذه المدينة كانت غالبة على مر التاريخ، ولاسيما بعد تأسيس المدينة إلى يومنا الحاضر، لكنها تعرضت لأخطر عمليات التغيير الديموغرافي الممنهج خلال القرن الأخير، التي كان أخطرها وليس أولها زمن عبدالكريم قاسم، الذي عمد إلى توطين آلاف النازحين الجدد من مناطق جنوب العراق الشيعية في منطقتي الثورة والشعلة داخل العاصمة بغداد، والتي صرفت الحكومة القاسمية عليهما مبالغ طائلة، كلفت الدولة خزينتها التي كان من الأولى أن تُصرف على البنى التحتية للجمهورية العراقية الفتية، بهدف زيادة نسبة المؤيدين لسلطته من أتباع المذهب الشيعي في العاصمة؛ بأمر من المرجع الأعلى عبدالمحسن الحكيم، والذي عمل هو الآخر بالالتفاف على الحكومة القاسمية وإدخالها في دوامة من الأزمات الداخلية منها، وأهمها تأخير اختيار رئيس للجمهورية العراقية؛ بغية عدم إيصال العنصر السني العربي الغالب على العاصمة إلى المنصب الأهم في البلاد.

ثم توالت الهجرات الشيعية إلى العاصمة بغداد؛ كونهم عناصر فعَّالة في حزب البعث، وتحتل مواقع إدارية مهمة في الحكومة العراقية البعثية، التي اعتمدت بدورها نظام المواطنة القائم على الولاءات للحزب الحاكم.

واليوم ومنذ عام ٢٠٠٣م تعيش المدينة أقسى أنواع وسائل التغيير الديموغرافي ما لم تشهده مدينة في التاريخ المعاصر، من قتل وتهجير ومصادرة للأراضي والحياة على أيدي ميلشيات الموت الشيعية، التي تأخذ فتاواها من مراجع النجف، وبأوامر إيرانية بحتة، والملاحظ على الساحة البغدادية أن المدينة تشهد موجات نزوح جنوبية شيعية جديدة تعمد الحكومة الميليشياوية الحاكمة إلى توطينهم في تجمعات سكنية، تم الإشارة إليها في ثنايا الفصل الأخير استنساخًا للتجربة القاسمية، التي أثبتت نجاحها، وعانت المدينة بسببها تغييرًا شاملاً في المنظومة الاجتماعية، والدينية والسياسية، وامتدت عواقبه إلى يومنا الحاضر.

تمثل الخرائط التالية مراحل التغيير الديموغرافي لمدينة بغداد السنية العربية، عبر عنها بنصف قرن من الزمان، مثل اللون الأخضر للأغلبية السنية، واللون الرمادي للأغلبية الشيعية، والأبيض للمناطق المختلطة.

خارطة رقم (١)

التقسيم السكاني لمدينة بغداد في العهد الملكي (قبل ثورة عبدالكريم قاسم)

محافظة بغداد
Province Baghdad

مركز قضاء
مدينة
نهر

محافظة صلاح الدين
محافظة ديالى
محافظة الانبار
محافظة الانبار
محافظة واسط
محافظة بابل

ناحية الطارمية
الطارمية
المشاهدة
نهر دجلة
ناحية التاجي
ناحية الراشدية
التاجي
قضاء الاعظمية
ناحية ذات السلاسل
ناحية الفحامة
قضاء الكاظمية
مركز قضاء الكاظمية
مركز قضاء الاعظمية
مدينة الصدر
بغداد الجديدة
نهر ديالى
ناحية ابي غريب
ناحية ابي غريب
ابي غريب
بغداد
الكرخ
المنصور
ناحية المنصور
الكرادة الشرقية
الرصافة
المأمون
المدائن
الجسر
اليوسفية
الوحدة
سلمان باك
المحمودية
اللطيفية



خارطة رقم (٢)

التقسيم السكاني لمدينة بغداد بعد ثورة عبدالكريم قاسم

محافظة بغداد
Province Baghdad

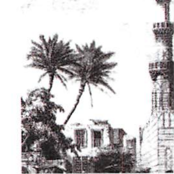
مركز قضاء
مدينة
نهر

محافظة صلاح الدين
محافظة ديالى
محافظة الانبار
محافظة واسط
محافظة بابل

ناحية الطارمية
الطارمية
المشاهدة
نهر دجلة
ناحية التاجي
التاجي
ناحية الراشدية
قضاء الاعظمية
ناحية الفحامة
ناحية ذات السلاسل
قضاء الكاظمية
مدينة الصدر
بغداد الجديدة
قناة الجيش
ناحية ابي غريب
ابي غريب
الكرخ
المنصور
ناحية المنصور
الرصافة
المأمون
المدائن
الجسر
الوحدة
سلمان باك
اليوسفية
المحمودية
اللطيفية

خارطة رقم (٣)

التقسيم السكاني لمدينة بغداد بعد عام ٢٠٠٣م



ثانيًا: عقدة المظلومية الشيعية:

من هذه العقدة انطلقت فرق الاغتيالات المنظَّمة تقتل وتهجِّر، وتهدم المساجد والبيوت، وتسرق، حتى تغيرت ديموغرافية أحياء بغدادية عديدة بالكامل، خصوصًا أحياء شرق العاصمة بغداد بسبب هذا العنف الدموي، وخلصت دراسة أجرتها منظمة الصحة العالمية[1]، إلى أنّ العنف أصبح، بعد آذار/ مارس ٢٠٠٣م، من أكبر أسباب وفاة البالغين في العراق، وأهمّ الأسباب المؤدية إلى وفاة الذكور من الفئة العمرية ١٥-٥٩ عامًا، فقد سُجِّل في المتوسط وفاة ١٢٨ عراقيًا كل يوم بسبب العنف في العام الأول، الذي أعقب عملية الغزو، وبلغ متوسط حالات الوفيات اليومية الناجمة عن العنف ١١٥ حالة وفاة في العام الثاني، و١٢٦ حالة وفاة في العام الثالث، والجدير بالذكر أنّ أكثر من نصف الوفيات الناجمة عن العنف وقع في مدينة بغداد.

وأكدت المنظمة أنها «لم يتسن لنا زيارة بعض البيوت بسبب انعدام الأمن، كما أنّ كثيرًا من الناس تركوا منازلهم بسبب النزاع، وقد تمت مراعاة هذين العاملين لدى تحليل البيانات، إذ يمكنهما التأثير في دقة نتائج الدراسة الاستقصائية، بيد أنّ النتائج تشير إلى وجود عبء فادح جرّاء الوفيات منذ بداية النزاع»، والحقيقة أكبر من ذلك بكثير.

وقدرت منظمات إنسانية عالمية نسبة التهجير الحاصل على أهل السنة في بغداد بالملايين، حيث أشارت منظمة الأمم المتحدة إلى موجة نزوح وتهجير قسري شمل سكان بغداد الأصليين خصوصًا بعد عام ٢٠٠٦م، والذي خفض التعداد السكاني للمدينة من ٦,٥ مليون نسمة إلى ٤,٧ مليون نسمة، غير أن الحكومة العراقية تعطي عددًا لسكان بغداد بأكثر من سبعة ملايين نسمة[2]، ولأهداف بعيدة منها: تجنيس الوافدين الإيرانيين الذي اعترف به وزير خارجية العراق إبراهيم الأشيقر (الجعفري)، وما موجة نزوح الزوار الأفغان في أربعينية الحسين كما يسمونها عنا ببعيد؛ فقد تم عبور أكثر من ١٥٠ ألف أفغاني لا يحملون الأوراق الثبوتية إلى العراق من معبر الشلامجة من عام ٢٠١٦م، ووُطِّن الكثير منهم في منطقة جرف الصخر، بعد منع السكان الأصليين من العودة إليها، وهم من أهل السنة، ووُطِّن البعض الآخر من الأفغان الوافدين في قضاء سامراء، واليوم يجري الحديث عن أغلبية شيعية في قضاء سامراء، والمطالبة بضمه إلى بغداد في إطار الأقاليم الشيعية الجديدة.

(١) موقع منظمة الصحة العالمية المعرب.

(٢) موقع ويكيبيديا.

ومن الأساليب الشيعية أيضًا، تسهيل سيطرة بعض الفصائل السنية المعارضة على منابع الأنهر؛ لتقوم الحكومة العراقية بغلق منافذ تلك الأنهر التي تغذي الأراضي الزراعية السنية، وإجبار الفلاح السني على الهجرة بعد تهديده بتهم جاهزة، وبعد رحيل الفلاح السني في حزام بغداد، يتم إعطاء تلك الأراضي السنية الزراعية إلى فلاحين يتم استجلابهم من جنوب العراق، ويسمحون لهم بتشكيل ميلشياتهم، لحماية أنفسهم من أيّ هجوم متوقع، في أثناء عملية الاستيطان، خصوصًا أن تلك المناطق السنية في حزام بغداد ما زالت عشائرية الطابع والطباع.

- ومنها أيضًا قانون بيع عقارات الدولة، ليتسنى لهم السيطرة الكاملة على قلب العاصمة بغداد، إذ استولى الشيعة على أموال العراق طوال سنوات الاحتلال وما بعد الانسحاب.

- ومنها أيضًا أخذ الإتاوات من التجار السنة، وحتى المحلات والدكاكين الصغيرة، بحجة دعم الحشد الشعبي، الذي يقوم بدوره بتهجير أهل السنة عن أراضيهم في المحافظات التي تعرضت لانسحاب الجيش منها، بحجة هجمات تنظيم الدولة الإسلامية.

- ومن الأساليب الشيعية أيضًا ترويجهم للفتاوى المتشددة التي تصدر من علماء السنة خارج العراق، بهدف إشاعة روح النقمة الشيعية والدولة على المجتمع السني، وعزله عن تدويل الجرائم التي لحقت به من قِبل الميليشيات الشيعية، وبهدف عزل السنة عن علمائهم، وزرع كرههم من قبل المجتمع السني، وترويج عبارات أنهم هم من أوصلوهم لما هم عليه، وبالفعل حدث نوع من الانقلاب السني على بعض الأفكار الجهادية الصحيحة المعتدلة، لكن المجتمع السني اليوم بدأ يعتقد بأن الحل لمشكلته تكمن في عزل أهل السنة في مجتمعهم وإقليمهم بعيدًا عن الأجندة الشيعية.

- ومن الأساليب أيضًا: منع المجتمع السني من إسعاف النازحين أو استقبالهم، واتهام كل من تحمله الغيرة الإسلامية على ذلك بتهمة إيواء الإرهاب، الأمر الذي بدأت تتكشف معالمه اليوم حيث ظهرت في بعض الأوساط الأنبارية والتكريتية وحتى الموصلية، فكرة مفادها: أن المجتمع البغدادي السني لم يقم بالواجب اللازم تجاه النازحين، وعليه فإن فكرة عزل المجتمع السني البغدادي عن عمقه السني العراقي، بدأت تتبلور في مواقع التواصل الاجتماعي، وعلى أرض الواقع، بعد أن كانت القضية السنية البغدادية محور الحراك الشعبي السني للمحافظات السنية الست، وبذلك يمكن ابتلاع القضية السنية البغدادية من قِبل حكومة المليشيات الشيعية بسهولة، ولا بواكي لهم.

فالمجتمع السني اليوم في بغداد يعاني من:

- الخوف من تهم المخبر السري.

- والمليشيات الشيعية السائبة.

- والخطف والابتزاز بطلب الفدية، ثم يسلم المخطوف جثة هامدة.

- وعدم السهولة في التنقل بين أحياء العاصمة.

- والخوف من ارتياد المساجد لكي لا يُحسبوا على الإسلاميين السنة الذين يصنَّفون بكل اتجاهاتهم بأنهم تكفيريون، حتى لو كان العنوان الحقيقي لهم هو التصوف.

- وعدم السماح للمجتمع السني بالترويج لمذهبه علنًا، من خلال قتل الدعاة والمفكرين والأساتذة والأكاديميين، وعدم السماح بالهدي الظاهري للمذهب السني.

- ومصادرة وإغلاق أكثر من نصف مساجد بغداد تحت ذريعة أنها مأوى للإرهاب والمتطرفين.

- وعدم السماح لهم بارتياد الجامعات والكليات الرصينة، في محاولة لإبعادهم بالكامل عن الدراسات العليا لجميع الاختصاصات، وإبعادهم عن الوظائف الحكومية.

- تقطيع أوصال الأحياء السنية بالجدران الكونكريتية، أو بعدم السماح بالدخول لغير ساكنيها أو بكفيل من أحد ساكنيها، وممر الدخول والخروج من هذه الأحياء واحد فقط، فهي أشبه بالسجون الجماعية، وقد أكَّد لنا أحد القادة الكبار في الجيش العراقي والذي يتبع إحدى الميليشيات: أنهم كحال جميع القطعات العسكرية يقومون باعتقال الأبرياء من أهل السنة والمساومة عليهم بمبالغ معينة، وإذا ما حاول ذوو المخطوف إبلاغ الجهات الحكومية بالأمر يتم خطف شخص آخر من تلك العائلة لتعظم المصيبة، ويزداد مبلغ الفدية، وهم يستخدمون ذلك في تمويل مشاريعهم الاستثمارية التي تؤمن تدفق الأموال لعناصر عصاباتهم وديمومتها.

ولا ينظر المواطن السني اليوم إلى العناصر الأمنية من جيش وشرطة بكل أصنافها إلا بنظرات الخوف والريبة؛ كونها تمثل الميلشيات الشيعية الرسمية المعلنة والمخولة لقتل أهل السنة متى شاءوا وأينما شاءوا.

والمقام يطول في ذكر الانتهاكات الشيعية الحكومية بحق أهل السنة في بغداد بعد عام ٢٠٠٣م، وحسبنا بها رسالة، أن الأمة الإسلامية لو اتعظت مما جرى وما يجري في بغداد، لكفانا بذلك نصف الأمر الذي فطن له القائد قطز وأوقف الزحف المغولي صوب الشام ومصر، أما أن نكون الدرجة الأولى في سلم المشروع الصفوي الكبير فذلك هو الشقاء، وكما قيل: «أُكلت يوم أكل الثور الأبيض».

بغداد والطائفية الدينية:

شهد العالم الإسلامي صحوة إسلامية أضاءت بنورها أكثر بلدانه، وكان حظ بغداد منها موفورًا لاسيما في العقدين اللذين سبقا الاحتلال الأمريكي للعراق في عام (٢٠٠٣م)، فقد شهدت المدن ذات الأغلبية السنية ومناطق في المدن ذات الأغلبية الشيعية نشاطًا إسلاميًّا واسعًا.

وبعد احتلال بغداد، فإن الهوية الدينية للمجتمع البغدادي تعرضت لعمليات شاملة لمسخها، ومن أبرز الإجراءات العملية التي اتبعتها قوات الاحتلال ومن أيدها من الأحزاب الشيعية والعلمانية ضد الهوية السنية لمدينة بغداد، هي:

١- حملة تصفية كبيرة للعلماء وأئمة وخطباء المساجد والمصليين والكفاءات العلمية، اغتيالاً واعتقالاً وتهجيرًا؛ إذ تشير إحصاءات الوقف السني إلى استشهاد أكثر من (١٠٠٠) إمام وخطيب وخادم يعمل في مؤسسات الوقف، فضلاً عن اعتقال أكثر من (٣٥٠٠) منهم، ولا يزال أكثر من (٣٢٠) منهم معتقلاً في سجون القوات الحكومية، مع مئات المفقودين[١].

٢- إغلاق معظم المساجد وتدميرها، وحرقها مع المصاحف واغتصابها، وقتل أهلها ضمن خطة أمريكية - صفوية مشتركة بيد الميليشيات الطائفية المؤيدة من الحكومة والاحتلال؛ إذ تشير الإحصاءات إلى أنه لا يزال أكثر من (٥٣) مسجدًا مغتصبًا من قِبل الوقف الشيعي والميليشيات، (٤٣) مسجدًا مغلقًا بسبب التدمير الكامل، أو لحظر الميليشيات من فتحها على الرغم من المحاولات الكثيرة لديوان الوقف السني بإعادة فتحها[٢].

---

(١) ينظر، كتاب موسوعة الشهداء في ديوان الوقف السني بجزئين، سنة ٢٠١٢م.

(٢) ينظر، كتاب مساجد في وجه النار بجزئين، أعده مركز الرشيد للبحوث والدراسات الاستراتيجية يتحدث الكتاب عن حقبة مهمة من تأريخ العراق، وبالتحديد بعد تفجيرات سامراء، وما تلاها من هجمات منظَّمة على المساجد السنية في العراق.



جدول رقم (٥)

يوضح أسماء المساجد السنية المغتصبة والمغلَقة في بغداد

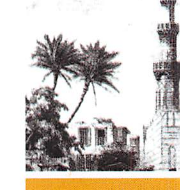
ت	اسم المسجد	المنطقة	حالته
١	المصطفى	الأورفلي	مغتصب
٢	زيد بن ثابت	بغداد الجديدة	مغتصب
٣	الفتح المبين	بغداد الجديدة	مغتصب
٤	أويس القرني	الحبيبية	مغتصب
٥	الأخوة الإسلامية	الحرية	مغتصب
٦	إسماعيل الخشاب	الحرية	مغتصب
٧	الأنصاري (الفاروق)	الحرية	مغتصب
٨	بركة الرحمن	الحرية	مغتصب
٩	الحرية الثالثة	الحرية	مغتصب
١٠	الدباش	الحرية	مغتصب
١١	دعاة الإسلام	الحرية	مغتصب
١٢	العباس	الحرية	مغتصب
١٣	القعقاع	الحرية	مغتصب
١٤	المهيمن	الحرية	مغتصب
١٥	نداء الله	الحرية	مغتصب
١٦	مجمع الأساتذة	حي البنوك	مغتصب
١٧	حذيفة بن اليمان	حي الرسالة	مغتصب حُوِّل لحسينية
١٨	الشكور	حي العامل	مغتصب
١٩	سيد الشهداء	حي جميلة	مغتصب
٢٠	القادسية	الدورة الميكانيك	مغتصب
٢١	الغفار	الزعفرانية	مغتصب

٢٢	المصطفى	الزعفرانية	مغتصب
٢٣	الحسن بن علي	ساحة بيروت	مغتصب
٢٤	كلية المعلمين	سبع أبكار	مغتصب
٢٥	الفرقان	السيدية	مغتصَب
٢٦	الرشاد	شارع الفلاح	مغتصب
٢٧	عبدالله بن مظعون	الشعب	مغتصب
٢٨	فخرية البيرماني	الشعب	مغتصب
٢٩	الإحسان 2	الشعلة	مغتصب
٣٠	البطاوي	الشعلة	مغتصب
٣١	الرحمة 3	الشعلة	مغتصب
٣٢	الرحمن	الشعلة	مغتصب
٣٣	سعيد بن زيد	الشعلة	مغتصب
٣٤	السلام	الشعلة	مغتصب
٣٥	الصحابة	الشعلة	مغتصب
٣٦	عبدالرحمن بن عوف	الشعلة	مغتصب
٣٧	المهاجرون والأنصار	الشعلة	مغتصب
٣٨	نور الإسلام	الشعلة	مغتصب
٣٩	هداية الله	الشورجة	مغتصب
٤٠	السيد إبراهيم	الشيخ عمر	مغتصب
٤١	أبو بكر الصديق	العامل	مغتصب
٤٢	الأقطاب الأربعة	العامل	مغتصب
٤٣	السبطين	العامل	مغتصب
٤٤	ضاري السامرائي	العامل	مغتصب
٤٥	علي بن أبي طالب	العبيدي	مغتصب



٤٦	الحمزة سيد الشهداء	الغزالية	مغتصب٦
٤٧	أبو يوسف الأنصاري	الكاظمية	مغتصب
٤٨	القدوس	الكاظمية	مغتصب
٤٩	طيبة	كراج السيد محمد	مغتصب
٥٠	سلمان الفارسي	المدائن	مغتصب
٥١	الرحمن الكبير	المنصور	مغتصب
٥٢	المصطفى	النهروان	مغتصب
٥٣	الصفا	نواب الضباط	مغتصب
٥٤	المصطفى	الأمين الثالثة	مغلق
٥٥	أبو القاسم	بغداد الجديدة	مغلق
٥٦	الإسراء والمعراج	بغداد الجديدة	مغلق
٥٧	الرسول -صلى الله عليه وسلم-	بغداد الجديدة	مغلق
٥٨	السامرائي	بغداد الجديدة	مغلق
٥٩	نصار	بغداد الجديدة	مغلق
٦٠	الجليل	البلديات	مغلق
٦١	ضيوف الرحمن	البلديات	مغلق
٦٢	خضير الجنابي	البياع	مغلق
٦٣	الرحمن	البياع	مغلق
٦٤	الكوثر	البياع	مغلق
٦٥	مصابيح الهدى	التاجي	مغلق
٦٦	الله أكبر	الحبيبية	مغلق
٦٧	الفاروق	الحرية	مغلق
٦٨	المصطفى	الحرية	مغلق
٦٩	أبو حامد	الحرية	مغلق/ مهدم

٧٠	الحرية الأولى	الحرية	مغلق/ مهدم
٧١	البديع	الحسينية	مغلق
٧٢	الصبار	الحسينية	مغلق
٧٣	النبي إسماعيل عليه السلام	الحسينية	مغلق
٧٤	النور	الحسينية	مغلق
٧٥	الرضوان	حي الميكانيك	مغلق
٧٦	الأقصى	الزعفرانية	مغلق
٧٧	المدرسة الوقائية	شارع النهر	مغلق
٧٨	السلام	الشعب	مغلق
٧٩	الشهيد	الشعب	مغلق
٨٠	الحق	الشعلة	مغلق
٨١	تكية المصطفى	العبيدي	مغلق
٨٢	الهدى	العبيدي	مغلق
٨٣	الخيرات	الكرادة	مغلق
٨٤	الحميدية	كسرة وعطش	مغلق
٨٥	القدس الشريف	كسرة وعطش	مغلق
٨٦	المحمدية	كسرة وعطش	مغلق
٨٧	أبو ذر الغفاري	الكمالية	مغلق
٨٨	أبو أيوب الأنصاري	المدائن	مغلق
٨٩	حليمة السعدية	مدينة	مغلق
٩٠	الأبرار	مدينة الصدر	مغلق
٩١	التكية الرفاعية	مدينة الصدر	مغلق
٩٢	الرسول الأعظم	مدينة الصدر	مغلق
٩٣	السجاد	مدينة الصدر	مغلق



٩٤	سيد الشهداء حمزة	مدينة الصدر	مغلق
٩٥	علي بن أبي طالب	مدينة الصدر	مغلق
٩٦	الجنيد	هور رجب	مغلق/ مهدم

٣- اتهام الإسلاميين السنة بالإرهاب؛ إرضاء للمحتل وتقوية للمشروع الصفوي في العراق.

٤- استهداف الرموز الإسلامية والهيئات والمؤسسات التابعة لأهل السنة، مثل قادة هيئة علماء المسلمين ومفتي الديار العراقية، وعلماء المجمع الفقهي العراقي، وأساتذة كليات الإمام الأعظم وكليات العلوم الإسلامية في جامعة بغداد والجامعة العراقية.

٥- منع المطبوعات الإسلامية بدعوى أنها إرهابية تكفيرية، فلا نجد محلاً واحدًا يبيع الكتب الإسلامية السنية في شارع المتنبي الذي يعد من أكبر شوارع بغداد لبيع الكتب، وتمت تصفية كثير من أصحاب المكاتب بسبب بيعهم لهذه الكتب.

٦- إغلاق المدارس الإسلامية وتشبيهها بمدراس طالبان.

٧- تأسيس مؤسسات وجمعيات وجامعات ذات توجه طائفي وقومي، وتوفير الدعم الحكومي والدولي لها بما يسمى مؤسسات المجتمع المدني، يقابله استهداف للمؤسسات السنية، فقد تم تغيير اسم الجامعة الإسلامية في مدينة الأعظمية، إلى الجامعة العراقية، وتغيير كثير من عمداء كلياتها واستبدالهم بشخصيات شيعية، وهنالك مشروع مقدَّم إلى وزير التعليم العالي والبحث العلمي السابق في تحويل كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد إلى جامعة أهل البيت، وبدءوا فعلاً بفتح أقسام جديدة مثل الحضارة والمالية، والمصرفية؛ تمهيدًا لتحويلها إلى كليات، ومن ثَم جامعة أهل البيت، كما صدرت توجيهات من وزارة التعليم العالي بعدم اعتماد مخرجات كلية الإمام الأعظم؛ الجامعة التابعة للوقف السني في جميع المؤسسات التابعة للوزارة، في خطوة لتضييق عملها.

٨- تسييس القنوات والإذاعات والمطبوعات الحكومية لصالح معتقدات وطقوس الحكومة الطائفية، وتشويه صورة الأئمة والخطباء في وسائل إعلام الحكومة والأحزاب المشكِّلة لها، وإكراههم على الاعتراف بجرائم وممارسات غير أخلاقية.

٩- استهداف المناطق ذات النشاط الإسلامي بحملات عسكرية مشتركة وبهجمات متواصلة من

قبل الميليشيات المدعوة، بغية إضعاف هذه المدن والمناطق عسكريًّا واقتصاديًّا ودعويًّا.

مصادرة الأوقاف السنية واغتصابها بعد ٢٠٠٣م:

عملت الحكومة الطائفية، ومن يواليها، على سرقة الأوقاف السنية في بغداد ومصادرتها، وتحويل ملكيتها إلى الوقف الشيعي أو للعتبات الشيعية[1]، فقد اشتهر العراق بكثرة الأوقاف فيه، واتخذ صورًا شتى منها المساجد والمدارس، والبنايات والدور، والأراضي والمزارع، وأكثر الأوقاف تم وقفها على جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة -رحمه الله-، وعلى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني -رحمه الله-، وشاعت الأعمال الوقفية زمن الدولة العثمانية، وبقيت هذه الأوقاف مصانة حتى مطلع القرن الحادي والعشرين.

ومع احتلال العراق في عام ٢٠٠٣م، بدأت ظاهرة الاستيلاء على الأوقاف السنية بشتى الصور، من قِبل جماعات شيعية بعضها ينتسب إلى منظمات وأحزاب، وبعضها الآخر ليس له انتماء، وقد تصاعدت وتيرة هذه التصرفات منذ عام ٢٠٠٦م من ناحيتين:

الأولى: فضلاً عن المساجد فقد بدأ وضع اليد على الأملاك والعقارات الموقوفة لأهل السنة، من محال تجارية وأسواق وأراضٍ زراعية، والعديد منها موقوف منذ مئات السنين.

وقد طالت هذه التجاوزات أوقاف السنة في كل المحافظات مثل كركوك والأنبار، وسامراء ونينوى وديالى، وبابل وبغداد، فضلاً عن المحافظات الجنوبية.

الثانية: بعد مرحلة وضع اليد على الأملاك بدأت مرحلة جديدة، وهي تحويل عائدية تلك الأوقاف في السجلات العقارية إلى ملك الوقف الشيعي بتحويل سندات ملكيتها كما حدث في وقفيات الآصفية والسوق الملحقة به، ووقف نجيب باشا في محافظة النجف في السوق، وجامع الحيدري في النجف، وفندق البراق في النجف أيضًا الذي اشتراه الوقف السني بعد الاحتلال بأمواله، وقفيات القاضي أبي يوسف في الكاظمية من محلات وغيرها، ووقف شعبان بيك في الديوانية، مستخدمين قوات الجيش والشرطة لتغيير سجلات العقار بالقوة.. وغيرها.

---

(١) ينظر، مقال «مصادرة أوقاف أهل السنة.. قراءة قانونية» للدكتور عبد الوهاب الدراجي، مجلة البيان، العدد ٣٣٧، رمضان ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.



إن المشكلة تكمن في أن بعض القوانين شرعت على حين غفلة من أهل الاختصاص وفي أوقات عصيبة لم يكن في بال أحد أن يفكر في مثل هكذا أمور وجزئيات أمام ما كان يعاني العراق من فتنة الاحتلال وآثاره، ومن تلك القوانين قانون ١٩ لسنة ٢٠٠٥م لإدارة العتبات المقدسة الشيعية، ونشر في الجريدة الرسمية بعددها المرقم (٤٠١٣) في ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٥م الذي قضى بعائدية إدارة العتبات المقدسة العائدة لآل البيت -رضي الله عنهم- للوقف الشيعي، ونصت المادة الثانية منه على ما يأتي (وغيرهم من أولاد الأئمة وأصحابهم الأولياء الكرام من المنتسبين إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام).

إن هذا القانون كان المتكأ لكل خطوة عرجاء سعت للاستحواذ على أموال المسلمين؛ حيث استغلتها جهات حكومية داخل ديوان الوقف الشيعي وخارجه.

وعند تدقيق النظر في هذا القانون وظروف تشريعه نخلص إلى نتائج مهمة، منها:

١- نصت المادة ٣٦/ج من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية على (يتخذ مجلس الرئاسة قراراته بالإجماع، ولا يجوز لأعضائه إنابة آخرين عنهم)، وقد أكدت على ذلك المادة ١٣٨/ خامسًا من الدستور التي نصت على (ترسل القوانين والقرارات التي يسنها مجلس النواب إلى مجلس الرئاسة لغرض الموافقة عليها بالإجماع)، وبما أن قانون إدارة العتبات المقدسة أعلاه تتم توقيعه من قبل السيد رئيس الجمهورية وأحد نوابه دون النائب الثاني فيكون هذا الإجراء باطلاً لمخالفته للقانون وللمادتين أعلاه فيكون هذا القانون باطلاً كما نعتقد، ولأن المادة ٣/ ب من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية والتي تنص على (إن أيَّ نص قانوني يخالف هذا القانون يعد باطلاً).

٢- إن مجلس الوزراء نفسه تنبه لمخالفة هذا القانون للمواد القانونية المنظمة لإصدار القوانين. فقد تم توجيه تعميم من مجلس الوزراء/ الأمانة العامة بعدد ق/ ٢/ ١/ ٢٧/ ١٦٤٣٦ في ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٥م موجه إلى المحكمة الاتحادية العليا، ومحكمة التمييز، والوزارات كافة، ومجلس القضاء الأعلى، والجهات غير المرتبطة بوزارة والسادة وزراء الدولة كافة، وكان موضوعه (تدقيق مشروعات القوانين)، ونص على ما يأتي: استنادًا لنص المادة ٥ من قانون مجلس شورى الدولة رقم ٦٥ لسنة ١٩٧٩م تقرر رفع مشروعات القوانين المعدة من قبلكم إلى مجلس شورى الدولة لتدقيقها قبل رفعها إلى الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

والذي حصل أن قانون ١٩ لسنة ٢٠٠٥م لم يتم عرضه على المجلس أعلاه، وإنما تم عرضه على الجمعية الوطنية العراقية، ومن ثَم المصادقة عليه من قبل رئاسة الجمهورية، هذه المصادقة غير دستورية، نتيجة توقيع أحد الأعضاء نيابة عن الآخر مخالفًا بذلك المادة ٣٦/ ج من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية فقد نصت (يتخذ مجلس الرئاسة قراراته بالإجماع ولا يجوز لأعضائه إنابة آخرين عنهم)، وعليه فهذا القانون لا يملك الشرعية من هذا الوجه القانوني أيضًا.

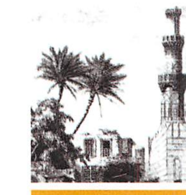
٣- إن هذا القانون شُرع بعد إنهاء العمل بقانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية وبعد انتهاء عمل الجمعية الوطنية، وبعد انتهاء الانتخابات، وبعد صدور الدستور، وتشكيل حكومة، وقد نصت المادة ١٤٣ من الدستور على إلغاء قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، وعلى هذا يعد قانون إدارة العتبات المقدسة الشيعية رقم ١٩ لسنة ٢٠٠٥م باطلاً؛ لكون تشريعه جاء بعد إلغاء قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، وقد نص فيه على تبعيته إلى قانون ديوان الوقف الشيعي.

ومن المعلوم عند العقلاء وأهل القانون أن قانون المتبوع يصدر قبل قانون التابع، بينما نجد العكس قد حدث: فقد صدر قانون إدارة العتبات المقدسة آنف الذكر، وقضى بتبعية العتبات المقدسة لديوان الوقف الشيعي الذي لا يزال قانونه مشروعًا قيد المناقشة وإلى وقت قريب، والهدف من هذا واضح، وهو تمرير هذا القانون دون التنسيق مع الديوان الذي لا يزال مشروع قانونه قيد المناقشة.

٤- إن هذا القانون نشر بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٥م أي بعد الانتخابات بـ(١٣) يومًا فقط؛ حيث جرت الانتخابات يوم ١٥/ ١١/ ٢٠٠٥م، ومن المعلوم أن الحكومة آنذاك كانت حكومة تصريف أعمال، ولا يحق لها تشريع مثل هكذا قوانين، ومما لا يخفى أن هذا القانون نشر في نفس اليوم الذي صدر فيه الدستور ونشر بالوقائع العراقية بالعدد ٤٠١٢ في ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٥م، بينما تسلسل قانون العتبات كان ٤٠١٣ في ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٥م.

٥- إن القانون السابق المنظِّم للعتبات المقدسة رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٦م لم ينص على عائدية العتبات المقدسة إلى أي جهة أو طائفة، مجسدًا بذلك الوحدة الوطنية، والتي تعني انتماء كل العراقيين لهؤلاء الأئمة.

٦- إن هذا القانون وبالتحديد المادة الثانية منه تفتح الباب على مصراعيه للاستيلاء على كل ما يمت إلى أهل البيت بصلة قريبة أو بعيدة، فيمكن بعد ذلك أن نفاجأ بأن جامع الإمام الأعظم أبي



حنيفة النعمان ببغداد يعود لديوان الوقف الشيعي؛ لأن بعض الروايات تدعي أن أبا حنيفة قد لقي الإمام جعفر الصادق رضي الله عنهما.

٧- إن القانون ١٩ لسنة ٢٠٠٥م تضمن أن يؤسس في ديوان الوقف الشيعي بموجب هذا القانون (دائرة العتبات المقدسة والمزارات الشيعية الشريفة) تتولى إدارة وتسيير شئون العتبات والمزارات والعناية بها، ولم يتطرق إلى نقل ملكية تلك العتبات والمزارات باسم ديوان الوقف الشيعي، ثم من المهم بمكان أن هذا القانون على عوجه وعدم قانونيته لا ينص على التملك، وإنما ينص على إدارة هذه الأوقاف، وليس ملكيتها، لكننا نجد أن الوقف الشيعي بالتواطؤ مع وزير العدل قد صيَّر هذا القانون قانون استملاك، ولا أدري من أين لهم هذا الفهم الذي لا نص فيه.

إذ إن القانون تم تشريعه استنادًا إلى أحكام المادتين ٣٣/ أ.ب و٣٧ من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية بعنوان: (قانون إدارة العتبات المقدسة والمزارات الشيعية الشريفة)، بينما كان عنوان القانون السابق هو: (قانون إدارة العتبات المقدسة رقم٢٥ لسنة ١٩٦٦م)؛ حيث لم يحدد طائفة معينة، فلكل طائفة مقدساتهم، وقد يشتركون في نفس الولاء والتبعية للإمام.

فنلاحظ بوضوح أن هذا القانون مع كونه طائفيًّا إلا أنه لم يتحدث عن استملاك تلك المراقد والمقابر والأوقاف، بينما يصر المسئولون في الوقف الشيعي ووزارة العدل وهيئة دعاوى الملكية أن من حق الوقف الشيعي تحويل ملكية هذه الأوقاف إلى الوقف الشيعي!!

وتمت هذه العملية بدعم الجهاز القضائي، فقد صار واضحًا للقاصي والداني أن القضاء العراقي في عمومه صار تابعًا للسلطة التنفيذية، ولا يمكن الوثوق بحياديته مطلقًا، ففي هذه القضية مثلاً يعطي القضاء لديوان الوقف الشيعي سلطة لا يمتلكها هذا الديوان؛ حيث يوجه السيد رئيس هيئة دعاوى الملكية كتابًا يعطيهم الحق بتسجيل العقارات مباشرة من دوائر التسجيل العقاري وكأنهم سلطة تنفيذية والكتاب بالعدد- خ/ ١/ ١٢٢ في ٣/ ٤/ ٢٠١٢م) جاء فيه:

إلى ديوان الوقف الشيعي مكتب رئيس الديوان

م/ تسجيل مرقد

نؤكد كتابنا ذي العدد ٣/ ٢/ ٢٣٩ المؤرخ ٢/ ٤/ ٢٠١٢م، المتضمن أن موضوع العتبات المقدسة والمزارات الشيعية الشريفة محكومة بنص قانون ١٩ لسنة ٢٠٠٥م، وهو قانون نافذ لا مجال لإيقافه أو بحث توزيع الأوقاف المشمولة بأحكامه ما بين وقفكم وديوان الوقف السني، وعليه فإنه بإمكان ديوانكم مراجعة دوائر التسجيل العقاري مباشرة، وتسجيل إدارة جميع الأوقاف موضوع بحث كتابكم أعلاه باسم ديوان الوقف الشيعي.. انتهى.

فهل يمكن لهيئة قضائية تحترم القانون الإيعاز بمثل هذا الأمر؟!

علمًا بأن لجنة الفك والعزل وحدها هي المختصة بتحديد عائدية العقارات الوقفية المتنازع عليها، وليس ذلك من اختصاص هيئة دعاوى الملكية إطلاقًا، فهذا إجراء غير قانوني.

لجنة الفك والعزل:

وقد شكلت لجنة للبت بعائدية العقارات الوقفية التي كانت مسجَّلة باسم وزارة الأوقاف الملغاة لأيٍّ من الديوانين هي لجنة الفك والعزل المشكَّلة بموجب القرارين ٨٢ و٩٨ لسنة ٢٠٠٣م، ولا يحق لأية جهة أخرى تحديد عائدية أي عقار إلى أحد الوقفين وفقًا للضوابط المعتمدة لها والمصادق عليها دولة رئيس الوزراء والمعممة بموجب تعميم الأمانة العامة لمجلس الوزراء بالتعميم المرقم ش ل / أ/ ٦/ ٧/ ١٦٢٧٤ في ٧/ ٧/ ٢٠٠٨م، والمعممة أيضًا بتعميم مجلس القضاء الأعلى إلى كافة المحاكم بموجب التعميم المرقم ١٧٦٦/ ع ق/ ٢٠٠٩م/ في ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٩م.

ونص هذا القانون على الآتي:

١- تحديد عائدية الوقف من خلال الاطلاع على الحجة الوقفية، وشرط الواقف، وفي حالة عدم وجود حجة وقفية يتم الاعتماد على ما يأتي:

أ- مذهب الوقف.

ب- شرط الواقف.

جـ- القسام الشرعي للواقف.

د- حسب الأولوية، ويمكن إضافة قرائن أخرى.



٢- المناصفة بين الديوانين للأوقاف المشتراة أو المبنية من قبل وزارة الأوقاف الملغاة أو ديوان الأوقاف السابق، على أن تُستثنى من ذلك الأوقاف المشتراة والمبنية من قِبل هيئة إدارة واستثمار أموال الوقف إذا أمكن إرجاعها إلى أصولها الأولية، وإن لم يمكن ذلك يتم اقتسامها مناصفة.

٣- أوقاف الحكام والسلاطين السابقين تكون مناصفة بين الوقفين إلا إذا تم إثبات أن الحاكم قد تملك العقار من ماله الخاص، ثم أوقفه وبما يعرف بـ(الأوقاف الصحيحة).

٤- عند استنفاذ القرائن كافة وفي حالة بقاء بعض أوقاف الله بدون الاتفاق عليها تُحال إلى القضاء للنظر فيها.

٥- المقابر المندرسة الخالية من الاستغلال والأبنية (يسميه السند العقاري مقبرة) تكون حسب أكثرية مذهب المدفونين بالاستناد إلى السجلات المعتمدة لذلك إن وُجدت، وفي حالة عدم وجود سجلات تثبت ذلك يرجع إلى أكثرية الساكنين في المنطقة التي تقع فيها المقبرة، وفي حالة عدم الوصول إلى نتيجة تكون مناصفة بين الوقفين.

٦- المقابر المندرسة المستغلة تخضع إلى الضوابط المختصة بالمقابر المندرسة أعلاه، أما بالنسبة للأبنية فتعود إلى الوقف صاحب الأرض، وفي حالة عدم إثبات عائدية الأرض تكون الأرض والمشيدات مناصفة بين الوقفين.

وعلى الرغم من أن أمر الموقوفات قد شُرع وقُنِّن نجد أن الوقف الشيعي، وبإسناد من بعض الأجهزة الحكومية قد تجاهل هذه القوانين والأحكام، فنجد أن الوقف السني يمتلك كل أو معظم الحجج الوقفية، والأدلة على عائدية هذه المراقد والمقابر والعقارات، والكثير منها سندات عثمانية، وواقع الحال يشهد بذلك، إلا أن الوقف الشيعي بمساعدة وزارة العدل سارع إلى تحويل عائديتها وامتلاكها، ضاربًا عرض الحائط بكل القوانين المنظِّمة لهذا الأمر؛ حيث قانونهم الوحيد التفرد بالسلطة، واستخدام القوة كما حدث في جامع الآصفية الذي طوقته القوات الأمنية، وأخلت الجامع، وطردت الإمام، وأمرت أصحاب المحال بتسديد بدل السكن للوقف الشيعي.

وهناك العديد من المقابر التي تم وضع اليد عليها تعود ملكيتها والمدفونون فيها لأهل السنة بحكم الوثائق والوقفيات، إلا أننا نجد الوقف الشيعي وضع اليد عليها، منها في بغداد وفي صلاح

الدين، وفي كركوك، وفي ديالى وغيرها، ومن المعلوم أن الشيعة يدفنون موتاهم غالبًا في مدينة النجف، لكننا نجد الوقف الشيعي يستملك العديد من المقابر في مختلف المحافظات.

وبالنسبة للمساجد والعقارات فهناك العشرات منها تم وضع اليد عليها مع وجود السندات والوقفيات وما يثبت عائديتها، ولكن تم وضع اليد عليها لا لشيء إلا لأنها أصبحت الآن في مناطق ذات أغلبية شيعية، علمًا بأنه لا يوجد قانون ولا تشريع ولا نص يجيز للأكثرية الاستيلاء على أموال الأقلية لا في الدولة ولا في المحافظات ولا في الأقضية والنواحي.

وخلال هذا العام وضع الوقف الشيعي يده على بناية سكنية يملكها الوقف السني بحي الكرادة ببغداد، وتم إخطار سكانها بتسديد بدل الإيجار إلى الوقف الشيعي بحكم قوة الميليشيات وقوة العسكر، وأخرى في منطقة باب المعظم في وسط بغداد، وعلى نفس النحو.

جدول رقم (٦)

يوضح الأوقاف والمساجد السنية المغتصبة في بغداد

نوع الوقف المغتصب	العدد	حالته
المساجد	١٠٧	بين مغلَق ومهدَّم ومغتصَب ومحوَّل لحسينية.
العقارات التجارية والزراعية	٦٠	بنايات ومحال تجارية، وعمارات في الكاظمية والسعدون والشيخ عمر، وباب المعظم والكرادة، وغيرها، وأراضي مسطحة وشقق سكنية، وكراجات، وأسواق ومزارع.

الدور الديني لأهل السنة في بغداد:

على الرغم من شدة التحديات وما يعتري عمل أهل السنة في بغداد من ضعف في الدعم والتخطيط والتراص المنضبط، والتكاملية في الأداء، إلا أننا نؤشر عن أنشطة جبَّارة في ظل هذه الظروف، ومنها:

- تعزيز وتفعيل الدور الاجتماعي للمساجد؛ من خلال قيام أهل المساجد من أئمة وخطباء ومصلين بإدارة المناطق؛ من حيث حمايتها، وتوفير المواد الغذائية والطبية اللازمة لأبنائها.

- تعزيز العمل الجماعي والتنظيمي للإسلاميين؛ من خلال تأسيس هيئات وكيانات وجمعيات إسلامية اتخذت من مساجد بغداد الكبرى مقرًّا لها، مثل هيئة علماء المسلمين في جامع أم القرى، والهيئة



العليا للدعوة والإفتاء في جامع أم الطبول، والأمانة العامة للتدريس والإفتاء في جامع نداء الإسلام، وآخرها المجمع الفقهي العراقي لكبار العلماء للدعوة والإفتاء الذي اتخذ من جامع الإمام الأعظم في الأعظمية مقرًّا عامًّا له.

- تنشيط وتفعيل المؤسسات الإسلامية، ولاسيما المساجد؛ من خلال استبدال العناصر السيئة والفاسدة وغير المؤهلة ولا ذات الكفاءة، وإناطة إدارة هذه المؤسسات بعناصر ذات كفاءة تتمتع بالأهلية العلمية والقيادية.

- مواجهة مشاريع تمزيق نسيج المجتمع العراقي وإغراقه في الطائفية بصورتها الدموية، أو التقليل من حدتها وآثارها الاجتماعية، من خلال عقد اتفاقيات بين المؤسسات السنية والشيعية وحتى الكنائس، للحفاظ على أمن المناطق وفض النزاعات التي نشبت بعد الاحتلال، ومن أبرزها تشكيل لجان مختصة باسترجاع المساجد المغصوبة من قبل الميليشيات.

الحالة الاقتصادية:

إن الحديث عن الحالة الاقتصادية لبغداد بعد ٢٠٠٣م متشعب ومؤلم، ولكننا من باب الإيجاز سنقف عند صورتين توضحان معالم الفساد الاقتصادي، وهما:

أولاً: الفساد المالي للحكومات في بغداد:

لقد وجدت الأحزاب الشيعية والعلمانية مصدرًا لتمويلها؛ من خلال سيطرتها على موارد العراق ومقدراته السياسية والاقتصادية والسيطرة على موارد النفط، وما ظاهرة الفساد المالي والإداري المنتشرة من أعلى الهرم في الحكومات التي تولت الحكم من بعد الاحتلال وإلى يومنا هذا وحتى أصغر موظف إلا دليل آخر على قوة هذا المصدر التمويلي للأحزاب، ونعرض مقتطعات من أقوال بعض أعضاء مفوضية النزاهة في العراق ونخبة من خبراء الاقتصاد تؤكد ذلك، منها:

- يقول رئيس هذه المفوضية القاضي راضي: «إن الفساد في العراق وصل اليوم إلى درجة لا تُطاق، وإن الفاسدين يحتمون بالحصانة البرلمانية وبمناصبهم السياسية»[1].

- تحقق هيئة النزاهة في العراق بأكثر من ٢٥٠٠ قضية فساد أدت إلى إهدار نحو ٨٠ بليون دولار

---

(١) برنامج ما وراء الخبر الذي بثته قناة الجزيرة بتاريخ، ٤/ ١١/ ٢٠٠٦م.

منذ الاحتلال الأمريكي في العام ٢٠٠٣م. وقال الناطق باسم الهيئة علي الشبوط لصحيفة «الحياة»: إن الهيئة «تتعرض لضغوط من أطراف سياسية رفيعة المستوى لم يرق عملنا لها».

- وكشف الملتقى الوطني الأول لمكافحة الفساد الذي عُقد في بغداد عن أن العراق يحتل المركز الثاني عالميًّا في هرم الفساد المالي والإداري، مشيرًا إلى ضرورة تعاون السلطات الثلاث في مكافحته.

وحمَّل الدكتور عبدالأمير كاظم (ممثل بيت الحكمة.. أحد منظمات المجتمع المدني في العراق الذي تأسس عام ١٩٩٥)، المحاصصةَ الطائفية مسئولية استشراء الفساد في العراق، مشيرًا إلى أن «الفساد يقوِّض التجربة العراقية»، وأشار كاظم إلى أن «الميزة الأخرى للفساد في العراق هي أنه فساد مسلح.. يحتمي بقوة جماعات دينية وعشائرية وسياسية»[١].

- بثت قناة (البي بي سي) في ٣/ ٢/ ٢٠٠٦م، تقريرًا عن فريق المدققين الذي أرسله الكونجرس الأمريكي للتحقيق في اختفاء (٩ مليارات دولار) في العراق أثناء فترة تولي سلطة الاحتلال لإدارة الحكم في العراق، ولم يحصل المفتش الخاص لعمليات إعادة الإعمار في العراق (ستيوارت بوين) الذي قاد فريق المدققين على أية نتيجة تُذكَر عن مصير ٩ مليارات دولار، وذكر التقرير أن المحسوبية والولاءات الحزبية طغت بشكل واضح على مشاريع الإعمار.

في تقرير لهيئة النزاهة في ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٦م، كشف علي الشبوط (أن الهيئة أصدرت مذكرات باعتقال ٨٨ مسئولاً حكوميًّا سابقًا، بينهم ١٥ وزيرًا ووكيل وزارة، بتهم الفساد المالي والإداري، كما طالبت الهيئة الشرطة الدولية (الإنتروبول) بالقبض على ٦١ مسئولاً حكوميًّا موجودًا في الخارج، وقال الشبوط: إنه بذلك يصبح مجموع المطلوبين بتهم فساد من رجالات الدولة ١٤٩، مؤكدًا أن حجم السرقات حُدِّد من قبل هيئة النزاهة بمبلغ ٧,٥ مليار دولار)[٢].

- وصرح بوتس بوليكين مدير مكتب المحاسبة والشفافية الأمريكي -الذي أُقيم حديثًا في بغداد- بأنه يعمل على تشكيل مجلس مشترك لمحاربة الفساد؛ لمساعدة الأجهزة الرقابية العراقية على العمل سويًّا بشكل أفضل، وأبلغ بوليكين مؤتمرًا صحفيًّا في بغداد أن أكثر الوزارات العراقية تعرُّضًا لمزاعم الفساد هي وزارة النفط، ثم وزارة الداخلية، ووزارة الدفاع.

---

(١) شبكة نبأ المعلوماتية الخميس ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٦م.
(٢) المشهداني، سعدون، شبكة البصرة، الأحد ٢٣ رمضان ١٤٢٧هـ، ١٥ تشرين الأول ٢٠٠٦م.



ويقول منتقدون: إن الوزارات العراقية تُدار كإقطاعيات للحزب المسئول عنها مع تفشي المحسوبية والفساد، لاسيما في قطاع النفط. ووجدت مراجعة حسابية رعتها الأمم المتحدة العام الماضي أن مئات الملايين من الدولارات من إيرادات النفط قُيِّدت بصورة خاطئة أو أنها ببساطة فُقِدَت بالكامل في ٢٠٠٥م.[(١)]

ولا يخفى على أحد مَن الذي يتحكم بوزارات النفط والمالية والداخلية؟ ومن هي الأحزاب المتنفذة في الحكومات والوزارات والدوائر العائدة؟ ومن هم أصحاب عقود تصدير النفط ونقله؟!

ثانيًا: معركة المصارف:

أولى سماسرة السياسة العراقيين، أو سراق المصارف، كعادل عبدالمهدي وقضية مصرف الزوية، وأحمد الجلبي وصولاغ وقضية وزارة المالية وغيرها، أولى هؤلاء اهتمامًا كبيرًا في الاستيلاء على المصارف الحكومية وغيرها، مما عجَّل بالانهيار الاقتصادي للعراق على الرغم من ارتفاع أسعار النفط، وزيادة حصة العراق في تصديره، وسنعرض بإيجاز لقطات من حرب المصارف التي تولى كبرها حكام بغداد الجدد بعد الاحتلال، الذين يخضعون لأجندة إيران، منها[(٢)]:

١- قبل عام ٢٠٠٣م كانت عدد المصارف في العراق لا يتجاوز الـ(٢٢) مصرفًا، سبعةمنها حكومية، والباقي أهلية، أو ما يعرف بخمسين زائد واحد[(٣)]، وما بعد عام ٢٠٠٣م أصبحت المصارف قرابة الواحد والستين مصرفًا يغلب عليها الطابع العائلي، وهي ما تعرف بمصارف العائلات الغنية.

٢- قضية المصرف التجاري العراقي: وهو من أوائل المصارف الأهلية التي أنشأها الحاكم المحتل المدني للعراق بول بريمر باستشارة من أحمد الجلبي عراب المحتل الأمريكي، وغيره من سراق المال العام، والغريب بالأمر أن هذا المصرف غير خاضع لقانون المصارف العراقية الأهلية، فعده البعض حكوميًّا وغير خاضع أيضًا لسلطة البنك المركزي العراقي، ولا لوزارة المالية أو أمانة مجلس الوزراء!

تجري عن طريقه فقط كل معاملات الدولة بوزاراتها، واستثماراتها الأجنبية، وصادراتها

---

(١) شبكة النبأ المعلوماتية، الثلاثاء ١٠ نيسان ٢٠٠٧م.

(٢) تم تسجيل المعلومات عن حوار أجريناه مع مسئولين كبار في البنك المركزي العراقي ووزارة المالية ووزارة الداخلية.

(٣) أي أن نسبة الأسهم الحكومية في تلك المصارف هي ٥١٪.

ووارداتها، ولا يحق لأيّ مصرف عراقي حكومي، أو غير حكومي مخاطبة البنوك العالمية؛ لاعتماد ضمانات المستثمرين، أو مخاطبات الوزارات العراقية المالية إلا عن طريق المصرف التجاري العراقي، وهو من يقوم بتوزيع استثمارات الشركات الأجنبية على بقية المصارف العراقية بعد استقطاع ٥٪ من قيمة الاستثمارات ٤٪ منها للمصرف التجاري العراقي، و١٪ المتبقي للمصرف العراقي المعتمد أو المعين، وبعد التقصي عن النظام الداخلي لهذا المصرف والحديث مع بعض العاملين فيه تبين أنه لا يخضع للسياسة المالية العراقية التي رسمها البنك المركزي العراقي.

بل يعتبر من الناحية العملية فرعًا من فروع مصرف جي بي مورغان الأمريكي، يهدف إلى فرض الرقابة المالية على الأموال العراقية الرسمية، وإن سلسلة الحرائق المفتعلة التي نشبت بعد اتهامات لجنة النزاهة البرلمانية لوزير المالية (بيان جبر صولاغ) بسرقة المال العام حدثت وبالتزامن في وزارة المالية لتلتهم بعض المستندات التي لا يوجد لها نسخ احتياطية إلا في المصرف التجاري العراقي الذي حُرِق هو الآخر، وبنفس يوم حريق وزارة المالية، ثم تلاهما حريق البنك المركزي الطابق الثاني الإداري الذي يحوي على مخزن للوثائق السرية التي تثبت تورط وزير المالية العراقي صولاغ بالتهم المنسوبة إليه من عام ٢٠١٢م.

٣- قصة مصرف الوركاء: الذي كان يعد من المصارف العراقية المعتمدة والرائدة في عالم الثقة المصرفية، وبسبب امتناعه عن التعامل مع بعض المعاملات المالية المشبوهة التي طلب منهم وزير المالية صولاغ القيام بها، عمل الأخير على محاربة هذا المصرف، وتسقيطه داخل العراق، وسحب إيداعات الدولة الضخمة التي كانت تعتبر حجر الزاوية لهذا المصرف العريق، وترويج دعايات إفلاسه بالكامل وحجب الثقة عنه، وعدم السماح لهذا المصرف بالتصرف في أملاكه الموجودة في عمان، وبيعها لتسديد إيداعات الزبائن، واستمرت قضية مصرف الوركاء قرابة خمس سنوات في محاكم الاستئناف، ولم يحسم القضية لصالح هذا المصرف إلا بعد رحيل صولاغ عن وزارة المالية.

ومما يجدر ذكره أن مصرف الوركاء يعتبر المصرف الأهلي الوحيد الذي يسعى لاسترجاع ثقة زبائنه عن طريق بيع أملاكه في الأردن، على عكس بقية المصارف الأهلية العراقية التي يغلب عليها سرقة أموال الإيداعات، وفرض الوصاية من قِبل البنك المركزي، أو يتم ضمها إلى المصارف الحكومية الأخرى كسداد للديون.



٤- قضية تهريب العملة الصعبة إلى خارج العراق عن طريق المصارف الأهلية، وأهمها مصرف إيلاف التابع للمجلس الأعلى (بيت الحكيم)، ومصرف التعاون الإسلامي التابع للمجلس الأعلى، مع مساهمة إيرانية بقيمة ٤٨٪، والمصرف الوطني الإسلامي التابع لآل الصدر، وكل هذه المصارف حظرت الولايات المتحدة الأمريكية التعامل معها؛ كونها تموِّل الحرس الثوري الإيراني، وميليشيات الشيعة في العراق وخارجه، لكن الحقيقة أن تلك المصارف ما زالت تواصل عملها داخل العراق بشكل طبيعي دون مضايقات قانونية.

ومن أساليب تهريب العملة الصعبة خارج العراق: تقوم شركة فلاي بغداد التابعة لعمار الحكيم أحد قيادات المجلس الأعلى الإسلامي ببيع تذاكر السفر، وصورة من جواز الزبون الحاجز على متن تلك الشركة بمبلغ قدره (١٠٠٠٠٠) دينار عراقي، ليقوم البنك المركزي العراقي بصرف العملة الصعبة لتلك المصارف؛ بهدف تزويد العملاء، والحقيقة هو ما يتم من تهريبها إلى الخارج، وبهذه الطريقة ينفذ المصرف من المساءلات القانونية عن بيعه للدولار بالكميات الكبيرة.

٥- تصفير الاحتياط النقدي العراقي الموجود في البنك المركزي في ولاية رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، والتي بدأت منذ عام ٢٠٠٨-٢٠١٤م؛ حيث أعلن وزير المالية هوشيار زيباري عن فراغ الخزينة العراقية حتى من الاحتياط النقدي بالكامل، والتي تم نقلها إلى إيران بسيارات إيرانية بدون ألواح ترقيم، وبسبب ضغوطات البنك الدولي على العراق في مطالبته بالكشف عن قضايا غسيل الأموال، وتهريب الخزينة العراقية، باشرت وحدة غسيل الأموال التابعة للبنك المركزي العراقي التحقيق في الأمر، وبعد اتهام قادة الميليشيات وعلى رأسهم رئيس الوزراء العراقي (وبيت الحكيم، وبيت الصدر، وبيت الجلبي، وهادي العامري، وعادل عبدالمهدي، وقيس الخزرجي، وغيرهم كثير) بالسرقة، وغسل الأموال، حولت وحدة غسيل الأموال من تبعيتها للبنك المركزي العراقي إلى وزارة الداخلية العراقية؛ لحماية رءوس الفساد المالي الذين يتربعون على دوائر وزارة الداخلية، ويسيطرون عليها بشكل محكم ليتم غلق ملف القضية.

٦- وفي تقرير سري للبنك المركزي العراقي أظهر أن معظم المصارف العراقية الأهلية على حافة السقوط والإفلاس، أو أنها فعلاً مفلسة ولا تقوى على سداد إيداعات الزبائن، الأمر الذي بدأ يستشعره العراقيون، فالمصارف لا تعطي الإيداعات كاملة، وكمثال لذلك ذكر لنا أحدهم أنه أودع في

مصرف الخليج ٦٥٠ مليون دينار عراقي، وفي كل مرة يطالب بسحب المبلغ يتم إعطاؤه خمسة ملايين دينار فقط.

٧- ومن الضغوطات التي يمارسها رجال السياسة العراقية على المصارف الحكومية في بغداد: إجبارها على إعطاء سلف تشغيلية للشركات العاملة في المشاريع العراقية، وهذا مخالف للنظام الداخلي لهذه المصارف، والتي لا يحق لها أن تعطي سلف تشغيلية إلا لدوائر الدولة التي تمتلك الإيداعات الكافية في تلك المصارف الحكومية، ولنفس فروع الدائرة المعنية، ومما زاد الطين بلة أن تلك الشركات العاملة في العراق اليوم لا يمتلك أغلبها خطابات ضمان داخل بلدانهم القادمين منها فضلاً عن العمل في العراق، والنتيجة سرقة السلف التشغيلية، وتقاسمها مع المسئول الميسر لسحب السلفة خارج العراق ليتم بها بعد ذلك تمويل فرق الموت العاملة في سوريا والعراق واليمن.

٨- وأخيرًا موافقة الحكومة العراقية على خصخصة المصارف الحكومية ذات الإيداعات العملاقة كأحد شروط قروض البنك الدولي؛ لتجاوز الأزمة المالية العراقية، وهذا ما ينذر بالخطر الكبير لتعرض المصارف الأهلية وباستمرار لعمليات السرقة، الأمر الذي يعرض إيداعات العراقيين لهذا الخطر.

يُذكر أن حجم إيداعات العراقيين في مصرف الرافدين العراقي قرابة (٧٤٩٠٦٤٤٤) مليون دينار عراقي، بعد حذف (٦) أصفار من الرقم، ليتم حسابه بالمليون العراقي، وإيداعات مصرف الرشيد بلغت (١٤٥٧٧٥٨٩) مليون دينار عراقي، فما بالك بالمصارف الحكومية الأخرى؟!




جامع النداء



المصادر





١) آ.آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط، ترجمة: عبدالهادي عبلة، أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.

٢) أرنولد، سير، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٤٧م.

٣) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد، (ت٦٦٧هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، طبعة مصر.

٤) ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني، (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، المطبعة المنيرية، ١٩٣٨م.

٥) ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي، (ت٥٩٧هـ):

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، بغداد.

- مناقب بغداد، مطبعة دار السلام، ١٩٢٣م.

٦) ابن الساعي، علي بن أنجب، (ت٦٧٤هـ)، الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير، تحقيق: مصطفى جواد طبعة، دار المعارف.

٧) ابن الصيرفي، الخطيب الجوهري علي (ت٩٠٠هـ)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، تحقيق، حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٧٠م.

٨) ابن العبري، أبو الفرج بن هارون، (ت١٢٨٦هـ)، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٩٠م.

٩) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر بيروت، (د.ت).

١٠) ابن العربي، محمد بن عبدالله أبو بكر، (ت٥٤٣هـ)، العواصم من القواصم، قدم له وعلق عليه، محب الدين الخطيب، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.

١١) ابن العماد الحنبلي، أبو فلاح عبدالحي، (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.

١٢) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد المعروف، (ت٥٨٠هـ)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، المحقق، قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٣) ابن الفقيه، أحمد بن محمد الهمداني، (ت٢٨٩هـ)، مختصر كتاب البلدان، مطبعة أبريل ١٨٨٥م.

١٤) ابن الفوطي، عبدالرزاق بن الفوطي البغدادي، (ت٧٢٣هـ):

- الحوادث الجامعة، طباعة المكتبة العربية، بغداد ١٩٣٢م.

- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: مصطفى جواد، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٥م.

١٥) ابن المقفع، شرف الدين، الأدب الكبير والأدب الصغير، المؤسسة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٦٤م.

١٦) ابن النديم، محمد بن إسحاق، (ت٣٨٠هـ)، الفهرست، طبعة مصر، ١٩٢٩م.

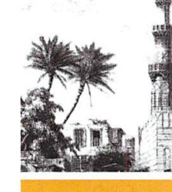
١٧) ابن الوردي، زين الدين عمر، (ت٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، ط١ (د. م)، ١٩٦٩م.

١٨) ابن إياس، الحنفي، محمد بن أحمد، (ت٩٠٨هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٩) ابن بشير، عثمان بن عبدالله، سوابق عنوان المجد في تاريخ نجد، (د.م)، (د.ت).

٢٠) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله الطنجي، (ت٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة، مطبعة مصطفى محمد، ١٩٣٨م.

٢١) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٣م.



٢٢) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

٢٣) ابن تيمية، أبو العباس أحمد عبدالحليم بن تيمية الحراني، (ت٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق، عبدالرحمن بن محمد العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، (د.م)، (د.ت).

٢٤) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، (ت٦١٤هـ)، رحلة بن جبير، مطبعة حنفي بمصر ١٩٣٧م.

٢٥) ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، (ت٣٦٧هـ)، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م.

٢٦) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت٨٠٨هـ)، المقدمة، دار القلم، ط٥، بيروت، ١٩٨٤م.

٢٧) ابن خلكان، شمس الدين أحمد، (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م.

٢٨) ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر، (ت٨٥١هـ)، طبقات الشافعية، تحقيق: عبدالعليم خان، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٢٩) ابن كثير، الحافظ أبو الفدا إسماعيل بن عمر، (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، طبعة دار المعارف، بيروت ١٩٦٦م.

٣٠) ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، (ت٤٢١هـ)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، المحقق: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، ط٢، ٢٠٠٠م.

٣١) أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، (ت٧٣٢هـ):

- تقويم البلدان، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).

- المختصر في أخبار البشر، تحقيق، محمود ديوب، دار الكتب المصرية، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

٣٢) أبو بكر الطهراني، حرر هذا الكتاب في سنة ٨٧٥هـ، ديار بكرية، بتصحيح واهتمام، نجاتي لوغال وفاروق سومر، أنقرة، ١٩٦٢م.

٣٣) أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو، (ت٢٤٥هـ)، المحبر، إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٣٤) أبو زهو: محمد محمد، الحديث والمحدثون، دار الفكر العربي، القاهرة ط٢، ١٣٧٨هـ.

٣٥) أبو شهبة: محمد بن محمد بن سويلم، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، دار الفكر العربي- القاهرة.

٣٦) أبو طبيخ، جميل، مذكرات بغداد مراجعة في تاريخ الصراع الطائفي والعنصري، ٢٠٠٧م.

٣٧) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد الأنصاري، (ت١٨٢هـ)، تحقيق: طه عبدالرءوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة.

٣٨) أحمد، إبراهيم خليل، (تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩-١٩٣٢، بغداد، ١٩٨٢م.

٣٩) أحمد، أحمد عبدالرزاق، العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٤٠) أحمد سوسة، مصطفى جواد وآخرون، بغداد، مطبعة رمزي، بغداد، ١٩٦٩م.

٤١) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١ بيروت، ٢٠٠١م.

٤٢) إسماعيل، د. فائزة، كتاب التاريخ السياسي للخلافة العباسية الموقع الإلكتروني fsejiny. kau.edu.edu.sa

٤٣) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٤٤) الأعظمي، علي ظريف، الدول الفارسية في العراق، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٥م.

٤٥) الآلوسي، سالم، مقال في جريدة المدى، عدد٣٢١٧، في ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م.

٤٦) الآلوسي، محمود شكري، (ت١٣٤٢هـ)، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، مطبعة دار السلام بغداد ١٩٢٧م.



٤٧) أمين، فتاح عزيز محمد، الجوانب الاجتماعية في كتاب ابن تغري بردي، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى مجلس معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، ٢٠٠٨م.

٤٨) أمين، محمد، مواقف فكرية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٠م.

٤٩) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ترجمة: أحمد إيبش، دار المدى، ط١، بغداد، ٢٠٠٥م.

٥٠) إينالجيك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناءوط، دار المدار، لبيا، ٢٠٠٢م.

٥١) البدري، رشيد البدري، مجزرة الموصل، (د.م)، (د.ت).

٥٢) البراك، فاضل، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٥م.

٥٣) براون، إدوارد، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة: د. إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة، ١٩٥٤م.

٥٤) البزاز، عبدالرحمن، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ط٣، بغداد، ١٩١٧م.

٥٥) البصري، عثمان بن سند، مطالع السعود بأخبار الوالي داود، (د.م)، (د.ت).

٥٦) بطاطو، حنا، العراق، مؤسسة الأبحاث العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٥٧) بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧م.

٥٨) بغداد، محمد مكية، دار الوراق، ٢٠٠٥م.

٥٩) البكجري، علاء الدين مغلطاي بن قلنج الحنفي، مختصر تاريخ الخلفاء، تحقيق: آسيا كليبان علي البارح، دار الفجر، ط١ القاهرة، ٢٠٠١م.

٦٠) البكري، عبدالله عبدالعزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، ط١، القاهرة، ١٩٤٥م.

٦١) بكنغهام، جيمس، رحلتي إلى العراق، ترجمة: سليم التكريتي، المجمع العلمي العراقي بغداد، ١٩٦٩م.



٦٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ.

٦٣) البلنسي، ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، (ت٦٥٨هـ)، الحلة السيراء، المحقق، الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

٦٤) بنو موسى بن شاكر، كتاب الحيل، تحقيق: أحمد يوسف الحسن وآخرون، معهد التراث العلمي، ١٩٨١م.

٦٥) بيير ديفوسل، الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤-١٩١٤م)، ترجمة: أكرم فاضل، ١٩٦٨م.

٦٦) تافرنييه، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي، نقله للعربية، بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٤م.

٦٧) التقرير الارتيادي السنوي الثاني لمجلة البيان.

٦٨) الثعالبي، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور، (ت٤٢٩هـ)، المحقق، د. مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

٦٩) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، (ت٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.

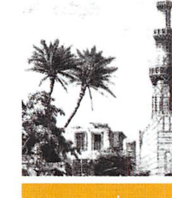
٧٠) الجادرجي، كامل، أوراق كامل الجادرجي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧١م.

٧١) الجبوري، دور الفئات الاجتماعية في التصدي للاحتلال المغولي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠١١م.

٧٢) جمال الدين، محمد السعيد، علاء الدين عطا الملك الجويني، حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد، طبعة ١٩٨٢م.

٧٣) الجميل، سيار، زعماء وأفندية البشوات العثمانيون والنهضويون العرب، الأهلية للنشر، الأردن، ١٩٩٩م.

٧٤) الجهني: د. مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٤، ١٤٢٠هـ.



٧٥) جودي، محمد حسين، العمارة العربية الإسلامية خصوصيتها، ابتكارها، جماليتها، دار المسيرة، ١٩٩٨م

٧٦) الجويني، عطا ملك، (ت٦٨٣هـ)، تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي)، ترجمة: محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٥م.

٧٧) حامد البياتي، سقوط الشيطان، (د.م)، (د.ت).

٧٨) الحديثي، د. خديجة، المدارس النحوية، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٩٠م.

٧٩) حسن، د. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٩م.

٨٠) حسن العلوي، الشيعة والدولة القومية، (د.م)، (د.ت).

٨١) الحسني، سليم، رؤساء العراق من عام ١٩٢٠- ١٩٥٨م.

٨٢) الحسني، عبدالرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث، دار الرافدين، لبنان، ٢٠٠٨م.

٨٣) حسين، جاسم مهاوي، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام وآثاره السياسية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٦م.

٨٤) حسين، حسن عبدالرحمن، أحكام الجهاد عند ابن تيمية، الدار الأثرية، ط١، الأردن، ٢٠٠٧م.

٨٥) الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله، (ت٦٢٦هـ). معجم البلدان، طبعة سنة ١٩٦٥م.

معجم الأدباء، المحقق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

٨٦) حميدي، جعفر عباس، العيارون والشطار والفتوة، مجلة صوت الإسلام، الأعداد الأول والثاني والثالث، بغداد، ١٩٧٧م.

٨٧) الحميري، محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت ١٩٧٥م.

٨٨) الحياني، جاسم، التعليم الصناعي في العراق واقعه- مشكلاته- مطالب نموه، بغداد، ١٩٦٧م.

٨٩) الحيدري، ابن الفصيح، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٩م.

٩٠) الخزنداري، قرطاي العزي، (ت٧٠٨هـ)، تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م.

٩١) خصباك، جعفر حسين، العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٨م.

٩٢) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، (ت٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٣) الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم، ونوادر كلامهم وأشعارهم، (تعليق، كاظم المظفر، النجف، ١٩٦٦م.

٩٤) الخلال: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون، كتاب السنة، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٩٥) خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري، (ت٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، المحقق، د. أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ.

٩٦) خليل، د. إبراهيم، إيران وتركيا، دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الموصل- ١٩٩٢م.

٩٧) خليل، نوري عبدالحميد، العراق في العهد الجلائري، رسالة ماجستير - كلية الآداب جامعة بغداد ١٩٧٦م.

٩٨) الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف، مفاتيح العلوم، دار النهضة العربية.

٩٩) خيون، رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، منشورات الجمل، ٢٠٠٣م.

١٠٠) د. أمين، حسين، المدرسة المستنصرية، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٦٠م.



١٠١) د. أمين، حسين، بغداد حضارة وتاريخ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

١٠٢) دانتسيغ، ب.م، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة: د. معروف خزنة دار، دار المدى، بيروت، ٢٠٠٨م.

١٠٣) الدخيل، سليمان، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، دار الآفاق العربية، مصر، ٢٠٠٣م.

١٠٤) الدرة، محمود الدرة، ثورة الموصل القومية، (د.م)، (د.ت).

١٠٥) الدروبي، إبراهيم، البغداديون أخبارهم ومجالسهم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠١م.

١٠٦) درويش: د.هدى، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمة ١٦٤٨م إلى نهاية القرن العشرين، دار القلم، ط١، دمشق، ٢٠٠٢م.

١٠٧) الدفاعي، أحمد الحاج هاشم، العراق تحت الاحتلال، ٢٠١٠م.

١٠٨) الدوري، عبدالعزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٩٥م.

١٠٩) الدوري، نشوء الأصناف والحِرَف في الإسلام، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، المجلد الأول، ص١٦٠-١٦١.

١١٠) دي فوسيل، بيير، الحياة في العراق في قرن (١١٤- ١٩١٤م)، ترجمة، أكرم فاضل، بغداد، ١٩٦٨م.

١١١) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت٢٨٢هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عبدالمنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٠م.

١١٢) الديوه جي، سعيد، مدارس الموصل في العهد العثماني، الموصل، ١٩٦٤م.

١١٣) الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المحقق: عمر عبدالسلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت).

١١٤) الذهبي: د. محمد السيد حسين، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة.

١١٥) رحالة أوروبيون في العراق، ترجمة: مير مصري.

١١٦) الرواشدي، د. عبدالرحمن، المقاومة الإعلامية، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠١٣م.

١١٧) الرواشدي، د. عبدالرحمن، وأنس المندلاوي وعثمان الأمين ونعمان الجبوري، العرب السنة في العراق، طبعة مجلة البيان، الرياض ٢٠١٣م.

١١٨) الرومي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله، (ت٦٢٦هـ)، الخزل والدأل بين الدور والدارات والديرة، المكتبة الشاملة الإلكترونية.

١١٩) رءوف، د. عماد عبدالسلام، الآثار الخطية في المكتبة القادرية في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٤م.

١٢٠) رءوف، عادل، العمل الإسلامي في العراق بين المرجعية والحزبية، (د.م)، (د.ت).

١٢١) ريج، رحلة ريج في العراق عام ١٢٠م، ترجمة، بهاء الدين نوري، مطبعة السكك الحديدية- بغداد، ١٩٥١م.

١٢٢) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، (تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.م)، (د.ت).

١٢٣) زغروت، فتحي، النوازل الكبرى في التاريخ الإسلامي، دار الأندلس الجديدة، ٢٠٠٩م.

١٢٤) زقزوق، د. محمود حمدي، موسوعة الفرق الإسلامية، (د.م)، (د.ت).

١٢٥) زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام، دار الفكر، ط٢، دمشق، ١٩٨٢م.

١٢٦) زيدان: د. عبدالكريم، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١١م.

١٢٧) السامرائي: د. خليل إبراهيم، صور من النشاط النحوي في بغداد، إصدارات المجمع الفقهي العراقي، مطبعة أنوار دجلة، ط١، ٢٠١٦م.

١٢٨) السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، دار الوراق ودار السلام، ط١، القاهرة ١٩٩٨م.

١٢٩) ستانسفيلد، جاريث، العراق، الشعب والتاريخ والسياسة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ٢٠٠٩م.

١٣٠) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

١٣١) السرجاني، د. راغب، ماذا قدم المسلمون للعالم، مؤسسة اقرأ، ٢٠٠٩م.

١٣٢) السعيد، محمد، علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد، ط١، ١٩٨٢م.

١٣٣) سعيد، عمر أحمد، العامة في بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٥م.

١٣٤) السلامي، محمد بن رافع، (ت٧٧٤هـ)، تاريخ علماء بغداد، مطبعة الأهالي، بغداد ١٩٣٨م.

١٣٥) سليم الحسني، رؤساء العراق ١٩٢٠-١٩٥٨م، دار الحكمة، ط١، لندن، ١٩٩٢م.

١٣٦) الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، (ت٧٩٠هـ)، الاعتصام، تحقيق، سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٣٧) شامي، نظام الدين، (ت٨٠٧هـ)، ظفر نامه، بسعي واهتمام وتصحيح، فلكس تاور جاب مطبعة أمريكاني دار بيروت، ١٩٣٧م.

١٣٨) الشوباشي، محمد مفيد، العرب والحضارة الأوروبية، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٣٩) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٤٠) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق، هلموت ريتز، ط٢، دار النشر فرانز شتايزبفسبادن، ١٩٦١م.

١٤١) صلاح الخراساني، حزب الدعوة، (د.م)، (د.ت).

١٤٢) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله، (ت٣٣٥هـ)، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، المحقق، ج هيورث دن، مطبعة الصاوي، مصر ١٩٣٥م.

١٤٣) الصياد، فؤاد عبدالمعطي.

١٤٤) المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

١٤٥) مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، ط١، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٤٦) ضيف، د. شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، مصر.

١٤٧) الطبري، محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف ١٩٧٩م.

١٤٨) الطنطاوي، الشيخ محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة.

١٤٩) طورون، مصطفى، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة، كمال خوجه، دار السلام، بيروت، ١٩٨٥م.

١٥٠) طوقان، قدري حافظ، العلوم عند العرب، مكتبة مصر ١٩٥٧م.

١٥١) عادل رءوف، عراق بلا قيادة، (د.م)، (د.ت).

١٥٢) العاني، نوري عبدالحميد خليل، المجتمع والسلوك الجمعي للسكان في العراق في عهد القره قوينلو، بحث غير منشور.

١٥٣) العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

١٥٤) عبدالرزاق بن أحمد بن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي نجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٥٥) عبداللطيف، عبدالشافي محمد، السيرة النبوية، (د.م)، (د.ت).

١٥٦) العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد، بغداد، ١٩٣٥م، مج١.

١٥٧) العزاوي، عباس، العراق بين احتلالين، مطبعة التفيض الأهلية، ١٩٣٩م، مج٥.

١٥٨) العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، (ت٨٥٢هـ)، إنباء الغمر، المحقق، د. حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.



١٥٩) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبدالمعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٢، حيدر آباد، ١٩٧٢م.

١٦٠) العش، يوسف، تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢م.

١٦١) العصامي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي، (ت١٠٤٩هـ)، سمط النجوم العوالي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٨م.

١٦٢) علي، محمد كرد، الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجان التأليف والترجمة: والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

١٦٣) علي، علي شاكر، الأوبئة والأمراض في الموصل خلال القرن الخامس عشر الميلادي، بحث مقدم إلى ندوة أطباء الموصل في التاريخ العربي الإسلامي والتي عقدت بتاريخ ٥-٦، آيار/ مايو، ١٩٩٠م.

١٦٤) العماد الأصفهاني، (ت ٥٩٧هـ)، دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات، مصر، ١٩٠٠م.

١٦٥) العمري، محمد طاهر، تاريخ مقدرات العراق السياسية، المكتبة المصرية، بغداد، ١٩٢٥م.

١٦٦) العمري، هادي، بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة، دار المعارف، بغداد، ١٩٥٤م.

١٦٧) العمري، ياسين بن خير الله الخطيب، (ت١٢٣٢هـ)، منية الأدباء في تاريخ الموصل، تحقيق، سعيد الديوه جي، مطبعة الهدف، الموصل، ١٩٥٥م.

١٦٨) العمري، ياسين بن خير الله العمري، (ت١٢٣٢هـ)، غاية المرام في محاسن بغداد، دار السلام، مطبعة دار البصري بغداد ١٩٦٨م.

١٦٩) عنان، محمد عبدالله، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط٥، ١٩٩٧م.

١٧٠) عواد: كوركيس، خزانة الكتب القديمة في العراق، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

١٧١) عيادة، عبدالحميد، الضوء اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع، تحقيق، د. عماد عبدالسلام رءوف، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ٢٠٠٣م.

١٧٢) عيسى، حنان، مشكلات إدارة المدارس الثانوية في بغداد ١٩٧٠م.

١٧٣) الغياثي، عبدالله بن فتح الله البغدادي، التاريخ الغياثي، تحقيق، طارق نافع الحمداني، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٥م.

١٧٤) الفاخري، بدر الدين بكتاش، (ت٧٤٥هـ)، تاريخ الفاخري، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.

١٧٥) الفاخري، بدر الدين بكتاش، تاريخ الفاخري، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.

١٧٦) فرحات، د.هدى، قصة وتاريخ الحضارة العربية بين الأمس واليوم، ١٩٩٩م.

١٧٧) الفرعون، فريق مزهر، الحقائق الناصعة، مؤسسة البلاغ، ط٢ بغداد، ١٩٩٥م.

١٧٨) فريزر، جيمس بيلي فريزر، رحلة فريزر إلى بغداد، ترجمة: جعفر خياط، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٤م.

١٧٩) فكري، الدكتور أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، طبعة دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

١٨٠) فهمي، عبدالسلام، تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٢م.

١٨١) فوزي، د. يوسف، مقال في الملحق الأسبوعي بجريدة المدى العدد ٣٢١٧، ١٧/ ١١/ ٢٠١٤م

١٨٢) فيضي، سليمان، في عمدة النضال، بغداد، ١٩٥٢م.

١٨٣) مذكرات سليمان فيضي، تحقيق، باسل سليمان، مطبعة الأديب- بغداد، ٢٠٠٠م.

١٨٤) الفيل، محمد رشيد، الحالة الاقتصادية لمدينة بغداد أثناء الحكم الإيلخاني، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السادس، ١٩٦٣م.



١٨٥) قداوي، علاء محمود، تاريخ العراق في عهد القره قوينلو والآق قوينلو، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب جامعة الموصل.

١٨٦) القرماني، أخبار الدول، أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي، (توفي سنة ١٠١٩هـ.

١٨٧) القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧٠م.

١٨٨) القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ١٩٦٠م.

١٨٩) القطفي، جمال الدين علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ)، إخبار العلماء بأخيار الحكماء، مصر ١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م.

١٩٠) القطيعي، عبدالمؤمن بن عبدالحق، ابن شمائل، (ت٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

١٩١) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م.

١٩٢) الكركوكلي، الشيخ رسول، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة: كاظم نورس، مطبعة كرم، بيروت.

١٩٣) كلوديوسن جيمس ريج، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠م، ترجمة: بهاء الدين نوري، مطبعة السكك الحديدية، بغداد، ١٩٥١م.

١٩٤) كيلسترنج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة: بشير يوسف، المطبعة العربية، بغداد، ١٩٣٦م.

١٩٥) اللالكائي: أبو القاسم هبة الله بن الحسن، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط٨، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٩٦) لبيب، مصطفى، الكيمياء عند العرب، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٩٧) لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (د.م)، (د.ت).

١٩٨) لونكريك، ستيفن همسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، الطبعة السادسة، مطبعة أركان، بغداد ١٩٨٥م.

١٩٩) ليونز، جوناثان، كيف أسس العرب لحضارة الغرب؟، ترجمة: مازن جندلي، الدار العربية، بيروت، ٢٠١١م.

٢٠٠) ماجد، عبدالمنعم، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٠١) مجلة المورد، العدد الرابع، ١٩٧٩م.

٢٠٢) مجهول، مؤرخ شامي، حوليات دمشقية، تحقيق، حسن حبشي، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢٠٣) محمد، سالم يونس، العراق في السياسة المملوكية، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة الموصل.

٢٠٤) محمد، غازي رجب، العمارة الإسلامية في العصر الإسلامي في العراق، القاهرة، ١٩٨٩م.

٢٠٥) المخزومي، د. مهدي، الدرس النحوي في بغداد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٠٦) مدام ديولافوا، رحلة مداو ديولافوا، ترجمها علي البصري، مصطفى جواد، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٥٨م.

٢٠٧) المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر الخياط، (د.م)، (د.ت).

٢٠٨) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب، طبعة دار الرجاء القاهرة، ١٩٣٨م.

٢٠٩) مسكويه، أحمد بن محمد تجارب الأمم، طبعة التمدن مصر ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.

٢١٠) مصطفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي ٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.



٢١١) المقدسي، محمد بن أحمد، (ت٣٨٧هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبعة ليدن ١٩٠٤م.

٢١٢) المقريزي، (تقي الدين أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ)، الخطط، طبع في مصر، ١٩١٨م.

٢١٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة: والنشر، القاهرة، ١٠٤١م.

٢١٤) إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره: مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة: والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م.

٢١٥) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

٢١٦) المولى، محمد عبدالله أحمد، علاقة العلماء بالخلافة العباسية في العصر العباسي الأخير، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل، عام ٢٠٠٣م.

٢١٧) ميرخواند، محمد حميد الدين بن سيد برهان الدين، (ت٩٠٣هـ)، تاريخ روضة الصفا، طهران، ١٣٣٩هـ.

٢١٨) مينورسكي، مادة أويس، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة: العربية)، م٥، ص١٦٣.

٢١٩) النعماني، محمد رضا، الشهيد الصدر، (د.م)، (د.ت).

٢٢٠) نوار، عبدالعزيز سليمان، تاريخ مصر الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٨م.

٢٢١) نورس، د. علاء، العراق في العهد العثماني، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٩م.

٢٢٢) نوري، موفق سالم، العامة والسلطة في بغداد، دار الكتاب الثقافي، بغداد، (د.ت).

٢٢٣) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة.

٢٢٤) نويصر، حسين، الآثار الإسلامية، مكتبة النهضة. القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٢٥) نيبور، كارستننيبور (ت١٨١٥م)، رحلة نيبور إلى العراق، ترجمة: سعاد هادي، مطبعة المعارف، ١٩٥٤م.

٢٢٦) الهاشمي، رضا جواد، القانون والأحوال الشخصية، سلسلة حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥م، ج٢.

٢٢٧) الهلالي، عبدالرزاق، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني، طبعة ١٩٥٧م.

٢٢٨) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله، (ت٧١٦هـ)، جامع التواريخ، ترجمة: وفؤاد عبدالمعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٢٩) هوار، كليمان، خطط بغداد، ترجمة: ناجي معروف، دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٦م.

٢٣٠) هونكه، زيغرد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٩م. وكذلك ترجمة: فاروق بيضون، دار صادر، ط١٠، بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٣١) الوردي، د. علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، بغداد، ١٩٦٩م.

٢٣٢) طبيعة المجتمع العراقي، دار الحكمة، لندن.

٢٣٣) وِل ديورَانت، ويليام جيمس ديورَانت، (ت١٩٨١م)، قصة الحضارة، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (تونس، ١٩٨٨م.

٢٣٤) ياسين، باقر، تاريخ العنف الدموي في العراق، دار الكنوز، بيروت، ١٩٩٩م.

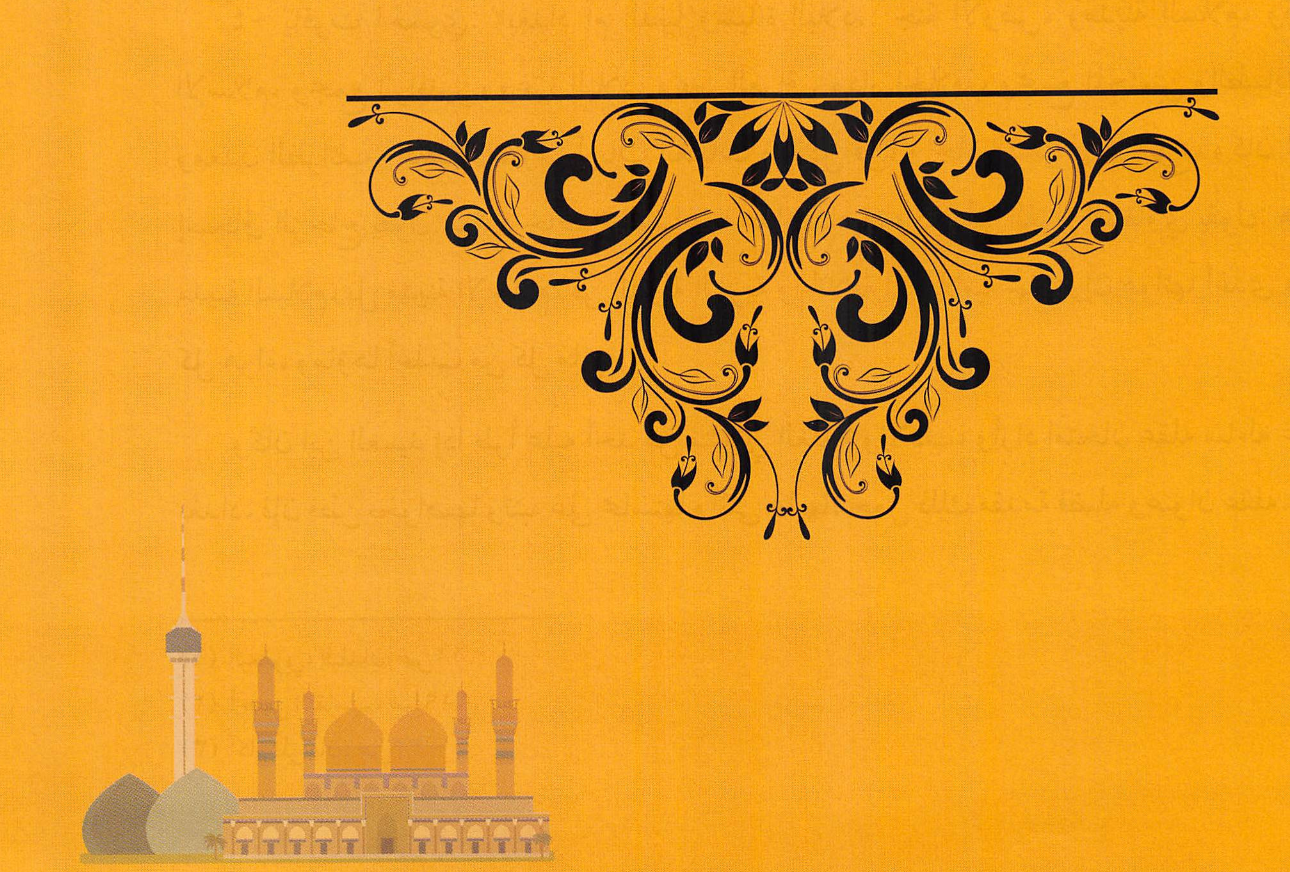
٢٣٥) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، (ت٢٩٢هـ)، البلدان، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧م.

٢٣٦) اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى، (ت٧٢٦هـ)، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٥٤م.



الملاحق







بغداد بأقلام الرحالة المسلمين الأوائل

١- أحمد بن أبي يعقوب الكاتب (اليعقوبي): «إنما ابتدأت بالعراق؛ لأنها وسط الدنيا، وسرة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرًا، وعمارةً وكثرة مياه، وصحة هواء.. وجمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت بها بركات العالم.. فليس أعلم من عالمها، ولا أروى من راويها، ولا أجدل من متكلمها، ولا أعرب من نحويها، ولا أصح من قارئها، ولا أمهر من متطببها»[(١)].

٢- محمد بن أحمد (المقدسي): «بغداد في مصر الإسلام، وبها مدينة السلام، ولهم الخصائص والظرائف والقرائح واللطافة، هواء رقيق، وعلم دقيق، كل جيد بها، وكل حسن فيها، وكل حاذق منها، وكل ظرف لها.. هي أشهر من أن تُوصف، وأحسن من أن تُنْعَت، وأعلى من أن تُمدَح»[(٢)].

٣- الشيخ إسحاق بن حسين المنجم: «بغداد أصل المدائن، وأحسنها بناية، وأطيبها هواء، وهي في وسط الإقليم الرابع، الذي هو أعز الأقاليم، وأهلها أعظم الناس في ضروب اللُّبِّ والفهم»[(٣)].

٤- ياقوت الحموي: «بغداد أم الدنيا وسيدة البلاد.. جنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، وغُرَّة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات من كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية، وكان أبو الفرج الببغاوي يقول: هي مدينة السلام، بل مدينة الإسلام، فنّ الدولة النبوية والخلافة الإسلامية بها.. وإن هوائها أغذى من كل هواء، وماؤها أعذب من كل ماء..

وكان ابن العميد إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلوم والأدب، وأراد امتحان عقله ساءله عن بغداد، فإن فطن بخواصها وتنبه على محاسنها وأثنى عليها؛ جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله.

---

(١) اليعقوبي، البلدان، ص١١.
(٢) أحسن التقاسيم، ص١١٩.
(٣) آكام المرجان، ص٣٣.

ثم سأله عن الجاحظ؛ فإن وجد أثر المطالعة في كتبه، والاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره وبعض القيام بمسائله، قضى له بأنه غُرَّة شادخة في أهل العلم والأدب، وإن وجده ذامًّا لبغداد، غفلاً عما يجب أن يكون موسومًا به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ، لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن.

ولما رجع الصاحب عن بغداد سأله ابن العميد عنها، فقال: «بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد»، فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل..

وقدم عبدالله بن صالح بن علي بن عبدالله بن عباس إلى بغداد فرأى كثرة الناس بها، فقال: «ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلا ظننت أن الناس قد نُودي بهم».

وقال ابن مجاهد المقرئ: «رأيت أبا عمر بن العلاء في النوم فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: «دعني مما فعل الله بي، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات نُقل من جنة إلى جنة».

وعن يونس بن عبدالأعلى قال: «قال لي محمد بن إدريس الشافعي: أبا يونس دخلت بغداد؟ فقلت: لا. فقال: أبا يونس ما رأيت الدنيا ولا الناس».[(١)]

٥- زكريا بن محمد بن محمود القزويني، قال: «بغداد أم الدنيا، وسيدة البلاد، وجنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة السلام.. تُجبى إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم.. فهي مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها.. لم يُعرف موضع أكثر منها أوقافًا ولا أرفه منها سكانًا.. وأما العلماء والزهاد والعباد والأدباء والشعراء والصناع فلا يعلم عددهم إلا الله».[(٢)]

٦- محمد بن عبدالمنعم الحميري، قال: «لو أن الدنيا خربت وخرج أهل بغداد لعمروها.. بغداد وسط العراق، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ولا في مغاربها سعةً وجلالاً وكبرًا وعمارةً»[(٣)].

٧- وقيل لرجل: كيف رأيت بغداد؟ قال: «الأرض كلها بادية، وبغداد حاضرتها»[(٤)].

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ج١ ص٤٦١.
(٢) آثار البلاد، ص٣١٥.
(٣) الروض المعطار، ص١١٠.
(٤) ابن الفقيه، البلدان، ص٢٩٢.



٨- وقال أبو بكر بن عياش: «الإسلام ببغداد، وإنها لصيَّادةٌ تصيد الرجال، ومَن لم يَرَها لم يرَ الدنيا»[١].

٩- وقال الشافعي -رحمه الله-: «ما دخلت بلدًا قطّ إلا عددته سفرًا إلا بغداد، فإنّي حيث دخلتها عددتها وطنًا»[٢].

١٠- وكان الحسن بن عرفة يقول: «مَن لم يوثقه أهل بغداد فقد سقط، هم جهابذة العلم».

١١- وقال أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي، وهو يتحدث عن مناقب بغداد التي أفردها الله بها شرقًا وغربًا- يصفها، ويذكر أخلاق أهلها وسجاياهم، وكرمهم، وكثرة علمائها: «.. وَبَيْنَ ذلك من الأخلاق الكريمة، والسّجايا المرضيّة، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمِثة، والأحوال الجميلة، والحذق في كلِّ صنعة، والجمع لكلِّ حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين، والفقهاء والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحسّاب والنحوية، ومجيدي الأشعار، ورواة الأخبار والأنساب، وفنون الآداب، وحضور كلِّ طرفة، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها..

ثم عيون التجار المجهزين، والسلاطين المعظمين، وأهل البيوتات المبجَّلين في ناحية تنبعث الخيرات بهم إلى الذين هم في الحال دونهم غير منقطع ذلك ولا مفقود، فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها إلا هو وحده.

ثمّ هي مع ذلك منصورةٌ محبورة، كلّما ظن عدوُّ الإسلام أنه فائز باستئصال أهلها كبته الله وكبّه لِمَنْخَرَيه، واستؤصلت قدرته بما ليس في تقدير الخلق أجمعين، فضلاً من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم».

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨ص٨٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠ص١٠٩.

جدول رقم (٧)

تعداد عام رسمي لسكان العراق وبغداد من ١٩٢٠ لغاية ١٩٩٧م

سنة التعداد	نفوس العراق- نسمة	نفوس بغداد- نسمة	النسبة المئوية
١٩٢٠	٢٨٤٩٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠	٪٨,٧٨
١٩٢٧	٢٩٦٨٠٥٤	٢٥٠,٠٠٠	٪٨,٤٢
١٩٣٤	٣٢١٣١٧٤	٢٨٧,٠٠٠	٪٨,٩٣
١٩٤٧	٤٨١٦١٨٥	٣٥٢,٠٠٠	٪٧,٣١
١٩٥٧	٦٥٣٦١٠٩	٤٩٠,٤٩٦	٪٧,٥٠
١٩٦٥	٨٢٦١٥٢٧	١,٥٢٣,٣٠٢	٪١٨,٤٤
١٩٧٧	١٢٠٠٠٤٩٧	٢,٨٨٨,٠٠٠	٪٢٤,٠٧
١٩٨٧	١٦٣٣٥١٩٩	٣,٨٤١,٢٦٨	٪٢٣,٥٣
١٩٩٧	١٩١٨٤٥٤٣ (ما عدا سكان إقليم كردستان)	٤,٤٧٨,٠٠٠	٪٢٣,٣٤
١٩٩٧	٢٢٠٤٦٢٤٤ (جميع المحافظات- تعداد دولي)	٥,٤٢٣,٩٦٤	٪٢٤,٦٠

جدول رقم (٨)

إحصائية دولية لسكان العراق لعام ١٩٩٧م التي أجرتها المنظمة الإنسانية الدولية (Humanitarian Coordinator for Iraq) التي وضعت أصلاً لتوجيه العمل الإنساني في العراق في ظل الحصار، والعدد الكلي (٢٢٠٤٦٢٤٤ نسمة)

ت	المحافظة	عدد السكان (نسمة)	النسبة المئوية
	أربيل	١٠٩٥٩٩٢	٪٤,٩٧
	الأنبار	١٠٢٣٧٣٦	٪٤,٦٤
	بابل	١١٨١٧٥١	٪٥,٣٦
	البصرة	١٥٦٦٤٤٥	٪٧,١١
	بغداد	٥٤٢٣٩٦٤	٪٢٤,٦٠
	التأميم	٧٥٣١٧١	٪٣,٤٢
	دهوك	٤٠٢٩٧٠	٪١,٨٣
	ديالى	١١٣٥٢٢٣	٪٥,١٥
	ذي قار	١١٨٤٧٩٦	٪٥,٣٧
	السليمانية	١٣٦٢٧٣٩	٪٦,١٨
	صلاح الدين	٩٠٤٤٣٢	٪٤,١٠
	القادسية	٧٥١٣٣١	٪٣,٤١
	كربلاء	٥٩٤٢٣٥	٪٢,٧٠
	المثنى	٤٣٦٨٢٥	٪١,٩٨
	ميسان	٦٣٧١٢٦	٪٢,٨٩
	النجف	٧٧٥٤٢	٪٠,٣٥
	نينوى	٢٠٤٢٨٥٢	٪٩,٢٧
	واسط	٧٨٣٦١٤	٪٣,٥٥

جدول رقم (٩)

تعداد سكان بغداد من عام ١٨٠٠ إلى عام ٢٠١٠م

السنة	سكان بغداد - نسمة
١٨٠٠	٨٠,٠٠٠
١٨٦٠	١٠٥,٠٠٠
١٨٧٠	١٠٠,٠٠٠
١٨٨٠	٦٠,٠٠٠
١٨٨٥	١٨٠,٠٠٠
١٨٩٠	١٤٥,٠٠٠
١٩٠٠	١٤٥,٠٠٠
١٩١٠	٢٢٥,٠٠٠
١٩٢٠	٢٥٠,٠٠٠
١٩٣٠	٢٥٠,٠٠٠
١٩٣٤	٢٨٧,٠٠٠
١٩٤٧	٣٥٢,٠٠٠
١٩٥٧	٤٩٠,٤٩٦
١٩٦٥	١,٥٢٣,٣٠٢
١٩٧٧	٢,٨٨٨,٠٠٠
١٩٨١	٣,٣٠٠,٠٠٠
١٩٨٧	٣,٨٤١,٢٦٨
١٩٩٧	٤,٤٧٨,٠٠٠
٢٠٠٨	٥,٢٥٨,٠٠٠
٢٠١٠	٥,٤٠٢,٠٠٠

جدول رقم (١٠)

التوزيع السكاني في بغداد بحسب المجموعات الدينية لعام ١٩٢٠م

(أجرته سلطات الانتداب البريطاني)، وهو الوحيد الذي اعتمد ذكر المذهب للمسلمين

المجموعة	عدد النسمات	النسبة المئوية
المسلمون السُّنة	١٣٠٠٠٠	٪٥٢
الشيعة	٥٤٠٠٠	٪٢١,٦
اليهود	٥٠٠٠٠	٪٢٠
النصارى	١٥٠٠٠	٪٦
ديانات أخرى	١٠٠٠	٪٠,٤
المجموع	٢٥٠٠٠٠	٪١٠٠

جدول رقم (١١)

التوزيع السكاني لبغداد بحسب المناطق لعامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٩م.

المنطقة	عدد السكان عام ٢٠٠٣م (بحسب الأمم المتحدة)	عدد السكان عام ٢٠٠٩م (بحسب وزارة التخطيط)
الكرخ	١،٥٤١،٥٠٠	١،٣٠٩،٤٨٨
الرصافة	١،٢٥٢،٠٠٠	١،٤٨٦،٤٩٩
مدينة الصدر (الثورة)	٩٣٦،٨٠٠	٥٨٢،٠٦٧ (الأولى)
		٤١٣،٦٨٣ (الثانية)
الأعظمية	٨٠٨،٥٠٠	٩٨٩،٠٠٠
الكاظمية	٧٢٨،٥٠٠	٧٤٠،٦٨٤
المحمودية	٣٥٠،١٠٠	٤٠٥،٨٣٨
أبو غريب	٢٨٩،٤٠٠	٢٦٩،١٧١

المدائن	١١٧،٥٠٠	١٢١،٩٤٠
الطارمية		٣٨٣،٨٦٨
المجموع	٦،٠٢٤،٣٠٠	٦،٧٠٢،٥٣٨



جدول رقم (١٢)

التقسيم الإداري للعاصمة بغداد عام ٢٠١٥م

المساحة	٤,٥٥٥ كيلو متر مربع
الحدود الدولية	لا توجد
الحدود الإدارية	صلاح الدين - الأنبار - بابل - واسط - ديالى
التقسيم الإداري	
القضاء	النواحي
١. قضاء الرصافة	مركز قضاء الرصافة.
	ناحية بغداد الجديدة.
	ناحية الكرادة.
	ناحية شارع فلسطين.
٢. قضاء الكرخ	مركز قضاء الكرخ.
	ناحية المنصور.
	ناحية المأمون.
٣. قضاء الكاظمية	مركز قضاء الكاظمية.
	ناحية ذات السلاسل.
٤. قضاء الأعظمية	مركز قضاء الأعظمية.
	ناحية الفحامة
	ناحية الراشدية
	ناحية الاستقلال
	ناحية الزهور

٥.	قضاء الصدر (١)	ناحية الفرات.
		ناحية الصديق الأكبر.
٦.	قضاء الصدر (٢)	ناحية المنورة.
		ناحية أبناء الرافدين.
٧.	قضاء المدائن	مركز قضاء المدائن.
		ناحية الوحدة.
		ناحية الجسر.
		ناحية النهروان.
٨.	قضاء أبي غريب	مركز قضاء أبي غريب.
		ناحية النصر والسلام.
		ناحية عكركوف.
٩.	قضاء المحمودية	ناحية الرشيد.
		ناحية اليوسيفية.
		ناحية اللطيفية.
١٠.	قضاء التاجي	ناحية سبع البور.
		ناحية التاجي.
		ناحية الحماميات.
١١.	قضاء الطارمية	ناحية المشاهدة.
		ناحية العبايجي.

خارطة رقم (٤)

الخارطة الإدارية لأقضية مدينة بغداد





جامع أم الطبول



الفهرست







العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	٦
تمهيد : ولادة بغداد	١٤
الفصل الأول : التاريخ السياسي والعسكري لمدينة بغداد	٣٢
المميزات العسكرية والسياسية للخلافة العباسية في بغداد	٣٧
بغداد في عهد الاحتلال المغولي	٤٨
الاحتلال الجلائري لبغداد	٥٥
احتلال قبائل القره قوينلو	٥٩
احتلال الآق قوينلو لبغداد	٦١
احتلال التحالف الصفوي لبغداد	٦٤
الحكم العثماني لبغداد	٦٨
محطات من تاريخ بغداد المعاصر	٧٦
بغداد وثورة العشرين	٧٩
بغداد في العهد الملكي	٨٣
بغداد في زمن الحكم الجمهوري	٨٥
الفصل الثاني : الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبغداد	٩٢
المجتمع البغدادي	٩٤
التقسيم الفئوي في المجتمع البغدادي	٩٤
التاريخ الاجتماعي لمدينة بغداد	١٠٠

تأثيرات العامل الاجتماعي	١١٨
قراءة مجملة للتحديات الاجتماعية في العهد العثماني	١٢٦
بغداد والعهد الملكي	١٣٣
المجتمع البغدادي في العهد الجمهوري	١٤٠
مجمل الحياة الاجتماعية لمدينة بغداد	١٤٣
الناحية الاقتصادية لمدينة بغداد	١٤٦
الناحية العمرانية	١٧٧
الفصل الثالث : الحياة العلمية والفكرية في بغداد	١٨٨
المؤسسات العلمية والتعليمية البغدادية	١٩٨
المساجد والجوامع	٢٠٠
دور العلم وبيوته	٢٧٣
المكتبات وخزائن الكتب	٢٧٦
المدارس البغدادية	٢٨٢
الخانات (الفنادق) لطلاب العلم	٢٩٢
المراصد الفلكية	٢٩٢
المستشفيات (كليات للطب والصيدلة)	٢٩٢
العلماء والمدارس العلمية في بغداد	٣٠٤
أولاً: العلوم الشرعية وعلماؤها	٣٠٥
١ - المدارس العقدية في بغداد	٣٠٥



٢ – مدرسة بغداد في التفسير	٣١٠
٣ – مدرسة الحديث في بغداد	٣١٣
٤ – المذاهب الفقهية في بغداد	٣١٤
٥ – مدرسة بغداد النحوية	٣١٧
ثانياً: العلوم الطبيعية والتطبيقية وعلماؤها	٣١٩
١ – الفلك	٣٢٠
٢ – الرياضيات	٣٢٣
٣ – الكيمياء	٣٢٤
٤ – الفيزياء	٣٢٦
٥ – الحيل أو الهندسة الحركية	٣٢٨
الفصل الرابع : بغداد بعد عام ٢٠٠٣	٣٣٤
بغداد والعمليات العسكرية	٣٣٨
بغداد والطائفية الأمنية	٣٤١
بغداد والطائفية السياسية	٣٤٤
تدمير دولة لا نظام سياسي	٣٤٥
المجتمع البغدادي بعد ٢٠٠٣	٣٥٦
أولاً: بيان الأغلبية السكانية لأهل السنة في بغداد	٣٥٦
التغيير الديموغرافي لمدينة بغداد	٣٥٩
ثانياً: عقدة المظلومية الشيعية	٣٦٤

بغداد والطائفية الدينية	٣٦٧
مصادرة الأوقاف السنية واغتصابها بعد ٢٠٠٣	٣٧٣
الدور الديني لأهل السنة في بغداد	٣٧٩
الحالة الاقتصادية	٣٨٠
أولاً: الفساد المالي للحكومات في بغداد	٣٨٠
ثانياً: معركة المصارف	٣٨٢
المصادر	٣٨٨
الملاحق	٤٠٨
الفهرست	٤٢٢